وَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّ الجَزَعَ لا يُفيدُ، بَلْ يَفْضَحُ صَاحِبَهُ. إِلىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأَشْيَاءِ الّتِي يَقْدَحُهَا العَقْلُ والفِكْرُ؛ فَلَيْسَ فِي طَرِيْقِ الصَّبْرِ نَفَقَةٌ سِوَاهَا؛ فَيَنْبَغِي للصَّابِرِ أَنْ يَشْغَلَ بِهَا نَفْسَهُ، ويَقْطَعَ بِهَا سَاعَاتِ ابْتِلائِهِ؛ وَقَدْ صَبَّحَ المَنْزِلَ.

١٠٥ - فصل: المدعو مالك حكيم

٥٠١ ـ يَنْبَغِي لِمَنْ وَقَعَ فِي شِدَّةٍ، ثُمّ دَعَا أَنْ لا يَخْتَلِجَ في قَلْبِهِ أَمْرٌ مِنْ تَأْخِيْرِ الإِجابَةِ أو عَدَمِهَا؛ لِأَنَّ الّذِي عليْهِ[1] أَنْ يَدْعُوَ، والمَدْعُوُّ مَالِكٌ حَكِيْمٌ؛ فَإِنْ لَمْ يُجِبْ؛ فَعَلَ مَا يَشَاءُ فِي مُلْكِهِ، وَإِنْ أَخَّرَ؛ فَعَلَ بِمُقْتَضىٰ حِكْمَتِهِ؛ فَالمُعْتَرِضُ عَلَيْهِ في سِرِّهِ خَارِجٌ عَنْ صِفَةِ عَبْدٍ، مُزَاحِمٌ [لمرتبَتِهِ][2]، مُسْتَحِقٌّ [لعقوبته].

٥٠٢ ـ ثُمَّ لْيَعْلَمْ أَنَّ اخْتِيَارَ الله ﷻ لَهُ خَيْرٌ مِن اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ. فَرُبَّمَا سَأَلَ سَيْلًا سَالَ بِهِ! وَفِي الحَدِيْثِ: «أَنَّ رجُلًا كَانَ يَسْأَلُ اللهَ ﷻ أنْ يَرْزُقَهُ الجِهَادَ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: إِنَّكَ إِنْ غَزَوْتَ؛ أُسِرْتَ، وَإِنْ أُسِرْتَ؛ تَنَصَّرْتَ».

فَإِذَا سَلَّمَ العَبْدُ تَحْكِيْمًا لِحِكْمَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَأَيْقَنَ أَنَّ الكُلَّ مُلْكَهُ؛ طَابَ قَلْبُه؛ قُضِيَتْ حاجتُه، أوْ لم تُقْضَ.

٥٠٣ ـ وَفِي الحَدِيْثِ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا اللهَ تَعَالىٰ إِلَّا أَجَابَهُ: فَإِمَّا أَنْ يُعَجِّلَها، وَإِمَّا أَنْ يُؤَخِّرَها، وَإِمّا أَنْ يَدَّخِرَها لَهُ فِي الآخِرَةِ**»[3]. فَإِذَا رَأَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ مَا أُجِيْبَ فِيْهِ قَدْ ذَهَبَ، وَمَا لَمْ يُجَبْ فِيْهِ قَدْ بَقِيَ ثَوَابُه؛ قَالَ: لَيْتَكَ لَمْ تُجِبْ لِي دَعْوَةً قَطُّ. فَافْهَمْ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ! وَسَلِّمْ قَلْبَكَ مِنْ أَنْ يَخْتَلِجَ فِيْهِ رَيْبٌ أَوِ اسْتِعْجَالٌ.

١٠٦ - فصل: رتبة العلماء على الزهاد

٥٠٤ ـ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ رُتْبَةَ العُلَمَاءِ عَلَىٰ الزُّهَّادِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي رُتْبَةِ جِبْرِيْلَ

---

(١) في الأصل: إليه، وهو تصحيف.

(٢) في حاشية الأصل: في الأحمدية: لمرتبة مستحق، قلت: وفي المصرية والهندية: بمرتبته مستحق.

(٣) رواه أحمد (٣/١٨)، وأبو نُعيم (٦/٣١١)، والحاكم (١/٤٩٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، إلا أن الشيخين لم يخرّجا عن علي بن علي الرفاعي ووافقه الذهبي.

وَمِيْكَائِيْلَ، وَمَنْ خُصَّ مِنَ المَلائِكَةِ بِوِلَايَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالخَلْقِ: وَبَاقِي المَلَائِكَةِ قِيَامٌ لِلتَّعَبُّدِ، فِيْ مَرَاتِبِ الرُّهْبَانِ فِي الصَّوَامِعِ. وَقَدْ حَظِيَ أُولٰئِكَ بِالتَّقْرِيْبِ عَلىٰ مَقَادِيْرِ عِلْمِهِمْ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

فَإِذَا مَرَّ أَحَدُهُمْ بِالوَحْيِ؛ انْزَعَجَ أَهْلُ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ يُخْبِرَهُم بِالخَبَرِ، فـ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ كَمَا إِذَا انْزَعَجَ الزَّاهِدُ مِنْ حَدِيْثٍ يَسْمَعُهُ؛ سَأَلَ العُلَمَاءَ عَنْ صِحَّتِهِ وَمَعْنَاهُ. فَسُبْحَانَ مَنْ خَصَّ فَرِيْقًا بِخَصَائِصَ شَرُفُوا بِهَا عَلَى جِنْسِهِم!

٥٠٥ ـوَلا خَصِيْصَةَ أَشْرَفُ مِنَ العِلْمِ؛ بِزِيَادَتِهِ صَارَ آدَمُ مُسْجُوْدًا لَهُ، وَبِنُقْصَانِهِ صَارَتِ المَلائِكَةُ سَاجِدَةً؛ فَأَقْرَبُ الخَلْقِ مِن اللهِ العُلَمَاءُ.

٥٠٦ ـوَلَيْسَ العِلْمُ بِمُجَرَّدِ صُوْرَتِهِ هُوَ النَّافِعُ، بَلْ مَعْنَاهُ: وَإِنَّمَا يَنَالُ مَعَناهُ مَنْ تَعَلَّمَهُ لِلْعَمَلِ بِهِ؛ فَكُلَّمَا دَلَّهُ عَلىٰ فَضْلٍ؛ اجْتَهَدَ فِي نَيْلِهِ، وَكُلَّمَا نَهَاهُ عَنْ نَقْصٍ؛ بَالَغَ فِي مُبَاعَدَتِهِ [1]؛ فَحِيْنَئِذٍ يَكْشِفُ العِلْمُ لَهُ سِرَّه، وَيسَهِّلُ عَلَيْهِ طَرِيْقَهُ، فَيَصِيْرُ كَمُجْتَذِبٍ يَحُثُّ الجَاذِبَ؛ فَإِذَا حَرَّكَهُ؛ عَجَّلَ فِي سَيْرِهِ.

وَالَّذِي لا يَعْمَلُ بالعلم [2]؛ لا يُطْلِعُهُ العِلْمُ عَلىٰ غَوْرِهِ، ولا يَكْشِفُ لَهُ عَنْ سِرِّهِ، فَيَكُوْنُ كَمَجْذوبٍ لِجَاذِبٍ جَاذَبَهُ. فَافْهَمْ هٰذا المَثَلَ، وَحَسِّنْ قَصْدَكَ، وَإِلَّا؛ فَلا تَتْعَبْ.

١٠٧ - فصل: أصلح الأمور الاعتدال في كل شيءٍ

٥٠٧ ـاعْلَمْ أَنَّ أَصْلَحَ الأُمُوْرِ الاعْتِدَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَإِذَا رَأَيْنَا أَرْبَابَ الدُّنيا قَدْ غَلَبَتْ آمَالُهُمْ، وَفَسَدَتْ فِي الخَيْرِ أَعْمَالُهُمْ؛ أَمَرْنَاهُمْ بِذِكْرِ المَوْتِ والقُبُوْرِ وَالآخِرَةِ.

٥٠٨ ـفَأَمّا إِذَا كَانَ العَالِمُ لا يَغِيْبُ عَنْ ذِكْرِهِ المَوْتُ، وَأَحَادِيْثُ الآخِرةِ تُقْرَأُ عَلَيْهِ، وَتَجْرِي على لِسَانِهِ؛ فَتَذْكارُهُ المَوْتَ ـ زِيَادَةً عَلىٰ ذٰلِكَ ـ لا يُفِيْدُ إِلَّا انْقِطَاعَهُ بِالمَرَّةِ.

---

(١) في الأصل: في مساعدته، وهو تصحيف. (٢) في الأصل: بالعمل، وهو تصحيف.

بَلْ يَنْبَغِي لِهٰذَا العَالِمِ الشَّدِيْدِ الخَوْفِ مِن اللهِ تَعَالَىٰ، الكَثِيْرِ الذِّكْرِ لِلْآخِرَةِ، أَنْ يُشاغِلَ نَفْسَه عَنْ ذِكْرِ المَوْتِ؛ لِيَمْتَدَّ نَفَسُ أَمَلِهِ قَلِيْلًا، فَيُصَنِّفَ، وَيَعْمَلَ أَعْمَالَ خَيْرٍ، وَيَقْدِرَ عَلىٰ طَلَبِ وَلَدٍ؛ فَأَمَّا إِذَا لَهَجَ بِذِكْرِ المَوْتِ؛ كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ. أَلَمْ تَسْمَعْ **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَابَقَ عَائِشَةَ رضي الله عنها فَسَبَقَتْهُ، وَسَابَقَها فسَبَقَهَا، وَكَانَ يَمْزَحُ وَيُشَاغِلُ نَفْسَهُ؟** فَإِنَّ مُطَالَعَةَ الحَقَائِقِ عَلىٰ التَّحْقِيقِ تُفْسِدُ البَدَنَ، وتُزْعِجُ النَّفْسَ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: أَنَّهُ سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الخَوْفِ، فَفَتَحَ عَلَيْهِ، فَخَافَ عَلىٰ عَقْلِهِ، فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يَرُدَّ ذٰلِكَ عَنْهُ. فَتَأَمَّلْ هٰذَا الأَصْلَ؛ فَإِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ مُغَالَطَةِ النَّفْسِ[1]، وَفِي ذٰلِكَ صَلَاحُهَا. واللهُ المُوَفِّقُ، والسَّلامُ.

١٠٨ - فصل: الفكر يدل على أشرف المقامات

٥٠٩ ـ مَنْ أَعْمَلَ فِكْرَهُ الصَّافِي دَلَّهُ عَلىٰ طَلَبِ أَشْرَفِ المَقَامَاتِ، وَنَهَاهُ عَنِ الرِّضا بالنَّقْصِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَقَدْ قَالَ **أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي**[2]:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوْبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلىٰ التَّمَامِ

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَىٰ غَايَةِ مَا يُمْكِنُهُ: فَلَوْ كَانَ يُتَصَوَّرُ لِلآدَمِيِّ صُعُوْدُ السَّمَاواتِ؛ لَرَأَيْتُ مِنْ أَقْبَحِ النَّقَائِصِ رِضَاهُ بِالأَرْضِ، وَلَوْ كانَتِ النُّبُوَّةُ تَحْصُلُ بالاجْتِهَادِ؛ رَأَيْتُ المُقَصِّرَ فِي تَحْصِيْلِهَا فِي حَضِيْضٍ؛ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ ذٰلِكَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ المُمْكِنَ.

وَالسِّيْرَةُ الجَمِيْلَةُ عِنْدَ الحُكَمَاءِ: خُرُوْجُ النَّفْسِ إِلَىٰ غَايَةِ كَمَالِهَا المُمْكِنِ لَهَا فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ.

٥١٠ ـ وَأَنَا أَشْرَحُ مِنْ ذٰلِكَ مَا يَدُلُّ مَذْكُوْرُهُ عَلىٰ مُغْفَلِهِ[3]: أَمَّا فِي البَدَنِ؛ فَلَيْسَتِ الصُّوْرَةُ دَاخِلَةً تَحْتَ كَسْبِ الآدَمِيِّ، بَلْ يَدْخُلُ تَحْتَ كَسْبِهِ تَحْسِينُهَا وَتَزْيِينُهَا؛

---

(١) انظر: الفصل (١٧١).
(٢) ديوانه ص(٤٧٦).
(٣) **مذكوره على مغفله**: أي: منطوقه على مفهومه، أو ما يدل الكلام على لازمه.

فَقَبِيْحٌ بِالعَاقِلِ إِهْمَالُ نَفْسِهِ. وَقَدْ نَبَّهَ الشَّرْعُ عَلىٰ الكُلِّ بِالبَعْضِ؛ **فَأَمَرَ بِقَصِّ الأَظْفَارِ، وَنَتْفِ الإِبطِ، وَحَلْقِ العَانِةِ، ونَهَى عَنْ أَكْلِ الثُّوْمِ والبَصَلِ النِّيءِ**؛ لِأَجْلِ الرَّائِحَةِ. وينبغي له أن يقيسَ على ذٰلك ويَطْلُبَ غايةَ النظافةِ ونهايةَ الزِّينةِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرَفُ مَجِيئُهُ بِرِيْحِ الطِّيْبِ[1]، فكانَ الغايةَ في النّظَافَةِ والنَّزاهَةِ. وَلَسْتُ آمُرُ بِزِيَادَةِ التنظُّف[2]، الّذِي يَسْتَعْمِلُهُ المُوَسْوَسُ، وَلٰكِنَّ التَّوَسُّطَ هُوَ المَحْمُوْدُ.

٥١١ ـ ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْفُقَ بِبَدَنِهِ، الّذِي هُوَ رَاحِلَتُهُ، وَلا يَنْقُصَ مِنْ قُوتِهَا، فَتَنْقُصَ قُوَّتُها، وَلَسْتُ آمُرُ بِالشِّبَعِ الّذِي يُوْجِبُ الجُشاء[3]، إِنَّما آمُرُ بِالتَّوَسُّطِ؛ فَإِنَّ قُوىٰ الآدَمِيِّ كَعَيْنٍ جَارِيَةٍ؛ كَمْ فِيْهَا مِنْ مَنْفَعَةٍ لِصَاحِبِهَا وَلِغَيْرِهِ ويعين صانعًا[4]، وَلا يُلْتَفَتُ إِلَىٰ قَوْلِ المُوَسْوَسِينَ مِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ، الّذِيْنَ جَدُّوا في التقَلُّلِ، فَضَعُفُوا عَنِ الفَرَائِضِ، وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِنَ الشَّرْعِ، ولا نُقِلَ عَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ ولا أَصْحَابِهِ، إِنَّما كانَ الرَّسُوْلُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِذا لَمْ يَجِدوا؛ جَاعُوْا، وَرُبَّمَا آثَرُوْا فَصَبَرُوْا ضَرُوْرَةً.

٥١٢ ـ وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ لِهٰذِهِ الرَّاحِلَةِ في عَلَفِها؛ فَرُبَّ لُقْمَةٍ مَنَعَتْ لُقُمَاتٍ؛ فلا يُعْطِيْهَا ما يُؤْذِيْهَا، بل يَنْظُرُ لَهَا في الأَصْلَحِ، ولا يَلْتَفِتُ[5] إِلىٰ مُتَزَهِّدٍ يَقُوْلُ: لا أُبلِّغُها الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّ النَّظَرَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ فِي حِلِّ المَطْعَمِ، وَأَخْذِ ما يَصْلُحُ بِمِقْدَارٍ.

٥١٣ ـ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَلا أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم مَا أَحْدَثَهُ المُوَسْوَسُوْنَ فِي تَرْكِ المُشْتَهَيَاتِ على الإِطْلاقِ، إِنَّمَا نُقِلَ عَنْهُم تَرْكُهَا لِسَبَبٍ: إِمَّا لِلنَّظَرِ في حِلِّها، أَوْ لِلْخَوْفِ مِنْ مُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فِيْ كُلِّ وَقْتٍ، وَيَجُوْزُ ذٰلِكَ.

٥١٤ ـ وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي التِّجَارَةِ والكَسْبِ؛ لِيَفْضُلَ علىٰ غَيْرِهِ، ولا يَفْضُلَ غَيرُهُ عليهِ، ولِيَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غايةً لا تَمْنَعُهُ عَنِ العِلْمِ.

٥١٥ ـ ثُمّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَ الغَايَةَ فِي العِلْمِ، وَمِنْ أَقْبَحِ النَّقْصِ التَّقْلِيْدُ؛ فَإِنْ

---

(١) رواه ابن سعد (١/ ١٩٣) عن أنس.
(٢) في الأصل: التقشف.
(٣) **الجشاء**: صوت مع ريح يخرج من الفم عند امتلاء المعدة.
(٤) كذا في الأصل.
(٥) في الأصل: يتلفت، وهو تصحيف.

قَوِيَتْ هِمَّتُهُ؛ رَقَّتْهُ إِلىٰ أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ مَذْهَبًا، ولا يَتَمَذْهَبَ لِأَحدٍ؛ فَإِنَّ المُقَلِّدَ أَعْمَىٰ، يَقُوْدُهُ مُقَلَّدُهُ.

ثُمّ يَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ الغَايَةَ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمُعَامَلَتِهِ.

وَفي الجُمْلَةِ؛ لا يَتْرُكُ فَضِيْلَةً يُمْكِنُ تَحْصِيلُها إِلَّا حصَّلَها؛ فَإِنَّ القُنُوْعَ حَالَةُ الأَرْذَالِ.

فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الثَّرَى ... وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي الثُّرَيَّا

وَلَوْ أَمْكَنَكَ عُبُوْرُ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ العُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ فَافْعَلْ فَإِنَّهُمْ كَانُوْا رِجَالًا وَأَنْتَ رَجُلٌ، وَمَا قَعَدَ مَنْ قَعَدَ إِلَّا لِدَنَاءَةِ الهِمَّةِ وخَسَاسَتِها.

٥١٦ - وَاعْلَمْ أَنَّكَ فِيْ مِيْدانِ سِبَاقٍ، وَالأَوْقَاتُ تُنْتَهَبُ، وَلا تَخْلُدْ إِلى كَسَلٍ؛ فَمَا فَاتَ مَنْ فاتَ إِلَّا بِالكَسَلِ، وَلا نَالَ مَنْ نَالَ إِلَّا بِالجِدِّ والعَزْمِ، وَإِنَّ الهِمَّةَ لَتَغْلِي فِي القُلُوْبِ غَلَيانَ ما فِي القُدُوْرِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ مَنْ سَلَفَ:

لَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى كَرَمِي ... فَبِهِ أَحْيَا مِنَ العَدَمِ[1]
قَنِعَتْ نَفْسِي بِمَا رُزِقَتْ ... وَتَمَطَّتْ فِي العُلا هِمَمِي

١٠٩ - فصل: ما أكمل العلم والمال في المؤمن

٥١٧ - لَيْسَ في الدُّنيا أَنْفَعُ لِلعُلَمَاءِ مِنْ جَمْعِ المَالِ للاسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ إِذا ضُمَّ إِلىٰ العِلْمِ؛ حِيزَ الكَمَالُ.

٥١٨ - وَإِنَّ جَمْهُوْرَ العُلَمَاءِ شَغَلَهُمْ العِلْمُ عَنِ الكَسْبِ، فاحْتَاجُوْا إِلىٰ مَا لَابُدَّ مِنْهُ، وَقَلَّ الصَّبْرُ، فَدَخَلوا مَدَاخِلَ شَانَتْهُمْ، وَإِنْ تَأَوَّلوا فِيْهَا؛ إِلَّا أَنَّ غَيْرَها كانَ أَحْسَنَ لَهُمْ! فَالزُّهْرِيُّ[2] مَعَ عَبْدِ المَلِكِ[3]، وَأَبُوْ عُبَيْدَ[4] مَعَ طاهرِ بْنِ الحُسَيْنِ[5]، وابْنُ أَبِي

---

(١) في الأصل: ليس لي مال سوى كرى * فبه أمنى من العدم.
(٢) محمد بن مسلم بن شهاب (١٥٠ ـ ١٢٤هـ) هو الإمام العلم حافظ عصره.
(٣) عبد الملك بن مروان، فحل بني أمية والخليفة وأبو الخلفاء (٢٦ ـ ٨٦هـ).
(٤) القاسم بن سلّام الهروي (١٥٧ ـ ٢٢٤هـ) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، مصنفاته في غاية الجودة. وقد جاء في الأصل: أبو عبيدة، وهو خطأ.
(٥) مقدم جيش المأمون والقائم على نصرته (١٧٠ ـ ٢١٧هـ).

الدُّنْيا[1] مُؤدِّبُ المُعْتَضِدِ[2]، وابنُ قُتيبة صَدَّرَ كتابَهُ بِمَدْحِ الوَزِيْرِ [ابن خاقان][3].

٥١٩ - وَمَا زَال خَلَفٌ مِنَ العُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ يَعِيْشُوْنَ في ظِلِّ جَمَاعَةٍ مِنَ المَعْرُوْفِينَ بِالظُّلْمِ، وهٰؤلاءِ وَإِنْ كانُوْا سَلَكُوْا طَرِيْقًا مِنَ التأْوِيلِ؛ فَإِنَّهُم فَقَدُوْا مِنْ قُلُوْبِهِم وَكَمَالِ دِيْنِهِم أَكْثَرَ مِما نَالُوْا مِنَ الدُّنيا.

٥٢٠ - وَقَدْ رَأَيْنَا جَمَاعَةً مِنَ المُتَصَوِّفَةِ والعُلَمَاءِ يَغْشَوْنَ الوُلاةَ لِأَجْلِ نَيْلِ ما فِي أَيْدِيْهِم؛ **فَمِنْهُم**: مَنْ يُدَاهِنُ وَيُرَائِي، **وَمِنْهُمْ**: مَن يَمْدَحُ بِمَا لا يَجُوْزُ، **وَمِنْهُمْ**: مَنْ يَسْكُتُ عَنْ مُنْكَرَاتٍ. إِلىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ المُدَاهَنَاتِ، وَسَبَبُها الفَقْرُ، فعَلِمْنا أَنَّ كَمَالَ العِزِّ، وبُعْدَ الرِّياءِ، إِنَّمَا يَكُوْنُ فِي البُعْدِ عَنِ العُمَّالِ الظَّلَمَةِ.

٥٢١ - وَلَمْ نَرَ مَنْ صَحَّ لَهُ هٰذا إِلَّا فِي أَحَدِ رَجُلَيْنِ:

إِمّا **مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ**: كَسَعِيْدِ بْنِ المُسَيَّبِ؛ كَانَ يَتَّجِرُ في الزَّيْتِ وَغَيْرِهِ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ؛ كَانَتْ لَهُ بَضَائِعُ، وَابْنِ المُبَارَكِ[4].

وَإِمّا **مَنْ كانَ شَدِيْدَ الصَّبْرِ**، قَنُوْعًا بِمَا رُزِق، وَإِنْ لَمْ يَكْفِهِ؛ كَبِشْرٍ الحَافِي، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل. وَمَتَى لَمْ يَجِدِ الإِنْسَانُ كَصَبْرِ هٰذَيْنِ، ولا كَمَالَ أُولٰئِكَ؛ فَالظَّاهِرُ تَقَلُّبُه في المِحَنِ والآفَاتِ، وَرُبَّمَا تَلِفَ دِيْنُهُ.

٥٢٢ - فَعَلَيْكَ - يا طَالِبَ العِلْمِ - بالاجْتِهَادِ فِي جمْعِ المَالِ لِلْغِنَىٰ عَنِ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ لَكَ دِيْنَكَ! فَمَا رَأَيْنَا فِي الأَغْلَبِ مُنَافِقًا فِي التَّدَيُّنِ وَالتَّزَهُّدِ والتَّخَشُّعِ وَلا آفةً طَرَأَتْ عَلىٰ عَالِمٍ؛ إِلَّا بِحُبِّ الدُّنيا، وَغَالِبُ ذٰلِكَ الفَقْرُ. فَإِنْ كَانَ من لَهُ مَالٌ يكفيهِ، ثم يَطْلُبُ بتلك المخالطةِ الزيادةَ؛ فذٰلك مَعْدُوْدٌ فِي أَهْلِ الشَّرَهِ، خَارِجٌ عَنْ حَيِّزِ العُلَمَاءِ، نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ تِلْكَ الأَحْوَالِ.

---

(١) عبد الله بن محمد البغدادي القرشي صاحب التصانيف (٢٠٨ - ٢٨١هـ)، وكان مؤدبًا لغير واحد من أبناء الخلفاء.

(٢) أحمد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم الخليفة العباسي (٢٤٢ - ٢٨٩هـ).

(٣) الكتاب هو (أدب الكاتب)، والوزير هو أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان (٢٠٩ - ٢٦٣هـ). والزيادة للتوضيح.

(٤) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي المروزي، أبو عبد الرحمٰن (١١٨ - ١٨١هـ)، الحافظ شيخ الإسلام المجاهد الزاهد العابد الإمام.

١١٠ - فصل: الفقه أفضل العلوم

٥٢٣ - أَعْظَمُ دَلِيْلٍ عَلىٰ فَضِيْلَةِ الشَّيْءِ النَّظَرُ إِلى ثَمَرَتِهِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ ثَمَرَةَ الفِقْهِ؛ عَلِمَ أَنَّه أَفْضَلُ العُلُوْمِ. فَإِنَّ أَرْبَابَ المَذَاهِبِ فَاقُوْا بِالْفِقهِ الخَلائِقَ أَبْدًا، وَإِنْ كانَ فِي زَمَنِ أَحَدِهِمْ مَنْ هُو أَعْلَمُ مِنْهُ بِالقُرْآنِ أَوْ بِالحَدِيْثِ أَوْ بِاللُّغَةِ.

وَاعْتَبِرْ هٰذَا بِأَهْلِ زَمانِنا؛ فَإِنَّكَ تَرَىٰ الشَّابَّ يَعْرِفُ مَسَائِلَ الخِلَافِ الظَّاهِرَةَ، فَيَسْتَغْنِي، وَيَعْرِفُ مِنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الحَوَادِثِ مَا لا يَعْرِفُهُ النِّحْرِيْرُ[1] مِنْ باقِي العُلَمَاءِ!

٥٢٤ - وَكَمْ رَأَيْنا مُبَرِّزًا فِي عِلْمِ القُرْآنِ، أَوْ في الحَدِيْثِ، أَوْ فِي التَّفْسِيْرِ، أو فِي اللُّغَةِ لا يَعْرِفُ - مع الشَّيْخُوْخَةِ - مُعْظَمَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَرُبَّمَا جَهِلَ عِلْمَ ما يَنْوِيْهِ في صَلَاتِهِ!

٥٢٥ - عَلىٰ أَنَّه يَنْبَغِي لِلْفَقِيْهِ أَلَّا يَكُوْنَ أَجْنبِيًّا عَنْ باقِي العُلُوْمِ؛ فَإِنَّه لا يكُوْنُ فَقِيْهًا، بَلْ يأخُذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِحَظٍّ، ثُمَّ يَتَوَفَّرُ عَلىٰ الفِقْهِ؛ فَإِنَّه عِزُّ الدُّنيا وَالآخِرةِ.

١١١ - فصل: على العاقل أن يحذر الهوى

٥٢٦ - رَأَيْتُ كَثِيْرًا مِنَ النَّاسِ يَتَحَرَّزُوْنَ مِنْ رَشَاشِ نَجَاسَةٍ، وَلا يَتَحَاشُوْنَ مِن غيبةٍ! وَيُكْثِرُوْنَ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَلا يُبَالُوْنَ بِمُعَامَلاتِ الرِّبا! وَيَتهَجَّدُوْن بِاللَّيْلِ، ويُؤَخِّرُوْنَ الفرِيْضَةَ عَنِ الوَقْتِ فِيْ أَشْيَاءَ يَطُوْلُ عَدَدُهَا؛ مِنْ حِفْظِ فُرُوْعٍ، وتَضْيِيْعِ أُصُوْلٍ. فَبَحَثْتُ عَنْ سَبَبِ ذٰلِكَ؟ فَوَجَدْتُه مِنْ شيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: **العادة**. والثاني: **غَلَبَة الهَوَىٰ في تَحْصِيْلِ المَطْلُوْبِ**؛ فَإِنّه قَدْ يَغْلِبُ؛ فَلا يَتْرُكُ سَمْعًا وَلا بَصَرًا.

٥٢٧ - وَمِنْ هٰذا القَبِيْلِ: أَنَّ إِخْوَةَ يوسُفَ قالوا - حِيْنَ سَمِعُوْا صَوْتَ المُنادِي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] -: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، فَجَاءَ فِي التَّفْسِيْرِ: أَنَّهُمْ لَمَّا دَخَلُوا مِصْرَ؛ كَمَّمُوْا[2] أَفْوَاهَ

---

(١) **النحرير**: الحاذق الماهر.

(٢) في الأصل: كموا.

إِبِلِهم؛ لِئَلَّا تَتَنَاوَلَ مَا لَيْسَ لَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوْا: قَدْ رَأَيْتُم مَا صَنَعْنا بإِبِلنا؛ فَكَيْفَ نَسْرِقُ؟! وَنَسُوْا هُمْ تَفَاوُتَ مَا بَيْنَ الوَرَعِ واخْتِطَافِ أَكْلَةٍ لا يَمْلِكُوْنَهَا، وَبَيْنَ إِلْقَاءِ يُوْسُفَ عليه السلام فِي الجُبِّ[1] وَبَيعِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ!!

٥٢٨ - وَفِي النَّاسِ مَنْ يُطِيْعُ في صِغَارِ الأُمُوْرِ، دُوْنَ كِبَارِهَا، وَفِيْمَا كُلْفَتُهُ عَلَيْهِ خَفِيْفَةٌ أَوْ مُعْتَادَةٌ، وَفِيْمَا لا يُنْقِصُ شَيْئًا مِنْ عَادتِهِ في مَطْعَمٍ ومَلْبَسٍ. نَرَى **أَقْوَامًا** يَأْخُذُوْنَ الرِّبا، وَيَقُوْلُ أَحَدُهُمْ: كَيْفَ يَرَانِي عَدُوِّي بَعْدَ أَنْ بِعْتُ دَارِي، أَوْ تَغَيَّرَ مَلْبُوْسِي وَمَرْكُوْبِي؟!.

٥٢٩ - وَنَرَىٰ **أَقْوَامًا** يُوَسْوَسُوْنَ فِي الطَّهَارَةِ، وَيَسْتَعْمِلُوْنَ الكَثِيْرَ [مِنَ المَاءِ]، ولا يَتَحَاشَوْنَ مِنْ غِيبةٍ! **وَأَقْوامًا** يَسْتَعْمِلُوْنَ التَّأْوِيْلاتِ الفَاسِدَةَ فِي تَحْصِيْلِ أَغْرَاضِهِم؛ مَعَ عِلْمِهِم أَنَّهَا لا تَجُوْزُ!

حَتَّى إِنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ وَالتَعَبُّدِ، أَعْطَاهُ رَجُلٌ مَالًا لِيَبْنِيَ بِهِ مَسْجِدًا، فَأَخَذَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَنْفَقَ عِوَضَ الصَّحِيْحِ قُرَاضَةً[2]، فَلَمَّا احْتُضِرَ؛ قَالَ لذٰلِكَ الرَّجُلِ: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ؛ فَإِنِّي فَعَلتُ كذا وكذا!! **وَنَرَىٰ** أَقْوَامًا يَتْرُكونَ الذُّنوبَ لِبُعْدِهِم عَنْهَا؛ فَقَدْ أَلِفُوْا التَّرْكَ، وَإِذَا قَرُبُوْا مِنْهَا؛ لَمْ يَتَمَالَكُوْا. وفي النَّاسِ مِنْ هٰذِهِ الفُنُوْنِ عَجَائِبُ يَطُوْلُ ذِكْرُهَا.

٥٣٠ - وَقَدْ عَلِمْنا أَنَّ خَلْقًا مِنْ عُلَمَاءِ اليَهُودِ كَانُوْا يَحْمِلُوْنَ ثِقَلَ التَّعَبُّدِ في دِيْنِهِم، فَلَمَّا جاءَ الإِسْلامُ، وَعَرَفوا صِحَّتَه؛ لَمْ يُطِيْقُوا مُقَاوَمَةَ أَهْوَائِهِم في مَحْوِ رِئاسَتِهِم[3].

وَكذٰلِكَ **قَيْصَرُ**؛ فَإِنَّهُ عَرَفَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ بالدَّلِيلِ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ عَلىٰ مُقَاوَمَةِ هَوَاهُ وتَرْكِ مُلْكِهِ[4].

فَاللهَ اللهَ فِي تَضْيِيْعِ الأُصُوْلِ، وَمِنْ إِهْمَالِ سَرْحِ الهَوَىٰ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أُهمِلَتْ ماشيتُهُ؛

---

(١) **الجب**: البئر.

(٢) **القراضة**: الدنانير أو الدراهم المكسورة، وقيمتها أقل من الصحيحة.

(٣) انظر الآية (٨٩) من سورة البقرة.

(٤) انظر حديثه في البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم.

نَفَشَتْ[1] فِي زُرُوْعِ التُّقَى.

٥٣١ ـ وَمَا مَثَلُ الهَوَى إِلَّا كَسَبُعٍ في عُنُقِهِ سِلْسِلَةٌ؛ فَإِنِ اسْتَوْثَقَ مِنْهُ ضَابِطُهُ؛ كَفَّهُ، وَرُبَّمَا لاحَتْ لَهُ شَهَوَاتُهُ الغَالِبَةُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تُقَاوِمْهَا السِّلْسِلَةُ، فأفْلَتَ. عَلىٰ أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُفُّ هَوَاهُ بِسِلْسِلَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يكُفُّهُ بِخَيْطٍ! فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْذَرَ شَيَاطِيْنَ الهَوَى، وَأَنْ يَكُوْنَ بَصِيْرًا بِمَا يُقْوَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَبِمَنْ يَقْوَىٰ عَلَيْهِ.

١١٢ - فصل: آفة الصداقة الحسد

٥٣٢ ـ مِنْ أَعْظَمِ الغَلَطِ: الثِّقَةُ بِالنَّاسِ، وَالاسْتِرْسَالُ إِلىٰ الأَصْدِقَاءِ؛ فَإِنَّ أَشَدَّ الأَعْدَاءِ وَأَكْثَرَهُمْ أَذًى الصَّدِيْقُ المُنْقَلِبُ عَدُوًّا؛ لأَنَّه قَدِ اطَّلَعَ عَلىٰ خَفِيِّ السِّرِّ. قَالَ الشَّاعِرُ[2]:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... واحْذَرْ صَدِيْقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيْـ ... ـقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالمَضَرَّهْ

٥٣٣ ـ واعْلَمْ أَنَّ مِنَ الأَمْرِ المَوْضُوْعِ فِي النُّفُوْسِ الحَسَدَ عَلَىٰ النِّعَمِ، أو الغِبْطَةَ[3]، وحُبَّ الرِّفْعَةِ! فَإِذا رَآكَ مَنْ يَعْتَقِدُكَ مِثْلًا لهُ؛ وَقَدِ ارْتَقَيْتَ عَلَيْهِ؛ فلا بُدَّ أَنْ يَتَأَثَّرَ، وَرُبَّمَا حَسَدَ؛ فَإِنَّ إِخْوَةَ يُوْسُفَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ مِنْ هٰذا الجِنْسِ، جَرَى لَهُم ما شَانَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَبْقَى الإِنْسَانُ بِلا صَدِيْقٍ؟!

قُلْتُ لَكَ: أَتُرَاكَ مَا تَعْلَمُ أَنَّ المُجَانِسَ يَحْسُدُ، وَأَنَّ أَكْثَرَ العَوَامِّ يَعْتَقِدُوْنَ في العَالِمِ أَنَّه لا يَتَبَسَّمُ، ولا يَتَنَاوَلُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنيا شَيْئًا، فَإِذَا رَأَوْا بَعْضَ انْبِسَاطِهِ في المُبَاحِ؛ هَبَطَ مِنْ أَعْيُنِهِم؟! فَإِذَا كانَتْ هٰذِهِ حَالَةَ العَوَامِّ، وَتِلْكَ حَالَةُ الخَوَاصِّ؛ فَمَعَ مَنْ تَكُوْنُ المُعَاشَرَةُ؟!

لا؛ بَلْ واللهِ ما تَصِحُّ المُعَاشَرَةُ مَعَ النَّفْسِ؛ لأَنَّها مُتَلَوِّنَةٌ.

---

(١) **نفشت**: رعت ورتعت.

(٢) هو علي بن عيسى انظر محاضرات الراغب (٣/ ٣٤).

(٣) **الغبطة**: أن تتمنى لنفسك مثل ما لأخيك من نعمة دون أن تتمنى زوالها عنه.

٥٣٤ ـ وَلَيْسَ إِلَّا المُدَارَاةَ لِلْخَلْقِ، وَالاحْتِرَازَ مِنْهُم، وَاتِّخَاذَ المَعَارِفِ مِنْ غَيْرِ طَمَعٍ فِي صَدِيْقٍ صَادِقٍ. فَإِنْ نَدَرَ؛ فَلْيَكُنْ غَيْرَ مُمَاثِلٍ؛ لأَنَّ الحَسَدَ إِلَيْهِ أَسْبَقُ، وَلْيَكُنْ مُرْتَفِعًا عَنْ رُتْبَةِ العَوَامِّ، غَيْرَ طَامِعٍ فِيْ نَيْلِ مَقَامِكَ.

٥٣٥ ـ وَإِن كَانَتْ مُعَاشَرَةُ هٰذا لا تَشْفِي؛ لِأَنَّ المُعَاشَرَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ بَيْنَ العُلَمَاءِ لِلمُجَانِسِ، فَلَزِمَهم مِنَ الإِشَارَاتِ في المُخَالَطَةِ ما تَطِيْبُ بِهِ المُجَالَسَةُ، وَلٰكِنْ لا سَبِيْلَ إِلَى الوِصَالِ.

٥٣٦ ـ وَمِثْلُ هٰذِهِ الحَالِ أَنَّك إِنِ اسْتَخْدَمْتَ الأَذْكِيَاءَ، عَرَفوا باطِنَكَ، وإِنِ اسْتَخْدَمْتَ البُلْهَ؛ انْعَكَسَتْ مقاصِدُكَ. فَاجْعَلِ الأَذْكِيَاءَ لِحَوائِجِكَ الخَارِجَةِ. والبُلْهَ لِحَوائِجكَ فِيْ مَنْزِلكَ؛ لِئَلاَّ يَعْلَمُوْا أَسْرَارَكَ، وَاقْنَعْ مِنَ الأَصْدِقَاءِ بِمَنْ وَصَفْتُهُ لَكَ، ثُمَّ لا تَلْقَهُ إِلَّا مُتَدَرِّعًا دِرْعَ الحَذَرِ، ولا تُطْلِعْهُ علىٰ بَاطِنٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَرَ عَنْهُ، وَكُنْ كَمَا يُقال عَنِ الذِّئْبِ:

يَـنَـامُ بِـإِحْـدَىٰ مُـقْـلَـتَـيْـهِ وَيَـتَّـقِـي ... بِأُخْرَىٰ الأَعَادِي، فَهْوَ يَقْظَانُ هاجِعُ

١١٣ - فصل: من أحسن فيما مضى يحسن فيما بقي

٥٣٧ ـ رَأَيْتُ جماعةً مِمَّنْ أَفْنَى أَوَائِلَ عُمُرِهِ وَرَيْعَانَ شَبَابِهِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، يَصْبِرُ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الأَذَىٰ، وَهَجْرِ فُنُوْنِ الرَّاحَاتِ؛ أَنَفَةً مِنَ الجَهْلِ وَرَذِيْلَتِهِ، وَطَلَبًا لِلْعِلْمِ وَفَضِيْلَتِهِ، فَلَمَّا نَالَ مِنْهُ طَرَفًا رَفَعَهُ عَنْ مَرَاتِبِ أَرْبَابِ الدُّنيا، ومَنْ لا عِلْمَ لَهُ إِلَّا بِالعَاجِلِ؛ ضَاقَ بِهِ مَعَاشُهُ، [أَوْ قَلَّ مَا يَنْشُدُه لِنَفْسِهِ مِنْ حُظُوْظِ]، فَسَافَرَ [في] البِلَادِ؛ يَطْلُبُ مِنَ الأَرَاذِلِ، وَيَتَوَاضَعُ لِلسَّفَلَةِ وَأَهْلِ الدَّنَاءَةِ والمُكَّاسِ[1] وغيرِهِم!

٥٣٨ ـ فَخَاطَبْتُ بَعْضَهم، وَقُلْتُ: وَيْحَكَ! أَيْنَ تِلْكَ الأَنَفَةُ مِنَ الجَهْلِ، الّتي سَهِرْتَ لِأَجْلِها، وَأَظْمَأتَ نَهَارَكَ بِسَبَبِهَا؟! فَلَمَّا ارْتَفَعْتَ وَانْتَفَعْتَ؛ عُدْتَ إِلَىٰ أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ! أَفَمَا بَقِيَ عِنْدَكَ ذَرَّةٌ مِنَ الأَنَفَةِ تَنْبُوْ بِهَا عَنْ مَقَامَاتِ الأَرَاذِلِ؟! وَلَا مَعَكَ يَسِيْرٌ مِنَ العِلْمِ يَسِيْرُ بِكَ عَنْ مَنَاخِ الهَوَىٰ؟! ولا حَصَّلْتَ بِالعِلْمِ قُوَّةً تَجْذِبُ بِهَا زِمَامَ النَّفْسِ

(١) **المكاس**: العشار أو الجابي، وذلك لكثرة سلبهم لأموال الناس دون وجه حق.

عَنْ مَرَاعِي السَّوْءِ؟! عَلَىٰ أَنَّه يَبِيْنُ لِي أنَّ سَهَرَكَ وَتَعَبَكَ كَأَنَّهُما كانا [1]لِنَيْلِ الدُّنيا؟

٥٣٩ ـ ثم إني أراك تزعمُ أنك تريدُ شيئًا من الدُّنيا تستعينُ به على طَلَبِ العِلم!

فَاعْلَمْ أَنَّ الْتِفَاتَكَ إِلَىٰ نَوْعِ كَسْبٍ تَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الأَرَاذِلِ أَفْضَلُ من التَّزَيُّدِ في عِلْمِكَ؛ فَلَوْ عَرَفْتَ مَا يَنْقُصُ بِهِ [دِيْنُكَ]؛ لَمْ تَرَ فِيْمَا قَدْ عَزَمْتَ عَلَيْهِ زِيَادَةً، ممَّا يَحْتَوِي عَلَيْهِ هذَا العزمُ: السَّفَرُ الّذي كُلُّهُ مُخَاطَرَةٌ بِالنَّفْسِ، وَبَذْلُ الوَجْهِ ـ الَّذِي طَالَمَا صِيْنَ ـ لِمَنْ لا يَصْلُحُ الْتِفَاتُ مِثْلِكَ إِلَىٰ مِثْلِهِ.

٥٤٠ ـ وَبَعِيْدٌ أَنْ تَقْنَعَ بَعْدَ شُرُوْعِكَ في هٰذا الأَمْرِ بِقَدْرِ الكَفَافِ، وَقَدْ عَلِمْتَ ما فِي السُّؤَالِ بَعْدَ الكَفَافِ مِنَ الإِثْمِ! وَأَبْعَدُ مِنْهُ أَنْ تَقْدِرَ علَىٰ الوَرَعِ في المَأْخُوْذِ! ومَنْ لَكَ بِالسَّلامَةِ والرُّجُوْعِ إِلَىٰ الوَطَنِ؟! وَكَمْ رَمَىٰ فَقْرٌ فِي بَوَادِيْهِ مِنْ هَالِكٍ [2]! ثُمَّ ما تُحَصِّلُهُ يَفْنَىٰ، وَيَبْقَىٰ مِنْهُ مَا أُعْطِيَ، وَعَيْبُ المُتَّقِيْنَ إِيَّاكَ، وَاقْتِدَاءُ الجَاهِلِيْنَ بِكَ، وَيَكْفِيْكَ أَنَّكَ عُدْتَ علىٰ مَا عَلِمْتَ مِنْ ذَمِّ الدُّنيا بِشَيْنِهِ؛ إِذْ فَعَلْتَ ما يُنَاقِضُهُ، خُصُوْصًا وَقَدْ مَرَّ أَكْثَرُ العُمُرِ، وَمَنْ أحْسَنَ فيما مَضَىٰ يُحْسِنُ فِيْمَا بَقِيَ.

١١٤ - فصل: الشره في تحصيل الأشياء يفوّت مقصودها

٥٤١ ـ رَأَيْتُ الشَّرِهَ فِيْ تَحْصِيْلِ الأَشْيَاءِ يُفَوِّتُ [على] الشَّرِهِ مَقْصُوْدَهُ، وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ كَانَ شَرِهًا فِيْ جَمْعِ المَالِ، فَحَصَلَ لَهُ الكَثِيْرُ مِنْهُ، وَهُوَ [مَعَ ذٰلِكَ] حَرِيْصٌ علىٰ الازْدِيَادِ، وَلَوْ فَهِمَ؛ عَلِمَ أَنَّ المُرَادَ مِنَ المَالِ إِنْفَاقُه فِي العُمُرِ؛ فَإِذَا أَنْفَقَ العُمُرَ فِي تَحْصِيْلِهِ؛ فَاتَ المُقْصُوْدَانِ جَمِيْعًا!

وَكَمْ رَأَينا مِمَّنْ جَمَعَ المَالَ، وَلَمْ يَتَمَتَّعْ بِهِ، فَأَبْقَاهُ لِغَيْرِهِ، وَأَفْنَىٰ نَفْسَهُ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

كَـدُودَةِ الـقَـزِّ مَـا تَـبْـنِـيـهِ يَـهْـدِمُـهَـا ... وَغَـيْـرُهَـا بِـالَّـذِي تَـبْـنِـيْـهِ يَـنْـتَـفِـعُ

---

(١) في الأصل: كأنه كان.

(٢) في حاشية الأصل: في الهندية: فقر من فئادٍ به من هالك.

٥٤٢ ـ وَكَذٰلِكَ رَأَيْنا خَلْقًا كَثِيْرًا يَحْرِصُوْنَ عَلىٰ جَمْعِ الكُتُبِ، فَيُنْفِقون أَعْمارَهُمْ في كِتَابَتِهَا.

وَكَدَأْبِ أَهْلِ الحَدِيْثِ؛ يُنْفِقُوْنَ الأَعْمَارَ في النَّسْخِ وَالسَّمَاعِ إِلى آخِرِ العُمُرِ، ثُمَّ يَنْقَسِمُوْنَ: **فَمِنْهُمْ** مَنْ يَتَشَاغَلُ بِالحَدِيْثِ وَعِلْمِهِ وَتَصْحِيْحِهِ، وَلَعَلَّهُ لا يَفْهَمُ جَوَابَ حَادِثَةٍ، وَلَعَلَّ عِنْدَهُ لِحَدِيْثِ «**أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ**»[١] مِئةُ طَرِيْقٍ، وَقَدْ حُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ أَنَّهُ سَمِعَ «جُزْءَ ابن عرفة»[٢] عَنْ مِئةِ شَيْخٍ، وَكَانَ عِنْدَهُ سَبْعُوْنَ نُسْخَةً. **وَمِنْهُم** مَنْ يَجْمَعُ الكُتُبَ ويَسْمَعُها، وَلا يَدْرِي مَا فِيْهَا؛ لا مِنْ حَيْثُ صِحَّتِها، وَلا مِنْ فَهْمِ مَعْنَاهَا، فَتَرَاهُ يَقُوْلُ: الكِتَابُ الفُلانِيُّ سَمَاعِي، وَعِنْدِي [منه][٣] نُسْخَةٌ، وَالكِتَابُ الفَلانِيُّ، وَالفُلانِيُّ... فلا يَعْرِفُ عِلْمَ ما عِنْدَهُ مِنْ حَيْثُ فَهْمِ صَحِيْحِهِ مِنْ سَقِيْمِهِ، وَقَدْ صَدَّهُ اشْتِغَالُهُ بِذٰلِكَ عَنِ المُهِمِّ مِنَ العِلْمِ! فَهُمْ كَمَا قالَ **الحُطَيْئَةُ**[٤]:

زَوَامِلُ لِلأَخْبَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهَا ... بِمُثْقَلِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الأَبَاعِرِ[٥]
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي البَعِيْرُ إِذَا غَدَا ... بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ: مَا فِي الغَرَائِرِ[٦]

ثُمَّ تَرَىٰ مِنْهُم مَنْ يَتَصَدَّرُ، [بِإِتْقَانِهِ لِلرِّوَايَةِ وَحْدَهَا][٧]، فَيَمُدُّ يَدَهُ إِلَىٰ مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ؛ فَإِنْ أَفْتَىٰ أَخْطَأَ، وَإِنْ تَكَلَّمَ في الأُصُوْلِ خَلَّطَ!

وَلَوْلَا أَنِّي لا أُحِبُّ ذِكْرَ النَّاسِ؛ لَذَكَرْتُ مِنْ أَخْبَارِ كِبَارِ عُلَمَائِهِم، وَمَا خَلَّطُوا مَا يُعْتَبَرُ بِهِ، وَلٰكِنَّهُ لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ المُحَقِّقِ حَالُهُمْ.

٥٤٣ ـ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ فِي الحَدِيْثِ: «**مَنْهُوْمَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ**

---

(١) رواه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٢٥١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ابن عرفة: أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد الجرجاني الحناطي المعلم، بقي إلى حدود (٤٢٠هـ).
(٣) الأصل: به.
(٤) جرول بن أوس بن مالك العبسي، شاعر مخضرم هجاء لم يكد يسلم من لسانه أحد، توفي سنة (٤٥هـ) تقريبًا. **قلت**: والبيتان لمروان بن أبي حفصة كما في (اللسان): (زمل) وفيه: زوامل للأشعار.
(٥) الزوامل: جمع زاملة، وهي البعير و(مثقلها) حملها، وفي اللسان (بجيدها) و(الأباعر) جمع بعير.
(٦) الوسق: الحمل، والغرائر: جمع غرارة، وهي كيس كبير من الصوف أو الشعر توضع فيه الحبوب، وهو أكبر من الجوالق.
(٧) في الأصل: ويفتقر الزمان إلى تصدُّره للرواية.

obeikandl.com

وَطَالِبُ دُنْيَا»[1]؟!

قُلْتُ: أَمّا العَالِمُ؛ فَلَا أَقُوْلُ لَهُ: اشْبَعْ مِنَ العِلْمِ، ولا ٱقْتَصِرْ عَلىٰ بَعْضِهِ، بَلْ أَقُوْلُ لَهُ: قَدِّمِ المُهِمَّ؛ فَإِنَّ العَاقِلَ مَنْ قَدَّرَ عُمُرَهُ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لا سَبِيْلَ إِلىٰ العِلْمِ بِمِقْدَارِ العُمُرِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَبْنِي عَلى الأَغْلَبِ؛ فَإِنْ وَصَلَ؛ فَقَدْ أَعدَّ لِكُلِّ مَرْحَلَةٍ زَادًا، وَإِنْ مَاتَ قَبْلَ الوُصُوْلِ؛ فَنِيَّتُهُ تَسْلُكُ به[2].

٥٤٤ ـ فَإِذَا عَلِمَ العَاقِلُ أَنَّ العُمُرَ قَصِيْرٌ، وَأَنَّ العِلْمَ كَثِيْرٌ، فَقَبِيْحٌ بِالعَاقِلِ الطَّالِبِ لِكَمَالِ الفَضَائِلِ أَنْ يَتَشَاغَلَ مَثَلًا بِسَمَاعِ الحَدِيْثِ وَنَسْخِهِ؛ لِيُحَصِّلَ كُلَّ طَرِيْقٍ، وَكُلَّ رِوَايةٍ، وَكُلَّ غَرِيْبٍ، وهٰذَا لا يَفْرَغُ مِنْ مَقْصُوْدِهِ مِنْهُ فِي خَمْسِيْنَ سَنَةً؛ خُصُوْصًا إِنْ تَشَاغَلَ بِالنَّسْخِ، ثُمَّ لا يَحْفَظُ القُرْآنَ، أَوْ يَتَشَاغَلُ بِعُلُوْمِ القُرْآنِ، ولا يَعْرِفُ الحَدِيْثَ، أَوْ بِالخِلافِ فِي الفِقْهِ، ولا يَعْرِفُ النَّقْلَ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ المَسْأَلَةِ.

٥٤٥ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: فَدَبِّرْ لِي مَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ. **فَأَقُوْلُ**: ذُوْ الهِمَّةِ لا يَخْفَىٰ مِنْ زَمَانِ الصِّبا؛ كَمَا قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ[3]: قَالَ لِيْ أَبِي، وَقَدْ بَلَغْتُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً: إِنَّه قَدِ انْقَضَتْ عَنْكَ شَرائِعُ الصِّبا؛ فَاتْبَعِ الخَيْرَ؛ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ. فَجَعَلْتُ وَصِيَّةَ أَبِي قِبْلَةً أَمِيْلُ إِلَيْهَا، ولا أَمِيْلُ عَنْهَا.

٥٤٦ ـ ثُمَّ قَبْلَ شُرُوْعِي فِي الجَوَابِ أَقُوْلُ: يَنْبَغِي لِمَنْ لَهُ أَنَفَةٌ أَنْ يَأْنَفَ مِنَ

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٩٢) عن أنس، قال الحاكم: هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي

(٢) في حاشية الأصل: فحسبه تلك، قلت في الأحمدية والمصرية: فنيته تسلك به.

(٣) أبو محمد، الهلالي الكوفي، ثم المكي حافظ العصر، شيخ الإسلام، ولد بالكوفة سنة (١٠٧هـ)، وجاور بمكة، وصار محدث الحرم، توفي بمكة سنة (١٩٨هـ) وله خبر طريف ذكره في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٩): سمعت أحمد بن النضر الهلالي، سمعت أبي يقول: كنت في مجلس سفيان بن عيينة، فنظر إلى صبي، فكأن أهل المسجد تهاونوا به لصغره، فقال سفيان: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] ثم قال: يا نضر! لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار، كالزهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالسمسار، محبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا أتيتُ، قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير، ثم ضحك.

التَّقْصِيْرِ، المُمْكِنِ دَفْعُهُ عَنِ النَّفْسِ؛ فَلَوْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ مَثَلًا تَأْتِي بِكَسْبٍ؛ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَقْنَعَ بِالوِلَايَةِ، أَوْ تَصَوَّرَ أَنْ يَكُوْنَ مَثَلًا خَلِيْفَةً؛ لَمْ يَحْسُنْ بِهِ أَنْ يَقْتَنِعَ بِإِمَارَةٍ، وَلَوْ صَحَّ لَهُ أَنْ يَكُوْنَ مَلَكًا؛ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُوْنَ بَشَرًا، وَالمَقْصُوْدُ أَنْ يَنْتَهِيَ بِالنَّفْسِ إِلَىٰ كَمَالِهَا ٱلْمُمْكِنِ لَهَا فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ.

٥٤٧ - وَقَدْ عُلِمَ قِصَرُ العُمُرِ، وَكَثْرَةُ العِلْمِ: فَيَبْتَدِئُ **بِالقُرْآنِ وَحِفْظِهِ**، وَيَنْظُرُ فِي **تَفْسِيْرِهِ** نَظَرًا مُتَوَسِّطًا، لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ صَحَّ لَهُ قِرَاءَةُ القِرَاءَاتِ السَّبْعِ، وَأَشْيَاءُ مِنَ **النَّحْوِ، وَكُتُبِ اللغةِ**، وَٱبْتَدَأَ **بِأُصُوْلِ الحَدِيْثِ** مِنْ حَيْثُ النَّقْلِ؛ كالصِّحَاحِ وَالمَسَانِيْدِ وَالسُّنَنِ، وَمِنْ حَيْثُ **عِلْمِ الحَدِيْثِ**؛ كَمَعْرِفَةِ الضُّعَفَاءِ وَالأَسْمَاءِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي أُصُوْلِ ذٰلِكَ. وَقَد رَتَّبَتِ العُلَمَاءُ مِنْ ذٰلِكَ ما يَسْتَغْنِي بِهِ الطَّالِبُ عَنِ التَّعَبِ.

٥٤٨ - وَلْيَنْظُرْ فِي **التَّوَارِيْخِ**؛ لِيَعْرِفَ مَا لا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ؛ كَنَسَبِ **الرَّسُوْلِ** ﷺ وَأَقَارِبِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَمَا جَرَىٰ لَهُ.

٥٤٩ - ثُمَّ لِيُقْبِلْ عَلَىٰ **الفِقْهِ**، فَلْيَنْظُرْ في المَذْهَبِ والخِلَافِ، وَلْيَكُنِ اعْتِمَادُهُ عَلَىٰ مَسَائِلِ الخِلَافِ؛ فَلْيَنْظُرْ في المَسْأَلَةِ وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ، فَيَطْلُبُه مِنْ مَظَانِّهِ؛ كَتَفْسِيْرِ آيةٍ وَحَدِيْثٍ وَكَلِمَةِ لغةٍ. وَيَتَشَاغَلُ بِأُصُوْلِ الفِقْهِ وَبِالفَرَائِضِ، وَلْيَعْلَمْ **أَنَّ الفِقْهَ عَلَيْهِ مَدَارُ العُلُوْمِ**.

٥٥٠ - وَيَكْفِيْهِ مِنَ النَّظَرِ فِي **الأُصُوْلِ**[1] مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلى وُجُوْدِ الصَّانِعِ؛ فَإِذَا أَثْبَتَهُ بِالدَّلِيْلِ، وَعَرَفَ مَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ مِمَّا لا يَجُوْزُ، وَأَثْبَتَ إِرْسَالَ الرُّسُلِ، وَعَلِمَ وُجُوْبَ القَبُولِ مِنْهُم؛ فَقَدِ احْتَوَىٰ عَلَىٰ المَقْصُوْدِ مِنْ عِلْمِ الأُصُوْلِ.

فَإِنِ اتَّسَعَ الزَّمَانُ لِلتَّزَيُّدِ مِنَ العِلْمِ؛ فَلْيَكُنْ مِنَ الفِقْهِ؛ فَإِنَّه الأَنْفَعُ.

٥٥١ - وَمَهْما فُسِحَ لَهُ في المُهَلِ، فَأَمْكَنَهُ تَصْنِيْفٌ فِي عِلْمٍ؛ فَإِنَّهُ يُخَلِّفُ بِذٰلِكَ خَلْفَهُ خَلَفًا صَالِحًا. مَعَ اجْتِهَادِهِ فِي التَّسَبُّبِ إِلىٰ اتِّخَاذِ الوَلَدِ.

٥٥٢ - ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ الدُّنيا مَعْبَرَةٌ، فَيَلْتَفِتُ إِلىٰ فَهْمِ مُعَامَلَةِ الله ﷻ؛ فَإِنَّ مَجْمُوْعَ مَا حَصَّلَهُ مِنَ العِلْمِ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ. فَإِذا تَعَرَّضَ لِتَحْقِيْقِ مَعْرِفَتِهِ، وَوَقَفَ عَلىٰ بَابِ مُعَامَلَتِهِ؛

---

(١) أي: أصول الدين.

فَقَلَّ أَنْ يَقِفَ صَادِقٌ إِلَّا وَيُجْذَبَ إِلىٰ مَقَامِ الوِلايَةِ، وَمَنْ أُرِيْدَ وُفِّقَ. وَإِنَّ للهِ ﷻ أَقْوَامًا يَتَوَلَّى تَرْبِيَتَهم، وَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ فِي زَمَنِ الطُّفولِيَّةِ **مُؤَدِّبًا**؟ ويُسَمَّى **العَقْلَ**، **وَمُقَوِّمًا**، وَيُقَالُ لَهُ: **الفَهْمُ**، وَيَتَوَلَّى تَأْدِيْبَهُم وَتَثْقِيْفَهُم، وَيُهَيِّئُ لَهُم أَسْبَابَ القُرْبِ مِنْهُ؛ فَإِنْ لاحَ قاطِعٌ قَطَعَهُم عَنْهُ؛ [حَمَاهُم مِنْهُ]، وَإِنْ تَعَرَّضَتْ بِهِم فِتْنَةٌ؛ دَفَعَها عَنْهُمْ. فَنَسْأَلُ الله ﷻ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْهُمْ، وَنَعُوْذُ بِهِ مِنْ خِذْلانٍ لا يَنْفَعُ مَعَهُ اجْتِهَادٌ.

١١٥ - فصل: إن للخلوة تأثيرات تبيَّن في الجلوة

٥٥٣ ـ إِنَّ لِلْخَلْوَةِ تَأْثِيْراتٍ تَبيَّنُ فِي الجَلْوةِ. كَمْ مِنْ مُؤمِنٍ بِالله ﷻ، يَحْتَرِمُهُ عِنْدَ الخَلَواتِ، فَيَتْرُكُ مَا يَشْتَهي حَذَرًا مِنْ عِقَابِه، أَوْ رَجَاءً لِثَوَابِهِ، أَو إِجْلالًا لَهُ، فَيَكُوْنُ بِذٰلِكَ الفِعْلِ كَأَنَّه طَرَحَ عُوْدًا هِنْدِيًّا عَلَىٰ مَجْمَرٍ، فَيَفُوْحُ طِيْبُهُ، فَيَسْتَنْشِقُهُ الخَلائِقُ، وَلا يَدْرُوْنَ أَيْنَ هُوَ؟

٥٥٤ ـ وَعَلَىٰ قَدْرِ المُجَاهَدَةِ في تَرْكِ مَا [يَهْوَىٰ] تَقْوَىٰ مَحَبَّتُهُ، أَوْ عَلىٰ مِقْدَارِ زِيَادَةِ دَفعِ ذٰلِكَ المَحْبُوْبِ المَتْرُوْكِ يَزِيْدُ الطِّيْبُ، وَيَتَفَاوَتُ تَفَاوُتَ العُوْدِ، فَتَرَى عُيُوْنَ الخَلْقِ تُعَظِّمُ هٰذَا الشَّخْصَ، وَأَلْسِنَتُهُمْ تَمْدَحُهُ، ولا يَعْرِفُوْنَ لِمَ؟ ولا يَقْدِرُوْنَ علىٰ وَصْفِهِ: لِبُعْدِهِمْ عَنْ حَقِيْقَةِ مَعْرِفَتِهِ.

٥٥٥ ـ وَقَدْ تَمْتَدُّ هٰذِهِ الأَرَايِيْحُ[1] بَعْدَ المَوْتِ علَىٰ قَدْرِهَا؛ فَمِنْهُم مَنْ يُذْكَرُ بِالخَيْرِ مُدَّةً مَدِيْدَةً ثُمَّ يُنْسىٰ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُذْكَرُ مِئَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَخْفى ذِكْرُهُ وَقبْرُهُ، وَمِنْهُم أَعْلامٌ يَبْقَىٰ ذِكْرُهُم أبدًا.

٥٥٦ ـ وَعَلَىٰ عَكْسِ هٰذَا مَنْ هَابَ الخَلْقَ، وَلَمْ يَحْتَرِمْ خَلْوَتَهُ بِالحَقِّ؛ فَإِنَّه عَلىٰ قَدْرِ مُبَارَزَتِهِ بِالذُّنُوْبِ، وَعَلىٰ مَقَادِيْرِ تِلْكَ الذُّنُوْبِ؛ يَفُوْحُ مِنْهُ رِيْحُ الكَرَاهَةِ، فتَمْقُتُهُ القُلُوْبُ: فَإِنْ قَلَّ مِقْدَارُ ما جَنَىٰ؛ قَلَّ ذِكْرُ الأَلْسُنِ لَهُ بِالخَيْرِ، وَبَقِيَ مُجَرَّدُ تَعْظِيْمِهِ. وَإِنْ كَثُرَ؛ كانَ قُصَارَىٰ الأَمْرِ سُكُوتُ النَّاسِ عَنْهُ؛ لا يَمْدَحُوْنَه ولا يَذُمُّونَه.

٥٥٧ ـ وَرُبَّ خَالٍ بِذَنْبٍ كَانَ سَبَبَ وُقُوْعِهِ فِي هُوَّةِ شِقْوَةٍ في عَيْشِ الدُّنيا

---

(١) **الأرايح**: جمع رائحة، والمقصود: الذكر الحسن.

والآخِرَةِ، وَكَأَنَّه قِيْلَ لَهُ: ابْقَ بِمَا آثرتَ! فَيَبْقَى أبَدًا فِي التَّخْبِيْطِ. فَانْظُرُوا إِخْوَانِي إِلَىٰ المَعَاصِي أَثَّرَتْ وعَثَّرَتْ.

قَالَ أَبُوْ الدَّرداءِ رضي الله عنه: «إِنَّ العَبْدَ لَيَخْلُوْ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيُلْقِي الله بُغْضَهُ فِيْ قُلُوْبِ المُؤْمِنِيْنَ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ». فَتَلَمَّحُوْا مَا سَطَّرْتُهُ، وَاعْرِفُوْا مَا ذَكَرْتُه، وَلا تُهْمِلُوْا خَلَواتِكُمْ، ولا سَرائِرَكُم؛ **فَإِنَّ الأَعْمَالَ بالنِّيَّةِ**، والجَزَاءَ عَلَىٰ مِقْدَارِ الإِخْلَاصِ.

١١٦ - فصل: من عرف جريان الأقدار ثبت لها

٥٥٨ ـ مَن عَرَفَ جَرَيانَ الأَقْدَارِ؛ ثَبَتَ لها[١]. وَأَجْهَلُ النَّاسِ بَعْدَ هٰذَا مَنْ قاواها؛ لأَنَّ مُرَادَ المُقَدِّرِ الذُّلُّ لَهُ؛ فَإِذَا قَاوَيْتَ القَدَرَ، فَنِلْتَ مُرَادَكَ مِنْ ذٰلِكَ؛ لَمْ يَبْقَ لكَ ذُلٌّ.

مِثَالُ هٰذَا: أَنْ يَجُوْعَ الفَقِيْرُ، فَيَصْبِرَ قَدْرَ الطَّاقَةِ؛ فَإِذَا عَجَزَ؛ خَرَج إلى سُؤَالِ الخَلْقِ؛ مُسْتَحِيًا مِنَ الله كَيْفَ يَسْأَلُهُمْ؛ وَإِنْ كانَ لَهُ عُذْرٌ بِالحَاجَةِ الّتِي أَلْجَأَتْهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّه مَغْلُوْبُ الصَّبْرِ، فَيَبْقَىٰ مُعْتَذِرًا مُسْتَحِيًا، وَذَاكَ المُرَادُ مِنْهُ.

أوَ ليسَ بخروج **النبيِّ** ﷺ من مكَّةَ فلا يقدِرُ على العَوْدِ إليها حتَّى يَدْخُلَ في خِفَارةِ[٢] المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَهُوَ كَافِرٌ [عبرة في ذٰلك][٣]؟!

فسبحان من ناطَ[٤] الأمورَ بالأسبابِ؛ ليحصُلَ ذُلُّ العارفِ بالحاجةِ إلى التسبُّبِ.

١١٧ - فصل: الابتلاء لمعرفة الصبر وإظهار الفضل

٥٥٩ ـ سُبْحَانَ المُتَصَرِّفِ فِي خَلْقِهِ بِالاغْتِرَابِ وَالإِذْلَالِ لِيَبْلُوَ صَبْرَهُمْ، وَيُظْهِرَ جَوَاهِرَهُم في الابْتِلاءِ! هٰذا **آدَمُ** عليه السلام تَسْجُدُ لَهُ المَلائِكَةُ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيْلٍ يُخْرَجُ مِنَ الجَنَّةِ، وَهٰذَا **نوحٌ** عليه السلام يُضْرَبُ حَتَّى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيْلٍ يَنْجُوْ فِي السَّفِيْنَةِ،

---

(١) صبر على مكروهها.
(٢) **خفارة**: جوار وحماية.
(٣) زيادة يقضيها السياق.
(٤) **ناط**: علّق.

وَيَهْلِكُ أَعْدَاؤُه. وَهٰذَا **الخَلِيْلُ** عليه السلام يُلْقَىٰ في النَّارِ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيْلٍ يَخْرُجُ إِلىٰ السَّلامةِ. وهٰذَا **الذَّبيحُ** [1] يَضْطَجِعُ مُسْتَسْلِمًا، ثُمَّ يَسْلَمُ، وَيَبْقَىٰ المَدْحُ، وهٰذا **يَعْقُوْبُ** عليه السلام يَذْهَبُ بَصَرُهُ بالفِرَاقِ، ثُمَّ يَعُوْدُ بالوُصُوْلِ. وهٰذَا **الكليمُ** [2] عليه السلام يَشْتَغِلُ بالرَّعْيِ، ثُمَّ يَرْقَىٰ إِلىٰ التَّكْلِيْمِ، وهٰذَا نَبِيُّنا **مُحَمَّدٌ** ﷺ يُقَالُ لَهُ بِالأَمْسِ: اليَتِيْمُ، ويُقَلَّبُ في عَجَائِبَ يُلاقِيْهَا مِنَ الأَعْدَاءِ تَارَةً، وَمِنْ مَكايِد الفَقْرِ أُخْرَى، وَهُوَ أَثْبَتُ مِنْ جَبَلِ حراءَ، ثُمَّ لمَّا تَمَّ لهُ مُرَادُهُ من الفَتْحِ، وبَلَغَ الغَرضَ مِنْ أَكْبَرِ المُلوْكِ وَأَهْلِ الأَرْضِ؛ نَزَلَ بِهِ ضَيْفُ النَّقْلَةِ، فقالَ: **«واكرباهُ»** [3].

فَمَنْ تَلَمَّحَ بَحْرَ الدُّنيا، وَعلِمَ كَيْفَ تُتَلَقَّى الأَمْوَاجُ، وَكَيْفَ يُصْبَرُ عَلىٰ مُدَافَعَةِ الأَيَّامِ؛ لَمْ يَسْتَهُوْلْ نُزُوْلَ بَلاءٍ، وَلَمْ يَفْرَحْ بِعَاجِلِ رَخَاءٍ.

١١٨ - فصل: عليكم من العمل بما تطيقون

٥٦٠ ـ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلّا يُقْدِمَ عَلىٰ العَزَائِمِ حَتَّى يَزِنَ نَفْسَه: هَلْ يُطيقُها؟ وَيُجَرِّبَ نَفْسَه فِي رُكُوْبِ بَعْضِهَا سِرًّا مِنَ الخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ لا يَأْمَنُ أَنْ يُرَىٰ في حَالَةٍ لا يَصْبِرُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَعُوْدَ فَيُفْتَضَحَ!

مِثَالُهُ: رَجُلٌ سَمِعَ بذِكْرِ الزُّهَّادِ، فَرَمَىٰ ثِيَابَهُ الجَمِيْلَةَ، وَلَبِسَ الدُّونَ، وَانْفَرَدَ في زَاوِيَةٍ، وَغَلَبَ علىٰ قَلْبه ذِكْرُ المَوْتِ وَالآخِرَةِ، فَلَمْ يَلْبَثْ مُتَقَاضِي الطَّبْعِ [4] أَنْ ألَحَّ بِمَا جَرَتْ بِهِ العَادَةُ؛ فَمِنَ القَوْمِ مَنْ عادَ بمرّة إِلَىٰ أَكْثَرَ مِمَّا كانَ عَلَيْهِ؛ كَأَكْلِ النَّاقِهِ [5] مِنْ مَرَضٍ، وَمِنْهُمْ مَن تَوَسَّطَ الحَالَ، فَبَقِيَ كَالمُذَبْذَبِ.

---

(١) **الذبيح**: إسماعيل عليه السلام على الصحيح خلافًا لما ذهب إليه المؤلف في الفصل (٢٩٣) من أنه إسحاق عليه السلام.

(٢) الكليم: موسى عليه السلام.

(٣) بل قال: «وارأساه» كما في حديث عائشة عليها السلام، رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن ماجه (١٤٦٥) والحاكم (٣/٥٦)، وغيرهما وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) متقاضي الطبع: مقتضى الطبع، وهو قانونه وسننه.

(٥) الناقِهُ: المريض الذي برأ للتوِّ.

٥٦١ - وَإِنَّمَا العَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ نَفْسَه بَيْنَ النَّاسِ بِثَوْبٍ وَسَطٍ؛ لا يُخْرِجُهُ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ، وَلا يُدْخِلُهُ فِي زِيِّ أَهْلِ الفَاقَةِ؛ فَإِنْ قَوِيَتْ عزيمتُه؛ عَمِلَ في بَيْتِهِ ما يُطيقُ، وَتَرَكَ ثَوْبَ التَّجَمُّلِ لِسَتْرِ الحَالِ، وَلَمْ يُظْهِرْ شَيْئًا لِلْخَلْقِ؛ فَإِنَّه أَبْعَدُ مِنَ الرِّياءِ، وَأَسْلَمُ مِنَ الفَضِيْحَةِ.

٥٦٢ - وَفِي النَّاس مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ قِصَرُ الأَمَلِ، وذِكْرُ الآخِرَةِ، حَتَّى دَفَنَ كُتُبَ العِلْمِ! وَهٰذَا الفِعْلُ عِنْدِي مِنْ أَعْظَمِ الخَطَإِ، وَإِنْ كانَ مَنْقُوْلًا عَنْ جَمَاعةٍ مِنَ الكِبَارِ! وَلَقَدْ ذَكَرْتُ هٰذا لِبَعْضِ مَشَايِخِنا؟ فَقَالَ: أَخْطَؤُوْا كُلُّهُمْ. وَقَدْ تَأَوَّلْتُ لِبَعْضِهِم بِأَنَّهُ كَانَ فِيْهَا أَحَادِيْثُ عَنْ قَوْمٍ ضُعَفَاءَ، وَلَمْ يُمَيِّزُوْهَا؛ كَمَا رُوِي عَنْ سُفْيَانَ فِي دَفْنِ كُتُبِهِ، أَوْ كَانَ فِيْهَا شَيْءٌ مِنَ الرَّأْيِ، فَلَمْ يُحِبُّوا أَنْ يُؤخَذَ عنْهم، فَكَانَ مِنْ جِنْسِ تَحْرِيْقِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه لِلْمَصَاحِفِ؛ لِئَلّا يُؤْخَذَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيْهَا مِنَ المُجْمَعِ عَلىٰ غَيْرِهِ. وَهٰذَا التَّأْوِيْلُ يَصِحُّ فِي حَقِّ عُلَمَائِهِم.

فَأَمّا غَسْلُ أَحْمَد بْنِ أَبي الحَوَارِي كُتُبَهُ وابنُ أَسْبَاطٍ؛ فَتَفْرِيْطٌ مَحْضٌ. فالحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ فِعْلٍ يَمْنَعُ مِنْهُ الشرعُ، أَوْ مِن ارْتِكَابِ مَا يُظَنُّ عَزِيْمَةً، وَهُوَ خَطِيْئَةٌ، أَوْ مِنْ إِظْهَارِ مَا لا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ المُظْهِرُ فَيَرْجِعُ القَهْقَرى. و«**عَلَيْكُمْ مِنَ العَمَلِ بِمَا تُطِيْقُوْنَ**»[1]؛ كَمَا قالَ ﷺ.

١١٩ - فصل: لا خير في لذة من بعدها النار

٥٦٣ - أَجهلُ الجُهَّالِ مَنْ آثَرَ عَاجِلًا عَلىٰ آجلٍ لا يَأْمَنُ سُوْءَ مَغَبَّتِهِ. فَكَمْ قَدْ سَمِعْنا عَنْ سُلْطَانٍ، وَأَمِيْرٍ، وَصَاحِبِ مَالٍ أَطْلَقَ نَفْسَه في شَهَواتِهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ في حَلالٍ وحَرَامٍ، فَنَزَلَ بِهِ مِنَ النَّدَمِ وَقْتَ المَوْتِ أَضْعَافُ ما الْتَذَّ، وَلَقِيَ مِنْ مَرِيْرِ الحَسَراتِ مَا لا يُقَاوِمُه وَلا ذَرَّةً مِنْهُ[2] كلُّ لَذَّةٍ. وَلَوْ كَانَ هٰذا فَحَسْب: لَكَفَىٰ حُزنًا؛ كَيْفَ؛ وَالجَزَاءُ الدَّائِمُ بَيْنَ يَدَيْهِ؟!

---

(١) رواه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) في الأصل: من.

٥٦٤ - فَالدُّنيا مَحْبُوْبَةٌ لِلطَّبْعِ، لا رَيْبَ في ذٰلِكَ، وَلا أُنْكِرُ عَلىٰ طالِبِهَا ومُؤْثِرِ شَهَواتِهَا، وَلٰكِنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْظُرَ في كَسْبِهَا، وَيَعْلَمَ وَجْهَ أَخْذِهَا؛ لِتَسْلَمَ لَهُ عَاقِبَةُ لَذَّتِهِ، وَإِلَّا؛ **فلا خَيْرَ في لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِها النَّارُ.**

٥٦٥ - وَهَلْ عُدَّ فِي العُقَلَاءِ قَطُّ مَنْ قيلَ لَهُ: اجْلِسْ فِي المَمْلَكَةِ سَنَةً، ثُمَّ نَقْتُلُكَ؟! هَيْهَاتَ؛ بَلِ الأَمْرُ بِالعَكْسِ، وَهُوَ أَنَّ العَاقِلَ مَنْ صَابَرَ مَرَارَةَ الجَهْدِ سَنَةً، بل سِنِيْن؛ لِيَسْتَرِيْحَ في عَاقِبَتِهِ. وَفي الجُمْلَةِ: **أُفٍّ لِلَذَّةٍ أَعْقَبَتْ عُقُوْبَةً!**

٥٦٦ - وَقَدْ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمٰن بْنُ مُحَمَّدٍ القَزَّازُ؛ قالَ: أَخْبَرَنا أبو بَكْرٍ الخَطِيْبُ[1]؛ قَالَ: أَخْبَرَنا الحَسَنُ بن أَبي طَالِبٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنا يَوْسُفُ بْنُ عُمَرَ القوَّاسُ؛ قَالَ: حَدَّثَنا الحُسَيْنُ بنُ إسماعيلَ إملاءً؛ قَالَ: حَدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ أبي سَعْدٍ؛ قالَ: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ البَلْخيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيّ القُوْهِسْتانِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنا دُلَفُ بْنُ أَبي دُلَفٍ[2]؛ قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنَّ آتيًا أَتَىٰ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي، فَقَالَ: أَجِبِ الأَمِيْرَ! فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَدْخَلَنِي دَارَ وَحْشَةٍ، وَعِرَةً، سوداءَ الحيطانِ، مُقَلَّعَةَ السُّقُوْفِ والأبْوَابِ، ثُمَّ أَصْعَدَنِي دَرَجًا فيها، ثُمَّ أَدْخَلَنِي غُرْفَةً؛ فَإِذَا فِي حِيْطَانِهَا أَثَرُ النِّيْرَانِ، وَإِذَا فِي أَرْضِهَا أَثَرُ الرَّمادِ، وَإِذَا أَبِي عُرْيَانُ وَاضِعًا رَأْسَهُ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ لِي كَالمُسْتَفْهِمِ: دُلَفٌ؟ **قُلْتُ**: نَعَمْ؛ أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيْرَ. **فَأَنْشَأَ يَقُوْلُ:**

أَبْلِغَنْ أَهْلَنا ولا تُخْفِ عَنْهُمْ ... مَا لَقِيْنَا فِيْ البَرْزَخِ الخَفَّاقِ
قَدْ سُئِلْنَا عَنْ كُلِّ مَا قَدْ فَعَلْنا ... فَارْحَمُوْا وَحْشَتِي وَمَا قَدْ أُلاقِي

أَفَهِمْتَ؟ **قُلْتُ**: نَعَمْ. **فَأَنْشَأَ يَقُوْلُ:**

فَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ المَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حيٍّ
وَلٰكِنَّا إذا مِتْنَا بُعِثْنَا ... وَنُسْأَلُ بَعْدَهُ عَنْ كُلِّ شيٍّ

---

(١) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر الخطيب (٣٩٢ - ٤٦٣هـ) أحد الحفاظ المؤرخين الكبار صاحب تاريخ بغداد.

(٢) وأبو دلف هو القاسم بن عيسى العجلي الأمير، أمير الكرخ، سيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء، توفي سنة (٢٢٦هـ).

١٢٠ - فصل: لذتا الحس والعقل

٥٦٧ -اللَّذَّاتُ كُلُّهَا بَيْنَ حِسِّيٍّ وعَقْلِيٍّ، فَنِهَايَةُ اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ وَأَعْلَاهَا **النِّكَاحُ**، وَغَايَةُ اللَّذَّاتِ العَقْلِيَّةِ **العِلْمُ**؛ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الغَايَتَانِ في الدُّنْيَا؛ فَقَدْ نَالَ النِّهَايَةَ، وَأَنَا أُرْشِدُ الطَّالِبَ إِلىٰ أَعْلَىٰ المَطْلُوْبَيْنِ.

٥٦٨ -غَيْرَ أَنَّ لِلطَّالِبِ المَرْزُوْقِ عَلَامَةً، وَهُوَ أَنْ يَكُوْنَ مَرْزُوْقًا عُلُوَّ الهِمَّةِ، وَهٰذِهِ الهِمَّةُ تَوْلَدُ مَعَ الطِفْلِ، فَتَرَاهُ مِنْ زَمَنِ طُفُوْلَتِهِ يَطْلُبُ مَعَالِيَ الأُمُوْرِ؛ كَمَا يُروَىٰ فِي الحَدِيْثِ: **أَنّه كانَ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ مَفْرَشٌ فِي الحِجْرِ** [١]، **فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي وَهُوَ طِفْلٌ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ، فَيَقُوْلُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: إِنَّ لابْنِي هٰذَا شَأْنًا** [٢].

٥٦٩ -فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِذَا كَانَتْ لِيْ هِمَّةٌ، وَلَمْ أُرْزَقْ مَا أَطْلُبُ؛ فَمَا الحِيْلَةُ؟

فَالجَوَابُ: أَنَّه إِذَا امْتَنَعَ الرِّزْقُ مِنْ نَوْعٍ؛ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، ثُمَّ مِنَ البَعِيدِ أَنْ يَرْزُقَكَ هِمّةً، ولا يُعِيْنُكَ! فَانْظُرْ في حَالِكَ: فَلَعَلَّهُ أَعْطَاكَ شَيْئًا ما شَكَرْتَهُ، أَوِ ابْتَلاكَ بِشَيْءٍ مِنَ الهَوَى ما صَبَرْتَ عَنْهُ.

٥٧٠ -واعْلَمْ أَنَّه رُبَّمَا زَوَى [٣] عَنْكَ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنيا كَثِيرًا لِيُؤْثِرَكَ بِلَذَّاتِ العِلْمِ؛ فَإِنَّكَ ضَعِيْفٌ، رُبَّمَا لا تَقْوَىٰ عَلىٰ الجَمْعِ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُكَ.

٥٧١ -**وَأَمَّا مَا أَرَدْتُ شَرْحَهُ لَكَ: فَإِنَّ الشَّابَّ المُبْتَدِئَ فِي طَلَبِ العِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا، وَيَجْعَلَ عِلْمَ الفِقْهِ الأَهَمَّ، وَلا يُقَصِّرَ في مَعْرِفَةِ النَّقْلِ؛ فَبِهِ تَبَيَّنُ سِيَرُ الكَامِلِيْنَ، وَإِذَا رُزِقَ فَصَاحَةً مِنْ حَيْثُ الوَضْعُ، ثُمَّ أُضِيْفَ إِلَيْهَا مَعرِفةُ اللُّغَةِ والنَّحْوِ؛ فَقَدْ شُحِذَتْ شَفْرَةُ لِسَانِهِ عَلىٰ أَجْوَدِ مِسَنٍّ. ومتى أَدَّى العلمُ لمعرفةِ الحقِّ وخِدمةِ الله ﷻ؛ فُتِحَتْ له أبوابٌ لا تُفْتَحُ لغيره.**

٥٧٢ -وَيَنْبَغِي لَهُ بِالتَّلَطُّفِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ زَمَانِهِ مَصْرُوْفًا إِلىٰ تَوْفِيْرِ الاكْتِسَابِ والتِّجَارَةِ، مُسْتَنِيْبًا فِيْهَا، غَيْرَ مُبَاشِرٍ لَهَا، مَعَ التَّدْبِيْرِ فِي العَيْشِ المُمْتَنِعِ مِنَ

---

(١) **حجر الكعبة**، هو المدار بالبيت من جهة الميزاب ويسمّى الحطيم.
(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٨٠).
(٣) **زوى**: صرف.

الإِسْرَافِ والتَّبْذِيْرِ؛ فَإِنَّ رِوَايَةَ العِلْمِ والعَمَلَ بِهِ إِلىٰ دَرَجَةِ المَعْرِفَة للهِ ﷻ [آسِرَةٌ لِلْمَشَاعِرِ]، فَرُبَّمَا شَغَلَتْهُ لَذَّةُ ما وَصَلَ إِلَيْهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيا لَهَا حَالَةٌ سَلِيْمَةٌ مِنْ آفةٍ!

٥٧٣ ـ وَإِنْ وَجَدَ مِنْ طَبْعِهِ مُنَازِعًا إِلَى الشَّوْقِ فِي النِّكَاحِ؛ فَلْيَتَخَيَّرِ السَّرارِيَ؛ فَإِنَّ الحَرَائِرَ في الأَغْلَبِ غِلٌّ[1].

٥٧٤ ـ وَلْيَعْزِلْ عَنِ المَمْلُوْكَاتِ إِلىٰ أَنْ يُجَرِّبَ خُلُقَهُنَّ وَدِينَهُنَّ؛ فَإِنْ رَضِيَهُنَّ؛ طَلَبَ الوَلَد مِنْهُنَّ، وَإِلَّا؛ فالاسْتِبْدَالُ بِهِنَّ سَهْلٌ.

٥٧٥ ـ وَلا يَتَزَوَّجْ حُرَّةً؛ إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا تَصْبِرُ عَلىٰ التَّزْوِيْجِ عَلَيْهَا والتَّسَرِّي، وَلْيَكُنْ قَصْدُهُ الاسْتِمْتَاعَ بِهَا، لا إِجْهَادَ النَّفْسِ في الإِنزَال؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَهْدِمُ قُوَّتَه، فَيَضْعُفُ الأَصْلُ. فهٰذِهِ الحَالَةُ الجَامِعَةُ مِن لَذَّتَيِ الحِسِّ والعقلِ، ذَكَرْتُها عَلىٰ وَجْهِ الإِشَارَةِ، وَفَهْمُ الذَّكِيِّ يُمْلِي عَلَيْهِ مَا لَمْ أَشْرَحْهُ.

١٢١ - فصل: تعليم حفظ العلم*

٥٧٦ ـ اعْلَمْ أَنَّ المُتَعَلِّمَ يَفْتَقِرُ إلى دَوَامِ الدِّرَاسَةِ، وَمَنِ الغَلَطِ الانْهِمَاكُ في الإِعَادَةِ لَيلًا ونَهَارًا؛ فَإِنّه لا يَلْبَثُ صَاحِبُ هٰذِهِ الحَالِ إِلَّا أيامًا، ثُمَّ يَفْتُرُ أو يَمْرَضُ.

٥٧٧ ـ وَقَدْ رُوِّيْنا أَنَّ الطَّبِيْبَ دَخَلَ عَلَىٰ أَبي بَكْرِ بْنِ الأَنْبَارِيِّ[2] فِي مَرَضِ مَوْتِهِ، فَنَظَرَ إلى ما بِهِ[3]، **وَقَالَ**: قَدْ كُنْتَ تَفْعَلُ شَيْئًا لا يَفْعَلُهُ أَحدٌ! ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: مَا يَجِيْءُ مِنْهُ شَيْءٌ[4]. **فَقِيْلَ لَهُ**: ما الَّذِي كُنْتَ تَفْعَلُ؟ **قَالَ**: كُنْتُ أُعِيْدُ كلَّ أُسْبُوْعٍ عَشَرَةَ آلافِ وَرَقَةٍ؟

٥٧٨ ـ وَمِنَ الغَلَطِ [تَحْمِيْلُ القَلْبِ] حِفْظَ الكَثِيْرِ أَوِ الحِفْظَ مِنْ فُنُوْنٍ شَتّى؛ فَإِنَّ القَلْبَ جَارِحَةٌ مِنَ الجَوَارِحِ، وَكَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْمِلُ المِئَةَ رَطْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ عِشْرِيْنَ رطلًا؛ فَكَذٰلِكَ القُلُوْبُ. فَلْيَأْخُذِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ قَدْرِ قوَّتِهِ ودونَها؛

---

(١) **غل**: قيد.

(٢) محمد بن القاسم: إمام في النحو وعلوم العربية، ومن أكثر الناس حفظًا للأشعار والأخبار (٢٧١ ـ ٣٢٨هـ).

(٣) في الأصل: مائه، وهو تصحيف.

(٤) لا أمل في شفائه.

فَإِنَّه إِذَا اسْتَنْفَدَها في وَقْتٍ؛ ضَاعَتْ مِنْهُ أوقاتٌ: كَمَا أَنَّ الشَّرِه يَأْكُلُ فَضْلَ لُقيْمَاتٍ، فَيَكُوْنُ سَبَبًا إلى مَنْعِ أَكَلاتٍ!

والصّوَابُ أَنْ يَأْخُذَ قَدْرَ ما يُطِيْقُ، وَيُعِيْدُهُ فِي وَقْتَيْنِ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَيُرَفِّهَ القُوَىٰ فِي بَقِيَّةِ الزَّمَانِ.

٥٧٩ ـ وَالدَّوَامُ أَصْلٌ عَظِيمٌ؛ فَكَمْ مِمَّنْ تَرَكَ الاسْتِذْكَارَ بَعْدَ الحِفْظِ، فَضَاعَ زَمَنٌ طَوِيْلٌ في اسْتِرْجَاعِ مَحْفُوْظٍ قَدْ نُسِيَ.

٥٨٠ ـ وَللحِفْظِ أَوْقَاتٌ مَنَ العُمُرِ؛ فَأَفْضَلُهَا الصِّبا، وما يُقَارِبُه مِنْ أَوْقَاتِ الزَّمَانِ، وَأُفْضَلُهَا عَادَةً الأَسْحَار، وَأَنْصَافُ النَّهَارِ، وَالغَدَواتُ خَيْرٌ مِنَ العَشِيَّات، وَأَوْقَاتُ الجُوْعِ خَيْرٌ مِن أَوْقَاتِ الشِّبَعِ.

٥٨١ ـ ولا يُحْمَدُ الحِفْظُ بِحَضْرَةِ خُضْرَةٍ، وَعَلَىٰ شَاطِئِ نَهْرٍ؛ لأَنَّ ذٰلِكَ يُلْهِي، وَالأَمَاكِنُ العَالِيَةُ للحِفْظِ خَيْرٌ مِنَ السَّوَافلِ.

٥٨٢ ـ وَالخَلْوَةُ أَصْلٌ. وَجَمْعُ الهَمِّ أَصْلُ الأُصُوْلِ، وتَرْفيهُ النَّفْسِ مِنَ الإِعَادَةِ يومًا في الأُسْبُوْعِ: لِيَثْبُتَ المَحْفُوْظُ، وَتَأْخُذَ النَّفْسُ قوةً؛ كالبُنْيَانِ يُتْرَكُ أَيَّامًا حتَّى يَسْتَقِرَّ، ثُمَّ يُبْنَىٰ عَلَيْهِ.

٥٨٣ ـ وَتَقْلِيْلُ المَحْفُوظِ مع الدَّوامِ أَصْلٌ عَظِيْمٌ. وَألّا يَشْرَعَ فِي فنٍّ حَتَّى يُحْكِمَ مَا قَبْلَه. وَمَنْ لَمْ يَجِدْ نَشَاطًا للحِفْظِ؛ فلْيَتْرُكْهُ؛ فَإِنَّ مُكَابَرَةَ النَّفْسِ لا تَصْلُحُ.

٥٨٤ ـ وَإِصْلَاحُ المِزَاجِ مِنَ الأُصُوْلِ العَظِيْمَةِ؛ فَإِنَّ لِلْمَأْكُوْلاتِ أَثَرًا في الحِفْظِ[1]: قَالَ الزُّهريُّ: مَا أَكَلْتُ خلًّا مُنْذُ عَالَجْتُ الحِفْظَ. وَقِيْلَ لأبي حَنِيْفَةَ: بِمَ يُسْتَعَانُ عَلَىٰ حِفْظِ الفِقْهِ؟ قَالَ: بِجَمْعِ الهَمِّ. وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ[2]: بقِلَّةِ الغَمِّ.

---

(١) ربما فتح هذا بابًا للمشعوذين كما حصل للمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إذ وُصِفَ له حَبُّ البلاذر (semecarpuc Anardium) ـ وهو نبات ثمره شبيه بنوى التمر، ولبه مثل لبّ الجوز حلوٌ، وقشره متخلخل متثقب، قيل: إنه يقوي الحفظ، ولكن الإكثار منه يسقط الشعر ـ فأكل منه ليزداد حفظه، فسقطت لحيته، وبقيت خفيفة قصيرة.

(٢) حماد بن سلمة بن دينار البصري، أبو سلمة، مفتي البصرة، شيخ الإسلام عالم زاهد مشهور توفي سنة (١٦٧هـ).

وَقَالَ مَكْحُولٌ[1]: مَنْ نَظُفَ ثَوْبُهُ؛ قَلَّ هَمُّهُ، وَمَنْ طَابَتْ رِيْحُهُ؛ زَادَ عَقْلُهُ، وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا: زَادَتْ مُرُوْءَتُهُ.

٥٨٥ ـ وَأَخْتَارُ لِلْمُبْتَدِئ في طَلَبِ العِلْمِ أَنْ يُدَافِعَ النِّكَاحَ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ فَإِنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَل لَمْ يَتَزَوَّجْ حَتَّى تَمَّتْ له أَرْبَعُوْنَ سنةً، وهٰذَا لِأَجْلِ جَمْعِ الهَمِّ؛ فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الأَمْرُ؛ تَزَوَّجَ، وَاجْتَهَدَ فِي المُدَافَعَةِ[2] بِالفِعْلِ؛ لِتَتَوَفَّرَ القُوَّةُ علىٰ إِعَادَةِ العِلْمِ.

٥٨٦ ـ ثُمّ لْيَنْظُرْ ما يَحْفَظُ مِنَ العِلْمِ؛ فَإِنَّ العُمُرَ عَزِيْزٌ، والعِلْمَ غَزِيْرٌ، وَإِنَّ أَقْوَامًا يَصْرِفُوْنَ الزّمَانَ إِلى حِفْظِ ما غَيْرُهُ أَولىٰ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ العُلُوْمِ حَسَنًا، وَلٰكِنَّ الأَوْلَىٰ تَقْدِيْمُ الأَهَمِّ والأَفْضَلِ. وَأَفْضَلُ مَا تُشْوْغِلَ بِهِ حِفْظُ القُرْآنِ، ثُمَّ الفِقْهُ، وَمَا بَعْدَ هٰذَا بِمَنْزِلَةِ تَابِعٍ. **وَمَنْ رُزِقَ يَقَظَةً؛ دَلَّتْهُ يَقْظَتُهُ، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلىٰ دَلِيْلٍ. وَمَنْ قَصَدَ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ بِالعِلْمِ؛ دَلَّهُ المَقْصُوْدُ عَلىٰ الأَحْسَنِ،** ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

١٢٢ - فصل: أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب

٥٨٧ ـ مَنْ أَرَادَ دَوَامَ العَافِيَةِ وَالسَّلامةِ فَلْيَتَّقِ اللهَ ﷻ؛ فَإِنَّه مَا مِنْ عَبْدٍ أَطْلَقَ نَفْسَه فِيْ شَيْءٍ يُنَافِي التَّقْوَى، وَإِنْ قَلَّ؛ إِلَّا وَجَدَ عُقُوْبَتَهُ عَاجِلةً أو آجِلَةً. وَمِنَ الاغْتِرَارِ أَنْ تُسِيْءَ، فَتَرَىٰ إِحْسانًا، فَتَظُنَّ أَنَّكَ قَدْ سَومِحْتَ، وَتَنْسَى: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ١٢٣] **وَرُبَّمَا قَالَتِ النَّفْسُ**: إِنَّهُ يَغْفِرُ، فَتَسَامَحَتْ! ولا شَكَّ أَنَّهُ يَغْفِرُ، ولٰكِنْ لِمَنْ يَشَاءُ.

٥٨٨ ـ وَأَنَا أَشْرَحُ لَكَ حالًا؛ فَتَأَمَّلْهُ بِفِكْرِكَ تَعْرِفْ مَعْنَى المَغْفِرَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ هَفَا هَفْوَةً؛ لَمْ يَقْصِدْهَا، وَلَمْ يَعْزِمْ عَلَيْهَا قبلَ الفِعْلِ، وَلا عَزَمَ على العَوْدِ بَعْدَ الفِعْلِ، ثُمَّ انْتَبَهَ لِمَا فَعَلَ، فَاسْتَغْفَرَ اللهَ؛ كانَ فِعْلُهُ ـ وإِنْ دَخَلَهُ عَمْدًا ـ فِي مَقَامِ خَطَإٍ. مِثْلُ أَنْ

---

(١) مكحول بن أبي مسلم الشامي، أبو عبد الله، فقيه الشام في عصره، من حفاظ الحديث، توفي سنة (١١٢هـ).

(٢) مدافعة الجماع.

يَعْرِضَ لَهُ مُسْتَحْسَنٌ، فَيَغْلِبَهُ الطَبْعُ، فيُطْلِقَ النَّظَرَ، وَتَشَاغَلَ في حَالِ نظرِهِ بِالْتِذَاذِ الطَّبْعِ عَنْ تَلَمُّحِ مَعْنَىٰ النَّهْيِ، فَيَكُوْنُ كالغَائِب أوْ كالسَّكْرَانِ؛ فَإِذَا انْتَبَهَ لِنَفْسِه؛ نَدِمَ على فِعْلِهِ، فَقَامَ النَّدَمُ بِغَسْلِ تِلْكَ الأوْسَاخِ، الَّتِي كَانَتْ كَأَنَّهَا غَلْطَةٌ لمْ تُقْصَدْ؛ فهٰذا مَعْنَى قَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فَأمّا المُدَاوِمُ على تِلْكَ النَّظْرَةِ، المُرَدِّدُ لَهَا، المُصِرُّ عَلَيْهَا؛ فَكَأَنَّه في مَقَامٍ مُتَعَمَّدٍ للنَّهْيِ، مُبَارِزٍ بِالخِلافِ؛ فَالعَفْوُ يَبْعُدُ عَنْهُ بِمِقْدَارِ إِصْرَارِه، وَمِنَ البُعْدِ أَلّا يَرَىٰ الجَزَاءَ عَلَى ذٰلك؛ كما قَالَ **ابنُ الجَلَّاءِ**: رَآنِي شَيْخِي وَأَنَا قَائِمٌ أَتَأَمَّلُ حَدَثًا نَصْرانِيًّا، **فَقَالَ**: مَا هٰذا؟! لَتَرَيَنَّ غِبَّها وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ. فَنَسِيْتُ القُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِيْن سَنَةً.

٥٨٩ ـ وَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ المِحَنِ الاغْتِرَارُ بِالسَّلامَة بَعْدَ الذَّنْبِ، فَإِنَّ العُقُوْبَةَ تَتَأَخَّرُ. وَمِنْ أَعْظَمِ العُقُوْبَةِ أَلَّا يُحِسَّ الإِنْسَانُ بِهَا، وَأَنْ تَكُوْنَ في سَلْبِ الدِّينِ، وَطَمْسِ القُلُوْبِ، وَسُوْءِ الاخْتِيَارِ لِلنَّفْسِ؛ فَيَكُوْنُ مِنْ آثارِهَا سَلامَةُ البَدَنِ، وبُلُوْغُ الأغْرَاضِ.

٥٩٠ ـ قَالَ بَعْضُ المُعْتَبِرِيْن: أَطْلَقْتُ نَظَرِي فِيْمَا لا يَحِلُّ لِي، ثُمَّ كُنْتُ أَنْتَظِرُ العُقُوْبَةَ، فَأُلْجِئْتُ إِلىٰ سَفَرٍ طَوِيْلٍ، لا نِيَّةَ لِيْ فِيْهِ، فَلَقِيْتُ المَشَاقَّ، ثُمَّ أَعْقَبَ ذٰلِكَ مَوْتُ أَعَزِّ الخَلْقِ عِنْدِي، وَذَهَابُ أشياءَ كَانَ لَهَا وقْعٌ عَظِيْمٌ عِنْدِي، ثُمَّ تلافَيْتُ أَمْرِي بِالتَّوْبَةِ، فَصَلَحَ حَالِي.

ثُمَّ عَادَ الهَوَىٰ، فَحَمَلَنِي عَلىٰ إِطْلَاقِ بَصَرِي مَرَّةً أُخْرَى، فَطُمِسَ قَلْبِي، وَعَدِمْتُ رِقَّتَهُ، وَاسْتُلِبَ مِنِّي مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ فَقْدِ الأَوَّلِ، وَوَقَعَ لِي تَعْوِيْضٌ عَنِ المَفْقُوْدِ بِمَا كَانَ فَقْدُهُ أَصْلَح.

فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ مَا عُوِّضْتُ وَمَا سُلِبَ مِنِّي؛ صِحْتُ مِنَ أَلَمِ تِلْكَ السِّياطِ، فَهَا أَنا أُنَادِي مَنْ عَلَىٰ السَّاحِلِ: إِخْوَانِي! احْذَرُوْا لُجَّةَ هٰذَا البَحْرِ، وَلا تَغْتَرُّوا بِسُكُونِهِ، وَعَلَيْكُمْ بالسَّاحِلِ، وَلازِمُوا حِصْنَ التَّقْوى؛ فَالْعُقُوْبَةُ مُرَّةٌ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِي مُلازَمَةِ التَّقْوَىٰ مَرَاراتٍ مِنْ فَقْدِ الأَغْرَاض والمُشْتَهَيَاتِ؛ غَيْرَ أَنَّها فِيْ ضَرْبِ المَثَلِ كالحِمْيَةِ تُعْقِبُ صِحَّةً، والتَّخْلِيْطُ رُبَّمَا جَلَبَ مَوْتَ الفَجْأَةِ.

وَبِالله؛ لَوْ نمتُمْ عَلىٰ المَزَابِلِ مَعَ الكِلَابِ فِي طَلَبِ رِضَا المُبْتَلِي؛ كانَ قَلِيْلًا فِي

نَيْل رِضَاهُ، وَلَوْ بَلَغْتُمْ نِهَايَةَ الأَمَانِي مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنيا؛ مَعَ إِعْرَاضِهِ عَنْكُم؛ كانَتْ سَلامَتُكُم هلاكًا، وعَافِيَتُكُم مَرَضًا، وصِحَّتُكُم سَقَمًا، وَالأَمْرُ بِآخِرِهِ، والعَاقِلُ مَنْ تَلَمَّحَ العَوَاقِبَ. وَصَابِرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ هَجيرَ البَلَاءِ؛ فَمَا أَسْرَعَ زَوَالَهُ! واللهُ المُوَفِّقُ؛ إِذْ لا حَوْلَ إِلّا بِهِ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِفَضْلِهِ.

١٢٣ - فصل: للباطل جولة وللحق صولة

٥٩١ ـ قَدِمَ إِلىٰ **بَغْدَادَ** جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ الأَعَاجِمِ، فَٱرْتَقَوْا مَنَابِرَ التَّذْكِيْرِ لِلْعَوَامِّ، فكَانَ مُعْظَمَ مَجَالِسِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ: لَيْسَ للهِ فِيْ الأَرْضِ كَلَامٌ! وَهَلِ المُصْحَفُ إِلَّا وَرَقٌ وعَفْصٌ[١] وزاجٌ[٢]؟! وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ في السَّمَاءِ! وَإِنَّ الجَارِيَةَ الَّتي قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: **«أَيْنَ اللهُ؟»**[٣]: كانَتْ خَرْسَاءَ، فَأَشَارَتْ إِلىٰ السَّمَاءِ؛ أَيْ: لَيْسَ هُوَ مِنَ الأَصْنَامِ الّتِي تُعْبَدُ فِي الأَرْضِ! ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ: أَيْنَ الحُرُوْفِيَّةُ الَّذِيْنَ يَزْعُمُوْنَ أَنَّ القُرْآنَ حَرْفٌ وَصَوْتٌ؟! هٰذَا عِبَارَةُ **جِبْرِيْلَ**!!

فَمَا زَالُوْا كَذٰلِكَ، حَتَّى هَانَ تَعْظِيْمُ القُرْآنِ فِيْ صُدُوْرِ أَكْثرِ العَوَامِّ، وَصَارَ أَحَدُهُم يَسْمَعُ فَيَقُوْلُ: هذا هُوَ الصَّحِيْحُ، وإِلَّا؛ فالقُرْآنُ شَيْءٌ يَجِيْءُ بِهِ جِبْرِيْلُ فِي كِيْسٍ!

فَشَكَا إِلَيَّ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ السّنَّةِ، فَقُلْتُ لَهُمُ: اصْبِرُوْا؛ فَلَا بُدَّ للشُّبُهَاتِ أَنْ تَرْفَعَ رَأْسَهَا فِيْ بَعْضِ الأَوْقَاتِ، وَإِنْ كانَتْ مَدْمُوْغَةً[٤]، وَلِلبَاطِلِ جَوْلَةٌ، وَلِلْحَقِّ صَوْلَةٌ، وَالدَّجَّالُوْنَ كَثِيْرٌ، ولا يَخْلُوْ بَلَدٌ مِمَّنْ يَضْرِبُ البَهْرَجَ[٥] عَلىٰ مِثْلِ سِكَّةِ السُّلطانِ.

---

(١) **العفص**: نوع من شجر البلوط، يتخذ منه صبغ وحبر.

(٢) **الزاج**: أحد أملاح الكبريت، يستعمل في خلطة حبر الكتابة، ويسمّى الشب اليماني.

(٣) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا»؟ قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». رواه مسلم (٥٣٧) وهذا نص في أن الجارية لم تكن خرساء.

(٤) **مكسورة**: لا حجة لها.

(٥) **البهرج**: الزائف إما بنقص وزنه أو نقص عياره أو بهما جميعًا وهي تشبه ما يضربه السلطان من دنانير ودراهم صحيحة.

٥٩٢ ـ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا جَوَابُنا عَنْ قَوْلِهِم؟ **قُلْتُ**: اعْلَمْ ـ وَفَّقَكَ اللهُ تَعَالى ـ أَنَّ اللهَ ﷻ وَرَسُوْلَهُ قَنِعا مِنَ الخَلْقِ بالإِيْمَانِ بالجُمَلِ، وَلَمْ يُكَلِّفَا مَعْرِفَةَ التَّفَاصِيْلِ: إِمَّا لِأَنَّ الاطّلاعَ عَلَى التَّفَاصِيْلِ يُخَبِّطُ العَقَائِدَ، وَإِمَّا لِأَنَّ قُوَىٰ البَشَرِ تَعْجِزُ عَنْ مُطَالَعَةِ ذٰلِكَ.

٥٩٣ ـ فَأَوَّلُ ما جَاءَ بِهِ الرَّسُوْلُ ﷺ **إِثْبَاتُ الخَالِقِ**، وَنَزلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ بِالدَّلِيْلِ عَلَىٰ وُجُوْدِ الخَالِقِ، بِالنَّظَرِ فِي صُنْعِهِ: فَقَالَ تَعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ [النمل: ٦١]، وَقَالَ تَعَالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وَمَا زَالَ يَسْتَدِلُّ عَلَىٰ وُجُوْدِهِ بِمَخْلُوْقاتِهِ، وَعَلى قُدْرَتِهِ بِمَصْنُوْعَاتِهِ.

٥٩٤ ـ ثُمَّ أَثْبَتَ نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ بِمُعْجِزَاتِهِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِهَا القُرْآنُ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فَعَجَزَ الخَلَائِقُ عَنْ مِثْلِهِ، وَاكْتَفَىٰ بِهذِهِ الأَدلَّةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَمَضَىٰ عَلىٰ ذٰلِكَ القَرْنُ الأَوَّلُ، **والمَشْرَبُ صَافٍ لَمْ يَتَكَدَّرْ**.

٥٩٥ ـ وعَلِمَ اللهُ ﷻ ما سَيَكُوْنُ مِنَ البِدَعِ، فَبَالَغَ في إِثْبَاتِ الأَدِلَّة، وَمَلأَ بِهَا القُرْآنَ.

٥٩٦ ـ وَلَمَّا كَانَ القُرْآنُ هُوَ مَنْبَعَ العُلُوْمِ، وَأَكْبَرَ المُعْجِزاتِ للرَّسُوْلِ ﷺ؛ أَكَّدَ الأَمْرَ فِيْهِ: فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فَأَخْبَرَ أَنَّه **كَلَامُهُ** بقولِهِ تَعَالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وَأَخْبَرَ أَنَّه **مَسْمُوْعٌ** بقولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ **مَحْفُوْظٌ**، فقال تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢]، وقَالَ تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وَأَخْبَرَ أَنَّه **مَكْتُوْبٌ** وَمَتْلُوٌّ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إِلىٰ مَا يَطُوْلُ شَرْحُهُ مِنْ تَعَدُّدِ الآياتِ في هٰذِهِ المَعَانِي، الّتي تَوْجِبُ إِثْبَاتَ القُرْآنِ.

٥٩٧ ـ **ثُمَّ نَزَّهَ نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ أَنْ يَكُوْنَ أَتَىٰ بِهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**، فقالَ تَعَالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣]، وتَوَعَّدَهُ لَوْ فَعَلَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة]، وَقَالَ

فِي حَقِّ الزَّاعِمِ أَنَّه كَلامُ الخَلْقِ حِيْنَ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر].

٥٩٨ ـ وَلـمَّا عَذَّبَ كُلَّ أُمَّةٍ بِنَوْعِ عَذَابٍ تَوَلَّاهُ بَعْضُ المَلائِكَةِ؛ كَصَيْحَةِ جِبْرِيْلَ عليه السلام **بِثَمُوْدَ**، وَإِرْسَالِ الرِّيْحِ عَلَىٰ **عَادٍ**، والخَسْفِ **بِقَارُوْنَ**، وَقَلْبِ **جِبْرِيْلَ** دِيَارَ قَوْمِ **لوطٍ** عليه السلام، وَإِرْسَالِ الطَّيْرِ الأَبَابِيْلِ عَلىٰ مَنْ قصدَ تَخْرِيْبَ **الكَعْبَةِ**[1]؛ تَوَلَّى هُوَ بِنَفْسِهِ، عِقَابَ المُكَذِّبِيْنَ بِالقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] وهذا لِأَنَّهُ أَصْلُ هذِهِ الشَّرَائِعِ، وَالمُثْبِتُ لِكُلِّ شَرِيْعَةٍ تَقَدَّمَتْ؛ لأنّ جَمِيْعَ المِلَلِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا كَانُوْا فِيْهِ إِلَّا كَتابَنا؛ لأنَّ كُتُبَهُم غُيِّرَتْ وبُدِّلَتْ.

٥٩٩ ـ وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ ذِي عَقْلٍ أَنَّ القَائِلَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]: إِنَّما أَشَارَ إِلىٰ ما سَمِعَهُ. ولا يَخْتَلِفُ أُولُوْ الأَلْبَابِ وَأَهْلُ الفَهْمِ لِلخِطَابِ أَنَّ قولَه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ كِنَايَةٌ عِنِ القُرْآنِ، وَقَوْلَهَ: ﴿نَزَلَ بِهِۦ﴾: كِنَايَةٌ أيضًا عَنْهُ، وقولَه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾: إِشَارَةٌ إِلىٰ حَاضِرٍ. وَهذا أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ، لَمْ يَخْتَلِفْ فِيْهِ أَحَدٌ مِنَ القُدَمَاءِ في زَمَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ والصَّحَابَةِ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِم.

٦٠٠ ـ ثُمَّ دَسَّ الشَّيْطَانُ دَسَائِسَ البِدَعِ، فَقَال قَوْمٌ: هذا المُشَارُ إِلَيْهِ مَخْلُوْقٌ! فَثَبَتَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله ثُبُوْتًا لَمْ يَثْبُتْهُ غَيْرُهُ عَلَىٰ دَفْعِ هٰذا القَوْلِ؛ لِئَلَّا يَتَطَرَّقَ إِلىٰ القُرْآنِ مَا يَمْحُوْ بَعْضَ تَعْظِيْمِهِ في النُّفُوْسِ، وَيُخْرِجُهُ عَنِ الإِضَافَةِ إِلىٰ الله عز وجل، وَرَأَىٰ أَنَّ ابْتِدَاعَ مَا لَمْ يُقَلْ فِيْهِ لا يَجُوْزُ اسْتِعْمَالُهُ، **فَقَالَ**: كَيْفَ أَقُوْلُ مَا لَمْ يُقَلْ؟!

٦٠١ ـ ثُمَّ لَمْ يَخْتَلِفِ النَّاسُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ إِلى أَنْ نَشَأَ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيْلَ الأَشْعَرِيُّ، فَقَالَ مَرَّةً بقولِ المَعْتَزِلَةِ، ثُمَّ عَنَّ لَهُ[2]، فادَّعَىٰ أَنَّ الكَلامَ صِفَةٌ قائِمَةٌ بِالنَّفْسِ[3]! فَأَوْجَبَتْ دَعْوَاهُ هٰذِهِ أَنَّ مَا عِنْدَنَا مَخْلُوْقٌ، وَزَادَتْ فَخَبَّطَتِ العَقَائِدَ، فَمَا زَالَ أَهْلُ البِدَعِ يَجُوْبُونَ فِي تَيَّارِهَا إِلىٰ اليَوْمِ.

---

(١) هو أبرهة الحبشي وجيشه.

(٢) **عنّ له**: بدا له.

(٣) الكلام النفسي مصدره كلام أرسطو تسرّب إلى كتب المتكلمين، انظر: النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال.

٦٠٢ - والكَلامُ فِي هٰذِهِ المَسْأَلةِ مُرَتَّبٌ بِذِكْرِ الحُجَجِ والشُّبَهِ فِي كُتُبِ الأُصُوْلِ؛ فَلا أُطِيْلُ بِهِ هَا هُنَا، بَلْ أَذْكُرُ لكَ جُمْلَةً تَكْفِي مَنْ أَرَادَ الله هُدَاهُ: وَهُوَ أَنَّ الشَّرْعَ قَنِعَ مِنّا بِالإِيْمَانِ جُمْلَةً، وَبِتَعْظِيْمِ الظَّوَاهِرِ، وَنَهَىٰ عَنِ الخَوْضِ فِيْمَا يُثِيرُ غُبَارَ شُبْهَةٍ[1]، وَلا تَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطْعِ طَرِيْقِهِ أَقْدَامُ الفَهْمِ.

وَإِذَا كَانَ قَدْ نَهَىٰ عَنِ الخَوْضِ فِي القَدَرِ؛ فَكَيْفَ يُجَوِّزُ الخَوْضَ في صِفَاتِ المُقَدِّرِ؟!

وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَحَدِ الأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُمَا: إِمّا لِخَوْفِ إِثَارَةِ شُبْهَةٍ تُزَلْزِلُ العَقَائِدَ، أَوْ لِأَنَّ قُوىٰ البَشَرِ تَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِ الحَقَائِقِ.

٦٠٣ - فَإِذَا كَانَتْ ظَوَاهِرُ القُرْآنِ تُثْبِتُ وُجُوْدَ القُرْآنِ، فَقَالَ قَائِلٌ: لَيْسَ هاهُنا قُرْآنٌ؛ فَقَدْ رَدَّ الظَّوَاهِرَ الّتِي تَعِبَ **الرَّسُوْلُ** ﷺ فِي إِثْبَاتِهَا، وَقَرَّرَ وُجُوْدَها في النُّفُوْسِ. وَبِمَاذا يُحلُّ ويُحَرَّمُ، وَيُبَتُّ ويُقْطَعُ؛ وَلَيْسَ عَنْدَنا مِنْ اللهِ تَعَالىٰ تَقَدُّمٌ بشيءٍ؟! وَهَلْ لِلْمُخَالِفِ دَلِيْلٌ إِلَّا أَنْ يَقُوْلَ: قَالَ اللهُ، فَيَعُوْدَ، فَيُثْبِتُ مَا نَفَىٰ؟! فَلَيْسَ الصَّوَابُ لِمَن وُفِّقَ إِلَّا الوُقُوْفَ مَعَ ظَاهِرِ الشَّرْعِ. فَإِنِ اعْتَرَضَهُ ذُوْ شُبْهَةٍ، **فَقَالَ**: هٰذا صَوْتُكَ، وَهٰذَا خَطُّكَ؛ فَأَيْنَ القُرْآنُ؟! **فَلْيَقُلْ لَهُ**: قَدْ أَجْمَعْنا أَنَا وَأَنْتَ عَلَىٰ وُجُودِ شَيْءٍ بِهِ نَحْتَجُّ جَمِيْعًا، وَكَمَا أَنَّكَ تُنْكِرُ عَلَيَّ أَنْ أثبت شَيْئًا لا يَتَحَقَّقُ لِي إِثباتُهُ حِسًّا؛ فَأَنَا أُنْكِرُ عَلَيْكَ كَيْفَ تنفي وُجُوْدَ شَيْءٍ قَدْ ثَبَتَ شَرْعًا؟!

٦٠٤ - وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: هَلْ فِي المُصْحَفِ إِلَّا وَرَقٌ وَعَفْصٌ وَزَاجٌ؟! فَهٰذَا كَقَوْلِ القَائِلِ: هَلِ الآدَمِيُّ إِلَّا لَحْمٌ وَدَمٌ؟! هَيْهَاتَ! إِنَّ مَعْنَى الآدَمِيِّ هُوَ الرُّوحُ؛ فَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ اللَّحْمِ والدَّمِ؛ وَقَفَ مَعَ الحِسِّ. فإنْ قَالَ: فَكَذَا أَقُوْلُ: إِنَّ المَكْتُوْبَ غَيْرُ الكِتَابَةِ. قُلْنَا لَهُ: وَهٰذَا مِمَّا نُنْكِرُهُ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّهُ لا يَثْبُتُ تَحْقِيْقُ هٰذَا لكَ وَلَا لِخَصْمِكَ: فَإِنْ أَرَدْتَ بِالكِتَابَةِ الحِبْرَ وَتَخْطِيْطَهُ؛ فَهَذَا لَيْسَ هُوَ القُرْآنَ، وَإِنْ أَرَدْتَ المَعْنَىٰ القَائِمَ بِذَلِكَ؛ فَهٰذا لَيْسَ هُوَ الكِتَابَةَ.

٦٠٥ - وَهٰذِهِ الأَشْيَاءُ لا يَصْلُحُ الخَوْضُ فِيْهَا؛ فَإِنَّ مَا دُوْنَها لا يُمْكِنُ تَحْقِيْقُهُ

---

[1] في الأصل: شبهته.

عَلَىٰ التَّفْصِيْلِ؛ كالرُّوْحِ مَثَلًا؛ فَإِنَّا نَعْلَمُ وُجُوْدَهَا فِي الجُمْلَةِ؛ فَأَمَّا حَقِيْقَتُهَا؛ فَلَا؛ فَإِذَا جَهِلْنَا حَقَائِقَها؛ كُنَّا لِصِفَاتِ الحَقِّ أَجْهَلَ. فَوَجَبَ الوُقُوْفُ مَعَ السَّمْعِيَاتِ، مَعَ نَفْيِ مَا لَا يَلِيْقُ بِالحَقِّ؛ لِأَنَّ الخَوْضَ يَزِيْدُ الخَائِضَ تَخْبِيْطًا، وَلا يَفِيْدُهُ تَحْصِيْلًا، بَلْ يُوْجِبُ عَلَيْهِ نَفْيَ ما يَثْبُتُ بِالسَّمْعِ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيْقِ أَمْرٍ عَقْلِيٍّ؛ فَلا وَجْهَ للسَّلامةِ إِلَّا طَرِيْقُ السَّلَفِ، والسَّلامُ.

٦٠٦ ـ وَكذٰلِكَ أَقُوْلُ: إِنَّ إِثْبَاتَ الإِلٰهِ بِظَوَاهِرِ الآيَاتِ وَالسُّنَنِ أَلْزَمُ لِلْعَوَامِّ مِنْ تَحْدِيْثِهِم بِالتَّنْزِيْهِ، وَإِنْ كَانَ التَّنْزِيْهُ لازِمًا. وقَدْ كانَ ابنُ عَقيلٍ يَقُوْلُ: الأَصْلَحُ لِاعْتِقَادِ العَوَامِّ[1] ظَوَاهِرُ الآي وَالسُّنَنِ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْنَسُوْنَ بِالإِثْبَاتِ؛ فَمَتَىٰ مَحَوْنا ذٰلِكَ مِنْ قُلُوْبِهِم؛ زَالَتِ السِّيَاسَاتُ وَالحِشْمَةُ، وَتَهَافُتُ العَوَامِّ فِي الشُّبْهَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِغراقِهِم في التَّنْزِيْهِ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيْهَ يَغْمِسُهُمْ فِي الإِثْبَاتِ، فَيَطْمَعُوْنَ وَيَخَافُوْنَ[2] شَيْئًا قَدْ أَنِسُوْا إِلىٰ مَا يُخَافُ مِثْلُهُ وَيُرْجىٰ؛ والتَّنْزِيْهُ يَرْمِي بِهِم إِلىٰ النَّفْيِ، وَلا طَمَعَ ولا مَخَافَةَ مِنَ النَّفْيِ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ الشَّرِيْعَة؛ رَآهَا غَامِسَةً لِلْمُكَلَّفِيْنَ فِي التَّشْبِيْهِ بِالأَلْفَاظِ، الَّتِي يُعْطِي ظَاهِرُها سِوَاهُ؛ كَقَوْلِ الأَعْرَابِيِّ: **أَوَ يَضْحَكُ رَبُّنا؟ قالَ: «نَعَمْ»**؛ فَلَمْ يَكْفَهِرَّ مِنْ هٰذا القَوْلِ.

١٢٤ - فصل: البلاء على العارف

٦٠٧ ـ أَعْظَمُ البَلايَا أَنْ: يُعْطِيَكَ هِمَّةً عاليةً، وَيَمْنَعَكَ مِنَ العَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، فَيَكُوْنَ مِنْ تَأْثِيْرِ هِمَّتِكَ الأَنَفَةُ مِنْ قَبُوْلِ إِرْفَاقِ الخَلْقِ[3]؛ اسْتِثْقالًا لِحَمْلِ مِنَنِهِم، ثُمَّ يَبْتَلِيَكَ بِالفَقْرِ، فَتَأْخُذَ مِنْهُم! وَيُلَطِّفَ مِزَاجَكَ، فَلا تَقْبَلُ مِنَ المَأْكُوْلاتِ مَا سَهُلَ إِحْضَارُهُ، فَتَحْتَاجُ إِلىٰ فَضْلِ نَفَقَةٍ، ثُمَّ يُقَلِّلَ رِزْقَكَ! وَيُعَلِّقَ هِمَّتَكَ بِالمُسْتَحْسَنَاتِ، وَيَقْطَعَ بِالفَقْرِ السَّبِيْلَ إِلَيْهِنَّ! وَيُرِيَكَ العُلُوْمَ فِي مَقَامِ مَعْشُوْقٍ، وَيُضْعِفَ بَدَنَكَ عَنِ

---

(١) جاء الإسلام للخواص والعوام بخطاب واحد، وما يسع العوام يسع الخواص.

(٢) في الأصل: فيطمعوا ويخافوا.

(٣) **عونهم** ومساعدتهم.

الإعادَةِ، وَيُخْلِيَ يَدَيْكَ مِنَ المَالِ الَّذِي تُحَصِّلُ بِهِ الكُتُبَ! وَيُقَوِّيَ تَوَقَكَ[1] إلى دَرَجَاتِ العَارِفِيْنَ وَالزُّهَّادِ، وَيُحْوِجَكَ إلىٰ مُخَالَطَةِ أَرْبَابِ الدُّنيا! وَهَذَا البَلَاءُ المُبِيْنُ.

٦٠٨ ـ وَأَمّا الخَسِيْسُ الهِمَّةِ، الَّذِي لا يَسْتَنْكِفُ مِنْ سُؤَالِ الخَلْقِ، وَلا يَرَىٰ الاسْتِبْدَالَ بِزَوْجَتِهِ، وَيَكْتَفِي بِيَسِيْرٍ مِنَ العِلْمِ، وَلا يَتُوْقُ إلىٰ أَحْوَالِ العَارِفِيْنَ؛ فَذَاكَ لا يُؤْلِمُهُ فَقْدُ شَيْءٍ، وَيَرَىٰ مَا وَجَدَ هُوَ الغَايَةَ؛ فَهُوَ يَفْرَحُ فَرَحَ الأَطْفَالِ بِالزَّخَارِفِ؛ فَمَا أَهْوَنَ الأَمْرَ عَلَيْهِ!

٦٠٩ ـ إِنَّمَا البَلَاءُ عَلىٰ العَارِفِ، ذِي الهِمَّةِ العَالِيَةِ، الّذِي تَدْعُوْهُ هِمَّتُهُ إلىٰ جَمِيْعِ الأَضْدَادِ، لِلتَّزَيُّدِ مِنْ مَقَامِ الكَمَالِ، وتَقْصُرُ خُطَاهُ عَنْ مَدَارِكِ مَقْصُوْدِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ حَالٍ يَنْفَدُ فِي طَرِيْقِهِ زَادُ الصَّابِرِيْنَ!

وَلَوْلَا حَالاتُ غَفْلَةٍ تَعْتَرِي هٰذَا المُبْتَلَىٰ يَعِيْشُ بِهَا؛ لَكَانَ دَوَامُ مُلاحَظَتِهِ لِلْمَقَامَاتِ يُعْمِي بَصَرَهُ، وَاجْتِهَادُهُ فِي السُّلُوْكِ يُحْفِي قَدَمَه. لٰكِنَّ مُلاحَظَاتِ الإِمْدَادِ لَهُ ـ تَارةً بِبُلُوْغِ بَعْضِ مُرَادِهِ، وَتَارَةً بِالغَفْلَةِ عَمَّا قَصَدَ ـ تُهَوِّنُ عَلَيْهِ العَيْشَ، وَهٰذَا كَلَامٌ عَزِيْزٌ؛ لا يَفْهَمُهُ إِلَّا أَرْبَابُهُ، وَلا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا أَصْحَابُهُ.

١٢٥ - فصل: ميزان العدل تَبين فيها الذرة

٦١٠ ـ تَرَاعَنَتْ[2] عَلَيَّ نَفْسِي فِي طَلَبِهَا شَيْئًا مِنْ أَغْرَاضِهَا بِتَأْوِيْلٍ فَاسِدٍ، فَقُلْتُ لَهَا: بِاللهِ عَلَيْكِ تَصَبِّرِي؛ فَإِنَّ فِي المَعْبَرِ شُغْلًا بِحَذَرِ الغَرَقِ مِنْ كَثْرَةِ المَوْجِ عَنِ التَّنَزُّهِ فِي عَجَائِبِ البَحْرِ!

٦١١ ـ إِذَا هَمَمْتِ بِفِعْلٍ؛ فَقَدِّرِي حُصُوْلَهُ، ثُمَّ تَلَمَّحِي عَوَاقِبَهُ، وَمَا تَجْتَنِيْنَ مِنْ ثَمَرَاتِهِ؛ فَأَقَلُّ ذٰلِكَ النَّدَمُ عَلىٰ مَا فَعَلْتِ، وَلا يُؤْمَنُ أَنْ يُثْمِرَ غضَبَ الحَقِّ ﷻ، وَإِعرَاضَهُ عَنْكِ؛ فَأُفٌّ لِلْقَاطِعِ عَنْهُ وَلَوْ كَانَ الجَنَّةَ!

٦١٢ ـ ثُمّ اعْلَمِي ـ أَيَّتُها النَّفْسُ ـ أَنَّه مَا يَمْضِي شَيْءٌ جُزَافًا، وَأَنَّ مِيْزَانَ العَدْلِ تَبِيْنُ فيه الذَّرَّةُ. فَتَلَمَّحِي الأَمْوَاتَ وَالأَحْيَاءَ، وانْظُرِي إلىٰ مَنْ نُشِرَ ذِكْرُهُ بِالخَيْرِ

---

(١) توقك: شوقك.

(٢) **تراعنت**: تحامقت.

وَالشَّرِّ، وَزِيَادَةِ ذٰلِكَ ونُقْصَانِهِ. فَسُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ دَلِيْلَ الخَلَوَاتِ عَلىٰ أَرْبَابِهَا، حَتّى إنّ حَبّات القُلُوْبِ تَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ الخَيْرِ، وَتَنْفُرُ مِنَ أَهْلِ الشَّرِّ؛ مِنْ غَيْرِ مُطَالَعَةٍ لِشَيْءٍ مَنْ أَعْمَالِ الكُلِّ.

٦١٣ ـ قَالَ إبْلِيْسُ: أَوَتَتْرُكُ مُرَادَكَ لأَجْلِ الخَلْقِ؟! **قُلْتُ**: لا؛ إنَّمَا هذا بَعْضُ الثَّمَرَاتِ الحَاصِلَةِ لا عَنِ طريقِ الغَرَضِ، وَنَحْنُ نَرَىٰ مَنْ يَمْشِي ثَلَاثِيْنَ فَرْسَخًا لِيُقَالَ: سَاعٍ؛ فَالمُتَّقِي قَدْ نَالَ شَرَفَ الذِّكْرِ ـ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ نَيْلَ ذٰلِك ـ مُتَرَجَّحًا لَهُ فِي وَزْنِ الجَزَاءِ، ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

٦١٤ ـ قَالَتِ النَّفْسُ: لَقَدْ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ عَلى العَذَابِ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الأَغْرَاضِ عَذَابٌ.

قُلْتُ: لَكِ عَنِ الغَرَضِ عِوَضٌ، وَمِنْ كُلِّ مَتْرُوكٍ بَدَلٌ، وَأَنْتِ في مَقَامِ مُسْتَعْبَدٍ، وَلا يَصِحُّ لِلأَجِيْرِ أَنْ يَلْبَسَ ثِيَابَ الرَّاحَةِ فِي زَمَانِ الاسْتِئْجَارِ، وَكُلُّ زَمَانِ المُتَّقِي نَهَارُ صَوْمٍ، وَمَنْ خَافَ العِقَابَ؛ تَرَكَ المُشْتَهَىٰ، ومَنْ رَامَ القُرْبَ؛ اسْتَعْمَلَ الوَرَعَ، وِللصَّبْرِ حَلَاوَةٌ تَبِيْنُ فِي العَوَاقِبِ.

١٢٦ - فصل: ابتعد عن أسباب الفتنة

٦١٥ ـ مَنْ نَازَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَىٰ لَذةٍ مُحَرَّمةٍ، فَشَغَلَهُ نَظَرُهُ إِلَيْهَا عَنِ تَأَمُّلِ عَوَاقِبِهَا وَعِقَابِهَا، وَسَمِعَ هُتَافَ العَقْلِ يُنَادِيْهِ: وَيْحَكَ! لا تَفْعَلْ! فَإِنَّكَ تَقِفُ عَنِ الصُّعُوْدِ، وَتَأْخُذُ فِي الهُبُوْطِ، وَيُقَالُ لَكَ: ابْقَ بِمَا اخْتَرْتَ! فَإِنْ شَغَلَهُ هَوَاهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَىٰ مَا قِيْلَ لَهُ؛ لَمْ يَزَلْ فِي نُزُوْلٍ، وَكَان مَثَلُهُ فِي سُوْءِ اخْتِيَارِهِ كَالمَثَلِ المَضْرُوْبِ: أَنَّ الكَلْبَ قَالَ لِلأَسَدِ: يَا سَيِّدَ السِّبَاعِ! غيِّر اسمِي؛ فَإِنَّهُ قَبِيْحٌ. **فَقَالَ لَهُ**: أَنْتَ خَائِنٌ، لا يَصْلُحُ لَكَ غَيْرُ هٰذا الاسْمِ. **قَالَ**: فَجَرِّبْنِي. فَأَعْطَاهُ شِقَّةَ لَحْمٍ، **وَقَالَ**: احْفَظْ لِيْ هٰذِهِ إلى غَدٍ، وَأَنا أُغَيِّرُ اسْمَكَ. فَجَاعَ، وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلىٰ اللَّحْمِ، وَيَصْبِرُ، فَلَمَّا غَلَبَتْهُ نَفْسُه؛ **قَالَ**: وَأَيُّ شَيْءٍ باسْمِي؟! وَمَا كَلْبٌ إلَّا اسم حَسَنٌ. فَأَكَلَ! وهٰكَذَا الخَسِيْسُ الهِمَّةِ، القَنُوْعُ بِأَقَلِّ المَنَازِلِ، المُخْتَارُ عَاجِلَ الهَوَىٰ عَلىٰ آجِلِ الفَضَائِلِ.

٦١٦ - فَاللهَ اللهَ فِي حَرِيْقِ الهَوَىٰ إِذَا ثَارَ! وَانْظُرْ كَيْفَ تُطْفِئُهُ؟ فَرُبَّ زَلَّةٍ أَوْقَعَتْ فِي بِئْرِ بَوَارٍ[١]، وَرُبَّ أَثَرٍ لَمْ يَنْقَلِعْ[٢]، والفَائِتُ لا يُسْتَدْرَكُ عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ. فابعُدْ عَنْ أَسْبَابِ الفِتْنَةِ؛ فَإِنَّ المُقَارَبَةَ مِحْنَةٌ لا يَكَادُ صَاحِبُهَا يَسْلَمُ. والسَّلَامُ.

١٢٧ - فصل: البشر كلهم في حرب

٦١٧ - رَأَيْتُ الخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي صَفِّ مُحَارَبَةٍ، والشَّيَاطِيْنُ يَرْمُوْنَهُم بِنَبْلِ الهَوَىٰ، وَيَضْرِبُوْنَهُمْ بِأَسْيَافِ اللَّذَّةِ. فَأَمّا **المُخلطُوْنَ**؛ فَصَرْعىٰ مِنْ أَوَّلِ وَقْتِ اللِّقَاء. وأما **المُتَّقُوْنَ**؛ فَفِي جُهْدٍ جَهِيْدٍ مِنَ المُجَاهَدَةِ! فلا بُدَّ مَعَ طُوْلِ الوُقُوْفِ فِي المُحَارَبَةِ مِنْ جِرَاحٍ؛ فَهُمْ يَجْرَحُوْنَ وَيُدَاوَوْنَ؛ إِلَّا [أَنَّهُم مِنَ القَتْلِ مَحْفُوْظُوْنَ][٣]. بَلَىٰ؛ إِنَّ الجِرَاحَةَ فِي الوَجْهِ شَيْنٌ بَاقٍ؛ فَلْيَحْذَرْ ذٰلكَ المُجَاهِدُوْنَ.

١٢٨ - فصل: الدنيا فخ والجاهل يقع بأول نظرة

٦١٨ - الدُّنْيَا فَخٌّ، وَالجَاهِلُ بِأَوَّلِ نَظْرَةٍ يَقَعُ، فَأَمَّا العَاقِلُ المُتَّقِي؛ فَهُوَ يُصَابِرُ المَجَاعَةَ، وَيَدُوْرُ حَوْلَ الحَبِّ، والسَّلَامَةُ بَعِيْدَةٌ؛ فَكَمْ مِنْ صَابِرٍ اجْتَهَدَ سِنِيْنَ، ثُمَّ في آخِرِ الأَمْرِ وَقَعَ!

فَالحَذَرَ الحَذَرَ؛ فَقَدْ رَأَيْنا مَنْ كَانَ عَلَىٰ سَنَنِ الصَّوَابِ[٤]، ثُمَّ زَلَّ عَلَىٰ شَفِيْرِ القَبْرِ[٥].

١٢٩ - فصل: للذنوب تأثيرات قبيحة

٦١٩ - اعْلَمُوا - إِخْوَانِي، وَمَنْ يَقْبَلُ نَصِيْحَتِي! - أَنَّ لِلذُّنُوْبِ تَأْثِيْرَاتٍ قَبِيْحَةً، مَرَارَتُهَا تَزِيْدُ عَلَىٰ حَلاوَتِهَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَالمُجَازِي بِالمِرْصَادِ؛ لا يَسْبِقُهُ شَيْءٌ،

---

(١) **البوار**: الهلاك.
(٢) **لم ينقلع**: لم يزل.
(٣) في الأصل: إن القتل محفوظ.
(٤) **سنن الصواب**: طرق الصواب.
(٥) **شفير القبر**: حافته أي اقتراب الأجل.

ولا يفوتُه. أوَ لَيْسَ يُرْوَىٰ في التَّفْسِيْرِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مَنْ أَوْلادِ يَعْقُوْبَ عَلَيْهِم السَّلامُ ـ وَكَانُوْا ٱثْنَي عَشَرَ ـ وُلِدَ له اثنا عَشْرَ وَلَدًا؛ إِلَّا يُوْسُفَ؛ فَإِنَّه وُلِدَ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ، وُجُوْزِيَ بِتِلْكَ الهَمَّةِ[1]، فَنُقِصَ وَلَدًا.

٦٢٠ ـ فَوَا أَسَفا لِمَضْرُوْبٍ بِالسِّياطِ مَا يُحِسُّ بَالأَلَمِ! وَلِمُثْخَنٍ بِالجِرَاحِ، وَمَا عِنْدَهُ مِنْ نَفْسِهِ خَبَرٌ! وَلِمُتقلِّبٍ فِي عُقُوْبَاتٍ مَا يَدْرِيْ بِهَا! وَلَعَمْرِي إِنَّ أَعْظَمَ العُقُوْبَةِ أَنْ لا يَدْرِي بِالعُقُوْبَةِ.

٦٢١ ـ فَوَا عَجَبًا لِلْمُغَالِطِ نَفْسَه! يُرْضِي رَبَّهُ بِطَاعَةٍ، ثُمَّ يُرضِي نَفْسَهُ بِشَهْوَةٍ[2]، وَيَقُوْلُ: حَسَنَةٌ وَسَيِّئَةٌ!

٦٢٢ ـ وَيْحَكَ! مِنْ كِيْسِكَ تُنْفِقُ، وَمِنْ بِضَاعَتِكَ تَهْدِمُ، وَوَجْهُ جَاهِكَ تَشِيْنُ! رُبَّ جِرَاحَةٍ قَتَلَتْ، وَرُبَّ عَثْرَةٍ أَهْلَكَتْ، وَرُبَّ فارِطٍ[3] لا يُسْتَدْرَكُ.

٦٢٣ ـ وَيْحَكَ! انْتَبِهْ لِنَفْسِكَ، مَا الَّذِي تنْتَظِرُ بِأَوْبَتِكَ؟ وَمَاذا تَتَرَقَّبُ بِتَوْبَتِكَ؟ المَشِيْبَ؟ فَهَا هُوَ ذَا أَوْهَنَ العَظْمَ! وَهَلْ بَعْدَ رَحِيْلِ الأَهْلِ وَالأَوْلادِ وَالأَقَارِبِ إِلَّا اللِّحَاقُ؟!

قَدِّرْ أَنَّ مَا تُؤَمِّلُهُ مِنَ الدُّنيا قَدْ حَصَلَ، فَكَانَ مَاذَا؟! إِمَّا هُوَ عَاجِلٌ؛ فَشَغَلَكَ عَاجِلًا، ثُمَّ آخِرُ جَرْعَةِ اللَّذَّةِ شَرْقَةٌ[4]! وإِمَّا أَنْ تُفارِقَ مَحْبُوبَكَ أو يُفَارِقَكَ. فَيَا لَهَا جُرْعَةً مَرِيْرَةً تَوَدُّ عِنْدَهَا أَنْ لَوْ لَمْ تَرَه!

٦٢٤ ـ آهٍ لِمَحْجُوْبِ العَقْلِ عَنِ التَأَمُّلِ، وَلِمَصْدُوْدٍ عَنِ الوُرُوْدِ، وَهُوَ يَرَىٰ المَنْهَلَ! أَما فِي هٰذِهِ القُبُوْرِ نَذِيْرٌ؟! أَما فِي كُرُوْرِ الزَّمَانِ زَاجِرٌ؟! أَيْنَ مَنْ مَلَكَ وَبَلَغَ المُنَىٰ فِيْمَا أَمَّلَ؟!.

نادِهِم فِي نَادِيْهِم! هَيْهَاتَ؛ صَمُّوا عَنْ مُنَادِيْهِم. فَلَو أَنَّ مَا بِهِم المَوْتَ، إِنَّمَا القُبُوْرُ هُنَيَّةٌ. العَمَلَ حَصِّلْ يا مَعْدُوْمًا بِالأَمْسِ! يَا مُتَلاشِيَ الأَشْلَاءِ فِي الغَدِ!

---

(١) انظر سورة يوسف: الآية (٢٣).
(٢) في الأصل: بمعصية.
(٣) **الفارط**: الذنب السابق.
(٤) **الشرقة**: هو حسوة تملأ الفم. وهو حرف ما زال مستعملًا عندنا في الشام.

بِأَيِّ وَجْهٍ تَلْقَىٰ رَبَّكَ؟! أَيُسَاوِي مَا تَنَالُه مِنَ الهَوَى لَفْظَ عِتَابٍ؟!

٦٢٥ ـ بِالله؛ إِنَّ الرَّحْمَةَ بَعْدَ المُعَاتَبَةِ رُبَّمَا لَمْ تَسْتَوْفِ قَلْعَ[١] البُغْضَةِ مِنْ صَمِيْمِ القَلْبِ؛ فَكَيْفَ إِنْ أَعْقَبَ العِتَابَ عِقَابٌ؟!

٦٢٦ ـ وَقَدْ أَخْبَرَنا عَبْدُ الرَّحْمٰن بْنُ مُحَمَّدٍ القزَّازُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنا أَبُوْ بَكْرٍ الخَطِيْبُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ المُعَدِّلُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُوْ الفَضْلِ الزُّهْرِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنا أَبُوْ العَبَّاسِ بْنُ وَاصِلٍ المُقْرِئُ؛ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الصَّيْرَفِيَّ؛ قَالَ: رَأَىٰ جَارٌ لَنَا يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ[٢] بَعْدَ مَوْتِهِ فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ بِكَ ربُّكَ؟ فَقَالَ: وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: سَوْءَةً لكَ يا شَيْخُ! فَقُلْتُ: يا رَبِّ! إِنَّ رَسُوْلَكَ قَالَ: إِنَّكَ لَتَسْتَحِي مِنْ أَبْنَاءِ الثَّمَانِيْنَ أَنْ تُعَذِّبَهُم[٣]، وَأَنا ابْنُ ثَمَانِيْنَ، أَسِيْرُ اللهِ فِي الأَرْضِ. فَقَالَ لِي: صَدَقَ رَسُوْلي؛ قَدْ عَفَوْتُ عنكَ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلْمٍ الخَوَّاصِ؛ قَالَ: رَأَيْتُ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمَ في المَنَامِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: أَوْقَفَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ لِي: يا شَيْخَ السَّوْءِ! لَوْلَا شَيْبَتُكَ، لَأَحْرَقْتُكَ بِالنَّارِ.

وَالمَقْصُوْدُ مِنْ هٰذا النَّظَرُ بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ؛ هَلْ يَفِي هٰذَا بِدُخُوْلِ الجَنَّةِ؛ فَضْلًا عَنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا؟ فَنَسْأَلُ الله ﷻ أَنْ يُنَبِّهَنا مِنْ رَقَدَاتِ الغَافِلِيْنَ، وَأَنْ يُرِيَنا الأَشْيَاء كَمَا هِيَ؛ لِنَعْرِفَ عُيُوْبَ الذُّنُوْبِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٣٠ - فصل: من يتوكل على الله فهو حسبه

٦٢٧ ـ ضَاقَ بِي أَمْرٌ أَوْجَبَ غَمًّا لازِمًا دَائِمًا، وَأَخَذْتُ أُبَالِغُ فِي الفِكْرِ في الخَلاصِ مِنْ هٰذِهِ الهُمُوْمِ بِكُلِّ حِيْلَةٍ وَبِكُلِّ وَجْهٍ؛ فَمَا رَأَيْتُ طريقًا لِلْخَلاصِ، فَعَرَضَتْ

---

(١) **قلع**: إزالة.

(٢) يحيى بن أكثم المروزي، أبو محمد، قاضي، رفيع القدر، عالي الشهرة، من نبلاء الفقهاء، ولاه المأمون قضاء بغداد توفي سنة (٢٤٢هـ) منصرفًا من الحج، وقد بلغ ثلاثًا وثمانين سنة.

(٣) رواه أبو نعيم عن عائشة.

لِي هٰذِهِ الآيةُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فَعَلِمْتُ أَنَّ التَّقْوىٰ سَبَبٌ لِلمَخْرَجِ مِنْ كُلِّ غَمٍّ، فَمَا كانَ إِلَّا أَنْ هَمَمْتُ بِتَحْقِيْقِ التَّقْوىٰ، فَوَجَدْتُ المَخْرَجَ.

فَلا يَنْبَغِي لِمَخْلُوْقٍ أَنْ يَتَوَكَّلَ أَوْ يَتَسَبَّبَ أَوْ يَتَفَكَّرَ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَامْتِثَالِ أَمْرِه؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ سَبَبٌ لِفَتْحِ كُلِّ مُرْتَجٍ[1]. ثُمَّ أَعْجَبُهُ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُقَدِّره المُتَفَكِّرُ المُحْتَالُ المُدَبِّرُ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

٦٢٨ ـ ثُمَّ يَنْبَغِي لِلْمُتَّقِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله ﷻ كَافِيهِ؛ فلا يُعَلِّقَ قَلْبَه بِالأَسْبَابِ؛ فَقَدْ قَالَ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

١٣١ - فصل: نظف طرق الإجابة من أدران الذنوب

٦٢٩ ـ مِنَ العَجَبِ إِلْحَاحُكَ فِي طَلَبِ أَغْرَاضِكَ! وَكُلَّمَا زَادَ تَعْوِيْقُهَا؛ زَادَ إِلْحَاحُكَ! وَتَنْسَى أَنَّهَا قَدْ تَمْتَنِعُ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمّا **لِمَصْلَحَتِكَ**؛ فَرُبَّمَا [طَلَبْتَ] مُعَجَّلَ أَذًى، وإِمَّا **لِذُنوبِكَ**؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الذُّنُوْبِ بَعِيْدٌ مِنَ الإِجَابَةِ. فَنَظِّفْ طُرُقَ الإِجَابَةِ مِنْ أَوْسَاخِ المَعَاصِي، وَانْظُرْ فِيْمَا تَطْلُبُه؛ هَلْ هُوَ لِإِصْلَاحِ دِيْنِكَ، أَوْ لِمُجَرَّدِ هَوَاكَ؟

فَإِنْ كَانَ لِلْهَوَىٰ المُجَرَّدِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ اللُّطْفِ بِكَ وَالرَّحْمَةِ لَكَ تَعْوِيْقَهُ، وَأَنْتَ فِي إِلْحَاحِكَ بِمَثَابَةِ الطِّفْلِ يَطْلُبُ مَا يُؤْذِيْهِ، فَيُمْنَعُ رِفقًا بِهِ.

وَإِنْ كَانَ لِصَلَاحِ دِيْنِكَ؛ فَرُبَّمَا كَانَتِ المَصْلَحَةُ تَأْخِيْرَهُ، أَوْ كَانَ صَلَاحُ الدِّيْنِ بِعَدَمِهِ.

وَفِي الجُمْلَةِ؛ تَدْبِيْرُ الحَقِّ ﷻ لَكَ خَيْرٌ مِنْ تَدْبِيْرِكَ، وَقَدْ يَمْنَعُكَ مَا تَهْوَىٰ ابْتِلاءً؛ لِيَبْلُوَ صَبْرَكَ؛ فَأَرِهِ الصَّبْرَ الجَمِيْلَ؛ تَرَ عَنْ قُرْبٍ ما يَسُرُّ.

وَمَتَى نَظَّفْتَ طُرُقَ الإِجَابَةِ مِنْ أَدْرَانِ الذُّنُوْبِ، وَصَبَرْتَ عَلَىٰ مَا يَقْضِيْهِ لَكَ؛ فَكُلُّ ما يَجْرِي أَصْلَحُ لَكَ؛ عَطَاءً كَانَ أَوْ مَنْعًا.

١٣٢ - فصل: الاستعداد للموت

٦٣٠ ـ يَجِبُ عَلَىٰ مَنْ لا يَدْرِي مَتَى يَبْغَتُهُ المَوْتُ أَنْ يَكُوْنَ مُسْتَعِدًّا، وَلا يَغْتَرَّ

---

(١) **المرتج**: المقفل.

بِالشَّبَابِ والصِّحَّةِ؛ فَإِنَّ أَقَلَّ مَنْ يَمُوْتُ الأَشْيَاخُ، وَأَكْثَرَ مَنْ يَمُوْتُ الشُّبَانُ، ولِهٰذَا يَنْدُرُ مَنْ يَكْبَرُ، وَقَدْ أَنْشَدُوْا.

يُعَمَّرُ وَاحِدٌ فَيَغُرُّ قَوْمًا ... وَيُنْسَى مَنْ يَمُوْتُ مِنَ الشَّبَابِ

٦٣١ ـ وَمِن الاغْتِرَارِ طُوْلُ الأَمَلِ، وَمَا مِنْ آفَةٍ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ فَإِنَّه لَوْلا طُوْلُ الأَمَلِ؛ ما وَقَعَ إِهْمَالٌ أَصْلًا، وَإِنَّمَا تُقَدَّمُ المَعَاصِي، وتُؤَخَّرُ التَّوْبَة؛ لِطُوْلِ الأَمَلِ، وَتُبَادَرُ الشَّهَواتُ، وَتُنْسَى الإِنابةُ؛ لِطُوْلِ الأَمَلِ.

٦٣٢ ـ وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قَصْرَ الأَمَلِ؛ فَاعْمَلْ عَمَلَ قَصِيْرِ الأَمَلِ: وَلا تُمْسِ حَتَّى تَنْظُرَ فِيْمَا مَضَىٰ مِنْ يَوْمِكَ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ زَلَّةً؛ فامْحُهَا بِتَوْبَةٍ، أَوْ خَرْقًا؛ فَارْقَعْهُ بِاسْتِغْفَارٍ. وَإِذَا أَصْبَحْتَ؛ فَتَأَمَّلْ مَا مَضَىٰ فِي لَيْلِكَ. وَإِيَّاكَ والتَّسْوِيْفَ؛ فَإِنَّه أَكْبَرُ جُنُوْدِ إِبْلِيْسَ.

وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَىٰ مُهْلَةٍ ... وَمُقْبِلُ عَيْشِكَ لَمْ يُدْبِرِ
وَخَفْ هَجْمَةً لا تُقِيْلُ العِثَا ... رَ وَتَطْوِي الوُرُوْدَ عَلَىٰ المَصْدَرِ
وَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيَّ الرَّعِيْلِ ... يَضُمُّكَ فِي حَلْبَةِ المَحْشَرِ

ثُمَّ صَوِّرْ لِنَفْسِكَ قِصَرَ العُمُرِ، وكَثْرَةَ الأَشْغَالِ، وَقُوَّةَ النَّدَمِ عَلَىٰ التَّفْرِيْطِ عِنْدَ المَوْتِ، وَطُوْلَ الحَسْرَةِ عَلَىٰ البِدَارِ بَعْدَ الفَوْتِ. وصَوِّرْ ثوابَ الكَامِلِيْنَ وَأَنْتَ نَاقِصٌ، وَالمُجْتَهِدِيْنَ وَأَنْتَ مُتَكَاسِلٌ.

٦٣٣ ـ وَلا تُخْلِ نَفْسَكَ مِنْ مَوْعِظَةٍ تَسْمَعُهَا، وفِكْرَةٍ تُحَادِثُها بِهَا؛ فَإِنَّ النَّفْسَ كَالفَرَسِ المُتَشَيْطِنِ[1]: إِنْ أَهْمَلْتَ لِجَامَه؛ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَرْمِيَ بك. وَقَدْ واللهِ دَنَّسَتْكَ أَهْوَاؤُكَ، وَضَيَّعَتْ عُمُرَك.

فالبِدَارَ البِدَارَ فِي الصِّيَانَةِ قَبْلَ تَلَفِ البَاقِي بِالصَّبَابَةِ[2]؛ فَكَمْ تَعَرْقَلَ فِي فَخِّ الهَوَىٰ جَناحُ حَازِمٍ! وَكَمْ وَقَعَ فِي بِئْرِ بَوَارٍ مَخْمُوْرٌ[3]! ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

---

(١) **المتشيطن**: الجامح الشموس.
(٢) الصبابة: العشق والهوى.
(٣) **المخمور**: السكران.

١٣٣ - فصل: الحذر من المعاصي

٦٣٤ - الحَذَرَ الحَذَرَ مِنَ المَعَاصِي؛ فَإِنَّ عَوَاقِبَها سَيِّئَةٌ. وَكَمْ مِنْ مَعْصِيَةٍ لا يَزَالُ صَاحِبُها فِي هُبُوْطٍ أَبدًا؛ مَعَ تَعْثِيْرِ أَقْدَامِهِ، وَشِدَّةِ فَقْرِهِ، وحَسَراتِهِ عَلَى مَا يَفُوْتُهُ مِنَ الدُّنيا، وَاحَسْرةً لِمَنْ نَالَها، فَلَوْ قَارَبَ زَمَانُ جَزَائِهِ عَلَى قَبِيْحه الّذِي ارْتَكَبَهُ؛ كَانَ اعْتِرَاضُهُ عَلىٰ القَدَرِ في فَوَاتِ أَغْرَاضِهِ يُعِيْدُ العَذَابَ جَدِيْدًا!

٦٣٥ - فَوَا أَسَفا لِمُعَاقَبٍ لا يُحِسُّ بِعُقُوْبَتِهِ! وَآهٍ مِنْ عِقَابٍ يَتَأَخَّرُ حَتَّى يُنْسَىٰ سَبَبُهُ. أَوَلَيْسَ ابْنُ سِيْرِيْنَ يَقُوْلُ: عَيَّرْتُ رَجُلًا بِالفَقْرِ، فَافْتَقَرْتُ بَعْدَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً؟! وَابْنُ الجَلَّاءِ يَقُوْلُ: نَظَرْتُ إِلىٰ شَابٍّ مُسْتَحْسَنٍ، فَنَسِيْتُ القُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً.

فَوَا حَسْرَةً لِمُعَاقَبٍ لا يَدْرِيْ أَنَّ أَعْظَمَ العُقُوْبَةِ عَدَمُ الإِحْسَاسِ بِهَا!

٦٣٦ - فاللهَ اللهَ فِي تَجْوِيْدِ التَّوْبَةِ، عَسَاهَا تَكُفُّ كَفَّ الجَزَاءِ.

وَالحَذَرَ الحَذَرَ مِنَ الذُّنُوْبِ؛ خُصُوْصًا ذُنُوْبَ الخَلَواتِ؛ فَإِنَّ المُبَارَزَةَ للهِ تَعَالَىٰ تُسْقِطُ العَبْدَ مِنْ عَيْنِهِ. وَأَصْلِحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فِي السِّرِّ؛ وَقَدْ أَصْلَحَ لَكَ أَحْوَالَ العَلانِيَةِ، وَلا تَغْتَرَّ بِسَتْرِهِ أَيُّها العَاصِي؛ فَرُبَّمَا يَجْذِبُ عَنْ عَوْرَتِكَ[١]، ولا بِحِلْمِهِ؛ فَرُبَّمَا بَغَتَ[٢] العِقَابُ.

٦٣٧ - وعَلَيْكَ بِالقَلَقِ وَاللَّجَإِ إِلَيْهِ والتَضَرُّعِ؛ فَإِنْ نَفَعَ شَيْءٌ؛ فَذٰلِكَ، وَتَقَوَّتْ بِالحُزْنِ، وَتَمَزَّزْ[٣] كَأْسَ الدَّمْعِ، وَاحْفِرْ بِمِعْوَلِ الأَسَىٰ قَلِيْبَ قَلْبٍ[٤] الهَوَىٰ؛ لَعَلَّكَ تُنْبِطُ[٥] مِنَ المَاءِ ما يَغْسِلُ جِرمَ[٦] جُرْمِكَ[٧].

١٣٤ - فصل: من عظم الله عظم الله قدره

٦٣٨ - إِخْوَانِي! اسْمَعُوْا نَصِيْحَةَ مَنْ قَدْ جَرَّبَ وَخَبَرَ. إِنَّهُ بِقَدْرِ إِجْلَالِكُم للهِ ﷻ

---

(١) يكشفها.
(٢) **بغت**: فاجأ.
(٣) **تمزز**: مصّ.
(٤) **القليب**: البئر.
(٥) **تنبط الماء**: تستخرج الماء.
(٦) **جِرم**: جسم.
(٧) **جُرمك**: إثمك وذنبك.

يُجِلُّكُم، وَبِمِقْدَارِ تَعْظِيْمِ قَدْرِهِ واحترامِهِ يُعَظِّمُ أقدارَكم وحُرْمَتَكُم.

٦٣٩ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ - واللهِ - **مَنْ أَنْفَقَ عُمُرَهُ فِي العِلْمِ، إِلىٰ أَنْ كَبِرَتْ سِنُّهُ**، ثُمَّ تَعَدَّىٰ الحُدُوْدَ، فَهَانَ عِنْدَ الخَلْقِ، وَكَانُوْا لا يَلْتَفِتُوْنَ إِلَيْهِ؛ مَعَ غَزَارَةِ عِلْمه، وَقُوَّةِ مُجَاهَدَتِهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ **مَنْ كَانَ يُرَاقِبُ اللهَ ﷻ فِي صَبْوَتِهِ**[1] مَعَ قُصُوْرِهِ بِالإِضَافَةِ إِلىٰ ذٰلِكَ العَالِمِ - فَعَظَّمَ اللهُ قَدْرَهُ في القُلُوْبِ، حَتَّىٰ عَلِقَتْهُ[2] النُّفُوْسُ، ووَصَفَتْهُ بِمَا يَزِيْدُ عَلىٰ ما فِيْهِ مِنْ الخَيْرِ.

وَرَأَيْتُ **مَنْ كَانَ يَرَىٰ الاسْتِقَامَةَ إِذَا اسْتَقَامَ**[3]: فَإِذَا زَاغ؛ مَالَ عَنْهُ اللُّطْفُ. وَلَوْلا عُمُوْمُ السَّتْرِ، وَشُمُوْلُ رَحْمَةِ الكَرِيْمِ؛ لافْتُضِحَ هؤلاءِ المَذْكُوْرُوْنَ. غَيْرَ أَنَّهُ فِي الأَغْلَبِ تَأْدِيْبٌ أَوْ تَلَطُّفٌ فِي العِقَابِ؛ كَمَا قِيْلَ:

وَمَنْ كَانَ فِي سُخْطِهِ مُحْسِنًا ... فَكَيْفَ يَكُوْنُ إِذَا مَا رَضِي

غَيْرَ أَنَّ العَدْل لا يُحَابِي، وَحَاكِمَ الجَزَاءِ لا يَجُورُ، وَمَا يَضِيْعُ عِنْدَ الأَمِيْنِ شَيْءٌ.

١٣٥ - فصل: ملازمة مجلس الإنابة

٦٤٠ - أَيُّها المُذْنِبُ! إِذَا أَحْسَسْتَ نَفَحَاتِ الجَزَاءِ؛ فَلا تُكْثِرَنَّ الضَّجِيْجَ، وَلا تَقُوْلَنَّ: قَدْ تُبْتُ ونَدِمْتُ؛ فَهَلَّا زَالَ عَنِّي مِنَ الجَزَاءِ مَا أَكْرَهُ! فَلَعَلَّ تَوْبَتَكَ مَا تَحَقَّقَتْ.

وإِنَّ للمُجَازَاةِ زَمَانًا يَمْتَدُّ امْتِدَادَ المَرَضِ الطَّوِيْلِ؛ فلا تَنْجَعُ فِيْهِ الحِيَلُ، حَتَّى يَنْقَضِيَ أَوَانُهُ. وَإِنَّ بَيْنَ زَمَانِ ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ [طه: ١٢١] إِلىٰ إِبَانِ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ [البقرة: ٣٧] مُدَّةً مَدِيْدَةً[4].

٦٤١ - فَاصْبِرْ أَيُّهَا الخَاطِئُ حَتَّى يَتَخَلَّلَ مَاءُ عَيْنَيْكَ خِلَالَ ثَوْبِ القَلْبِ المُتَنَجِّس؛ فَإِذَا عَصَرَتْهُ كَفُّ الأَسَىٰ، ثُمَّ تَكَرَّرَتْ دُفَعُ الغَسَلاتِ؛ حُكِمَ بِالطَّهَارَةِ.

---

(١) **صبوته**: صباه.
(٢) **علقته**: أحببته.
(٣) أي: يرى التوفيق إذا أطاع ربه.
(٤) **مديدة**: طويلة.

٦٤٢ ـ بَقِيَ **آدَمُ** يَبْكِي عَلىٰ زَلَّتِهِ ثَلاثَ مِئَةِ سَنَةٍ. وَمَكَثَ **أَيُّوبُ** عليه السلام في بَلائِهِ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سنةً، وَأَقامَ **يَعْقُوبُ** يَبْكِي عَلىٰ **يُوسُفَ** عليه السلام ثَمانِيْنَ سَنةً، وَللبلايا أَوْقَاتٌ، ثُمَّ تَنْصَرِمُ. وَرُبَّ عُقُوْبَةٍ امْتَدَّتْ إِلىٰ زَمَانِ المَوْتِ.

٦٤٣ ـ فاللّازِمُ لَكَ أَنْ تُلازِمَ مِحْرَابَ الإِنَابَةِ، وتَجْلِسَ جِلْسَةَ المُسْتَجْدِي، وَتَجْعَلَ طَعامَكَ الْقَلَقَ، وَشَرَابَكَ البُكَاءَ؛ فَرُبَّمَا قَدِمَ بَشِيْرُ القَبُوْلِ، فَٱرْتَدَّ **يَعْقُوْبُ** الحُزْنِ بَصِيْرًا، وَإِنْ مُتَّ فِي سِجْنِ شَجَنِكَ؛ فَرُبَّمَا نَابَ حُزْنُ الدُّنيا عَنْ حُزْنِ الآخِرَةِ، وفي ذٰلِكَ رِبْحٌ عَظِيْمٌ.

١٣٦ - فصل: دموع الندم تطفئ نيران الذنوب

٦٤٤ ـ الوَاجِبُ عَلىٰ العَاقِلِ أَنْ يَحْذَرَ مَغَبَّةَ المَعَاصِي؛ فَإِنَّ نَارَها تَحْتَ الرَّمادِ. وَرُبَّما تَأَخَّرتِ العُقُوْبَةُ، ثُمَّ فَجأَتْ، وَرُبَّمَا جاءَتْ مُسْتَعْجِلَةً. فَلْيُبَادِرْ بِإِطْفَاءِ مَا أَوْقَدَ مِنْ نِيْرَانِ الذُّنُوْبِ، وَلا مَاءَ يُطْفِئُ تِلْكَ النارَ إِلَّا مَا كانَ مِنْ عَيْنِ العَيْنِ؛ لَعَلَّ خَصْمَ الجَزَاءِ يَرْضَىٰ قَبْلَ أَنْ يَبُتَّ الحَاكِمُ في حُكْمِهِ.

١٣٧ - فصل: اقبل نصحي يا مخدوعًا بغرضه

٦٤٥ ـ وَاعَجَبًا مِنْ عَارِفٍ بِالله عز وجل يُخَالِفُه، وَلَوْ فِي تَلَفِ نَفْسِهِ! هَلِ العَيْشُ إِلَّا مَعَهُ؟! هَلِ الدُّنيا والآخِرَةُ إِلَّا لَهُ؟!

٦٤٦ ـ أُفٍّ لِمُتَرَخِّصٍ فِي فِعْلِ مَا يَكْرَهُ لِنَيْلِ مَا يُحِبُّ! تَاللهِ؛ لَقَدْ فَاتَهُ أَضْعَافُ ما حَصَّلَ. أَقْبِلْ عَلىٰ مَا أَقُوْلُه يا ذَا الذَّوْقِ! هَلْ وَقَعَ لَكَ تَعْثِيْرٌ فِي عَيْشٍ، وَتَخْبِيْطٌ فِي حَالٍ إِلَّا حَالَ مُخَالَفَتِهِ؟!

وَلَا ٱنْثَنَى عَزْمِيَ عَنْ بَابِكُمْ ... إِلَّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

٦٤٧ ـ أَمَا سَمِعْتَ تِلْكَ الحِكَايَةَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ عَلَى سُوْرِ **بَيْرُوْتَ** شَابًّا يَذْكُرُ الله تَعَالَى، **فَقُلْتُ لَهُ**: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ **فَقَالَ**: إِذَا وَقَعَتْ لِي حَاجَةٌ؛ سَأَلْتُهُ إِيَّاهَا بِقَلْبِي فَقَضَاهَا.

٦٤٨ - يَا أَرْبَابَ المُعَامَلَةِ! بِاللهِ عَلَيْكُم؛ لا تُكَدِّرُوْا المَشْرَبَ! قِفُوا عَلىٰ بَابِ المُرَاقَبَةِ وُقُوْفَ الحُرَّاسِ! وَادْفَعُوْا مَا لا يَصْلُحُ أَنْ يَلِجَ فَيُفْسِدَ! وَاهْجُرُوْا أَغْرَاضَكُمْ لِتَحْصِيْلِ مَحْبُوْبِ الحَبِيْب؛ فَإِنَّ أَغْرَاضَكُم تَحْصُلُ. عَلَىٰ أَنَّنِي أَقُوْلُ: أُفٍّ لِمَنْ تَرَكَ بِقَصْدِ الجزاءِ! أَهٰذَا شَرْطُ العُبُوْدِيَّة؟! كَلَّا؛ إِنَّما يَنْبَغِي لي إِذَا كُنْتُ مَمْلُوْكًا أَنْ أَفْعَلَ لِيَرْضَى لَا لأُعْطَىٰ؛ فَإِنْ كُنْتُ مُحِبًّا؛ رَأَيْتُ قَطْعَ الآرابِ[1] فِي رِضَاهُ وَصْلًا.

٦٤٩ - اِقْبَلْ نُصْحِي يَا مَخْدُوْعًا بِغَرَضِهِ!

إِنْ ضَعُفْتَ عَنْ حَمْلِ بَلائِهِ[2]؛ فَاسْتَغِثْ بِهِ، وَإِنْ آلَمَكَ كَرْبُ اخْتِيَارِهِ؛ فَإِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلا تَيْأَسْ مِنْ رَوْحِهِ، وَإِنْ قَوِيَ خِنَاقُ البَلَاءِ. بِاللهِ؛ إِنَّ مَوْتَ الخَادِمِ فِي الخِدْمَةِ حَسَنٌ عِنْدَ العُقَلاءِ.

٦٥٠ - إِخْوَانِي! لِنَفْسِي أَقُوْلُ؛ فَمَنْ لَهُ شِرْبٌ[3] مَعِي؛ فَلْيَرِدْ:

أَيَّتُها النَّفْسُ! لَقَدْ أَعْطَاكِ مَا لَمْ تُؤَمِّلِي وَبَلَّغَكِ مَا لَمْ تَطْلُبِي، وَسَتَرَ عَلَيْكِ مِنْ قَبِيْحِكِ مَا لَوْ فَاحَ؛ ضَجَّتِ المَشَامُّ[4]! فَمَا هٰذَا الضَّجِيْجُ مِنْ فَوَاتِ كَمَالِ الأَغْرَاضِ؟! أَمَمْلُوْكَةٌ أَنْتِ أَمْ حُرَّةٌ؟! أَمَا عَلِمْتِ أَنَّكِ فِي دَارِ التَّكْلِيْفِ؟!

وَهٰذَا الخِطَابُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ لِلجُهَّالِ؛ فَأَيْنَ دَعْواكِ المَعْرِفَةَ؟! أَتُرَاهُ لَوْ هَبَّتْ نَفْحَةٌ فأخَذَتِ البَصَرَ؛ كَيْفَ كَانَتْ تَطِيْبُ لَكِ الدُّنيا؟! وَا أَسَفا عَلَيْكِ! لَقَدْ عَشِيَتِ البَصِيْرَةُ الّتي هِيَ أَشْرَفُ، وَمَا عَلِمْتِ كَمْ أَقُوْلُ: عَسَىٰ وَلَعَلَّ؟ وَأَنْتِ فِي الخَطَإِ إِلَىٰ قُدَّامٍ.

قَرُبَتْ سِفِيْنَةُ العُمُرِ مِنْ سَاحِلِ القَبْرِ، وَمَا لَكِ فِي المَرْكَبِ بِضَاعَةٌ تَرْبَحُ. تَلَاعَبَتْ فِيْ بَحْرِ العُمُرِ رِيْحُ الضَّعْفِ، فَفَرَّقَتْ تَلْفِيْقَ القُوَى، وَكَأَنْ قَدْ فَصَلَتِ المَرْكَبُ[5].

بَلَغْتِ نِهَايَةَ الأَجَلِ، وَعَيْنُ هَوَاكِ تَتَلَفَّتُ إِلَىٰ الصِّبَا. بِالله عَلَيْكِ؛ لا تُشْمِتِي بِكِ الأَعْدَاءَ! هٰذَا أَقَلُّ الأَقْسَامِ، وَأَوْفَىٰ مِنْهَا أَنْ أَقُوْلَ: بِالله عَلَيْكِ؛ لا يَفُوْتَنَّكِ قَدَمٌ سَابِقٌ مَعَ قُدْرَتِكِ عَلَىٰ قَطْعِ المِضْمَارِ.

---

(١) **الآراب**: الحوائج.
(٢) في الأصل: بلوائه.
(٣) **شرب**: النصيب من الشراب.
(٤) **المشام**: الأنوف.
(٥) رمز لانقضاء العمر.

الخَلْوَةَ الخَلْوَة! واسْتَحْضِرِي قَرِيْنَ العَقْلِ، وَجُوْلِي فِيْ حَيْرَةِ الفِكْرِ، واسْتَدْرِكي صُبَابَةَ الأَجَلِ[1]، قَبْلَ أَنْ تَمِيْلَ بِكِ، الصَّبَابَةُ[2] عَنِ الصَّوَابِ.

وَا عَجَبًا! كُلَّمَا صَعِدَ العُمُرُ نَزَلْتِ! وَكُلَّمَا جَدَّ المَوْتُ هَزَلْتِ! أَتُرَاكِ مِمَّنْ خُتِمَ لَهُ بِفِتْنَةٍ، وَقُضِيَتْ عَلَيْهِ عِنْدَ آخِرِ عُمُرِهِ المِحْنَةُ؟! كَانَ أَوَّلُ عُمُرِكِ خَيْرًا مِنَ الأَخِيْرِ. كُنْتِ فِي زَمَنِ الشَّبَابِ أَصْلَحَ مِنْكِ فِي زَمَنِ أَيَّامِ المَشِيْبِ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] نَسْأَلُ اللهَ ﷻ مَا لا يَحْصُلُ إِلَّا بِهِ، وهُوَ تَوْفِيْقُهُ؛ إِنَّهُ سَمِيْعٌ مُجِيْبٌ.

١٣٨ - فصل: حُسنُ جزاءِ مَنْ خافَ مقامَ ربِّه

٦٥١ ـ قَدَرْتُ فِي بعَضِ الأَيّامِ عَلىٰ شَهْوَةٍ لِلنَّفْسِ هِيَ عِنْدَهَا أَحْلَىٰ مِنَ المَاءِ الزُّلَالِ[3] فِي فَمِ الصَّادِي[4]، وَقَالَ التَّأْوِيْلُ: مَا هَاهُنَا مانِعٌ وَلا مُعَوِّقٌ إِلَّا نَوْعُ وَرَعٍ! وَكَانَ ظَاهِرُ الأَمْرِ امْتِنَاعَ الجَوَازِ، فَتَرَدَّدْتُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ، فَمَنَعْتُ النَّفْسَ عَنْ ذٰلِكَ، فَبَقِيَتْ حَيْرَتي لِمَنْعِ مَا هُوَ الغَايَةُ فِي غَرَضِهَا مِنْ غَيْرِ صَادٍّ عَنْهُ بِحَالٍ؛ إِلَّا حَذَرَ المَنْعِ الشَّرْعِيِّ، **فَقُلْتُ لَهَا**: يَا نَفْسُ! وَاللهِ؛ مَا مِنْ سَبِيْلٍ إِلىٰ مَا تَوَدِّينَ وَلا مَا دُوْنَهُ! فَتَقَلْقَلَتْ، فَصِحْتُ بِهَا: كَمْ وَافَقْتُكِ فِي مُرَادٍ ذَهَبَتْ لَذَّتُهُ، وَبَقِيَ التَّأَسُّفُ عَلَىٰ فِعْلِهِ! فَقَدِّرِي بُلُوْغَ الغَرَضِ مِنْ هٰذَا المُرَادِ، أَلَيْسَ النَّدَمُ يَبْقَىٰ فِي مَجَالِ اللَّذَّةِ أَضْعَافَ زَمَانِهَا؟! **فَقَالَتْ**: كَيْفَ أَصْنَعُ؟ **فَقُلْتُ**:

صَبَرْتُ وَلَا وَاللهِ مَا بِيْ جَلَادَةٌ ... عَلَىٰ الحُبِّ، لٰكِنِّي صَبَرْتُ عَلىٰ الرَّغمِ

وَهَا أَنَا ذَا أَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ ﷻ حُسْنَ الجَزَاءِ عَلىٰ هٰذَا الفِعْلِ.

٦٥٢ ـ وَقَدْ تَرَكْتُ باقِي هٰذِهِ الوُجْهَةِ البَيْضَاءِ؛ أَرْجُوْ أَنْ أَرَىٰ حُسْنَ الجَزَاءِ عَلىٰ الصَّبْرِ، فَأَسْطُرَه[5] فِيْهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالى؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُعَجِّلُ جَزَاءَ الصَّبْرِ، وَقَدْ يُؤَخِّرُهُ:

---

(١) **صُبابة الأجل**: بقية العمر.
(٢) **الصَّبابة**: الهوى.
(٣) **الماء الزلال**: الماء العذب الصافي.
(٤) **الصادي**: العطشان.
(٥) **أسطره**: أكتبه.

فَإِنْ عُجِّلَ؛ سَطَرْتُهُ، وَإِنْ أُخِّرَ؛ فَمَا أَشُكُّ فِي حُسْنِ الجَزَاءِ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه؛ فَإِنَّه مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ؛ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ.

وَاللهِ؛ إِنِّي مَا تَرَكْتُهُ إِلَّا للهِ تَعَالَىٰ، وَيَكْفِيْنِي تَرْكُهُ ذخِيْرَةً، حَتَّى لَوْ **قِيْلَ لِي**: أَتَذْكُرُ يَوْمًا آثَرْتَ اللهَ عَلَىٰ هَوَاكَ؟ **قُلْتُ**: يَوْمَ كَذَا وكَذَا.

فَافْتَخِرِي أَيَّتُها النَّفْسُ بِتَوْفِيْقِكِ، وَاحْمَدِي مَنْ وَفَّقَكِ؛ فَكَمْ قَدْ خَذَل سِوَاكِ! واحْذَرِي أَنْ تُخْذَلِي فِي مِثْلِها! وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بالله العَلِيِّ العَظِيْم.

٦٥٣ ـ وَكَانَ هٰذا فِي سَنَةِ إِحْدَىٰ وَسِتِّيْنَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، فَلَمَّا دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَسِتِّيْنَ[1]؛ عُوِّضْتُ خَيْرًا مِنْ ذٰلِكَ بِمَا لا يُقارِبُ مِمّا لا يَمْنَعُ مِنْهُ وَرَعٌ ولا غَيْرُه، **فَقُلْتُ**: هٰذا جَزَاءُ التَّرْكِ لِأَجْلِ اللهِ سُبْحَانَه فِي الدُّنيا، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٥٧] والحَمْدُ لله.

١٣٩ - فصل: المحنة على من طلب اللذة من طريق الحرام

٦٥٤ ـ لَا أُنْكِرُ عَلَىٰ مَنْ طَلَبَ لَذَّةَ الدُّنيا مِنْ طَرِيْقِ المُبَاحِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَقْوَىٰ عَلَىٰ التَّرْكِ. إِنَّمَا المِحْنَةُ عَلَىٰ مَنْ طَلَبَها، فَلَمْ يَجِدْهَا أَوْ أَكْثَرَ[ها] إِلَّا مِنْ طَرِيْقِ الحَرَامِ، فَاجْتَهَدَ فِي تَحْصِيْلِهَا، وَلَمْ يُبَالِ كَيْفَ حَصَلَتْ. فَهٰذِهِ المِحْنَةُ التي بُخِسَ العَقْلُ فِيْهَا حَقَّه، وَلَمْ يَنْتَفِعْ صَاحِبُهُ بِوُجُوْدِهِ، لِأَنَّهُ لَوْ وَزَنَ مَا آثَرَ وعِقَابَهُ؛ طاشَتْ كِفَّةُ اللَّذَّةِ، الّتِي فَنِيَتْ عِنْدَ أَوَّلِ ذَرَّةٍ مِنْ أَجْزَائِهَا.

٦٥٥ ـ وَكَمْ قَدْ رَأَيْنا مِمَّنْ آثَرَ شَهْوَتَه، فَسَلَبَتْ دِيْنَهُ! فَلْيَعْجَبِ العَاقِلُ حِيْنَ التَّصَفُّحِ لِأَحْوَالِهِمْ؛ كَيْفَ آثَرُوْا شَيْئًا مَا أَقَامُوْا مَعَهُ، وَصَارُوْا إِلى عِقَابٍ لا يُفَارِقُهُمْ؟! فَاللهَ اللهَ في بَخْسِ العُقُوْلِ حَقَّهَا! وَلْيَنْظُرِ السَّالِكُ أَيْنَ يَضَعُ القَدَمَ؛ فَرُبَّ مُسْتَعْجِلٍ وَقَعَ فِي بِئْرِ بَوارٍ. وَلْتَكُنْ عَيْنُ التَّيَقُّظِ مَفْتُوْحَةً؛ فَإِنَّكُمْ فِي صَفِّ حَرْبٍ؛ لا يُدْرَى فِيْهِ مِنْ أَيْنَ يُتَلَقَّىٰ النَّبْلُ؛ فَأَعِيْنُوا أَنْفُسَكُم، وَلا تُعِيْنُوا عَلَيْهَا.

---

(١) أي سنة (٥٦٥هـ).

١٤٠ - فصل: الحق ﷻ أقرب إلى عبده من حبل الوريد

٦٥٦ ـ الحَقُّ ﷻ أَقْرَبُ إِلَىٰ عَبْدِهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيْدِ، لٰكِنَّهُ عَامَلَ العَبْدَ مُعَامَلَةَ الغَائِبِ عَنْهُ، البَعِيْدِ مِنْهُ؛ فَأَمَرَهُ بِقَصْدِ بَيْتِهِ، وَرَفْعِ اليَدَيْنِ إِلَيْهِ، وَالسُّؤَالِ لَهُ.

فَقُلُوْبُ الجُهَّالِ تَسْتَشْعِرُ البُعْدَ، وَلِذٰلِكَ تَقَعُ مِنْهُمُ المَعَاصِي؛ إِذْ لَوْ تَحَقَّقَتْ مُرَاقَبَتُهُمْ لِلْحَاضِرِ النَّاظِرِ؛ لَكَفُّوا الأَكُفَّ عَنِ الخَطَايَا. **وَالمُتَيَقِّظُوْنَ** عَلِمُوْا قُرْبَهُ، فَحَضَرَتْهُمُ المُرَاقَبَةُ، وَكَفَّتْهُمْ عَنِ الانْبِسَاطِ.

وَلَوْلَا نَوْعُ تَغْطِيَةٍ عَلَى عَيْنِ المُرَاقَبَةِ الحَقِيْقِيَّةِ؛ لَمَا انْبَسَطَتْ كَفٌّ بِأَكْلٍ، وَلَا قَدَرَتْ عَيْنٌ عَلَىٰ نَظَرٍ. وَمِنْ هٰذَا الجِنْسِ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي**»[1].

وَمَتَىٰ تَحَقَّقَتِ المُرَاقَبَةُ؛ حَصَلَ الأُنْسُ. وَإِنَّمَا يَقَعُ الأُنْسُ بِتَحْقِيْقِ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ المُخَالَفَةَ تُوْجِبُ الوَحْشَةَ، وَالمُوَافَقَةُ مَبْسَطَةُ المُسْتَأْنِسِيْنَ؛ فَيَا لَذَّةَ[2] عَيْشِ المُسْتَأْنِسِيْنَ! وَيَا خَسَارَةَ المُسْتَوحِشِيْنَ!

٦٥٧ ـ وَلَيْسَتِ الطَّاعَةُ كَمَا يَظُنُّ أَكْثَرُ الجُهَّالِ أَنَّهَا مُجَرَّدُ الصَّلاةِ والصِّيَامِ، **إِنَّمَا الطَّاعَةُ المُوَافَقَةُ بِامْتِثَالِ الأَمْرِ، وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ**، هٰذا هُوَ الأَصْلُ والقَاعِدَةُ الكُلِّيَّةُ. فَكَمْ مِنْ مُتَعَبِّدٍ بَعِيْدٌ؛ لِأَنَّهُ مُضَيِّعُ الأَصْلِ، وَهَادِمُ القَوَاعِدِ بِمُخَالَفَةِ الأَمْرِ، وَارْتِكَابِ النَّهْيِ. وَإِنَّمَا المُحَقِّقُ مَنْ أَمْسَكَ ذُؤَابَةَ[3] مِيْزَانِ المُحَاسَبَةِ لِلنَّفْسِ؛ فَأَدَّى مَا عَلَيْهِ، وَاجْتَنَبَ مَا نُهِيَ عَنْهُ؛ فَإِنْ رُزِقَ زِيَادَةَ تَنَفُّلٍ، وَإِلَّا؛ لَمْ يَضُرَّهُ. والسَّلَامُ.

١٤١ - فصل: على الإنسان ألّا ينافس بلذات الدنيا

٦٥٨ ـ الدُّنْيَا فِي الجُمْلَةِ مَعْبَرٌ؛ فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ ألّا يُنَافِسَ بِلَذَّاتِهَا، وَأَنْ يَعْبُرَ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغرّ المزني، وتمامه: «... وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة» ومعنى (يغان على قلبي) أي: يغشاه من السهو ما لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدًا مشغولٌ بالله، فإن عرض له عارض بشري يشغله عن أمور الأمة والملة ومصالحهما عدَّ ذلك ذنبًا وتقصيرًا، فيفزع إلى الاستغفار.

(٢) في الأصل: للذة.

(٣) **ذؤابة الميزان**: عروته التي يُمْسَك منها.

الأَيَّامَ بِهَا. فَإِنَّه لَوْ تَفَكَّر فِي كَيْفِيَّةِ الذَّبَائِحِ، وَوَسَخِ مَنْ يُبَاشِرُها، وعَمَلِ الكَامخِ[1]. وَغِيْرِها مِنَ المَأْكُوْلاتِ؛ مَا طَابَتْ لَهُ. وَلَوْ تَفَكَّرَ فِي جَوَلانِ اللُّقْمَةِ مُخْتَلِطَةً بِالرِّيْقِ؛ مَا قَدَرَ عَلىٰ إِسَاغَتِهَا.

٦٥٩ ـ وَالمَرْءُ لَا يَخْلُوْ مِنْ حَالَيْنِ: إِمّا أَنْ يُرِيْدَ التَّنَعُّمَ بِاللَّذَّاتِ المُبَاحَاتِ، أَوْ يُرِيْدَ دَفْعَ الوَقْتِ بالضَّرُوْرَاتِ، وَأَيَّهُمَا طَلَبَ؛ فلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَبْحَثَ فِيْمَا يَنَالُهُ عَنْ بَاطِنِه؛ فَإِنَّه لَوْ نَظَرَ إِلَىٰ عَوْرَةِ الزَّوْجَةِ نَبا عَنْها[2]. وَقَدْ قَالَتْ **عَائِشَةُ** رضي الله عنها: **«مَا رَأَيْتُهُ مِنْ رَسُوْلِ الله ﷺ ولا رَآهُ مِنِّي»**[3].

٦٦٠ ـ فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ وَقْتٌ مَعْلُوْمٌ يَأْمُرُ زَوْجَتَهُ بِالتَّصَنُّعِ لَهُ فِيْهِ، ثُمَّ يُغْمِضُ عَنِ التَّفْتِيْشِ؛ لِيَطِيْبَ لَهُ عَيْشُهُ، وَيَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَتَفَقَّدَ مِنْ نَفْسِهَا هٰذَا؛ فلا تَحْضُرُهُ إِلَّا عَلىٰ أَحْسَنِ حَالٍ. وَبِمِثْلِ هٰذَا يَدُوْمُ العَيْشُ. فَأَمّا إِذَا حَصَلَتِ البِذْلَةُ[4]؛ بَانَتْ بِهَا العُيُوْبُ، فَنَبَتِ النَّفْسُ، وَطَلَبَتِ الاسْتِبْدَالَ، ثُمَّ يَقَعُ فِي الثَّانِيَةِ[5] مِثْلُ مَا يَقَعُ فِي الأُوْلَىٰ. وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَنَّعَ لَهَا كَتَصَنُّعِهَا لَهُ؛ لِيَدُوْمَ الوُدُّ بِحُسْنِ الائْتِلَافِ[6].

---

(١) **الكامخ**: طعام من دقيق وملح ولبن يجفف في الشمس ثم تطرح عليه الأبازير لعله قريب مما يسمّى اليوم (الكشك).

(٢) كرهها وجفاها.

(٣) رواه ابن ماجه (٦٦٢) وأحمد (٦/ ٦٣ و١٩٠)، والبيهقي (٧/ ٩٤) عن عائشة رضي الله عنها، قال البوصيري: إسناده ضعيف.

(٤) **البذلة**، والابتذال: ترك الزينة.

(٥) الزوجة الثانية.

(٦) وبهذا المعنى وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس حين زفت إلى زوجها: «أي بُنيَّة! إن الوصية لو تركت لفضل أدبٍ لتركت لذلك منكِ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عن الزوج. ولكنّ النساءَ للرجالِ خلقنَ، ولهنّ خُلق الرجالُ.

أي بُنيّة! إنك فارقتِ الجوَّ الذي منه خرجتِ، وخلَّفتِ العُشَّ الذي فيه درجتِ، إلى وَكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تأليفه، فأصبح بملكه عليكِ رقيبًا ومليكًا. فكوني له أمَةً يكن لكِ عبدًا وشيكًا.

يابنيّة! احملي عنّي عشر خصالٍ تكن لكِ ذخرًا وذكرًا: ١ـ الصحبةُ بالقناعةِ، ٢ ـ والمعاشرةُ بحسنِ السمعِ والطاعةِ، ٣ ـ والتعهّدُ لموقعِ عينيه، ٤ ـ والتفقّدُ لموضعِ أنفهِ، فلا تقعُ عينُه منك على قبيح، ولا يَشمُّ منكِ إلّا أطيبَ ريحٍ، ٥ ـ والتعهّدُ لوقتِ طعامِهِ، ٦ ـ والهدوءُ عند =

٦٦١ - وَمَتَى لَمْ يَجْرِ الأَمْرُ عَلَىٰ هٰذَا فِيْ حَقِّ مَنْ لَهُ أَنَفَةٌ مِنْ شَيْءٍ تَنْبُوْ عَنْهُ النَّفْسُ؛ وَقَعَ فِي أَحَدِ أَمْرَيْن؛ إِمَّا **الإِعْرَاضُ عَنْهَا**، وَإِمَّا **الاسْتِبْدَالُ بِهَا**، وَيَحْتَاجُ فِي حَالَةِ الإِعْرَاضِ إِلَىٰ صَبْرٍ عَنْ أَغْرَاضِهِ، وَفِي حَالَةِ الاسْتِبْدَالِ إِلَىٰ فَضْلِ مُؤْنَةٍ، وَكِلَاهُمَا يُؤْذِي.

وَمَتَىٰ لَمْ يَسْتَعْمِلْ مَا وَصَفْنا؛ لَمْ يَطِبْ لَهُ عَيْشٌ فِي مُتْعَةٍ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ دَفْعِ الزَّمَانِ كَمَا يَنْبَغِي.

١٤٢ - فصل: معاذ الله إنه ربي

٦٦٢ - نَازَعَتْنِي نَفْسِي إِلَىٰ أَمْرٍ مَكْرُوْهٍ فِي الشَّرْعِ، وَجَعَلَتْ تَنْصِبُ لِي التَّأْوِيْلاتِ، وَتَدْفَعُ الكَرَاهَةَ، وَكَانَتْ تَأْوِيْلَاتُها فَاسِدَةً، وَالحُجَّةُ ظاهِرَةً على الكَرَاهَةِ. فَلَجَأْتُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي دَفْعِ ذٰلِكَ عَنْ قَلْبِي، وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ القِرَاءَةِ[1]، وَكَانَ دَرْسِي[2] قَدْ بَلَغَ سُوْرَةَ **يُوْسُف**؛ فَاتِحَتَها، وَذٰلِكَ الخَاطِرُ قَدْ شَغَلَ قَلْبِي، حَتَّى لا أَدْرِي مَا أَقْرَأُ. فَلَمّا بَلَغْتُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ انْتَبَهْتُ لَهَا، وَكَأَنِّي خُوْطِبْتُ بِهَا، فَأَفَقْتُ مِنْ تِلْكَ السَّكْرَةِ؛ **فَقُلْتُ**: يَا نَفْسُ! أَفَهِمْتِ؟ هٰذَا حُرٌّ بِيعَ ظُلْمًا، فَرَاعَىٰ حَقَّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَسَمَّاهُ مَالِكًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ مِلْكٌ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ثُمَّ زَادَ فِي بَيَانِ مُوْجِبِ كَفِّ كَفِّهِ عَمَّا يُؤْذِيْهِ، فَقَالَ: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾. فَكَيْفَ بِكِ؛ وَأَنْتِ عَبْدٌ عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ لِمَوْلًى مَا زَالَ يُحْسِنُ

= منامه: فإنّ حرارة الجوع ملهبةٌ، وتنغيصَ النوم مبغضةٌ ٧ ـ والاحتفاظ ببيته ومالِه، ٨ ـ والرعايةُ على نفسه وحشمه وعياله، فإنّ الاحتفاظ بالمال حسنُ التقدير، والرعايةُ على العيالِ والحشمِ جميلُ حُسْنِ التدبير، ٩ ـ ولا تفشي له سرًّا، ١٠ ـ ولا تعصي له أمرًا. فإنك إنْ أنْتِ أفشيتِ سرَّه لم تأمني غدره، وإنْ عصيتِ أمرَهُ أوغرتِ صدره.

ثم اتقي مع ذلك الفرحَ أمامَه إنْ كان ترحًا، والاكتئابَ عنده إنْ كان فرحًا، فإن الخصلةَ الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني أشدَّ ما تكونين له موافقةً يكن لك أطولَ ما يكونُ موافقةً. واعلمي أنكِ لا تصلينَ إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ. والله يخيرُ لك».

(١) قراءة القرآن.

(٢) ورده ووظيفته.

إِلَيْكِ مِنْ سَاعَةِ وُجُوْدِكِ، وَإِنَّ سَتْرَهُ عَلَيْكِ الزَّلَلَ أكثرُ مِنْ عَدَدِ الحَصَىٰ؟!

أَفَمَا تَذْكُرِيْنَ كَيْفَ رَبَّاكِ، وَعَلَّمَكِ، وَرَزَقَكِ، وَدَافَعَ عَنْكِ، وَسَاقَ الخَيْرَ إِلَيْكِ، وَهَدَاكِ أَقْوَمَ طَرِيْقٍ، وَنجَّاكِ مِنْ كُلِّ كَيْدٍ، وَضَمَّ إِلىٰ حُسْنِ الصُّوْرَةِ الظَّاهِرَةِ جُوْدَةَ الذِّهْنِ البَاطِنِ، وَسَهَّلَ لَكِ مَدَارِكَ العُلُوْمِ، حَتَّىٰ نِلْتِ فِي قَصِيْرِ الزَّمَانِ مَا لَمْ يَنَلْهُ[1] غَيْرُكِ فِي طَوِيْلِهِ، وَجَلَّىٰ فِي عَرْصَةِ[2] لِسَانِكِ عَرَائِسَ العُلُوْمِ فِي حُلَلِ الفَصَاحَةِ، بَعْدَ أَنْ سَتَرَ عَنِ الخَلْقِ مَقَابِحَكِ، فَتَلَقَّوْها مِنْكِ بِحُسْنِ الظَّنِّ، وَسَاقَ رِزْقَكِ بَلا كُلْفَةِ تَكَلفٍ، وَلَا كَدَرِ مَنٍّ، رَغَدًا غَيْرَ نَزْرٍ[3]؟!

فَوَاللهِ؛ مَا أَدْرِي أَيَّ نِعْمَةٍ عَلَيْكِ أَشْرَحُ لَكِ؛ حُسْنَ الصُّوْرَةِ، وَصِحَّةَ الآلاتِ؟ أَمْ سَلَامَةَ المِزَاجِ، وَاعْتِدَالَ التَّرْكِيْبِ؟ أَمْ لُطْفَ الطَّبْعِ الخَالِي عَنْ خَسَاسَةٍ؟ أَمْ إِلْهَامَ الرَّشَادِ مُنْذُ الصِّغَرِ؟ أَمِ الحِفْظَ بِحُسْنِ الوِقَايَةِ عَنِ الفَوَاحِشِ وَالزَّلَلِ؟ أَمْ تَحْبِيْبَ طَرِيْقِ النَّقْلِ، واتِّبَاعِ الأَثَرِ، مِنْ غَيْرِ جُمُوْدٍ عَلىٰ تَقْلِيْدٍ لِمُعَظَّمٍ، ولا انْخِرَاطٍ فِي سِلْكِ مُبْتَدِعٍ؟ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كَمْ كَايِدٍ نَصَبَ لَكِ المَكَايِدَ فَوَقَاكِ؟ كَمْ عَدُوٍّ حَطَّ مِنْكِ بِالذَّمِّ فَرَقَّاكِ؟ كَمْ أَعْطَشَ مِنْ شَرَابِ الأَمَانِي خَلْقًا وَسَقَاكِ؟ كَمْ أَمَاتَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ بَعْضَ مُرَادِكِ وَأَبْقَاكِ؟ فَأَنْتِ تُصْبِحِيْنَ وَتُمْسِيْنَ سَلِيْمَةَ البَدَنِ، مَحْرُوْسَةَ الدِّينِ، فِي تَزَيُّدٍ مِنَ العِلْمِ، وبُلُوْغِ الأَمَلِ. فَإِنْ مُنِعْتِ مُرَادًا، فرُزِقْتِ الصَّبْرَ عِنْهُ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَكِ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي المَنْعِ؛ [فَسَلِّمِي] حَتَّى يَقَعَ اليَقِيْنُ بِأَنَّ المَنْعَ أَصْلَحُ.

وَلَوْ ذَهَبْتُ أَعُدُّ مِنَ هٰذِهِ النِّعَمِ مَا سَنَحَ[4] ذِكْرُهُ؛ امتلأتِ الطُّرُوْسُ[5] وَلَمْ تَنْقَطِعِ الكِتَابَةُ، وَأَنْتِ تَعْلَمِيْنَ أَنَّ مَا لَمْ أَذْكُرْه أَكْثَرُ، وَأَنَّ مَا أَوْمَأْتُ إِلَىٰ ذِكرِهِ لَمْ يُشْرَحْ؛ فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكِ التَّعَرُّضُ لِمَا يَكْرَهُهُ؟! ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

---

(١) في الأصل: لينله.
(٢) **عرصة**: ساحة.
(٣) **النزر**: القليل.
(٤) **سنح**: خطر.
(٥) **الطروس**، جمع طرس: وهو الصحيفة.

١٤٣ - فصل: قطع أسباب الفتن

٦٦٣ ـ مَا رَأَيْتُ أَعْظَمَ فِتْنَةً مِنْ مُقَارَبَةِ الفِتْنَةِ، وَقَلَّ أَنْ يُقَارِبَها إِلَّا مَنْ يَقَعُ فِيْهَا: «**وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَىٰ؛ يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيْهِ**»(١).

٦٦٤ ـ قَالَ بَعْضُ المُعْتَبِرِيْنَ: قَدَرْتُ مَرَّةً عَلَىٰ لَذَّةٍ ظَاهِرُهَا التَّحرِيمُ، وَتَحتَمِلُ الإِباحَةَ؛ إِذِ الأَمْرُ فِيْهَا مُرَدَّدٌ، فَجَاهَدْتُ النَّفْسَ، **فَقَالَتْ**: أَنْتَ مَا تَقْدِرُ؛ فَلِهٰذَا تَتْرُكُ؛ فَقَارِبِ المَقْدُوْرَ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا تَمَكَّنْتَ، فَتَرَكْتَ؛ كُنْتَ تَارِكًا حَقِيْقَةً. فَفَعَلْتُ، وَتَرَكْتُ.

ثُمَّ عَاوَدْتُ مَرَّةً أُخْرَىٰ فِي تَأْوِيْل، أَرَتْنِي فِيْهِ الجَوَازَ، وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ يَحْتَمِلُ، فَلَمَّا وَافَقْتُها؛ أَثَّرَ ذٰلِكَ ظُلْمَةً فِي قَلْبِي؛ لِخَوْفِ أَنْ يَكُوْنَ الأَمْرُ مُحَرَّمًا.

فَرَأَيْتُ أَنَّهَا تَارَةً تَقْوَىٰ عَلَيَّ بالتَّرَخُّصِ وَالتَّأْوِيْلِ، وَتَارَةً أَقْوَى عَلَيْهَا بِالمُجَاهَدَةِ والامْتِنَاعِ. فَإِذَا تَرَخَّصْتُ؛ لَمْ آمَنْ أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ الأَمْرُ مَحْظُوْرًا، ثُمَّ أَرَىٰ عَاجِلًا تَأْثِيْرَ ذٰلِكَ الفِعْلِ فِي القَلْبِ.

فَلَمَّا لَمْ آمَنْ عَلَيْهَا التَّأْوِيْلَ؛ تَفَكَّرْتُ فِيْ قَطْعِ طَمَعِها مِنْ ذٰلِكَ الأَمْرِ المُؤَثِّرِ، فَلَمْ أَرَ ذٰلِكَ إِلَّا بِأَنْ قُلْتُ لَهَا: قَدِّرِي أَنَّ هٰذَا الأَمْرَ مُبَاحٌ قَطْعًا؛ فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ؛ لَا عُدْتُ إِلَيْهِ. فَانْقَطَعَ طَمَعُها بِاليَمِيْنِ وَالمُعَاهَدَةِ. وَهٰذَا أَبْلَغُ دَوَاءٍ وَجَدْتُهُ فِي امْتِنَاعِهَا؛ لِأَنَّ تَأْوِيْلَهَا لا يَبْلُغُ إِلَىٰ أَنْ تَأْمُرَ بالحِنْثِ وَالتَّكْفِيْرِ. فَأَجْوَدُ الأَشْيَاءِ قَطْعُ أَسْبَابِ الفِتَنِ، وَتَرْكُ التَّرَخُّصِ فِيْمَا يَجُوْزُ، إِذَا كَانَ حَامِلًا وَمُؤَدِّيًا إِلَىٰ مَا لا يَجُوْزُ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٤٤ - فصل: من بالغ في الاحتراز من المعاصي سلم

٦٦٥ ـ لَوْلا غَيْبَةُ العَاصِي فِيْ وَقْتِ المَعَاصِي؛ كانَ كَالمُعَانِدِ؛ غَيْرَ أَنَّ الهَوَىٰ يَحُوْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفَهْمِ لِلْحَالِ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا قَضَاءَ شَهْوَتِهِ، وَإِلَّا؛ فَلَوْ لَاحَتْ لَهُ المُخَالَفَةُ؛ خَرَجَ مِنَ الدِّيْنِ بِالخِلَافِ؛ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ هَوَاهُ، فَيَقَعُ الخِلَافُ ضِمْنًا وَتَبَعًا.

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٥٩)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

٦٦٦ ـ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ هٰذَا فِيْ مُقَارَبَةِ الفِتْنَةِ، وَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ عِنْدَ المُقَارَبَةِ؛ لِأَنَّهُ كَتَقْدِيْمِ نَارٍ إلى حَلْفَاء[1].

٦٦٧ ـ ثُمَّ لَوْ مَيَّزَ العَاقِلُ بَيْنَ قَضَاءِ وَطَرِهِ لَحْظَةً، وانْقِضَاءِ بَاقِي العُمُرِ بِالحَسْرَةِ عَلَى قَضَاءِ ذٰلِكَ الوَطَرِ: لَمَا قَرُبَ مِنْهُ، وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنيا؛ غَيْرَ أَنَّ سَكْرَةَ الهَوَىٰ تَحُولُ بَيْنَ الفِكْرِ وَذٰلِكَ.

٦٦٨ ـ آهٍ؛ كَمْ مَعْصِيَةٍ مَضَتْ فِي سَاعَتِهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ، ثُمَّ بَقِيَتْ آثَارُهَا، وَأَقَلُّهَا مَا لا يَبْرَحُ مِنْ المَرَارَةِ فِي النَّدَمِ! **وَالطَّرِيْقُ الأَعْظَمُ فِي الحَذَرِ أَنْ لا يَتَعَرَّضَ لِسَبَبِ فِتْنَةٍ، وَلا يُقَارِبَهُ**. فَمَنْ فَهِمَ هٰذَا وَبَالَغَ فِي الاحْتِرَازِ؛ كَانَ إلىٰ السَّلَامَةِ أَقْرَبَ.

١٤٥ - فصل: البلايا على مقادير الرجال

٦٦٩ ـ البَلَايا عَلىٰ مَقَادِيْرِ الرِّجَالِ. فَكَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ تَرَاهُمْ سَاكِتِيْنَ، رَاضِيْنَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ دِيْنٍ ودُنيا، وأولئكَ قومٌ لم يُرادوا لمقاماتِ الصبرِ الرفيعةِ، أو عُلِمَ ضَعْفُهم عن مقاومةِ البلاءِ فَلُطِفَ بهم.

إِنَّمَا المِحْنَةُ العُظْمَىٰ أَنْ تُرْزَقَ هِمَّةً عَالِيَةً، لا تَقْنَعُ مِنْكَ، إِلَّا بِتَحْقِيْقِ الوَرَعِ، وَتَجْوِيْدِ الدِّيْنِ، وَكَمالِ العِلْمِ.

ثُمَّ تُبْتَلى بِنَفْسٍ تَمِيْلُ إِلىٰ المُبَاحَاتِ، وَتَدَّعِي أَنَّهَا تَجْمَعُ بِذٰلِكَ هَمَّها، وتَشْفِي مَرَضَها، لِتُقْبِلَ مُزَاحَةَ العِلَّةِ[2] عَلىٰ تَحْصِيْلِ الفَضَائِلِ.

وَهَاتَانِ الحَالَتَانِ كَضِدَّيْنِ؛ لِأَنَّ الدُّنيا وَالآخِرَةَ ضَرَّتان.

وَالْلَّازِمُ فِي هٰذا المَقَامِ مُرَاعَاةُ الوَاجِبَاتِ، وَأَنْ لا يُفْسَحَ لِلنَّفْسِ فِي مُبَاحٍ لا يُؤْمَنُ أَنْ يَتَعدَّى مِنْهُ إِعْرَاضٌ عَنْ وَاجِبٍ وَرَعٍ. المُبْتَلىٰ يَصِيْحُ، فَلأَنْ يَبْكِيَ الطِّفْلُ خَيْرٌ مِنْ أَن يَبْكِي الوَالِدُ.

---

(١) **الحَلْفاء**: نبات عشبي معمّر من الفصيلة النجيلية، أوراقه مستطيلة خيطية أو أسَلِيّة النصل، يلتف بعضها على بعض، تصنع منها الحُصُر والقفف والحبال.

(٢) خالٍ من الشواغل.

٦٧٠ - وَاعْلَمْ أَنَّ فَتْحَ بَابِ المُبَاحَاتِ رُبَّمَا جَرَّ أَذًى كَثِيرًا فِي الدِّيْنِ، فَأَوْثِقِ السِّكْرَ[١] قَبْلَ فَتْحِ المَاءِ، وَالْبَسِ الدِّرْعَ قَبْلَ لِقَاءِ الحَرْبِ، وَتَلَمَّحْ عَوَاقِبَ ما تَجْنِي قَبْلَ تَحْرِيْكِ اليَدِ، وَاسْتَظْهِرْ فِي الحَذَرِ بِاجْتِنَابِ مَا يُخَافُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يُتَيَقَّنْ.

١٤٦ - فصل: اللازم في العلم طلب المهم

٦٧١ - يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَكُوْنَ جُلُّ هِمَّتِهِ مَصْرُوْفًا إِلىٰ الحِفْظِ والإِعَادةِ؛ فَلَوْ صَحَّ صَرْفُ الزَّمَانِ إِلى ذٰلِكَ؛ كَانَ الأَوْلَىٰ؛ غَيْرَ أَنَّ البَدَنَ مَطِيَّةٌ، وَإِجْهَادُ[٢] السَّيْرِ مَظِنَّةُ الانْقِطَاعِ. وَلَمّا كَانَتِ القُوَى تَكِلُّ، فَتَحْتَاجُ إِلىٰ تَجْدِيْدٍ، وَكَانَ النَّسْخُ والمُطَالَعَةُ والتَّصْنِيْفُ لا بُدَّ مِنْهُ، مَعَ أَنّ المُهِمَّ الحِفْظُ؛ وَجَبَ تَقْسِيمُ الزَّمَانِ عَلىٰ الأَمْرَيْنِ: فَيَكُوْنُ الحِفْظُ فِي طَرَفِي النَّهارِ، وَطَرَفَي اللَّيْلِ، وَيُوزَّعُ البَاقِي بَيْنَ عَمَلٍ بِالنَّسْخِ، والمُطَالَعَةِ، وَبَيْنَ رَاحَةٍ لِلْبَدَنِ، وَأَخْذٍ لِحَظِّهِ.

٦٧٢ - ولا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ الغَبْنُ بَيْنَ الشُّركاءِ: فَإِنَّهُ مَتَى أَخَذَ أَحَدُهُمْ فَوْقَ حَقِّهِ؛ أَثَّرَ الغَبْنُ، وَبَانَ أثرُهُ.

٦٧٣ - وَإِنَّ النَّفْسَ لَتَهْرُبُ إِلىٰ النَّسْخِ والمُطَالَعَةِ وَالتَّصْنِيْفِ عَنِ الإِعَادَةِ والتَّكْرَارِ؛ لِأَنَّ ذٰلِكَ أَشْهَىٰ وَأَخَفُّ عَلَيْهَا.

٦٧٤ - فَلْيَحْذَرِ الرَّاكِبُ مِنْ إِهْمَالِ النَّاقَةِ[٣]، وَلا يَجُوْزُ لَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا مَا لَا تَطِيْقُ.

٦٧٥ - وَمَعَ العَدْلِ والإِنْصَافِ يَتأَتَّىٰ كُلُّ مُرَادٍ، وَمَنِ انْحَرَفَ عَنِ الجَادَّةِ؛ طَالَتْ طَرِيْقُهُ، وَمَنْ طَوَىٰ مَنَازِلَ فِيْ مَنْزِلٍ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَفُوْتَهُ مَا جَدَّ لِأَجْلِهِ. عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ إِلىٰ التَّحْرِيْضِ أَحْوَجُ؛ لِأَنَّ الفُتُوْرَ أَلْصَقُ بِهِ مِنْ الجِدِّ[٤].

٦٧٦ - وَبَعْدُ؛ فَالْلّازِمُ فِي العِلْمِ طَلَبُ المُهِمِّ؛ فَرُبَّ صَاحِبِ حَدِيْثٍ حَفِظَ مَثَلًا

---

(١) **السكر**: آلة تتحكم بمجرى الماء إغلاقًا وفتحًا.

(٢) في الأصل: وأعداد، وهو تصحيف.

(٣) **الناقة**: رمز للبدن.

(٤) **الجَدّ**: الحظ.

لِحَدِيْثِ: «**مَنْ أَتَىٰ الجُمُعَةَ؛ فَلْيَغْتَسِلْ**»[1] عِشْرِيْنَ طَرِيْقًا، وَالحَدِيْثُ قَدْ ثَبَتَ مِنْ طَرِيْقٍ وَاحِدٍ، فَشَغَلَهُ ذٰلِكَ عَنْ مَعْرِفَةِ آدَابِ الغُسْلِ. وَالعُمُرُ أَقْصَرُ وَأَنْفَسُ مِنْ أَنْ يُفَرِّطَ مِنْهُ فِي نَفَسٍ. وَكَفَىٰ بِالعَقْلِ مُرْشِدًا إِلَىٰ الصَّوَابِ[2]. وَبِاللهِ التَّوْفِيْقُ.

١٤٧ - فصل: إذا صحّ قصد العالم استراح من التكلّف

٦٧٧ ـ إِذَا صَحَّ قَصْدُ العَالِمِ؛ اسْتَرَاحَ مِنْ كُلَفِ التَّكَلُّفِ. فَإِنَّ كَثِيْرًا مِنَ العُلَمَاءِ يَأْنَفُوْنَ مِنْ قَوْلِ: لا أَدْرِي، فَيَحْفَظُوْنَ بِالفَتْوَى جَاهَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ؛ لِئَلَّا يُقَالَ: جَهِلُوْا الجَوَابَ، وَإِنْ كَانُوْا عَلَىٰ غَيْرِ يَقِيْنٍ مِمَّا قَالُوا، وَهٰذَا نِهَايَةُ الخِذْلَانِ.

٦٧٨ ـ وقد رُوِيَ عَن مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ: لا أَدْرِي! فَقَالَ: سَافَرْتُ البُلْدَانَ إِلَيْكَ! فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ بَلَدِكَ، وَقُلْ: سَأَلْتُ مَالِكًا، فَقَالَ: لا أَدْرِي. فَانْظُرْ إِلَىٰ دِيْنِ هٰذَا الشَّخْصِ وَعَقْلِهِ؛ كَيْفَ اسْتَرَاحَ مِنَ الكُلْفَةِ، وَسَلِمَ عِنْدَ اللهِ ﷻ.

٦٧٩ ـ ثُمَّ إِنْ كَانَ المَقْصُوْدُ الجَاهَ عِنْدَهُمْ؛ فَقُلُوْبُهُمْ بِيَدِ غَيْرِهِمْ.

وَاللهِ؛ لَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يُكْثِرُ الصَّلَاةَ والصَّوْمَ والصَّمْتَ، وَيَتَخَشَّعُ فِي نَفْسِه وَلِبَاسِهِ، وَالقُلُوْبُ تَنْبُوْ عُنْه، وَقَدْرُه فِي النُّفُوْسِ لَيْسَ بِذَاكَ!

وَرَأَيْتُ مَن يَلْبَسُ فَاخِرَ الثِّيَابِ، وَلَيْسَ لَهُ كَبِيْرُ نَفْلٍ، ولا تَخَشُّعٌ، والقُلُوْبُ تَتَهَافَتُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ، فَتَدَبَّرْتُ السَّبَبَ، فَوَجَدْتُهُ السَّرِيْرَة. كَمَا رُوِيَ عَنْ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ**: أَنَّه لَمْ يَكُنْ لَهُ كَبِيْرُ عَمَلٍ مِنْ صَلاة وَصَوْمٍ، وَإِنَّما كانَتْ لَهُ سَرِيْرَةٌ.

فَمَنْ أَصْلَحَ سَرِيْرَتَه؛ فَاحَ عَبِيْرُ فَضْلِهِ، وَعَبَقَتِ القُلُوْبُ بِنَشْرِ طِيْبِهِ. فَاللهَ اللهَ فِي السَّرائِرِ؛ فَإِنَّه مَا يَنْفَعُ مَعَ فَسَادِهَا صَلَاحُ ظَاهِرٍ.

١٤٨ - فصل: الدنيا دار ابتلاء واختبار

٦٨٠ ـ نَزَلْتُ فِي شِدَّةٍ، وَأَكْثَرْتُ مِنَ الدُّعَاءِ أَطْلُبُ الفَرَجَ والرَّاحَةَ، وَتَأَخَّرَتِ

---

(١) رواه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٨٤٤) عن ابن عمر ﷺ.

(٢) في الأصل: من عضّده وبالله التوفيق.

الإِجَابَةُ، فَانْزَعَجَتِ النَّفْسُ، وقَلِقَتْ! فصِحْتُ بِهَا: وَيْلَكِ! تَأَمَّلِي أَمْرَكِ! أَمَمْلُوْكَةٌ أَنْتِ أَمْ حُرَّةٌ مَالِكَةٌ؟! أَمُدَبَّرَةٌ أَنْتِ أَمْ مُدَبِّرَةٌ؟! أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الدُّنيا دَارُ ابْتِلاءٍ وَاخْتِبَارٍ؛ فَإِذَا طَلَبْتِ أَغْرَاضَكِ، وَلَمْ تَصْبِرِي عَلىٰ ما يُنافِي مُرَادَكِ؛ فَأَيْنَ الابْتِلَاءُ؟! وَهَلِ الابْتِلَاءُ إِلَّا الإِعْرَاضُ، وَعَكْسُ المَقَاصِدِ؟ **فَافْهَمِي مَعْنَى التَّكْلِيْفِ**؛ وَقَدْ هَانَ عَلَيْكِ مَا عَزَّ، وسَهُلَ مَا اسْتَصْعَبَ!

فَلَمَّا تَدَبَّرَتْ مَا قُلْتُهُ؛ سَكَنَتْ بَعْضَ السُّكُوْنِ. **فَقُلْتُ لَهَا**: وَعِنْدِي **جَوَابٌ ثانٍ**، وَهُوَ **أَنَّكِ تَقْتَضِيْنَ الحَقَّ بِأَغْرَاضِكِ، وَلا تَقْتَضِيْنَ نَفْسَكِ بِالوَاجِبِ لَهُ**، وَهٰذَا عَيْنُ الجَهْلِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ الأَمْرُ بِالعَكْسِ؛ لِأَنَّكِ مَمْلُوْكَةٌ، وَالمَمْلُوْكُ العَاقِلُ يُطَالِبُ نَفْسَه بِأَدَاءِ حَقِّ المَالِكِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَجِبُ عَلىٰ المَالِكِ تَبْلِيْغُهُ مَا يَهْوَىٰ.

فَسَكَنَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ السُّكُوْنِ. فَقُلْتُ لَهَا: وَعِنْدِي **جَوَابٌ ثالِثٌ**، وَهُوَ أَنَّكِ قَدِ اسْتَبْطَأْتِ الإِجَابَةَ، وَأَنْتِ سَدَدْتِ طُرُقَها بِالمَعاصِي؛ فَلَوْ قَدْ فَتَحْتِ الطَّرِيْقَ؛ أَسْرَعَتْ. كَأَنَّكِ مَا عَلِمْتِ أَنَّ سَبَبَ الرَّاحَةِ التَّقْوَى! أَوَ مَا سَمِعْتِ قَوْلَهَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]؟! أَوَ مَا فَهِمْتِ أَنَّ العَكْسَ بِالعَكْسِ؟! آهٍ مِنْ سُكْرِ غَفْلَةٍ صَارَ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ سِكْرٍ فِي وَجْهِ مِيَاهِ المُرَادِ، يَمْنَعُهَا مِنَ الوُصُوْلِ إِلىٰ زَرْعِ الأَمَانِي!

فَعَرَفَتِ النَّفْسُ أَنَّ هٰذَا حَقٌّ، فَاطْمَأَنَّتْ. فَقُلْتُ: وَعِنْدِي **جَوَابٌ رَابِعٌ**، وَهُوَ أَنَّكِ تَطْلُبِيْنَ مَا لا تَعْلَمِيْنَ عَاقِبَتَهُ، وَرُبَّمَا كَانَ فِيْهِ ضَرَرُكِ؛ فَمَثَلُكِ كَمَثَلِ طِفْلٍ مَحْمُوْمٍ يَطْلُبُ الحَلْوَىٰ، وَالمُدَبِّرُ لَكِ أَعْلَمُ بِالمَصَالِحِ؛ كَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؟!

فَلَمَّا بَانَ الصَّوَابُ لِلنَّفْسِ فِي هٰذِهِ الإِجَابَةِ؛ زَادَتْ طُمَأْنِيْنَتُهَا. فَقُلْتُ لَهَا: وَعِنْدِي **جَوَابٌ خَامِسٌ**، وَهُوَ أَنَّ هٰذَا المَطْلُوْبَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِكِ، ويَحُطُّ مِنْ مَرْتَبَتِكِ، فَمَنْعُ الحَقِّ لكِ مَا هٰذا سَبِيْلُهُ عَطَاءٌ مِنْهُ لكِ، وَلَوْ أَنَّكِ طَلَبْتِ مَا يُصْلِحُ آخِرَتَكِ؛ كَانَ أَوْلَىٰ لَكِ. فَأَوْلَىٰ لَكِ أَنْ تَفْهَمِي مَا قَدْ شَرَحْتُ. فَقَالَتْ: لَقَدْ سَرَحْتُ فِي رِيَاضٍ مَا شَرَحْتَ، فَهِمْتُ[1] إِذْ فَهِمْتُ[2].

---

(١) **همت**: من هام على وجهة إذا سار دون أن يدري الوجهة التي يقصدها.

(٢) **فهمت**: فقهت وعرفت.

١٤٩ - فصل: العالم الذي يتكسب يصون عرضه ودينه

٦٨١ - حَضَرْنا بَعْضَ أَغْدِيَةِ أَرْبَابِ الأَمْوَالِ، فَرَأَيْتُ العُلَمَاءَ أَذَلَّ النَّاس عِنْدَهُمْ، العُلَمَاءُ يَتَواضَعُوْنَ لَهُمْ، وَيَذِلُّونَ لِمَوْضِعِ طَمَعِهِم فِيْهِم، وَهُمْ لا يَحْفَلونَ بِهِمْ، لِمَا يَعْلَمُوْنَه مِنْ احْتِيَاجِهِم إِلَيْهِم. فَرَأَيْتُ هٰذَا عَيْبًا فِي الفِرِيْقَيْن: أَمّا فِي **أَهْلِ الدُّنيا**؛ فَوَجْهُ العَيْبِ أَنَّهُمْ كَان[1] يَنْبَغي لَهُمْ تَعْظِيْمُ العِلْمِ، وَلٰكِنْ لِجَهْلِهِم بِقَدْرِهِ؛ فاتَهُمْ، وَآثَرُوْا عَلَيْهِ كَسْبَ الأَمْوَالِ؛ فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ مِنْهُمْ تَعْظِيْمُ مَا لَا يَعْرِفُوْنَ، وَلا يَعْلَمُوْنَ قَدْرَهُ.

وَإِنَّمَا أَعُوْدُ بِاللَّوْمِ **عَلَىٰ العُلَمَاءِ**، وَأَقُوْلُ: يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَصُوْنُوْا أَنْفُسَكُمْ الَّتي شَرُفَتْ بِالعِلْمِ عَنْ الذُّلِّ لِلأَنْذَالِ. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي غِنًىٰ عَنْهُم؛ كَانَ الذُّلُّ لَهُمْ، وَالطَّلَبُ مِنْهُمْ حَرَامًا عَلَيْكُمْ. وَإِنْ كُنْتُم فِي كَفَافٍ؛ فَلِمَ لَمْ تَؤْثِرُوْا التَّنَزُّهَ عَنِ الذُّلِّ بِالعِفَّةِ عَنِ الحُطَامِ الفَانِي الحَاصِلِ بِالذِّلَّةِ.

٦٨٢ - إِلَّا أَنَّهُ يَتَخَيَّلُ لِي مِنْ هٰذَا الأَمْرِ أَنِّي عَلِمْتُ قِلَّةَ صَبْرِ النَّفْسِ عَلىٰ الكَفَافِ، والعُزُوْفِ عَنِ الفُضُوْلِ؛ فَإِنْ وُجِدَ ذٰلِكَ مِنْهَا فِي وَقْتٍ؛ لَمْ يُوْجَدْ عَلَىٰ الدَّوَامِ. فَالأَوْلَىٰ لِلْعَالِمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي طَلَبِ الغِنَىٰ، وَيُبَالِغَ فِي الكَسْبِ، وَإِنْ ضَاعَ بِذٰلِكَ عَلَيْهِ كَثِيْرٌ مِنَ زَمَانِ طَلَبِ العِلْمِ؛ فَإِنَّهُ يَصُوْنُ بِعَرَضِهِ عِرْضَه. وَقَدْ كَانَ سَعِيْدُ بْنُ المُسَيَّبِ يَتَّجِرُ فِي الزَّيْتِ، وَخَلَّفَ مالًا. وَخَلَّفَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ مَالًا، وَقَالَ: لَوْلاكَ لَتَمَنْدَلوا بِي[2].

٦٨٣ - وَقَد سَبَقَ في كِتَابي هٰذا فِي بَعْضِ الفُصُوْلِ شَرَفُ المَالِ[3]، وَمَنْ كَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ والعُلَمَاءِ يَقْتَنِيهِ، وَالسِّرُّ فِي فِعْلِهِم ذٰلِك، وَحَثِّي طالِبِي العِلْم عَلَىٰ ذٰلِكَ؛ مَا بَيَّنْتُهُ مِنْ أَنَّ النَّفْسَ لا تَثْبُتُ عَلىٰ التَّعَفُّفِ، ولا تَصْبِرُ عَلىٰ دَوَامِ التَّزَهُّدِ.

٦٨٤ - وَكَمْ قَدْ رَأَيْنا مِنْ شَخْصٍ قَوِيَتْ عَزِيْمَتُهُ عَلىٰ طَلَبِ الآخِرَةِ، فَأَخْرَجَ مَا فِي يَدِهِ، ثُمَّ ضَعُفَتْ، فَعَادَ يَكْتَسِبُ مِنْ أَقْبَحِ وَجْهٍ! فَالأَوْلَىٰ ادِّخَارُ المَالِ، وَالاسْتِغْنَاءُ

---

(١) في الأصل: كانوا.

(٢) جعلوني كالمنديل يمسحون بي قذاراتهم وذلك لهواني عليهم.

(٣) الفصل (١٠١).

عَنِ النَّاسِ، فَيَخْرُجُ الطَّمَعُ مِنَ القَلْبِ، وَيَصْفُوْ نَشْرُ العِلْمِ مِنَ شَائِبَةِ مَيْلٍ.

٦٨٥ ـ وَمَنْ تَأَمَّلَ أَخْبَارَ الأَخْيَارِ مِنَ الأَحْبَارِ؛ وَجَدَهُم عَلىٰ هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ. وَإِنَّمَا سَلَكَ طَرِيْقَ التَّرَفُّهِ[1] عَنِ الكَسْبِ مَنْ لَمْ يُؤَثِّرْ عِنْدَهُ بَذْلُ الدِّيْنِ وَالوَجْهِ، فَطَلَبَ الرَّاحَةَ، وَنَسِيَ أَنَّهَا فِي المَعْنَىٰ عَنَاءٌ[2]؛ كَمَا فَعَلَ جَمَاعَةٌ مِنْ جُهَّالِ المُتَصَوِّفَةِ فِي إِخْرَاجِ مَا فِي أَيْدِيْهِم، وَادِّعَاءِ التَّوَكُّلِ! وَمَا عَلِمُوْا أَنَّ الكَسْبَ لا يُنَافِي التَّوَكُّلَ! وَإِنَّمَا طَلَبُوْا طَرِيْقَ الرَّاحَةِ، وجَعَلوا التَّعَرُّضَ لِلنَّاسِ كَسْبًا! وَهٰذِهِ طَرِيْقَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: **قِلَّةُ الأَنَفَةِ عَلَى العِرْضِ**. والثاني: **قِلَّةُ العِلْمِ**.

١٥٠ - فصل: الهوى يسوق إلى العصيان

٦٨٦ ـ تَأَمَّلْتُ وُقُوْعَ المَعَاصِي مِنَ العُصَاةِ، فَوَجَدْتُهُمْ لا يَقْصِدُوْنَ العِصْيَانَ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُوْنَ مُوَافَقَةَ هَوَاهُمْ، فَوَقَعَ[3] العِصْيَانُ تَبَعًا. فَنَظَرْتُ فِي سَبَبِ ذٰلِكَ الإِقْدَامِ مَعَ العِلْمِ بِوُقُوْعِ المُخَالَفَةِ؛ فَإِذَا بِهِ مُلَاحَظَتُهُم لِكَرَمِ الخَالِقِ، وَفَضْلِهِ الزَّاخِرِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَأَمَّلُوْا عَظَمَتَهُ وَهَيْبَتَهُ؛ ما انْبَسَطَتْ كَفٌّ بِمُخَالَفَتِهِ.

فَإِنَّهُ يَنْبَغِي ـ وَاللهِ ـ أَنْ يُحْذَرَ مِمَّنْ أَقَلُّ فِعْلِهِ تَعْمِيْمُ الخَلْقِ بِالمَوْتِ، حَتَّىٰ إِلقَاءُ الحَيَوَانِ البَهِيْمِ لِلذَّبْحِ، وَتَعْذِيْبُ الأَطْفَالِ بِالمَرَضِ، وَفَقْرُ العَالِمِ، وَغِنَىٰ الجَاهِلِ.

٦٨٧ ـ فَلْيَعْرِضِ المُقْدِمُ عَلَى الذُّنُوْبِ عَلَىٰ نَفْسِهِ الحَذَرَ مِمَّنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وَمُلَاحَظَةُ أَسْبَابِ الخَوْفِ أَدْنَىٰ إِلَىٰ الأَمْنِ مِنْ مُلَاحَظَةِ أَسْبَابِ الرَّجَاءِ؛ فَالخَائِفُ آخِذٌ بِالحَزْمِ، والرَّاجِي مُتَعَلِّقٌ بِحَبْلِ طَمَعٍ، وَقَدْ يُخْلَفُ الظَّنُّ!

١٥١ - فصل: التكسب والقناعة

٦٨٨ ـ رَأَيْتُ عُمُوْمَ أَرْبَابِ الأَمْوَالِ يَسْتَخْدِمُونَ العُلَمَاءَ، وَيَسْتَذِلُّونَهُمْ بِشَيْءٍ يَسِيْرٍ

---

(١) كذا في الأصل ولعلها مصحفة عن الترفع. (٢) **عناء**: شقاء.
(٣) في الأصل: فتبع.

يُعْطُوْنَهُمْ مِنْ زَكاةِ أَمْوَالِهِم: فَإِنْ كَانَ لأَحَدِهِم خَتْمَةٌ؛ قَالَ: فُلانٌ مَا حَضَرَ! وَإِنْ مَرِضَ؛ قَالَ: فُلَانٌ مَا تَرَدَّدَ! وَكُلُّ مِنَّتِهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ نَزْرٌ[1] يَجِبُ تَسْلِيْمُه إِلىٰ مِثْلِهِ!! وَقَدْ رَضِيَ العُلَمَاءُ بِالذُّلِّ فِي ذٰلِكَ لِمَوْضِعِ الضَّرُوْرَةِ.

فَرَأَيْتُ أَنَّ هٰذَا جَهْلٌ مِنَ العُلَمَاءِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ صِيَانَةِ العِلْمِ، وَدَوَاؤُهُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: **القَنَاعَةُ بِاليَسِيْرِ**؛ كَمَا قِيْلَ: مَنْ رَضِيَ بِالخَلِّ والبَقْلِ؛ لَمْ يَسْتَعْبِدْهُ أَحَدٌ.

والثاني: **صَرْفُ بَعْضِ الزَّمَانِ المَصْرُوْفِ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ إِلىٰ كَسْبِ الدُّنيا**؛ فَإِنَّه يَكُوْنُ سببًا لإِعْزَازِ العِلْمِ، وَذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنْ صَرْفِ جَمِيْعِ الزَّمَانِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، مَعَ احْتِمَالِ هٰذَا الذُّلِّ[2].

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا تَأَمَّلْتُهُ، وَكَانَتْ لَهُ أَنَفَةٌ؛ قَدَّرَ قُوْتَهُ، وَاحْتَفَظَ بِمَا مَعَهُ، أَوْ سَعَىٰ فِي مُكْتَسَبٍ يَكْفِيْهِ[3]. وَمَنْ لَمْ يَأْنَفْ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ؛ لَمْ يَحْظَ مِنَ العِلْمِ إِلَّا بِصُوْرَتِهِ دُوْنَ مَعْنَاهُ.

١٥٢ - فصل: مدار الأمر كله على العقل

٦٨٩ ـ مَدَارُ الأَمْرِ كُلِّهِ علَىٰ العَقْلِ؛ فَإِنَّه إِذَا تَمَّ العَقْلُ؛ لَمْ يَعْمَلْ صَاحِبُهُ إِلَّا عَلىٰ أَقْوَىٰ دَلِيْلٍ، **وَثَمَرَةُ العَقْلِ**: فَهْمُ الخِطَابِ، وَتَلَمُّحُ المَقْصُوْدِ مِنَ الأَمْرِ. وَمَنْ فَهِمَ المَقْصُوْدَ، وَعمِلَ عَلىٰ الدَّلِيْلِ؛ كَانَ كَالبَانِي عَلىٰ أَسَاسٍ وَثِيْقٍ.

٦٩٠ ـ وَإِنِّي رَأَيْتُ كَثِيْرًا مِنَ النَّاسِ لا يَعْمَلونَ عَلىٰ دَلِيْلٍ، بَلْ كَيْفَ اتَّفَقَ، وَرُبَّمَا كَانَ دِلِيْلُهُم العَادَاتِ! وَهٰذَا أَقْبَحُ شَيْءٍ يَكُوْنُ.

---

(١) **نزر**: قليل.

(٢) ما أحرى معاهد العلم الشرعي أن تعلِّم طلابها إلى جانب العلوم الشرعية حرفةً يتكسَّبون بها، وتكون سببًا لإعزاز العلم وحملته من احتمال ذل الحاجة.

(٣) في الأصل: يكفه.

٦٩١ ـ ثُمَّ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيْرًا لا يَتَّبِعُوْنَ الدَّلِيْلَ بِطَرِيْقِ إِثْبَاتِهِ؛ **كَالْيَهُوْدِ والنَّصَارَىٰ**؛ فَإِنَّهُمْ يُقَلِّدُوْنَ الآباءَ، ولا يَنْظُرُوْنَ فِيْمَا جَاءَ مِنَ الشَّرَائِعِ؛ هَلْ صَحِيْحٌ أم لا؟! وَكَذٰلِكَ يُثْبِتُوْنَ الإِلٰهَ، وَلا يَعْرِفُوْنَ مَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ مِمَّا لا يَجُوْزُ، فَيَنْسِبُوْنَ إِلَيْهِ الوَلَدَ! وَيَمْنَعُوْنَ جَوَازَ تَغْيِيْرِهِ مَا شَرَعَ! وَهٰؤلاءِ لَمْ يَنْظُرُوْا حَقَّ النَّظَرِ؛ لا فِي إِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَمَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ، وَلا فِي الدَّلِيْلِ عَلىٰ صِحَّةِ النُّبُوَّاتِ، فَتَقَعُ أَعْمَالُهُمْ ضَائِعَةً؛ كالبَانِي عَلىٰ رَمْلٍ.

٦٩٢ ـ وَمِنْ هٰذا القَبِيْلِ في المَعْنىٰ قَوْمٌ يَتَعَبَّدونَ ويَتَزَهَّدونَ، وَيُنْصِبُوْنَ أَبْدَانَهُمْ فِي العَمَلِ[1] بِأَحَادِيْثَ بَاطِلَةٍ، وَلا يَسْأَلُوْنَ عَنْهَا مَنْ يَعْلَمُ!

٦٩٣ ـ وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُثْبِتُ الدَّلِيْلَ، وَلا يَفْهَمُ المَقْصُوْدَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيْلُ، وَمِنْ هٰذَا الجِنْسِ قَوْمٌ سَمِعُوْا **ذَمَّ الدُّنيا**، فَتَزَهَّدُوْا، وَمَا فَهِمُوا المَقْصُوْدَ، فَظَنُّوا أَنَّ الدُّنيا تُذَمُّ لِذَاتِهَا، وَأَنَّ النَّفْسَ تَجِبُ عَدَاوَتُهَا، فَحَمَلوا عَلىٰ أَنْفُسِهِم فَوْقَ ما يُطاقُ، وَعَذَّبُوْهَا بِكُلِّ نَوْعٍ، وَمَنَعُوْهَا حُظُوْظَهَا؛ جَاهِلِيْنَ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»، وَفِيْهِم مَنْ أَدَّتْهُ الحَالُ إِلىٰ تَرْكِ الفَرَائِضِ، ونُحُوْلِ الجِسْمِ، وَضَعْفِ القُوىٰ! وَكُلُّ ذٰلِكَ لِضَعْفِ الفَهْمِ لِلْمَقْصُوْدِ، وَالتَلمُّحِ لِلْمُرَادِ.

٦٩٤ ـ كَمَا رُوِيَ عَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ: أَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ مَاءً فِي دَنٍّ تَحْتَ الأَرْضِ، فَيَشْرَبُ مِنْهُ، وَهُوَ شَدِيْدُ الحَرِّ! وَقَالَ لِسُفْيَانَ: إِذَا كُنْتَ تَأْكُلُ اللَّذِيْذَ الطَّيِّبَ، وَتَشْرَبُ المَاءَ البَارِدَ المُبَرَّدَ، فَمَتَىٰ تُحِبُّ المَوْتَ وَالقُدُوْمَ عَلَىٰ اللهِ؟!

وَهٰذَا جَهْلٌ بِالمَقْصُوْدِ؛ فَإِنَّ شُرْبَ المَاءِ الحَارِّ يُوْرِثُ أَمْرَاضًا فِي البَدَنِ، وَلا يَحْصُلُ بِهِ الرَّيُّ، وَمَا أُمِرْنا بِتَعْذِيْبِ أَنْفُسِنَا [عَلىٰ هٰذِهِ][2] الصُّوْرَةِ، بَلْ بِخلافِ ما تَدْعُوْ إِلَيْهِ مِمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ.

وَفِي الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ: أَنَّ **أَبَا بَكْرٍ** رضي الله عنه **لَمّا حَلَبَ لَهُ الرَّاعِي فِي طَرِيْقِ الهِجْرَةِ؛ صَبَّ المَاءَ عَلىٰ القَدَحِ حَتَّىٰ بَرَدَ أَسْفَلُهُ، ثُمَّ سَقَىٰ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، وفَرَشَ لَهُ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ. وَكَانَ يُسْتَعْذَبُ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ المَاءُ**. وَقَالَ: «**إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ**

---

(١) في الأصل: العلم، وهو تصحيف. (٢) في الأصل: في.

فِي شَنٍّ، وَإِلَّا؛ كَرَعْنَا»[1].

وَلَوْ فَهِمَ دَاوُدُ رَحِمَهُ الله أَنَّ إِصْلاحَ عَلَفِ النَّاقَةِ مُتَعَيِّنٌ لِقَطْعِ المَسَافَةِ؛ لَمْ يَفْعَلْ هٰذَا.

أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ؛ فَإِنَّه كَانَ شَدِيْدَ المَعْرِفَةِ وَالخَوْفِ، وَكَانَ يَأْكُلُ اللَّذِيْذَ، وَيَقُوْلُ: إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا لَمْ يُحْسَنْ إِلَيْهَا؛ لَمْ تَعْمَلْ.

٦٩٥ ـ وَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَسْمَعُ كَلامِي هٰذَا **يَقُوْلُ**: هٰذَا مَيْلٌ عَلَىٰ الزُّهَّادِ! **فَأَقُوْلُ**: كُنْ مَعَ العُلَمَاءِ، وَانْظُرْ إِلَىٰ طَرِيْقِ الحَسَنِ وسُفْيَانَ ومَالِكٍ وَأَبِي حَنِيْفَةَ وَأَحْمَدَ والشَّافِعِيِّ، وَهٰؤلاء أُصُوْلُ الإِسْلامِ، وَلَا تُقَلِّدْ دِيْنَكَ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ؛ وَإِنْ قَوِيَ زُهْدُهُ، وَاحْمِلْ أَمْرَه عَلَىٰ أَنَّه كَانَ يُطِيْقُ هٰذَا، وَلا تَقْتَدِ بِهِم فِيْمَا لا تُطِيْقُهُ؛ فَلَيْسَ أَمْرُنا إِلَيْنَا، وَالنَّفْسُ وَدِيْعَةٌ عِنْدَنا. فَإِنْ أَنْكَرْتَ ما شَرَحْتُهُ؛ فَأَنْتَ مُلْحَقٌ بِالقَوْمِ الَّذِيْنَ أَنْكَرْتُ عَلَيْهِم. هٰذَا رَمْزٌ إِلَىٰ المَقْصُودِ، وَالشَّرْحُ يَطُوْلُ.

١٥٣ - فصل: الواجب على العاقل أن يتبع الدليل

٦٩٦ ـ الوَاجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَ الدَّلِيْلَ، ثُمَّ لَا يَنْظُرُ فِيْمَا يَجْنِي مِنْ مَكْرُوْهٍ. مِثَالُهُ: أَنَّه قَدْ ثَبَتَ بِالدَّلِيْلِ القَاطِعِ حِكْمَةُ الخَالِقِ ﷻ ومُلْكُه وَتَدْبِيْرُهُ؛ فَإِذَا رَأَىٰ الإِنْسَانُ عَالِمًا مَحْرُوْمًا، وَجَاهِلًا مَرْزُوْقًا؛ أَوْجَبَ عَلَيْهِ الدَّلِيْلُ المُثْبِتُ حِكْمَةَ الخَالِقِ التَّسْلِيْمَ إِلَيْهِ، وَنِسْبَةَ العَجْزِ عَنْ مَعْرِفَةِ الحِكْمَةِ إِلَىٰ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ أَقْوَامًا لَمْ يَفْعَلوا ذٰلِكَ جَهْلًا مِنْهُم! أَفَتَراهُمْ بِمَاذا حَكَمُوا بِفَسَادِ هٰذا التَّدْبِيْر؟! أَلَيْسَ بِمُقْتَضَىٰ عُقُوْلِهِم؟! أَوَما عُقُوْلُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ مَوَاهِبِهِ؟! فَكَيْفَ يُحْكَمُ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ وَتَدْبِيْرِهِ بِبَعْضِ مُخْلُوْقَاتِهِ الَّتِي هِيَ بَالإِضَافَةِ إِلَيْهِ أَنْقَصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟!

٦٩٧ ـ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنِ **اللَّعِيْنِ ابْنِ الرَّاوَنْدِي**[2] أَنَّه كَانَ جَالِسًا عَلَىٰ الجِسْرِ،

---

(١) رواه البخاري (٥٦٢١) عن جابر ﷺ. و(الشن) جلد يوضع فيه الماء ليبرد و(الكرع) شرب بفيه من موضعه، فإن شرب بكفيه أو بشيء آخر فليس بكرع.

(٢) أحمد بن يحيى الزنديق، كان من المعتزلة، ثم تزندق واشتهر بالإلحاد وألف كتبًا فيه، نفق سنة (٢٩٨هـ).

وَفِي يَدِهِ رَغِيْفٌ يَأْكُلُهُ، فَجَازَتْ خَيْلٌ وَأَمْوَالٌ، فَقَالَ: لِمَنْ هٰذِهِ؟ فَقِيْلَ: لِفُلَانٍ الخَادِمِ[1]. ثُمَّ جَازَتْ خَيْلٌ وَأَمْوَالٌ، فَقَالَ: لِمَنْ هٰذِهِ؟ فَقِيْلَ: لِفُلانٍ الخَادِمِ، فَلَمَّا مَرَّ الخَادِمُ؛ رَأَىٰ شَخْصًا مُحْتَقَرًا، فَرَمَىٰ الرَّغِيْفَ إِلَىٰ نَاحِيَتِهِ، وَقَالَ: وَهٰذَا لِفُلانٍ! مَا هٰذِهِ القِسْمَةُ؟!

٦٩٨ ـ وَلَوْ فَكَّرَ المُعْتَرِضُ[2]؛ لَبَانَتْ لَهُ وُجُوْهٌ، أَقَلُّهَا: جَهْلُهُ بِمَنْ يَدَّعِي مَعْرِفَتَه، وَقِلَّةُ تَعْظِيْمِهِ لَهُ، وَذٰلِكَ يُوْجِبُ عَلَيْهِ أَشَدَّ مِمَّا كَانَ فِيْهِ مِنْ تَضْيِيْقِ العَيْشِ، وَلٰكِنَّهُ مِيْرَاثُ إِبْلِيْسَ؛ حَيْثُ اعْتَقَدَ سُوْءَ التَّدْبِيْرِ فِي تَفْضِيْلِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ. فَالعَجَبُ مِنْ تِلْمِيْذٍ يَتَعالَمُ عَلَىٰ أُسْتَاذِهِ، وَمِنْ مَمْلُوْكٍ يَتيهُ عَلَىٰ سَيِّدِهِ!

٦٩٩ ـ وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَعَ فِيْهِ الدَّلِيْلُ، وَلا يُلْتَفَتَ إِلَىٰ مَا جَنَتِ الحَالُ: أَنَّ العِلْمَ أَشْرَفُ مُكْتَسَبٍ. وَقَدْ رَأَىٰ جَمَاعَةٌ مِنَ الجَهَلَةِ قِلَّةَ حُظُوْظِ العُلَمَاءِ مِنَ الدُّنيا، فَأَزْرَوا عَلَىٰ العِلْمِ، وَقَالُوْا: لا فَائِدَةَ فِيْهِ! وذٰلِكَ لِجَهْلِهِم بِمِقْدَارِ العِلْمِ؛ فَإِنَّ تَابِعَ الدَّلِيْلِ لا يُبَالِي مَا جَنَىٰ، وَإِنَّمَا يَبِيْنُ الاخْتِبَارُ بِفَقدِ الغَرَضِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الدَّلِيْلِ عَلَىٰ صِدْقِ نَبِيِّنا ﷺ إِلَّا إِعْرَاضُهُ عَنِ الدُّنيا، وَتَضْيِيْقُ العَيْشِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لَمْ يُخَلِّفْ شَيْئًا، وَحَرَمَ أَهْلَهُ المِيْرَاثَ؛ لَكَفَاهُ ذٰلِكَ دَلِيْلًا عَلَىٰ صِدْقِ طَلَبِهِ لِمَطْلُوْبٍ آخَرَ.

٧٠٠ ـ وَرُبَّمَا رَأَىٰ الجَاهِلُ قَوْمًا مِنَ العُلَمَاءِ يَفْعَلُوْنَ خَطِيْئَةً، فَيُزْرِي[3] عَلَىٰ العِلْمِ، وَيَدَّعِيْهِ نَاقِصًا، وهٰذا غَلَطٌ كَبِيْرٌ. فَلْيَتَّقِ اللهَ العَاقِلُ، وَلْيَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ العَقْلِ فِيْمَا يَأْمُرُ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَالعَمَلِ بِالعِلْمِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الابْتِلَاءَ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ فَوَاتِ المَطْلُوْبَاتِ، وَلْيَلْزَمِ اتِّبَاعَ الدَّلِيْلِ؛ وَإِن جَنَىٰ مَكْرُوْهًا. والله الموفِّقُ.

١٥٤ - فصل: أكل الأرباح في الصبر

٧٠١ ـ قَرَأْتُ سُوْرَةَ يُوْسُفَ عليه السلام، فَتَعَجَّبْتُ مِنْ مَدْحِهِ عليه السلام عَلَىٰ صَبْرِهِ، وَشَرْح

(١) هو علي بن بلتق خادم الخليفة. انظر: الخبر نفسه في الفصل (٣٥٨).
(٢) في الأصل: المدبر.
(٣) في الأصل: فيزدري.

قِصَّتِهِ للنّاسِ، وَرَفْعِ قَدْرِهِ بِتَرْكِ مَا تَرَكَ. **فَتأمَّلْتُ** خَبِيئَةَ الأَمْرِ؛ فَإِذَا هَيَ مُخَالَفَةٌ لِلْهَوَىٰ المَكْرُوْهِ.

فَقُلْتُ: وَا عَجَبًا! لَوْ وَافَقَ هَوَاهُ؛ مَنْ كَانَ يَكُوْنُ؟! ولَمَّا خَالَفَهُ؛ لَقَدْ صَارَ أَمْرًا عَظِيْمًا؛ تُضْرَبُ الأَمْثَالُ بِصَبْرِهِ، ويُفْتَخِرُ عَلىٰ الخَلْقِ بِاجْتِهَادِهِ، وَكُلُّ ذٰلِكَ قَدْ كَانَ بِصَبْرِ سَاعَةٍ؛ فيا لَهُ عِزًّا وفَخْرًا [أَنْ تَمْلِكَ نَفْسَكَ][1] سَاعَةَ الصَّبْرِ عَنِ المَحْبُوْبِ [وَهُوَ قَرِيْبٌ][2]!

وَبِالعَكْس مِنْهُ حَالةُ آدَمَ فِي مُوَافَقَتِهِ هَوَاهُ، لَقَدْ عَادَتْ نَقِيْصَةً فِيْ حَقِّهِ أَبدًا، لَوْلا التَّدَارُكِ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]!

فَتَلَمَّحُوْا ـ رَحِمَكُمُ الله ـ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ وَنِهَايةَ الهَوَىٰ! فَالعَاقِلُ مَنْ مَيَّزَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ؛ الحُلْوَيْنِ وَالمُرَّيْنِ؛ فَإِنْ عَدَلَ مِيْزَانُه، وَلَمْ تَمِلْ بِهِ كِفَّةُ الهَوَىٰ؛ رَأَىٰ كُلَّ الأَرْبَاحِ في الصَّبْرِ، وَكُلَّ الخُسْرَانِ فِي مُوَافَقَةِ النَّفْسِ. وَكَفَىٰ بِهٰذَا مَوْعِظَةً فِي مُخَالَفَةِ الهَوَىٰ لِأَهْلِ النُّهَىٰ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٥ - فصل: الرقائق والنظر في سير الصالحين

٧٠٢ ـ رَأَيْتُ الاشْتِغَالَ بِالفِقْهِ وَسَمَاعِ الحَدِيْثِ لا يَكَادُ يَكْفِي فِي صَلَاحِ القَلْبِ؛ إِلَّا أَنْ يُمْزَجَ بالرَّقَائِقِ، والنَّظَرِ فِي سِيَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِيْنَ.

فَأَمَّا مُجَرَّدُ العِلْمِ بِالحَلَالِ والحرامِ؛ فَلَيْسَ لَهُ كَبِيْرُ عَمَلٍ في رِقَّةِ القَلْبِ، وَإِنَّمَا تَرِقُّ القُلُوْبُ بِذِكْرِ رَقَائِقِ الأَحَادِيْثِ، وَأَخْبَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِيْنَ؛ لِأَنَّهُمْ تَنَاوَلُوْا مَقْصُوْدَ النَّقْلِ، وَخَرَجُوْا عَن صُوَرِ الأَفْعَالِ المَأْمُوْرِ بِهَا إِلىٰ ذَوْقِ مَعَانِيْهَا والمُرَادِ بِهَا. وَمَا أَخْبَرْتُكَ بِهٰذَا إِلَّا بَعْدَ مُعَالَجَةٍ وَذَوْقٍ، لِأَنِّي وَجَدْتُ جُمْهُوْرَ المُحَدِّثِيْنَ وَطُلَّابَ الحَدِيْثِ هِمَّةُ أَحَدِهِم فِي الحَدِيْثِ العَالِي، وتَكْثِيْرِ الأَجْزَاءِ، وَجُمْهُوْرَ الفُقَهَاءِ فِي عُلُوْمِ الجَدَلِ، وَمَا يُغَالَبُ بِهِ الخَصْمُ. **وَكَيْفَ يَرِقُّ القَلْبُ مَعَ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ؟!**

---

(١) في الأصل: يقاوم كل لحظة من ذكره أمثال، والمثبت من نسخة في حاشية (أ)٠

(٢) زيادة من ط.

٧٠٣ ـ وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَقْصِدُوْنَ العَبْدَ الصَّالِحَ لِلنَّظَرِ إِلَىٰ سَمْتِهِ وَهَدْيِهِ لا لِاقْتِبَاسِ عِلْمِهِ، وَذٰلِكَ أَنَّ ثَمَرَةَ عِلْمِهِ هَدْيُهُ وَسَمْتُه. فَافْهَمْ هٰذا، وَامْزُجْ طَلَبَ الفِقْهِ والحَدِيْثِ بِمُطَالَعَةِ سِيَرِ السَّلَفِ والزُّهَّادِ في الدُّنيا؛ لِيَكُوْنَ سَبَبًا لِرِقَّةِ قَلْبِكَ.

٧٠٤ ـ وقَدْ جَمَعْتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ مَشَاهِيْرِ الأَخْيَارِ كِتَابًا فِيْهِ أَخْبَارُهُ وَآدَابُهُ؛ فَجَمَعْتُ كِتَابًا فِي أَخْبَارِ الحَسَنِ، وَكِتَابًا فِي أَخْبَارِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَإِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ، وَبِشْرٍ الحَافِي، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل، وَمَعْرُوْفٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ العُلَمَاءِ والزُّهَّادِ. واللهُ المُوَفِّقُ لِلْمَقْصُوْدِ.

٧٠٥ ـ وَلا يَصْلُحُ العَمَلُ مَعَ قِلَّةِ العِلْمِ؛ فَهُمَا فِي ضَرْبِ المَثَلِ كَسَائِقٍ وَقَائِدٍ، وَالنَّفْسُ بَيْنَهُمَا حَرُوْنٌ[1]، وَمَعَ جِدِّ السَّائِقِ والقَائِدِ يَنْقَطِعُ المَنْزِلُ، وَنَعُوْذُ بالله مِنَ الفُتُوْرِ.

١٥٦ - فصل: لا حرج في الترخص ما لم يخرق إجماعًا

٧٠٦ ـ تَرَخَّصْتُ فِي شَيْءٍ يَجُوْزُ فِيْ بَعْضِ المَذَاهِبِ، فَوَجَدْتُ فِي قَلْبِي قَسْوَةً عَظِيْمَةً، وتَخَايَلَ لِي نَوْعُ طَرْدٍ عَنِ البَابِ، وبُعْدٌ وَظُلْمَةٌ تَكَاثَفَتْ. **فَقَالَتْ نَفْسِي**: مَا هٰذا؟! أَلَيْسَ ما خَرَجْتُ عَنْ إِجْمَاعِ الفُقَهَاءِ[2]؟! **فَقُلْتُ لَهَا**: يَا نَفْسَ السَّوْءِ! جَوَابُكِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: **أَنَّكِ تَأَوَّلْتِ مَا لا تَعْتَقِدِيْنَ**؛ فَلَو اسْتُفْتِيْتِ؛ لَمْ تُفْتِي[3] بِمَا فَعَلْتِ. **قَالَتْ**: لَوْ لَمْ أَعْتَقِدْ جَوَازَ ذٰلِكَ؛ مَا فَعَلْتُهُ. قُلْتُ: إِلَّا أَنَّ اعْتِقَادَكَ مَا تَرْضَيْنَهُ لِغَيْرِكِ في الفَتْوَىٰ.

والثَّانِي: **أَنَّه يَنْبَغِي لَكِ الفَرَحُ بِمَا وَجَدْتِ مِنَ الظُّلْمَةِ عقيبَ ذٰلِكَ**؛ لأَنَّهُ لَوْلَا نُوْرٌ فِي قَلْبِكِ؛ مَا أَثَّرَ مِثْلُ هٰذَا عِنْدَكِ. **قَالَتْ**: فَلَقَدِ اسْتَوْحَشْتُ بِهٰذِهِ الظُّلْمَةِ المُتَجَدِّدَةِ

---

(١) **حرون**: صعب الانقياد.

(٢) أي: لم أفعل ما أجمع الفقهاء على تحريمه، وعليه لم أخرج به عن الإجماع.

(٣) في الأصل: تفت.

في القَلْبِ. **قُلْتُ**: فَٱعْزِمي عَلىٰ التَّرْكِ، وَقَدِّرِي مَا تَرَكْتِ جَائِزًا بالإِجْمَاعِ، وَعُدِّي هَجْرَهُ وَرَعًا، وَقَدْ سَلِمْتِ.

١٥٧ - فصل: احتياج الخلق بعضهم إلى بعض

٧٠٧ - مِمّا أَفَادَتْنِي تَجَارِبُ الزَّمَانِ أَنَّه لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُظَاهِرَ بِالعَدَاوَةِ أَحَدًا مَا[1] اسْتَطَاعَ؛ فَإِنَّه رُبَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، [مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ][2].

وَإِنَّ الإِنْسَانَ رُبَّما لا يَظُنُّ الحَاجَةَ إِلىٰ مِثْلِهِ يَوْمًا مَا؛ كَمَا لا يَحْتَاجُ إِلىٰ عُوَيْدٍ[3] مَنْبُوْذٍ، لا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ. لٰكِنْ؛ كَمْ مِنْ مُحْتَقَرٍ احْتِيْجَ إِلَيْهِ! فَإِذَا لَمْ تَقَعِ الحَاجَةُ إِلىٰ ذٰلِكَ الشَّخْصِ فِي جَلْبِ نَفْعٍ؛ وَقَعَتِ الحَاجَةُ فِي دَفْعِ ضُرٍّ.

وَلَقَدِ احْتَجْتُ فِي عُمُرِي إِلىٰ مُلَاطَفَةِ أَقْوَامٍ مَا خَطَرَ لِي قَطُّ وُقُوْعُ الحَاجَةِ إِلىٰ التَّلَطُّفِ بِهِمْ.

٧٠٨ - وَاعْلَمْ أَنَّ المُظَاهَرَةَ بِالعَدَاوَةِ قَدْ تَجْلِبُ أَذًىٰ مِنْ حَيْثُ لا يُعْلَمُ؛ لِأَنَّ المُظَاهِرَ بِالعَدَاوةِ كَشَاهِرِ السَّيْفِ يَنْتَظِرُ مَضْرِبًا، وَقَدْ يَلُوْحُ مِنْهُ مَضْرِبٌ خَفِيٌّ، وَإِن اجْتَهَدَ المُتَدَرِّعُ فِي سَتْرِ نَفْسِهِ، فَيَغْتَنِمُهُ ذٰلِكَ العَدُوُّ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَلَّا يُظَاهِرَ بِالعَدَاوَةِ أَحَدًا؛ لِمَا بَيَّنْتُ مِنْ وُقُوْعِ احْتِيَاجِ الخَلْقِ بَعْضِهِم إِلىٰ بَعْضٍ، وَإِقْدَارِ بَعْضِهِم عَلَىٰ ضَرَرِ بَعْضٍ. وَهٰذَا فَصْلٌ مُفِيْدٌ، تَبِينُ فَائِدَتُهُ لِلإِنْسَانِ مَعَ تَقَلُّبِ[4] الزَّمَانِ.

١٥٨ - فصل: عليك بالقناعة مهما أمكن

٧٠٩ - رَأَيْتُ النَّفْسَ تَنْظُرُ إِلىٰ لَذَّاتِ أَرْبَابِ الدُّنْيا العَاجِلَةِ، وَتَنْسَىٰ كَيْفَ حُصِّلَتْ، وَمَا يَتَضَمَّنُها مِنَ الآفاتِ.

---

(١) في الأصل: مهما.

(٢) جاء في الحديث: «أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»، رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة مرفوعًا، وعن علي مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح.

(٣) **عويد**: تصغير عود، أي: العود الصغير.

(٤) في الأصل: تغلب، وهو تصحيف.

٧١٠ ـ وَبَيَانُ هٰذَا:

أَنَّكَ إِنْ رَأَيْتَ **صَاحِبَ إِمَارَةٍ وَسَلْطَنَةٍ**، فَتَأَمَّلْتَ نِعْمَتَهُ؛ وَجَدْتَها مَشُوْبَةً بِالظُّلْمِ: فَإِنْ لَمْ يَقْصِدْه هُوَ؛ حَصَلَ مِن عُمَّالِهِ. ثُمَّ هُوَ خَائِفٌ، مُنْزَعِجٌ فِي كُلِّ أُمُوْرِهِ، حَذِرٌ مِنْ عَدُوٍّ أَنْ يَسُمَّهُ، قَلِقٌ مِمَّنْ هُو فَوْقَه أَنْ يَعْزِلَهُ، وَمِنْ نَظِيْرِهِ أَنْ يَكِيْدَهُ. ثُمَّ أَكْثَرُ زَمَانِهِ يَمْضِي فِي خِدْمَةِ مَنْ يَخَافُهُ مِنَ السَّلَاطِيْنِ، وَفِي حِسَابِ أَمْوَالِهِمْ، وَتَنْفِيْذِ أَوَامِرِهِم، الَّتي لا تَخْلُوْ مِنْ أَشْيَاءَ مُنْكَرَةٍ. وَإِنْ عُزِلَ؛ أَرْبَىٰ[1] ذٰلِكَ عَلَىٰ جَمِيْعِ مَا نَالَ مِنْ لَذَّةٍ. ثُمَّ تِلْكَ اللَّذَّةُ تَكُوْنُ مَغْمُوْرَةً بِالحَذَرِ فِيْهَا وَمِنْهَا وَعَلَيْهَا.

٧١١ ـ وإِنْ رَأَيْتَ **صَاحِبَ تِجَارَةٍ**؛ رَأَيْتَهُ قَدْ تَقَطَّعَ فِي البِلَادِ، فَلَمْ يَنَلْ مَا نَالَ إِلَّا بَعْدَ عُلُوِّ السِّنِّ، وَذَهَابِ زَمَانِ اللَّذَّةِ؛ كَمَا حُكِي أَنَّ رَجُلًا مِنَ الرُّؤَسَاءِ كَانَ حَالُ شَبِيْبَتِهِ فَقِيْرًا، فَلَمَّا كَبِرَ؛ اسْتَغْنَىٰ، وَمَلَكَ أَمْوَالًا، وَاشْتَرَىٰ عَبِيْدًا مِنَ التُّرْكِ وَغَيْرِهِم، وَجَوَارٍ مِنَ الرُّوْمِ، فَقَالَ هٰذِهِ الأَبْيَاتِ فِي شَرْحِ حَالِهِ:

مَا كُنْتُ أَرْجُوْهُ إِذْ كُنْتُ ابْنَ عِشْرِيْنَ ... مَلَكْتُهُ بَعْدَ أَنْ جَاوَزْتُ سَبْعِيْنَا

تَطُوْفُ بِي مِنَ الأَتْرَاكِ أَغْزِلَةٌ ... مِثْلُ الغُصُوْنِ عَلَىٰ كُثْبَانِ يَبْرِيْنَا[2]

وَخُرَّدٌ مِنْ بَنَاتِ الرُّوْمِ رَائِعَةٌ ... يَحْكِيْنَ بِالحُسْنِ حُورَ الجَنَّةِ العِيْنَا[3]

يَغْمِزْنَنِي بِأَسَارِيعَ مُنَعَّمَةٍ ... تَكَادُ تُعْقَدُ مِنْ أَطْرَافِهَا لِيْنَا[4]

يُرِدْنَ إِحْيَاءَ مَيْتٍ لا حَرَاكَ بِهِ ... وَكَيْفَ يُحْيِيْنَ مَيْتًا صَارَ مَدْفُوْنَا

قَالُوْا: أَنِيْنُكَ طُوْلَ اللَّيْلِ يُسْهِرُنا ... فَمَا الذي تَشْتَكِي؟ قُلْتُ: الثَّمَانِيْنَا

٧١٢ ـ وهٰذِهِ الحَالَةُ هِيَ الغَالِبَةُ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ لا يَكَادُ يَجْتَمِعُ لَهُ كُلُّ مَا يُحِبُّهُ إِلَّا عِنْدَ قُرْبِ رَحِيْلِهِ؛ فَإِنْ بَدَرَ مَا يُحِبُّ فِي بِدَايَةِ شَبَابِه؛ فالصَّبْوَةُ[5] مَانِعَةٌ مِن فَهْمِ التَّدْبِيْرِ أَوْ حُسْنِ الالْتِذَاذِ.

---

(١) **أربى**: زاد.

(٢) **أغزلة**: جمع غزال، و(**يبرين**) قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء من بني سعد بالبحرين.

(٣) **الخرد**: جمع خريدة: الفتاة البكر، و(**يحكين**) يشابهن، و(**حور الجنة**) نساؤها، و(**العين**) بكسر العين: واسعات أحداق العيون.

(٤) **الأساريع**: دود بيض حمر الرؤوس، تشبه بها أصابع النساء.

(٥) **الصبوة**: الصِّبا.

٧١٣ ـ وَالإِنْسَانُ فِي حَالَةِ الصَّبْوَةِ لا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ؛ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ: فَإِذَا بَلَغَ؛ كانَتْ هِمَّتُهُ في المَنْكُوحِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ. وَإِنْ تَزوَّجَ؛ جاءَ الأَوْلَادُ، فَمَنَعُوْهُ اللَّذَّةَ، وَانْكَسَرَ في نَفْسِهِ، وافْتَقَرَ إِلىٰ الكَسْبِ عَلَيْهِم. فَبَيْنَمَا هُوَ قَدْ دَعَكَ[1] فِي تِلْكَ المُدَيْدَةِ القَرِيْبَةِ [مِنَ] الثَّلَاثِيْنَ؛ وَخَطَهُ الشَّيْبُ[2]، فَانْفرَقَ مِنْ نَفْسِهِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَنْفَرِقْنَ مِنْهُ؛ كَمَا قَالَ ابنُ المُعْتَزِّ بِالله[3]:

لَقَدْ أَتْعَبْتُ نَفْسِي فِي مَشِيْبِي ... فَكَيْفَ تُحِبُّنِي الخُرْدُ الكعابُ[4]

فإذا فهِمَ المتمتّع بالمُسْتَحْسَنَاتِ، وخَرَجَ عَنْ طَلَبِ صُوْرَةِ النِّكَاحِ، لم يَجِدْ مالًا يَبْلُغُ بِهِ المرادَ، فإنْ كسبَ ضَاعَ زَمَنُ تَمَتُّعِهِ، وَإِذَا تَمَّ المَطْلُوْبُ؛ فالشَّيْبُ أَقْبَحُ قَذًىٰ[5]، وَأَعْظَمُ مُبْغَضٍ.

٧١٤ ـ ثُمَّ إِنَّ صَاحِبَ المَالِ خَائِفٌ عَلَىٰ مَالِهِ، مُحَاسِبٌ لِمُعَامِلِيْهِ، مُذْمُوْمٌ إِنْ أَسْرَفَ وَإِنْ قَتَّرَ، وَلَدُهُ يَرْصُدُ[6] مَوْتَهُ، وَجَارِيَتُهُ قَدْ لا تَرْضَىٰ بِشَخْصِهِ، وَهُوَ مَشْغُوْلٌ بِحِفْظِ حَوَاشِيْهِ[7]؛ فَقَدْ مَضَىٰ زَمَانُهُ فِي مِحَنٍ، واللَّذَّاتُ فِيْهَا خِلَسٌ[8] مُعْتَادَةٌ، لا لَذَّةَ فيها. ثُمَّ في القِيامَةِ يُحْشَرُ الأَمِيْرُ وَالتَّاجِرُ [خزايا] إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ. فإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلىٰ صُوْرَةِ نَعِيْمِهِم؛ فإِنَّكَ تَسْتَطِيبُهُ لبُعْدِهِ عنكَ، ولو نِلْتَهُ بَرَدَ عِنْدَكَ[9]، ثُمَّ في ضِمْنِهِ مِنْ مِحَنِ الدُّنيا والآخِرَةِ مَا لا يُوصَفُ؛ فَعَلَيْكَ بِالقَنَاعَةِ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ فَفِيْهَا سَلَامَةُ الدُّنيا والدِّيْنِ.

وَقَدْ قِيْلَ لِبَعْضِ الزُّهَّادِ، وَعِنْدَهُ خُبْزٌ يابِسٌ: كَيْفَ تَشْتَهِي هٰذا؟ فَقَالَ: أَتْرُكُهُ حَتَّىٰ أَشْتَهِيْه.

---

(١) **دعك**: تمرَّس.
(٢) **وخطهُ الشيب**: انتشر الشيب في رأسه.
(٣) عبد الله بن محمد المعتز بالله أبو العباس (٢٤٧ ـ ٢٦٩هـ): الشاعر المبدع، خليفة ليوم وليلة، لقب بالمرتضى بالله.
(٤) **(الكعاب)** جمع كاعب: وهي التي قاربت البلوغ فبرز نهداها.
(٥) **قذى**: ما يؤذي العين.
(٦) **يرصد**: يرتقب.
(٧) **حواشيه**: أقاربه وأعوانه.
(٨) **خلس**: منتهزة.
(٩) في بعض النسخ المطبوعة: ولو بلغته كرهته.

١٥٩ - فصل: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

٧١٥ ـ وَقَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَرْبَابِ الوِلايَاتِ نَوْعُ مُعَادَاةٍ لَأَجْلِ المَذْهَبِ؛ فَإِنِّي كُنْتُ فِي مَجْلِسِ التَّذْكِيْرِ أَنصُرُ[١]: أَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ، وَأَنَّهُ قَدِيْمٌ، وَأُقدِّمُ أَبَا بَكْرٍ، وَاتَّفَقَ فِي أَرْبَابِ الوِلايَاتِ مَنْ يَمِيْلُ إِلىٰ مَذْهَبِ الأَشْعَرِيِّ، وَفِيْهِم مَنْ يَمِيْلُ إِلىٰ مَذْهَبِ الرَّوَافِضِ، وتَمالؤوا عليَّ في الباطنِ. فَقُلْتُ يَوْمًا فِي مُنَاجَاتِي لِلحَقِّ سُبْحَانَه وَتَعَالَىٰ: سَيِّدِي! نَوَاصِي الكُلِّ بِيَدِكَ، وَمَا فِيْهِم مَنْ يَقْدِرُ لِيْ عَلىٰ ضُرٍّ؛ إِلَّا أَنْ تُجْرِيَهُ عَلىٰ يَدِهِ. وَأَنْتَ قُلْتَ سُبْحَانَكَ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وَطَيَّبْتَ قَلْبَ المُبْتَلَىٰ بِقَوْلِكَ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

فَإِنْ أَجْرَيْتَ عَلىٰ أَيْدِي بَعْضِهِم مَا يُوْجِبُ خِذْلانِي؛ كَانَ خَوْفِي عَلىٰ مَا نَصَرْتُه أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِي عَلَىٰ نَفْسِي؛ لِئلَّا يُقَالَ: لَوْ كَانَ عَلىٰ حَقٍّ مَا خُذِلَ.

وَإِنْ نَظَرْتُ إِلىٰ تَقْصِيْرِي وَذُنُوْبِي؛ فَإِنِّي مُسْتَحِقٌّ لِلْخِذْلانِ؛ غَيْرَ أَنِّي أَعِيْشُ بِمَا نَصَرْتُهُ مِنَ السُّنَّةِ، فَأَدْخِلْنِي فِي خِفَارَتِهِ[٢]. وَقَدِ ٱسْتَوْدَعَنِي إِيَّاكَ خَلْقٌ مِنْ صَالِحِي عِبَادِكَ؛ فَإِنْ لَمْ تَحْفَظْنِي بِي؛ فَاحْفَظْنِي بِهِم.

سَيِّدِي! انْصُرْنِي عَلىٰ مَنْ عَادَانِي؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْرِفونَكَ كَمَا يَنْبَغِي، وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ عَنْكَ عَلىٰ كُلِّ حَالٍ. وَأَنَا عَلىٰ تَقْصِيْرِي إِلَيْكَ أُنْسَبُ.

١٦٠ - فصل: الأحمق يتقاوى على الله

٧١٦ ـ رُوِيَ عَنِ **الحَلَّاجِ** الصُّوْفِيِّ[٣] أَنَّه كَانَ يَقْعُدُ فِي الشَّمْسِ فِي الحَرِّ الشَّدِيْدِ، وَعَرَقُهُ يَسِيْلُ، فَجَازَ بِهِ بَعْضُ العُقَلاءِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَحْمَقُ! هٰذا تَقَاوٍ[٤] عَلىٰ اللهِ تَعَالىٰ.

---

(١) في الأصل: (أنظر)، وهو تصحيف. (٢) **خفارته**: حفظه.

(٣) الحسين بن منصور، ظهرت منه أشياء أنكرها عليه الفقهاء والصوفية جميعًا، استتيب فلم يرجع، فقتل ستة (٣٠٩هـ).

(٤) تطاول.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ هٰذَا! فَإِنَّه مَا وَضَعَ التَّكْلِيْفَ إِلَّا عَلىٰ خِلَافِ الأَغْرَاضِ، وَقَدْ يَخْرُجُ صَاحِبُه إِلىٰ أَنْ يَعْجِزَ عَنِ الصَّبْرِ. فَالجَاهِلُ الأَحْمَقُ مَن تَقَاوَىٰ، أَوْ مَنْ يَسْأَلُ البَلاء؛ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ الأَبْلَهُ: فَكَيْفَمَا شِئْتَ؛ فاخْتَبِرْني!!

١٦١ - فصل: السعيد من ذل لله

٧١٧ - والسَّعِيْدُ مَنْ ذَلَّ للهِ، وَسَأَلَ العَافِيَةَ؛ فَإِنَّه لا يُوهَبُ العَافِيَةُ عَلىٰ الإِطْلَاقِ؛ إِذْ لا بُدَّ مِنْ بَلاءٍ، وَلا يَزَالُ العَاقِلُ يَسْأَلُ العَافِيَةَ؛ لِتَغْلِبَ عَلىٰ جُمْهُوْرِ أَحْوَالِهِ، فَيَقْرُبَ الصَّبْرُ عَلىٰ يَسِيْرِ البَلَاءِ.

٧١٨ - وَفِي الجُمْلَةِ: يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَا سَبِيْلَ إِلىٰ مُحْبُوْبَاتِهِ [خَالِصَةً]؛ فَفِي كُلِّ جُرْعَةٍ غُصَصٌ، وَفِي كُلِّ لُقْمَةٍ شَجًى[1]:

وَكَمْ مَنْ يَعْشَقُ الدُّنْيا قَدِيمًا ... وَلٰكِنْ لا سَبِيْلَ إِلَىٰ الوِصَالِ

٧١٩ - وَعَلىٰ الحَقِيْقَةِ؛ مَا الصَّبْرُ إِلَّا عَلىٰ الأَقْدَارِ، وَقَلَّ أَنْ تَجْرِيَ الأَقْدَارُ إِلَّا عَلىٰ خِلَاف مُرَادِ النَّفْسِ.

فَالعَاقِلُ مَنْ دَارَىٰ نَفْسَهِ فِي الصَّبْرِ بِوَعْدِ الأَجْرِ، وَتَسْهِيْلِ الأَمْرِ؛ لِيَذْهَبَ زَمَانُ البَلاءِ، سَالِمًا مِنْ شَكْوىٰ، ثُمَّ يَسْتَغِيْثُ بِاللهِ تَعَالَىٰ سَائِلًا العافيةَ.

فَأَمّا **المُتَجَلِّدُ**[2]؛ فَمَا عَرَفَ اللهَ قطُّ. نَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الجَهْلِ بِهِ، وَنَسْأَلُهُ عِرْفَانَهُ؛ إِنَّهُ كَرِيْمٌ مُجِيْبٌ.

١٦٢ - فصل: الاقتداء بصاحب الشرع

٧٢٠ - الجَادَّةُ السَّلِيْمَةُ والطَّرِيْقُ القَوِيْمَةُ: الاقْتِدَاءُ بِصَاحِبِ الشَّرْعِ، وَالبِدَارُ إِلىٰ الاسْتِنَانِ بِهِ، فَهُوَ الكَامِلُ الَّذِي لا نَقْصَ فِيْهِ.

٧٢١ - فَإِنَّ خَلْقًا كَثِيْرًا انْحَرَفوا إِلَىٰ **جَادَّةِ الزُّهْدِ**، وحَمَّلُوْا أَنْفُسَهُم فَوْقَ الجُهْدِ،

---

(١) **الشجى**: ما اعترض في الحلق فأعاق البلع. (٢) قاسي القلب.

فَأَفَاقُوا فِي أَوَاخِرِ العُمُرِ؛ وَالبَدَنُ قَد نَهِكَ، وَفَاتَتْ أُمُوْرٌ مُهِمَّةٌ مِنَ العِلْمِ وَغَيْرِه.

٧٢٢ ـ وَإِنَّ أَقْوامًا انْحَرَفوا إِلىٰ **صُوْرَةِ العِلْمِ**؛ فَبَالَغُوا فِي طَلَبِهِ، فَأَفَاقُوْا فِي أواخِرِ قَدَمٍ[١]؛ وَقَدْ فَاتَهُمُ العَمَلُ بِهِ.

٧٢٣ ـ فَطَرِيْقُ المُصْطَفَىٰ ﷺ العِلْمُ والعَمَلُ، والتَّلَطُّفُ بِالبَدَنِ؛ كَمَا أَوْصَىٰ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، وَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْجِكَ عليكَ حَقًّا**».

فهٰذِه هِيَ الطَّرِيْقُ الوُسْطَىٰ والقَوْلُ الفَصْلُ؛ فأمّا اليَبْسُ[٢] المُجَرَّدُ؛ فَكَمْ فَوَّتَ مِنْ عِلْمٍ، لَوْ حَصَلَ نِيلَ بِهِ أَكْثرُ مِمّا نِيْلَ بِالعَمَلِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ العَالِمِ كَرَجُلٍ يَعْرِفُ الطَّرِيْقَ، وَالعَابِدُ جَاهِلٌ بِهَا، فَيَمْشِي العَابِدُ مِنَ الفَجْرِ إِلىٰ العَصْرِ، وَيَقُوْمُ العَالِمُ قُبَيْلَ العَصْرِ، فَيَلْتَقِيَانِ؛ وَقَدْ سَبَقَ العَالِمُ فَضْلَ شَوْطِهِ.

٧٢٤ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: بَيِّنْ لِي هٰذا؟! **قُلْتُ**: صُوْرَةُ التَّعَبُّد خِدْمَةٌ للهِ تَعَالىٰ، وذُلٌّ لَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَطَّلِعِ العَابِدُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ تِلْكَ الصُّوْرَةِ؛ لِأَنَّه رُبَّمَا ظَنَّ أَنَّه أَهْلٌ لِوُجُوْدِ الكَرَامَةِ عَلىٰ يَدِهِ، وَأَنَّه مُسْتَحِقٌّ تَقْبِيْلَ يَدِهِ، أَوْ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ، وَذٰلِكَ كُلُّه لِقِلّةِ العِلْمِ. وَأَعْنِي بِالعِلْمِ: فَهْمَ أُصُوْلِ العِلْمِ، لا كَثْرَةَ الرِّوَايَةِ، وَمُطَالَعَةَ مَسَائِلِ الخِلافِ.

فَإِذَا طَالَعَ العَالِمُ الأُصُوْلِيُّ؛ سَبَقَ هٰذا العَابِدَ بِحُسْنِ خُلُقٍ، وَمُدَارَاةِ النَّاسِ، وَتَوَاضُعِهِ في نَفْسِهِ، وَإِرْشَادِهِ الخَلْقَ إِلىٰ اللهِ تَعَالىٰ، فَيَعْسُرُ هٰذَا عَلَىٰ العَابِدِ، وَهُوَ فِي لَيْلِ جَهْلِهِ بِالحَالِ رَاقِدٌ.

٧٢٥ ـ رُبَّمَا تَزَوَّجَ العَابِدُ، ثُمّ حَمَلَ نَفْسَه عَلىٰ التَّجَفُّفِ[٣]، فحَبَسَ زَوْجَتَهُ عَنْ مَطْلُوْبِهَا، وَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَصَارَ **كَالَّتِي حَبَسَتِ الهِرَّة؛ فَلا هِيَ أَطْعَمَتها، وَلَا هِيَ أَرْسلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**[٤].

---

(١) **أواخر قدم**: نهاية الطريق.
(٢) **اليبس**: التقلل من الطعام.
(٣) **التجفف**: النحول لقلة الطعام.
(٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعِمْها، =

٧٢٦ ـ وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَةَ الرَّسُوْلِ ﷺ؛ رَأَىٰ كَامِلًا مِنَ الخُلُقِ، **يُعْطِي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ: فَتَارَةً يَمْزَحُ، وَتَارَةً يَضْحَكُ، وَيُدَاعِبُ الأَطْفَالَ[١]، وَيَسْمَعُ الشِّعْرَ[٢]، وَيَتَكَلَّمُ بِالمَعَارِيْضِ[٣]، وَيُحْسِنُ مُعَاشَرَةَ النِّسَاءِ، وَيَأْكُلُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، وَأُتِيْحَ[٤] لَهُ، وَإِنْ كَانَ لَذِيذًا كالعَسَلِ، وَيُسْتَعْذَبُ لَهُ المَاءُ، وَيُفْرَشُ لَهُ في الظِّلِّ**، وَلَمْ يُنْكِرْ ذٰلِكَ، وَلَمْ يُسْمَعْ عَنْهُ بِمِثْلِ مَا حَدَثَ بَعْدَهُ مِنْ جُهَّالِ المُتَصَوِّفَةِ والمُتَزَهِّدِيْنَ مِنْ مَنْعِ النَّفْسِ شَهَوَاتِهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ؛ فقدْ كَانَ **يَأْكُلُ البَطِيْخَ بِالرُّطَبِ[٥]، وَيُقَبِّلُ، وَيَمَصُّ اللِّسَانَ[٦]، وَيَطْلُبُ المُسْتَحْسَنَاتِ**.

فَأَمّا أَكْلُ خُبْزِ الشَّعِيرِ، وَوَزْنُ المَأْكُوْلِ، وَتَجْفِيْفُ البَدَنِ، وَهَجْرُ كُلِّ مُشْتَهًىٰ، فَإِنَّه تَعْذِيْبٌ لِلنَّفْسِ، وَهَدْمٌ لِلْبَدَنِ؛ لا يَقْتَضِيْهِ عَقْلٌ، ولا يَمْدَحُهُ شَرْعٌ! وَإِنَّمَا اقْتَنَعَ أَقْوَامٌ بِالقَلِيْلِ لِأَسْبَابٍ؛ مِثْل أَنْ حَدَثَتْ شُبْهَةٌ فَتَقَلَّلُوْا، أَوِ اخْتَلَطَ طَعَامٌ بِطَعَامٍ فَتَوَرَّعُوْا.

٧٢٧ ـ **ثُمَّ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوفِّي العِبَادَةَ حَقَّهَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، والاجْتِهَادِ في الذِّكْرِ، فَعَلَيْكَ بِطَرِيْقَتِهِ، الّتِي هِيَ أَكْمَلُ الطُّرُقِ، وَبِشِرْعَتِهِ الّتِي لا شَوْبَ فِيْهَا، وَدَعْ حَدِيْثَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنَ الزُّهَّادِ، وَاحْمِلْ أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ مَحْمَلٍ، وَأَقِمْ لَهُمُ الأَعْذَارَ مَهْمَا قَدَرْتَ؛ فَإِنْ لَمْ تجِدْ عُذْرًا؛ فَهُمْ مُحْجُوْجُوْنَ بِفِعْلِهِ؛ إِذْ هُوَ قُدْرَةُ الخَلْقِ، وَسَيِّدُ العُقَلاءِ، وَهَلْ فَسَدَ النَّاسُ إِلَّا بِالانْحِرَافِ عَنِ الشَّرِيْعَةِ؟!**

وَلَقَدْ حَدَثَتْ آفَاتٌ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ والمُتَزَهِّدِيْنَ، خَرَقوا بِهَا شَبَكَةَ الشَّرِيْعَةِ،

= ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢)، و(**خشاش الأرض**) حشرات الأرض وهوامها.

(١) تقدم حديث: «يا أبا عمير..» في الفصل (٤١).

(٢) عن الشريد بن سويد الثقفي قال: ردفت رسول الله ﷺ يومًا. فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئًا»؟ قلت: نعم، قال: «هيه». فأنشدته بيتًا فقال: «هيه»، ثم أنشدته بيتًا فقال: «هيه» حتى أنشدته مئة بيت، رواه مسلم (٢٢٥٥).

(٣) من ذلك: أنّه لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر ومعه أبو بكر لقيهما رجل فقال: ممن القوم، فقال النبي ﷺ: «من ماء».

(٤) في الأصل: فتح.

(٥) رواه أبو داود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٨٤٣) عن عائشة رضي الله عنها.

(٦) رواه أبو داود (٢٣٨٦) عن عائشة رضي الله عنها وفي سنده محمد بن دينار سيِّئ الحفظ (ضعيف).

وَعَبَروا: **فَمِنْهُم** مَنْ يَدَّعِي المَحَبَّة والشَّوْقَ؛ وَلَا يَعْرِفُ المَحْبُوْبَ؛ فَتَرَاهُ يَصِيْحُ، وَيَسْتَغِيْثُ، وَيُمَزِّقُ ثِيَابَه، ويَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الشَّرْعِ بِدَعْوَاهُ وَمَضْمُونِهَا!! **وَمِنْهُم** مَنْ حَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالجُوْعِ وَالصَّوْمِ الدَّائِمِ؛ وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّه قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: «**صُمْ يَوْمًا وأفْطِرْ يومًا**» فَقَالَ: أُرِيْدُ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ. فَقَالَ: «**لا أَفْضَلَ**». **وَفِيْهِم** مَنْ خَرَجَ إِلَىٰ السِّياحَةِ، فَأَفَاتَ نَفْسَهُ الجَمَاعَةَ[1]. **وَفِيْهِم** مَنْ دَفَنَ كُتُبَ العِلْمِ، وقَعَدَ يُصَلِّي وَيَصُوْمُ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ دَفْنَها خَطأٌ قَبِيْحٌ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَغْفُلُ، وَتَحْتَاجُ إِلَىٰ التَّذْكِيْرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَنِعْمَ المُذَكِّرُ كُتُبُ العِلْمِ.

وَإِنَّمَا دَخَلَ إِبْلِيْسُ عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ مِنْهُم مِنْ حَيْثُ قَدَرَ، **وَكَانَ مَقْصُوْدُهُ بِدَفْنِ الكُتُبِ إِطْفَاءَ المِصْبَاحِ؛ لِيَسِيْرَ العَابِدُ فِي الظُّلْمَةِ.**

٧٢٨ ـ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ لِرَجُلٍ سَأَلَهُ **فَقَالَ**: أُرِيْدُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَىٰ جَبَلِ اللُّكَّام[2]؟ **فقالَ**: هٰذِهِ (هَوْكَلة) وَهِي كَلِمَةٌ عَامِّيَّةٌ مَعْنَاهَا: حُبُّ البَطالَةِ.

٧٢٩ ـ وَعَلَىٰ الحَقِيْقَةِ: الزُّهَّادُ فِي مَقَامِ الخَفَافِيْشِ، قَدْ دَفَنوا أَنْفُسَهم بِالعُزْلَةِ عَنْ نَفْعِ الناسِ، وَهِيَ حَالَةٌ حَسَنَةٌ إِذَا لَمْ تَمْنَعْ مِنْ خَيْرٍ؛ مِنْ جَمَاعةٍ، واتّباعِ جَنَازَةٍ، وَعِيَادَةِ مَرِيْضٍ. إِلَّا أَنَّهَا حَالَةُ الجُبَنَاءِ، فَأَمّا الشُّجْعَانُ؛ فَهُمْ يَتَعَلَّمُوْنَ وَيُعَلِّمُوْنَ، وهٰذِهِ مَقَامَاتُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ.

٧٣٠ ـ أَتَرَىٰ كَمْ بَيْنَ العَابِدِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ حَادِثَةٌ وَبَيْنَ الفَقِيْهِ؟ بِالله؛ لَوْ مَالَ الخَلْقُ إِلَىٰ التَّعَبُّدِ؛ لَضَاعَتِ الشَّرِيْعَةُ، عَلَىٰ أَنَّه لَوْ فَهِمْ مَعْنَىٰ التَعبُّدِ؛ لَمْ يَقْتَصِرْ بِهِ عَلَىٰ الصَّلاةِ والصَّوْمِ! **فَرُبَّ مَاشٍ فِي حَاجَةِ مُسْلِمٍ فَضَلَ تَعَبُّدُهُ ذٰلِكَ عَلَىٰ صَوْمِ سنةٍ.** وَالعَمَلُ بِالْبَدَنِ سَعْيُ الآلاتِ الظَّاهِرَةِ، والعِلْمُ سَعْيُ الآلاتِ البَاطِنَةِ مِنَ العَقْلِ والفِكْرِ والفَهْمِ؛ فلذٰلِكَ كَانَ أَشْرَفَ.

٧٣١ ـ **فَإِنْ قُلْتَ**: كَيْفَ تَذُمُّ المُعْتَزِلِيْنَ لِلشَّرِّ، [وَتَنْفِي عَنْهُم] التَّعَبُّدَ؟! **قُلْتُ**: مَا أَذَمُّهُمْ، بَل حَدَثَتْ مِنْهُم حَوَادِثُ اقْتَضَاهَا الجَهْلُ، مِنَ الدَّعَاوَىٰ وَالآفَاتِ الَّتِي سَبَبُهَا

---

(١) صلاة الجماعة.

(٢) **جبل اللكام**: الجبل المشرف على أنطاكية، وقد وقع في الأصل: الآكام، وهو تصحيف.

قِلَّةُ العِلْمِ، وحَمَلُوْا عَلىٰ أَنْفُسِهِم ـ الَّتي لَيْسَتْ لَهُم، وَعَنْ غَيْرِ إِذْنِ الآمِرِ ـ مَا لَمْ يَجُزْ! حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ يَرَىٰ أَنَّ فِعْلَ مَا يُؤْذِي النَّفْسَ عَلىٰ الإِطْلَاقِ فَضِيْلَةٌ!! وَحَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الحَمْقَىٰ: دَخَلْتُ الحَمَّامَ فَوَجَدْتُ غَفْلَةً، فَآلَيْتُ أَلَّا أَخْرُجَ حَتَّىٰ أُسَبِّحَ كَذَا وكَذَا تَسْبِيْحَةً، فَطَالَ الأَمْرُ، فَمَرِضْتُ!! وهٰذَا رَجُلٌ خَاطَر بِنَفْسِهِ فِي فِعْلِ مَا لَيْسَ لَهُ.

٧٣٢ ـ وَمِنَ المُتَصَوِّفَةِ وَالزُّهَّادِ مَنْ قَنَعَ بِصُوْرَةِ اللِّبَاسِ، وَرَكِبَ مِنَ الجَهْلِ فِي البَاطِنِ مَا لا يَسَعُهُ كِتَابٌ!! طَهَّرَ اللهُ الأَرْضَ مِنْهُم، وَأَعَانَ العُلَمَاءَ عَلَيْهِم؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ الحَمْقَىٰ مَعَهُم؛ فَلَوْ أَنْكَرَ عَالِمٌ عَلىٰ أَحَدِهِم؛ مَالَ العَوَامُّ عَلىٰ العَالِمِ بِقُوَّةِ الجَهْلِ.

٧٣٣ ـ ولَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيْرًا مِنَ المُتَعَبِّدِيْنَ ـ وَهُوَ فِي مَقَامِ العَجَائِزِ ـ يُسَبِّحُ تَسْبِيْحَاتٍ لا يَجُوْزُ النُّطْقُ بِهَا، وَيَفْعَلُ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ تَرِدْ بِهِ السُّنَّةُ!

٧٣٤ ـ وَلَقَدْ دَخَلْتُ يَوْمًا عَلىٰ بَعْضِ مَنْ كَانَ يَتَعَبَّدُ؛ وَقَدْ أَقَامَ إِمَامًا، وَهُوَ خَلْفَهُ فِي جَمَاعَةٍ يُصَلِّي بِهِم صَلَاةَ الضُّحَىٰ، ويَجْهَرُ! **فَقُلْتُ لَهُم**: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**صَلَاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءُ**»[1]! فَغَضِبَ ذٰلك الزاهدُ، **وقَالَ**: كم يُنْكِرُ هٰذَا عَلَيْنَا! وَقَدْ دَخَلَ فُلَانٌ وَأَنْكَرَ، وَفُلَانٌ وَأَنْكَرَ، نَحْنُ نَرْفَعُ أَصْوَاتَنا حَتَّىٰ لا نَنَامَ. **فَقُلْتُ**: وَاعَجَبًا! وَمَنْ قَالَ لَكُم: لَا تَنَامُوْا؟! أَلَيْسَ فِي (الصَّحِيْحَيْن) مِنْ حَدِيْثِ ابنِ عَمْرٍو: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**قُمْ ونَمْ**»؟! وَقَدْ **كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَنَامُ**، وَلَعَلَّهُ مَا مَضَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ إِلَّا وَنَامَ فِيْهَا!!

٧٣٥ ـ وَلَقَدْ شَاهَدْتُ رَجُلًا كَانَ يُقَالُ لَهُ حُسَيْنٌ القَزْوِيْنِيُّ بِجَامِعِ المَنْصُوْرِ، وَهُوَ يَمْشِي فِي الجَامِعِ مَشْيًا كَثِيْرًا دَائِمًا، **فَسَأَلْتُ**: مَا السَّبَبُ فِي هٰذَا المَشْيِ؟! **فَقِيْلَ لِي**: حَتَّىٰ لا يَنَامَ!

٧٣٦ ـ وَهٰذِه كُلُّهَا حَمَاقَاتٌ أَوْجَبَتْهَا قِلَّةُ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ تَأْخُذِ النَّفْسُ حَظَّهَا مِنَ النَّوْمِ؛ اخْتَلَطَ العَقْلُ، وَفَاتَ المُرَادُ مِنَ التَّعَبُّدِ؛ لِبُعْدِ الفَهْمِ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٦٦٤ و٣٦٦٥) موقوفًا على الحسن وأبو عبيدة، قال النووي في شرح المهذب: إنه **باطل لا أصل له**. و(**العجماء**) التي لا تنطق، أي: أن الصلاة سرية لا يجهر بالقراءة فيها.

٧٣٧ ـ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ الصَّالِحِيْنَ المُجَاوِرِيْنَ بِجَامِعِ المَنْصُوْرِ: أَنَّ رَجُلًا اسْمُهُ كَثِيْرٌ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الجَامِعَ، فَقَالَ: إِنِّي عَاهَدْتُ اللهَ عَلَىٰ أَمْرٍ وَنَقَضْتُهُ، وَقَدْ جَعَلْتُ عُقُوْبَتِي لِنَفْسِي أَلَّا آكُلَ شَيْئًا أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا! قَالَ: فَمَكَثَ مِنْهَا عَشَرَةَ أَيَّامٍ قَرِيْبَ الحَالِ، يُصَلِّي فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ فِي العَشْرِ الثَّانِي بِأَنْ ضَعُفَهُ، وَكَانَ يُدَارِي الأَمْرَ، ثُمَّ صَارَ فِي العَشْرِ الثَّالِثِ يُصَلِّي قَاعِدًا، ثُمَّ اسْتَطْرَحَ[1] فِي العَشْرِ الرَّابِعِ، فَلَمَّا تَمَّتْ الأَرْبَعُوْنَ؛ جِيْءَ بِنَقُوْعٍ[2]، فَشَرِبَهُ، فَسَمِعْنا صَوْتَهُ فِي حَلْقِهِ مِثْلَمَا يَقَعُ المَاءُ عَلَىٰ المِقْلاةِ[3]، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ أَيَّامٍ. **فَقُلْتُ**: يَا للهِ! العَجَبُ! انْظُرُوْا مَا فَعَلَ الجَهْلُ بِأَهْلِهِ، ظَاهِرُ هٰذا أَنَّهُ فِي النَّارِ؛ إِلَّا أَنْ يُعْفَىٰ عَنْهُ، وَلَوْ فَهِمَ العِلْمَ وَسَأَلَ العُلَمَاءَ؛ لَعَرَّفُوهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ، وَأَنَّ مَا فَعَلَهُ بِنَفْسِهِ حَرَامٌ، وَلٰكِنْ؛ مِنْ أَعْظَمِ الجَهْلِ اسْتِبْدَادُ الإِنْسَانِ بِعِلْمِهِ!

٧٣٨ ـ وَكُلُّ هٰذِهِ الحَوَادِثِ نَشَأَتْ قَلِيْلًا قَلِيْلًا حَتَّىٰ تَمَكَّنَتْ، فَأَمَّا السِّرْبُ الأَوَّلُ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِيْهِ مِنْ هٰذا شَيْءٌ، وَمَا كَانَتِ الصَّحَابَةُ تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ، وَقَدْ كَانُوْا يُؤْثِرُوْنَ، وَيَأْكُلُوْنَ دُوْنَ الشِّبَعِ، وَيَصْبِرُوْنَ إِذَا لَمْ يَجِدُوْا؛ **فَمَنْ أَرَادَ الاقْتِدَاءَ؛ فَعَلَيْهِ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ ففي ذٰلِكَ الشِّفَاءُ والمَطْلُوْبُ.**

٧٣٩ ـ وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُدَ العَاقِلُ إِلَىٰ تَقْلِيْدِ مَعَظَّمٍ شَاعَ اسْمُهُ، فَيَقُوْلَ: قَالَ أَبُوْ يَزِيْدَ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، فَإِنَّ المُقَلِّدَ أَعْمَىٰ. وَكَمْ قَدْ رَأَيْنا أَعْمَىٰ يَأْنَفُ مِنْ حَملِ عَصًا! فَمَنْ فَهِمَ هٰذَا المُشَارَ إِلَيْهِ؛ طَلَبَ الأَفْضَلَ وَالأَعْلَىٰ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٦٣ - فصل: جاء الدخل من الفلسفة والرهبانية

٧٤٠ ـ تَأَمَّلْتُ الدَّخَلَ[4] الَّذِي دَخَلَ فِي دِيْنِنَا مِنْ [نَاحِيَتِي] **العِلْمِ وَالعَمَلِ**، فَرَأَيْتُهُ مِنْ طَرِيْقَيْنِ قَد تَقَدَّمَا هٰذَا الدِّيْنَ، وَأَنِسَ [النَّاسُ] بِهِمَا:

---

(١) **استطرح**: وقع على الأرض لا يقدر على الحركة.

(٢) **النقوع**: ماء ينقع به زبيب أو تمر ويصنع منه شراب، وهو حرف ما زال مستعملًا عندنا في الشام.

(٣) **صوت المقلاة**: يسمّى النشيش.

(٤) **الدخل**: الفساد.

فَأَمَّا **أَصْلُ الدَّخَلِ فِيْ العِلْمِ وَالاَعْتِقَادِ؛ فَمِنَ الفَلْسَفَةِ**. وُهُوَ أَنَّ خَلْقًا مِنَ العُلَمَاءِ فِي دِيْنَنَا لَمْ يَقْنَعُوْا بِمَا قَنَعَ بِهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنَ الانْعِكَافِ عَلىٰ الكِتابِ والسُّنَّةِ، فَأَوْغَلُوْا فِي النَّظَرِ فِي مَذَاهِبِ أَهْلِ الفَلْسَفَةِ، وَخَاضُوا فِي الكَلَامِ الّذِي حَمَلَهُمْ عَلىٰ مَذَاهِبَ رَدِيَّةٍ، أَفْسَدُوْا بِهَا العَقَائِدَ.

وَأَمَّا **أَصْلُ الدَّخَلِ فِي بَابِ العَمَلِ؛ فَمِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ**. فَإِنَّ خَلقًا مِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ أَخَذُوْا عَنِ الرُّهْبانِ طَرِيْقَ التَّقَشُّفِ، وَلَمْ يَنْظُرُوْا فِي سِيْرَةِ نَبِيِّنا ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وسَمِعُوا ذَمَّ الدُّنيا، وَمَا فَهِمُوْا المَقْصُوْدَ، فَاجْتَمَعَ لَهُمُ الإِعْراضُ عَنْ عِلْمِ شَرْعِنَا، مَعَ سُوْءِ الفَهْمِ لِلمَقْصُوْدِ، فَحَدَثَتْ مِنْهُم بِدَعٌ قَبِيْحَةٌ.

فَأَوَّلُ مَا ابْتَدَأَ بِهِ إِبْلِيْسُ أَنَّهُ أَمَرَهُم بِالإِعْرَاضِ عَنِ العِلْمِ، فَدَفَنُوا كُتُبَهُم، وَغَسَلُوْهَا، وَأَلْزَمَهُم زَاوِيَةَ التَّعَبُّدِ فِيْمَا زَعَمَ، وَأَظْهَرَ لَهُمْ مِنَ الخُزَعْبلاتِ مَا أَوْجَبَ إِقْبَالَ العَوَامِّ عَلَيْهِم، فَجَعَلَ إِلٰهَهُم هَوَاهُم، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّهُم مُنْذُ دَفَنوا كُتُبَهُم؛ وَفَارَقُوا العِلْمَ؛ انْطَفَأَ مِصْبَاحُهُم: مَا فَعَلوا، لٰكِنَّ إِبْلِيْس كَانَ دَقِيْقَ [المَكْرِ][1] يَوْمَ جَعَلَ عِلْمَهُم فِي دَفِيْنٍ تَحْتَ الأَرْضِ!

وَبِالْعِلْمِ يُعْلَمُ فَسَادُ الطَّرِيْقَيْنِ، وَيُهْتَدَىٰ إِلَىٰ الأَصْوَبِ. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَلّا يَحْرِمَنا إِيَّاهُ؛ فَإِنَّهُ النُّوْرُ فِي الظُّلَمِ، وَالأَنِيْسُ فِي الوَحْدَةِ، والوَزِيْرُ عِنْدَ الحَادِثَةِ.

١٦٤ - فصل: أعوذ بالله من صحبة البطالين

٧٤١ ـ أَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ صُحْبَةِ البَطَّالِيْنَ! لَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيْرًا يَجْرُوْنَ مَعِي فِيْمَا قَدِ اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَثْرَةِ الزِّيَارَةِ، وَيُسَمُّوْنَ ذٰلِكَ التَّرَدُّدَ خِدْمَةً، وَيَطْلُبُوْنَ الجُلُوْسَ، وَيُجْرُوْنَ فِيْهِ أَحَادِيْثَ النَّاسِ، وَمَا لا يَعْنِي، وَمَا يَتَخَلَّلُه غِيْبَةٌ!

وَهٰذَا شَيْءٌ يَفْعَلُهُ فِي زَمَانِنَا كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ، وَرُبَّمَا طَلَبَهُ المَزُوْرُ، وَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الوَحْدَةِ، وَخُصُوْصًا فِي أَيَّامِ التَّهَانِي وَالأَعْيَادِ، فَتَرَاهُمْ يَمْشِي بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَقْتَصِرُوْنَ عَلَىٰ الهَنَاءِ والسَّلَامِ، بَلْ يَمْزُجُوْنَ ذٰلِكَ بِمَا ذَكَرْتُهُ مِنْ تَضْيِيْعِ الزَّمَانِ.

---

(١) في الأصل: المنقب.

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ شيْءٍ، والوَاجِبُ انْتِهَابُهُ بِفِعْلِ الخَيْرِ؛ كَرِهْتُ ذٰلِكَ، وَبَقِيْتُ مَعَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِنْ **أَنْكَرْتُ عَلَيْهِم**؛ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ؛ لِمَوْضِعِ قَطْعِ المَأْلُوْفِ! وَإِنْ **تَقَبَّلْتُهُ مِنْهُم**؛ ضَاعَ الزَّمَانُ! فَصِرْتُ أُدَافِعُ اللِّقَاءَ جَهْدِي: فَإِذَا غُلِبْتُ؛ قَصَرْتُ فِي الكَلَامِ؛ لِأَتَعَجَّلَ الفِرَاقَ.

ثُمّ أَعْدَدْتُ أَعْمَالًا تَمْنَعُ مِنَ المُحَادَثَةِ لِأَوْقَاتِ لِقَائِهِم؛ لِئَلَّا يَمْضِيَ الزَّمَانُ فَارِغًا، فَجَعَلْتُ مِنَ المُسْتَعَدِّ لِلِقَائِهِم: قَطْعَ الكَاغِدِ[1]، وَبَرْيَ الأَقْلَامِ، وَحَزْمَ الدَّفَاتِرِ؛ فَإِنَّ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ لا بُدَّ مِنْهَا، وَلا تَحْتَاجُ إِلىٰ فِكْرٍ، وحُضُوْرِ قَلْبٍ، فَأَرْصَدْتُهَا لِأَوْقَاتِ زِيَارَتِهِم، لِئَلَّا يَضِيْعَ شَيْءٌ مِنْ وَقْتِي. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُعَرِّفَنا شَرَفَ أَوْقَاتِ العُمُرِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِاغْتِنَامِهِ.

٧٤٢ ـ وَلَقَدْ شَاهَدْتُ خَلْقًا كَثِيْرًا لا يَعْرِفُوْنَ مَعْنَىٰ الحَيَاةِ: فَمِنْهُمْ مَنْ أَغْنَاهُ اللهُ عَنِ التَّكَسُّبِ بِكَثْرَةِ مَالِهِ؛ فَهُوَ يَقْعُدُ فِي السُّوْقِ أَكْثَرَ النَّهَارِ، يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ، وَكَمْ تَمُرُّ بِهِ مِنْ آفَةٍ ومُنْكَرٍ! وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْلُوْ بِلَعِبِ الشِّطْرَنْجِ! وَمِنْهُم مَنْ يَقْطَعُ الزَّمَانَ بِكَثْرَةِ الحَدِيثِ عنِ[2] السَّلاطِيْنِ، والغَلاءِ والرُّخْصِ، إِلىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ. فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يُطْلِعْ عَلَىٰ شَرَفِ العُمْرِ وَمَعْرِفَةِ قَدْرِ أَوْقَاتِ العَافِيَةِ **إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ وَأَلْهَمَهُ اغْتِنَامَ ذٰلِكَ**. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

١٦٥ - فصل: التصنيف المفيد ومراحل عمر العالم

٧٤٣ ـ رَأَيْتُ مِنَ الرَّأْيِ القَوِيْمِ أَنَّ نَفْعَ التَّصَانِيْفِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِ التَّعْلِيْمِ بِالمُشَافَهَةِ؛ لِأَنِّي أُشَافِهُ فِي عُمْرِي عَدَدًا مِنَ المُتَعَلِّمِيْنَ، وَأُشَافِهُ بِتَصْنِيْفِي خَلْقًا لا تُحْصَىٰ مَا خُلِقُوْا بَعْدُ. وَدَلِيْلُ هٰذَا أَنَّ انْتِفَاعَ النَّاسِ بِتَصَانِيْفِ المُتَقَدِّمِيْنَ أَكْثَرُ مِنِ انْتِفَاعِهِم بِمَا يَسْتَفِيْدُوْنَهُ مِنْ مَشَايِخِهِم.

٧٤٤ ـ فَيَنْبَغِي لِلعَالِمِ أَنْ يَتَوَفَّرَ عَلَىٰ التَّصَانِيْفِ إِنْ وُفِّقَ لِلتَّصْنِيفِ المُفِيْدِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ صَنَّفَ صَنَّفَ، وَلَيْسَ المَقْصُوْدُ جَمْعَ شَيْءٍ كَيْفَ كَانَ، وَإِنَّمَا هِيَ أَسْرَارٌ

---

(١) **الكاغد**: ورق الكتابة.

(٢) في الأصل: الحوادث من.

يُطْلِعُ اللهُ ﷻ عَلَيْهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُوَفِّقُهُ لِكَشْفِهَا؛ **فَيَجْمَعُ مَا فُرِّقَ، أَوْ يُرَتِّبُ مَا شُتِّتَ، أَوْ يَشْرَحُ مَا أُهْمِلَ**، هٰذَا هُو التَّصْنِيْفُ المُفِيْدُ.

٧٤٥ ـ وَيَنْبَغِي اغْتِنَامُ التَّصْنِيْفِ فِي وَسَطِ العُمُرِ؛ لِأَنَّ أَوَائِلَ العُمُرِ زَمَنُ الطَّلَبِ، وَآخِرَهُ كَلَالُ[1] الحَوَاسِّ. وَرُبَّمَا خَانَ الفَهْمُ وَالعَقْلُ مَنْ قَدَّرَ عُمُرَهُ، وَإِنَّمَا يَكُوْنُ التَّقْدِيرُ عَلىٰ العَادَاتِ الغَالِبَةِ؛ لأنَّه لا يَعْلَمُ الغَيْبَ. فَيَكُوْنُ زَمَانُ الطَّلَبِ وَالحِفْظِ وَالتَّشَاغُلِ إِلىٰ **الأَرْبَعِيْنَ**.

٧٤٦ ـ ثُمَّ يَبْتَدِئُ بِعْدَ الأَرْبَعِيْنَ بِالتَّصَانِيْفِ وَالتَّعْلِيْمِ، هٰذَا إِذَا كَانَ قَدْ بَلَغَ مَا يُرِيْدُ مِنَ الجَمْعِ وَالحِفْظِ، وَأُعِيْنَ عَلَىٰ تَحْصِيْلِ المَطَالِبِ.

فَأَمَّا إِذَا قَلَّتِ الآلاتُ عِنْدَهُ مِنَ الكُتُبِ، أَوْ كَانَ فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ ضَعِيْفَ الطَّلَبِ، فَلَمْ يَنَلْ مَا يُرِيْدُه فِي هٰذَا الأَوَانِ؛ أَخَّرَ التَّصَانِيْفَ إِلىٰ تَمَامِ **خَمْسِينَ سَنَةً**، ثُمَّ ابْتَدَأَ بَعْدَ الخَمْسِيْنَ فِي التَّصْنِيْفِ وَالتَّعْلِيْمِ إِلىٰ رَأْسِ السِّتِينَ.

٧٤٧ ـ ثُمَّ يَزِيْدُ فِيْمَا بَعْدَ **السِّتِيْنَ** فِي التَّعْلِيْمِ، وَيُسْمِعُ الحَدِيْثَ وَالعِلْمَ، وَيُقَلِّلُ[2] التَّصَانِيْفَ إِلَا[3] أَنْ يَقَعَ مُهِمٌّ إِلَىٰ رَأْسِ السَّبْعِيْنَ.

٧٤٨ ـ فَإِذَا جَاوَزَ **السَّبْعِيْنَ**؛ جَعَلَ الغَالِبَ عَلَيْهِ ذِكْرَ الآخِرَةِ وَالتَهَيُّؤَ لِلرَّحِيْلِ، فَيُوَفِّرُ نَفْسَه عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ إِلَّا مِنْ تَعْلِيْمٍ يَحْتَسِبُهُ، أَوْ تَصْنِيْفٍ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ؛ فَذٰلِكَ أَشْرَفُ العُدَدِ للآخِرَةِ.

وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فِي تِنْظِيْفِ نَفْسِهِ، وَتَهْذِيْبِ خِلَالِهِ[4]، وَالمُبَالَغَةِ فِي اسْتِدْرَاكِ زَلَّاتِهِ؛ فَإِنِ اخْتُطِفَ فِي خِلَالِ مَا ذَكَرْنَاهُ؛ فـ«**نِيَّةُ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ**»، **وَإِنْ بَلَغَ إِلىٰ هٰذِهِ المَنَازِلِ؛ فَقَدْ بَيَّنَّا مَا يَصْلُحُ لِكُلِّ مَنْزِلٍ.**

٧٤٩ ـ وَقَدْ قَالَ **سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ**: مَنْ بَلَغَ سِنَّ **رَسُوْلِ اللهِ** ﷺ؛ فَلْيَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ كَفَنًا. وَقَدْ بَلَغَ جَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ سَبْعًا وَسَبْعِيْنَ سَنَةً، مِنْهُم أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل؛ فَإِنْ

---

(١) **الكلال**: التعب والوهن.

(٢) أي: يقلل من التصنيف إلا أن يقع أمر مهم يستوجب ذلك. وفي الأصل: يعلل، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: إلى.

(٤) **الخلال**: الخصال.

بَلَغَها؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّه عَلىٰ شَفِيْرِ القَبْرِ، وَأَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي بَعْدَهَا مُسْتَطْرَفٌ[1].

٧٥٠ ـ فَإِنْ تَمَّتْ لَهُ الثَّمَانُوْنَ؛ فَلْيَجْعَلْ هِمَّتَهُ كُلَّهَا مَصْرُوْفَةً إِلَىٰ تَنْظِيْفِ خِلَاله، وَتَهْيِئَةِ زَادِهِ، وَلْيَجْعَلِ الاسْتِغْفَارَ حَلِيْفَهُ، وَالذِّكْرَ أَلِيْفَهُ، وَلْيُدَقِّقْ فِي مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَفِي بَذْلِ العِلْمِ، أَوْ مُخَالَطَةِ الخَلْقِ؛ فَإِنَّ قُرْبَ الاسْتِعْرَاضِ لِلجَيْشِ يُوْجِبُ عَلَيْهِ الحَذَرَ مِنَ العَارِضِ، وَلْيُبَالِغْ فِي إِبْقَاءِ أَثَرِهِ قبل رَحِيْلِهِ؛ مِثْل بَثِّ عِلْمِهِ، وَإِنْفَاقِ كُتُبِهِ، وَشَيْءٍ مِنْ مَالِهِ.

وَبَعْدُ: **فَمَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ ﷻ عَلَّمَهُ، وَمَنْ أَرَادَهُ أَلْهَمَهُ.** نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْنا بِأَنْ يَتَوَلَّانا، ولا يَتَوَلَّىٰ عَنَّا؛ إِنَّه قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

١٦٦ - فصل: العادات غلبت على الناس

٧٥١ ـ رَأَيْتُ عَادَاتِ النَّاسِ قَدْ غَلَبَتْ عَلَىٰ عَمَلِهِم بِالشَّرْعِ؛ فَهُمْ يَسْتَوْحِشُوْنَ مِنْ فِعْلِ الشَّيءِ؛ لِعَدَمِ جَرَيانِ العَادَةِ لا لِنَهْيِ الشَّرْعِ!

فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يُوْصَفُ بِالخَيْرِ؛ يَبِيْعُ ويَشْتَرِي؛ فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ القُرَاضَةُ[2]؛ باعَهَا بِالصَّحِيْحِ مِنْ غَيْرِ تَقْلِيْدٍ لإِمَامٍ،أَوْ عَمَلٍ بِرُخْصَةٍ؛ عَادَةً مِنَ القَوْمِ، واسْتِثْقَالًا لِلاسْتِفْتَاءِ!

وَنَرَىٰ خَلْقًا يُحَافِظونَ عَلَىٰ صَلَاةِ الرَّغَائِبِ[3]، وَيَتَوَانَوْنَ عَنِ الفَرائِضِ.

٧٥٢ ـ وَكَثِيْرًا مِنَ المُتَصَوِّفِيْنَ لا يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ ظُلْمِ النَّاسِ، ثُمَّ يَتَصَدَّقُوْنَ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ، وَرُبَّمَا تَوَانَوْا عَنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَتَكَاسَلُوْا بِاسْتِعْمَالِ التَّأْوِيْلاتِ فِيْهَا، ثُمَّ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُم مَجْلِسَ وَعْظٍ؛ بَكَىٰ؛ كَأَنَّه يُصَانِعُ بِتِلْكَ الحَالِ. **وَمِنْهُم:** مَنْ يُخْرِجُ بَعْضَ الزَّكَاةِ مُصَانَعَةً عَمَّا لَمْ يُخْرِجْه. **وَمِنْهُم:** مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَصْلَ مَالِهِ حَرَامٌ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ فِرَاقُهُ لِلعَادَةِ. **وَفِيْهِم:** مَنْ يَحْلِفُ بِالطَّلَاقِ، وَيَحْنَثُ، وَيَرَىٰ الفِرَاقَ صَعْبًا؛ فَرُبَّمَا

---

(١) **المستطرف:** المستفاد فهو كالغنيمة.

(٢) **القراضة:** الدراهم أو الدنانير المكسورة، والصحيح غير المكسور.

(٣) صلاة الرغائب: صلاة مبتدعة تصلى في أول ليلة جمعة من رجب.

تَأَوَّلَ، وَرُبَّمَا تَكَاسَلَ عَنِ التَّأْوِيْلِ؛ اتِّكَالًا عَلَىٰ عَفْوِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَوَعْدًا مِنَ النَّفْسِ بِالتَّوْبَةِ! **وَمِنْهُمْ**: مَنْ يَرَىٰ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الشَّرْعِ رُبَّمَا كَانَ سَبَبًا فِي تَضْيِيْقِ مَعَاشِهِ، وَقَدْ أَلِفَ التَّفَسُّحَ[1]؛ فَلَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ فِرَاقُ مَا قَدْ أَلِفَ! **والعَادَاتُ فِي الجُمْلَةِ هِيَ المُهْلِكَةُ.**

٧٥٣ ـ وَلَقَدْ حَضَرَ عِنْدِي رَجُلٌ شَيْخٌ ابْنُ ثَمَانِيْنَ سَنَةً، فَاشْتَرَيْتُ مِنْهُ دُكَّانًا، وَعَقَدْتُ مَعَهُ العَقْدَ، فَلَمَّا افْتَرَقْنا؛ غَدَرَ بَعْدَ أَيَّامٍ، فَطَلَبْتُ مِنْهُ الحُضُوْرَ عِنْدَ الحَاكِمِ، فَأَبَىٰ، فَأَحْضَرْتُهُ، فَحَلَفَ اليَمِيْنَ الغَمُوْسَ[2]: أَنْ مَا بِعْتُهُ! فَقُلْتُ: مَا تَدُورُ عَلَيْهِ السَّنَةُ[3]! وَأَخَذَ يُبَرْطِلُ[4] لِمَنْ يَحُوْلُ بَيْنِي وَبَيْنَه مِنَ الظَّلَمَةِ، فَرَأَيْتُ مِنَ العَوَامِّ مَنْ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ العَادَاتُ؛ فَلَا يَلْتَفِتُ مَعَهَا إِلَىٰ قَوْلِ فَقِيْهٍ؛ **يَقُوْلُ**: هٰذَا مَا قَبَضَ الثَّمَنَ؛ فَكَيْفَ يَصِحُّ البَيْعُ؟! **وَآخَرُ يَقُوْلُ**: كَيْفَ يَجُوْزُ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ دُكَّانَه بِغَيْرِ رِضَاهُ؟! **وَآخَرُ يَقُوْلُ**: يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُقِيْلَهُ البَيْعَ[5]!. فَلَمَّا لَمْ أُقِلْهُ؛ أَخَذَ هُوَ وَأَقَارِبُهُ يَأْخُذُوْنَ عِرْضِي، وَرَأَىٰ أَنَّه يُحَامِي عَنْ مِلكِهِ.

ثُمَّ سَعَىٰ بِي إِلَىٰ السُّلْطَانِ سِعَايَةً يُحَرِّضُ فِيْهَا مِنَ الكَذِبِ مَا أَدْهَشَنِي، وَيُبَرطِلُ مَالًا لِخَلْقٍ مِنَ الظَّلَمَةِ، فَبَالَغُوا، وَسَعَوا؛ إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَجَّانِي مِنْ شَرِّهِم.

ثُمَّ إِنِّي أَقَمْتُ عَلَيْهِ البَيِّنَة عِنْدَ الحَاكِمِ، فَقَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ الدُّنْيا لِلْحَاكِمِ: لا تَحْكُمْ لَهُ! فَوقَفَ عَنِ الحُكْمِ بَعْدَ ثُبُوْتِ البَيِّنَةِ عِنْدَهُ!! فَرَأَيْتُ مِنْ هٰذا الحَاكِمِ وَمِنْ حَاكِمٍ آخَرَ أَعْلَىٰ مِنْهُ مِنْ تَرْكِ إِنْفَاذِ الحَقِّ حِفْظًا لِرِئاسَتِهِم مَا هَوَّنَ عَنْدِي ما فَعَلَهُ ذٰلِكَ الشَّيْخُ حِفْظًا لِمَالِهِ؛ لِجَهْلِهِ وَعِلْمِ هٰؤلاءِ.

فَتَجَلَّىٰ لِي مِنَ الأَمْرِ أَنَّ العَادَاتِ غَلَبَتْ عَلَىٰ النّاس. وَأَنَّ الشَّرْعَ أُعْرِضَ عنهُ، وَإِنْ وَقَعَتْ مُوَافَقَةٌ لِلشَّرْعِ؛ فَكَمَا اتَّفَقَ، أَوْ لِأَجْلِ العَادَةِ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَوْ ضُرِبَ بِالسِّيَاطِ مَا أَفْطَرَ فِي رَمَضَانَ؛ عَادةً قَدِ اسْتَمَرَّتْ، وَيَأْخُذُ أَعْرَاضَ النَّاسِ وَأَمْوَالَهُم؛ عَادَةً غَالِبَةً!

---

(١) **التفسح**: طلب الفسحة والنزهة للترويح عن النفس.

(٢) **اليمين الغموس**: هي اليمين الكاذبة التي يتعمّدها صاحبها وهو يعلم أنه يكذب، وسميت غموسًا، لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم.

(٣) خوفته من عقوبة اليمين الغموس بذكر الأحاديث المرهّبة.

(٤) **يبرطل**: يرشي.

(٥) **أقال البيع**: فسخه.

فَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ هٰذَا الشَّيْخَ يُصَلِّي، وَيُحَافِظُ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، ثُمَّ لَمَّا خَافَ فَوْتَ غَرَضِهِ؛ تَرَكَ الشَّرْعَ جَانِبًا!

وَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ أولئكَ الحُكَّامَ يَتَعَبَّدُوْنَ، وَيَطْلُبُوْنَ العِلْمَ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمَّا خَافُوا عَلَىٰ رئاسَتِهِم أَنْ تَزُوْلَ؛ تَرَكوا جَانِبَ الدِّيْنِ!

ثُمَّ إِنَّ الله تَعَالَىٰ نَصَرَني عَلَيْهِ، وَتَقَدَّمَ إِلَيَّ الحَاكِمُ بِإِنْفَاذِ مَا ثَبَتَ عِنْدَهُ، وَدَارَتِ السَّنَةُ، فَمَاتَ الشَّيْخُ عَلَىٰ قُلٍّ[1]. فَنَسْأَلُهُ ﷻ التَّوفِيْقَ للانْقِيَادِ لِشَرْعِهِ وَمُخَالَفَةِ أَهْوَائِنَا.

١٦٧ - فصل: الواجب على العالم صيانة علمه

٧٥٤ ـ مَا أَعْرِفُ لِلعَالِمِ قَطُّ لَذَّةً ولا عِزًّا ولا شَرَفًا وَلا رَاحَةً ولا سَلَامَةً أَفْضَلَ مِنَ العُزْلَةِ؛ فَإِنَّه يَنَالُ بِهَا سَلَامَةَ بَدَنِهِ وَدِيْنِهِ وَجَاهِهِ عِنْدَ الله ﷻ وعِنْدَ الخَلْقِ؛ لأَنَّ الخَلْقَ يَهُوْنُ عَلَيْهِم مَنْ يُخَالِطُهُم، وَلا يَعْظُمُ عِنْدَهُم قَدْرُ المُخَالِطِ لَهُم، وَلِهٰذَا عَظُمَ قَدْرُ الخُلَفَاءِ لاحْتِجَابِهِم، وَإِذَا رَأَىٰ العَوَامُّ أَحَدَ العُلَمَاءِ مُتَرَخِّصًا فِي أَمْرٍ مُبَاحٍ؛ هَانَ عِنْدَهُم. فالواجِبُ عَلَيْهِ صِيَانَةُ عِلْمِهِ، وَإِقَامَةُ قَدْرِ العِلْمِ عِنْدَهُم.

فَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: **كُنَّا نَمْزَحُ وَنَضْحَكُ؛ فَإِذَا صِرْنا يُقْتَدَىٰ بِنَا؛ فَمَا أَراه يَسَعُنا ذٰلِكَ.**

٧٥٥ ـ وَقَالَ **سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ**: تَعَلَّمُوا هٰذَا العِلْمَ، وَاكْظِمُوْا عَلَيْهِ، ولا تَخْلِطُوْهُ بِهَزْلٍ فَتَمُجَّهُ القُلُوْبُ[2].

٧٥٦ ـ **فَمُرَاعَاةُ النَّاسِ لا يَنْبَغِي أَنْ تُنْكَرَ**. وَقَدْ قَالَ ﷺ لِعَائِشَةَ: «**لَوْلا حِدْثَانُ قَوْمِكِ فِيْ الكُفْرِ؛ لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ، وَجَعَلْتُ لَهَا بابَيْنِ...**»[3]. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبل فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ المَغْرِبِ: رَأَيْتُ النَّاسَ يَكْرَهُوْنَهُمَا فَتَرَكْتُهُمَا.

وَلا تَسْمَعْ مِنْ جَاهِلٍ يَرىٰ مِثْلَ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ رِيَاءً، إِنَّمَا هِيَ صِيَانَةٌ لِلْعِلْمِ. وَبَيَانُ هٰذَا أَنَّه لَوْ خَرَجَ العَالِمُ إِلىٰ النَّاسِ مُكْشُوْفَ الرَّأْسِ، أَوْ فِي يَدِهِ كِسْرَةٌ

---

(١) **قل**: قلة وحاجة وفقر. (٢) **تمجه القلوب**: تأباه وترفضه.

(٣) رواه البخاري (١٥٨٣ و١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣) عن عائشة ﵂.

يَأْكُلُهَا؛ قَلَّ عِنْدَهُم، وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا، فَيَصِيْرُ بِمَثَابَةِ تَخْلِيْطِ الطَّبِيْبِ الآمِرِ بِالحِمْيَةِ. فَلا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَنْبَسِطَ عَنْدَ العَوَامِّ؛ حِفْظًا لَهُم، وَمَتَىٰ أَرَادَ مُبَاحًا؛ فَلْيَسْتَتِرْ بِهِ عَنْهُم.

٧٥٧ ـ وَهٰذا القَدْرُ الّذِي لاحَظَه أَبُوْ عُبَيْدَةَ حِيْنَ رَأَىٰ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ قَدْ قَدِمَ الشَّامَ رَاكِبًا عَلَىٰ حِمَارٍ، وَرِجْلاهُ مِنْ جَانِبٍ، فَقَالَ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ! يَتَلَقَّاكَ عُظَمَاءُ النَّاسِ! **فَمَا أَحْسَنَ مَا لاحَظَ!** إِلَّا أَنَّ عُمَرَ ﷺ أَرَادَ تَأْدِيْبَ أَبِي عُبَيْدَةَ بِحِفْظِ الأَصْلِ، فَقَالَ: **إِنَّ اللهَ أَعَزَّكُمْ بِالإِسْلَامِ؛ فَمَهْمَا طَلَبْتُمُ العِزَّ فِي غَيْرِهِ؛ أَذَلَّكُمْ.** والمَعْنَىٰ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ طَلَبُكُم العِزَّ بالدِّيْنِ، لا بِصُوَرِ الأَفْعَالِ.

٧٥٨ ـ وَإِنْ كانَتِ الصُّوَرُ تُلاحَظُ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَخْلُو فِي بَيْتِه عُرْيَانًا؛ فَإِذَا خَرَجَ إِلَىٰ النَّاسِ؛ لَبِسَ ثَوْبَيْنِ وَعِمَامَةً وَرِدَاءً. وَمِثْلُ هٰذَا لا يَكُوْنُ تَصَنُّعًا، وَلا يُنْسَبُ إِلَىٰ كِبْرٍ. وَقَدْ كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ يَغْتَسِلُ، ويَتَطَيَّبُ، وَيَقْعُدُ لِلْحَدِيْثِ.

٧٥٩ ـ وَلا تَلْتَفِتْ ـ يَا هٰذَا ـ إِلَىٰ مَا تَرَىٰ مِنْ بَذْلِ العُلَمَاءِ عَلَىٰ أَبْوَابِ السَّلاطِيْنِ؛ فَإِنَّ العُزْلَةَ أَصْوَنُ لِلْعَالِمِ والعِلْمِ، وَمَا يَخْسَرُهُ العُلَمَاءُ فِي ذٰلِكَ أَضْعَافُ ما يَرْبَحُوْنَه. وَقَدْ كَانَ سَيِّدُ الفُقَهَاءِ سَعِيْدُ بْنُ المُسَيِّبِ لا يَغْشَىٰ الوُلاةَ، وَعَنْ قَوْلِ هٰذَا سَكَتُوْا عَنْهُ، وَهٰذَا فِعْلُ الحَازِمِ.

٧٦٠ ـ فَإِنْ أَرَدْتَ اللَّذَّةَ وَالرَّاحَةَ؛ فَعَلَيْكَ أَيُّها العَالِمِ بِعُقْرِ بَيْتِكَ، وَكُنْ مُعْتَزِلًا عَنْ أَهْلِكَ؛ يَطِبْ لَكَ عَيْشُكَ، وَاجْعَلْ لِلِقَاءِ الأَهْلِ وَقتًا؛ فَإِذَا عَرَفوهُ؛ تَصَنَّعُوا لِلِقَائِكَ، فَكَانَتِ المُعَاشَرَةُ بِذٰلِكَ أَجْوَدَ.

٧٦١ ـ وَلْيَكُنْ لَكَ مَكَانٌ فِي بَيْتِكَ تَخْلُوْ فِيْهِ، وَتُحَادِثُ سُطُوْرَ كُتُبِكَ، وَتَجْرِي فِي حَلَبَاتِ فِكْرِكَ! وَاحْتَرِسْ مِنْ لِقَاءِ الخَلْقِ، وَخُصُوْصًا العَوَامَّ! واجْتَهِدْ فِي كَسْبٍ يُعِفُّكَ عِنِ الطَّمَعِ! فَهٰذِهِ نِهَايَةُ لَذَّةِ العَالِمِ فِي الدُّنْيا.

٧٦٢ ـ وَقَدْ قِيْلَ لابْنِ المُبَارَكِ: مَا لَكَ لا تُجَالِسُنا؟ فَقَالَ: أَنَا أَذْهَبُ فَأُجَالِسُ الصَّحَابَةَ والتَّابِعِيْنَ. وَأَشَار بِذٰلِكَ إِلَىٰ أَنّه يَنْظُرُ في كُتُبِهِ.

٧٦٣ ـ وَمَتَىٰ رُزِقَ العَالِمُ الغِنَىٰ عَنِ النَّاسِ وَالخَلْوةَ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ يَجْلِبُ

التَّصانِيْفَ؛ فَقَدْ تَكامَلَتْ لَذَّتُهُ، وَإِنْ رُزِقَ فَهْمًا يَرْتَقِي إِلىٰ مُعامَلَةِ الحَقِّ وَمُنَاجَاتِهِ؛ فَقَدْ تَعَجَّلَ دُخُوْلَ الجَنَّةِ قَبْلَ المَمَاتِ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ هِمَّةً عَالِيَةً تَسْمُوْ إِلىٰ الكَمَالِ، وَتَوْفِيْقًا لِصَالِحِ الأَعْمَالِ؛ فَالسَّالِكُوْنَ طَرِيْقَ الحَقِّ أَفْرَادٌ.

١٦٨ - فصل: ثمرات العلم

٧٦٤ ـ **تَأَمَّلْتُ** أَحْوَالَ النَّاسِ فِي حَالَةِ عُلُوِّ شَأْنِهِم، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ الخلْقِ تَبيَّنُ خَسارَتُهُم حَيْنَئِذٍ؛ **فَمِنْهُم** مَنْ بَالَغَ فِي المَعَاصِي مِنَ الشَّبَابِ، **وَمِنْهُم** مَنْ فَرَّطَ فِي اكْتِسَابِ العِلْمِ، **وَمِنْهُم** مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِمْتَاعِ بِاللَّذَّاتِ: فَكُلُّهُمْ نَادِمٌ فِي حَالَةِ الكِبَرِ، حِيْنَ فَوَاتِ الاسْتِدْرَاكِ لِذُنُوْبٍ سَلَفَتْ، أَوْ قُوًىٰ ضَعُفَتْ، أَو فَضِيْلَةٍ فَاتَتْ، فيَمْضِي زَمَانُ الكِبَرِ فِي حَسَرَاتٍ؛ فَإِنْ كَانَتْ للشَّيْخِ إِفَاقَةٌ مِنْ ذُنُوْبٍ قَدْ سَلَفَتْ؛ قَالَ: وَا أَسَفَا عَلَىٰ مَا جَنَيْتُ! وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِفَاقَةٌ؛ صَارَ مُتَأَسِّفًا عَلَىٰ فَوَاتِ مَا كَانَ يَلْتَذُّ بِهِ.

٧٦٥ ـ فَأَمّا مَنْ أَنْفَقَ عَصْرَ الشَّبَابِ فِي العِلْمِ؛ فَإِنَّه فِي زَمَنِ الشَّيْخُوْخَةِ يَحْمَدُ جَنْيَ مَا غَرَسَ، وَيَلْتَذُّ بِتَصْنِيْفِ ما جَمَعَ، وَلَا يَرَىٰ مَا يَفْقِدُ مِنْ لَذَّاتِ البَدَنِ شَيْئًا بِالإِضَافَةِ إِلىٰ مَا يَنَالُهُ مِنْ لَذَّاتِ العِلْمِ، هٰذا مَعَ وُجُوْدِ لَذَّاتِهِ فِي الطَّلَبِ الَّذِي كَانَ تَأَمَّلَ بِهِ إِدْرَاكَ المَطْلُوْبِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ تِلْكَ الأَعْمَالُ أَطْيَبَ مِمَّا نِيْلَ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَهْتَزُّ عِنْدَ تَمَنِّي وَصْلِهَا طَرَبًا ... وَرُبَّ أُمْنِيَةٍ أَحْلَىٰ مِنَ الظَّفَرِ

٧٦٦ ـ وَلَقَدْ **تَأَمَّلْتُ** نَفْسِي بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ عَشِيْرَتِي الَّذِيْنَ أَنْفَقُوا أَعْمَارَهُم في اكْتِسَابِ الدُّنيا، وَأَنْفَقْتُ زَمَنَ الصَّبْوَةِ والشَّبَابِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَرَأَيْتُنِي لَمْ يَفُتنِي مِمَّا نَالُوْهُ؛ إِلَّا مَا لَوْ حَصَلَ لِي؛ نَدِمْتُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ **تَأَمَّلْتُ حَالِي**؛ فَإِذَا عَيْشِي في الدُّنيا أَجْوَدُ مِنْ عَيْشِهِم، وَجَاهِي بَيْنَ النَّاسِ أَعْلَىٰ مِنْ جَاهِهِم، وَمَا نِلْتُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ العِلْمِ لا يُقَاوَمُ. **فَقَالَ لِي إِبْلِيْسُ**: وَنَسِيتَ تَعَبَكَ وسَهَرَكَ؟! **فَقُلْتُ لَهُ**: أَيُّهَا الجَاهِلُ! تَقْطِيعُ الأَيْدِي لا وَقْعَ لَهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ يُوْسُفَ، وَمَا طَالَتْ طَرِيْقٌ أَدَّتْ إِلىٰ صَدِيقٍ.

جَزَىٰ اللهُ المَسِيْرَ إِلَيْهِ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ المَطَايا كالمَزَادِ[1]

٧٦٧ ـ وَلَقَدْ كُنْتُ فِي حَلاوةِ طَلَبي العِلْمَ أَلْقَىٰ مِنَ الشَّدَائِدِ مَا هُوَ عِنْدِي أَحَلَىٰ مِنَ العَسلِ، لِأَجْلِ مَا أَطْلُبُ وَأَرْجُوْ، كُنْتُ فِي زَمَانِ الصِّبَا آخُذُ مَعِي أَرْغِفَةً يَابِسَةً، فَأَخْرُجُ فِي طَلَبِ الحَدِيْثِ، وَأَقْعُدُ عَلَىٰ نَهْرِ عِيْسَىٰ[2]، فلا أَقْدِرُ عَلَىٰ أَكْلِها إِلَّا عِنْدَ المَاءِ؛ فَكُلَّمَا أَكَلْتُ لُقْمَةً؛ شَرِبْتُ عَلَيْهَا، وَعَيْنُ هِمَّتي لا تَرَىٰ إِلَّا لَذَّةَ تَحْصِيْلِ العِلْمِ.

فَأَثْمَرَ ذٰلِكَ عِنْدِي أَنِّي عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سَمَاعِي لِحَدِيْثِ سِيَرِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَأَحْوَالِهِ وَآدَابِهِ وَأَحْوَالِ أَصْحَابِه وَتَابِعِيْهِم، فَصِرْتُ فِي مَعْرِفَةِ طِرِيْقِهِ كابنِ أَجْوَدَ[3].

وَأَثْمَرَ ذٰلِكَ عِنْدِي مِنَ المُعَامَلَةِ مَا لا يُدْرَكُ بِالعِلْمِ، حتّىٰ إِنَّنِي أَذْكُرُ فِي زَمَانِ الصَّبْوةِ وَوَقْتِ الغُلْمَةِ[4] والعُزْبَةِ قُدْرَتِي عَلَىٰ أَشْيَاءَ كَانَتِ النَّفْسُ تَتُوْقُ إِلَيْهَا تَوَقَانَ العَطْشَانِ إِلَىٰ المَاءِ الزُّلالِ، وَلَمْ يَمْنَعْني عَنْهَا إِلَّا مَا أَثْمَرَ عِنْدِي العِلْمُ مِنْ خَوْفِ اللهِ ﷻ، وَلَوْلَا خَطَايا لا يَخْلُوْ مِنْهَا البَشَرُ؛ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُ عَلَىٰ نَفْسِي مِنَ العُجْبِ، غَيْرَ أَنَّهُ ﷻ صَانَنِي وَعَلَّمَنِي وَأَطْلَعَنِي مِنْ أَسْرَارِ العِلْمِ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَإِيْثَارِ الخَلْوةِ بِهِ، حَتّىٰ إِنَّه لَوْ حَضَرَ مَعِي مَعْرُوْفٌ وَبِشْرٌ؛ لَرَأَيْتُهُمَا زَحْمَةً.

٧٦٨ ـ ثُمَّ عَادَ فَغَمَسني فِي التَّقْصِيْرِ والتَّفْرِيْطِ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَقَلَّ النَّاسِ خَيْرًا مِنِّي. وَتَارَةً يوقِظُنِي لِقِيَامِ اللَّيْلِ وَلَذَّةِ مُنَاجَاتِهِ، وَتَارَةً يَحْرِمنِي ذٰلِكَ مَعَ سَلَامَةِ بَدَنِي. وَلَوْلا بِشَارَةُ العِلْمِ بِأَنَّ هٰذا نَوْعُ تِهْذِيْبٍ وَتَأْدِيْبٍ؛ لَخَرَجْتُ إِمّا إِلَىٰ العُجْبِ عِنْدَ العَمَلِ، وَإِمَّا إِلَىٰ اليَأْسِ عِنْدَ البَطَالَةِ. لٰكِنَّ رَجَائِي فِي فَضْلِهِ قَدْ عَادَلَ خَوْفي مِنْهُ.

٧٦٩ ـ وَقَدْ يَغْلِبُ الرَّجَاءُ بِقُوّةِ أَسْبَابِهِ؛ لِأَنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ قَدْ رَبَّانِي مُنْذُ كُنْتُ طِفْلًا؛ فَإِنَّ أَبِي مَاتَ وَأَنَا لَا أَعْقِلُ، وَالأُمُّ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيَّ، فَرَكَزَ فِي طَبْعِي حُبَّ العِلْمِ، وَمَا زَالَ يُوْقِعُنِي عَلَىٰ المُهِمِّ فَالمُهِمِّ، وَيَحْمِلُنِي إِلَىٰ مَنْ يَحْمِلُنِي عَلَىٰ الأَصْوَبِ، حَتَّىٰ قَوَّمَ أَمْرِي، وَكَمْ قَدْ قَصَدَنِي عَدُوٌّ فَصَدَّهُ عَنِّي، وَإِذ رَأَيتُهُ قَدْ نَصَرني

---

(١) **مزاد** ومزادة: وعاء من جلد: أي أن المطايا هزلت من كثرة الأسفار حتى صارت جلدًا على عظم.

(٢) نهر عيسى: نهر غربي بغداد، وحوله منتزهات وبساتين، ينسب إلى عيسى بن علي.

(٣) الدليل.

(٤) **وقت الغلمة**: سن الشباب

وَبَصَّرَنِي، وَدَافَعَ عَنِّي، ووَهَب لِي: قَوِيَ رَجَائِي فِي المُسْتَقْبَلِ بِمَا قَدْ رَأَيْتُ فِي المَاضِي.

وَلَقَدْ تَابَ عَلَىٰ يَدَيَّ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ أَكْثَرُ مِنْ مِئَتِي أَلْفٍ، وَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيَّ أَكْثَرُ مِنْ مِئَتِي نَفْسٍ، وَكَمْ سَالَتْ عَيْنُ مُتَجَبِّرٍ بِوَعْظِي لَمْ تَكُنْ تَسِيْلُ، وَيَحِقُّ لِمَنْ تَلَمَّحَ هٰذَا الإنْعَامَ أَنْ يَرْجُوَ التَّمامَ.

٧٧٠ ـ وُرَبَّمَا لاحَتْ أَسْبَابُ الخَوْفِ بِنَظَرِي إِلىٰ تَقْصِيْرِي وزَلَلِي. وَلَقَدْ جَلَسْتُ يَوْمًا، فَرَأَيْتُ حَوْلي أَكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ آلافٍ، مَا فِيْهِم إلَّا مَنْ قَدْ رَقَّ قَلْبُه، أَوْ دَمَعَتْ عَيْنُهُ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: كَيْفَ بِكِ إِنْ نَجَوْا وَهَلَكْتِ؟! فَصِحْتُ بِلِسَانِ وَجْدِي:

إِلَهِي وَسَيِّدِي! إِنْ قَضَيْتَ عَلَيَّ بِالعَذَابِ غَدًا؛ فَلا تُعْلِمْهُم بِعَذَابِي؛ صِيَانَةً لِكَرَمِكَ، لا لِأَجْلِي؛ لِئَلَّا يَقُوْلُوْا: عَذَّبَ مَنْ دَلَّ عَلَيْهِ.

إِلَهِي! قَدْ قِيْلَ لِنَبِيِّكَ ﷺ: اقتُلْ ابنَ أُبيٍّ المُنَافِقَ! فَقَالَ: «**لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(١).

إِلَهِي! فاحْفَظْ حُسْنَ عَقَائِدِهِم فِيَّ بِكَرَمِكَ أَنْ تُعْلِمَهُمْ بِعَذَابِ الدَّلِيْلِ عَلَيْكَ. حَاشَاكَ واللهِ يَا رَبِّ مِنْ تَكْدِيْرِ الصَّافِي.

لا تَـبْـرِ عُـوْدًا أَنْـتَ رَيَّـشْـتَـهُ ... حَاشَا لِبَانِي الجُودِ أَنْ يَنْقُضَا(٢)

لا تُـعْـطِـشِ الـزَّرْعَ الّـذِي نَـبْـتُـهُ ... بِـصَـوْبِ إِنْـعَـامِـكَ قَـدْ رَوَّضَا(٣)

١٦٩ - فصل: أصلح المقامات التوسط

٧٧١ ـ مِنَ الأُمُوْرِ الّتِي تَخْفَىٰ عَلىٰ العَاقِلِ: أَنْ يَرَىٰ أَنَّه مَتَىٰ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ أَوْ جَارِيَةٌ يَهْوَاهَا هَوًىٰ شَدِيْدًا؛ أَنَّه لا يَلْتَذُّ فِي الدُّنيا؛ فَإِذَا صَوَّرَ مَحْبُوْبًا مَمْلُوْكًا؛ تَخَايَلَ لَذَّةً عَظِيْمَةً، وَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ مَنْ لا يَمِيْلُ إِلَيْهِ؛ اعْتَقَدَ نَفْسَهُ مَحْرُوْمًا.

---

(١) رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) **(ريش السهم)**: جعل له ريشًا، وهو آخر مراحل صنع السهم وتحضيره، والبري يكون قبل الترييش. والمقصود: لا تنقض شيئًا بدأته.

(٣) **(الصوب)**: المطر، و**(روّض النبت)**: أصبح روضةً غناء.

٧٧٢ ـ وَهٰذا أَمْرٌ شَدِيْدُ الخَفَاءِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُوَضَّحَ: وَهُوَ أَنَّ المَمْلُوْكَ مَمْلُوْلٌ، وَمَتَىٰ قَدَرَ الإِنْسَانُ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِيْهِ؛ مَلَّهُ وَمَالَ إِلَىٰ غَيْرِهِ: **تَارَةً** لِبَيَانِ عُيُوْبِهِ؛ الَّتِي تَكْشِفُهَا المُخَالَطَةُ؛ فَإِنَّه قَدْ قَالَ الحُكَمَاءُ: العِشْقُ يُعْمِي عَنْ عُيُوْبِ المَحْبُوْبِ. **وَتَارَةً** لِمَكَانِ القُدْرَةِ عَلَيْهِ؛ وَالنَّفْسُ لا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إِلَىٰ مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ.

٧٧٣ ـ ثُمَّ لَوْ قَدَّرْنا دَوَامَ المَحَبَّة مَعَ القُدْرَةِ؛ فَإِنَّهَا قَدْ تَكُوْنُ، وَلٰكن نَاقِصَةً بِمِقْدَارٍ، وَإِنَّمَا يُقَوِّيْهَا تَجَنِّي المَحْبُوْبِ، فَيَكُوْنُ تَجَنِّيهِ كالاِمْتِنَاعِ، أَوْ اِمْتِنَاعُهُ مِنَ المُوَافَقَةِ. فَإِذَا صَفَا؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَكْدَارٍ: **مِنْهَا** الحَذَرُ عَلَيْهِ، **وَمِنْهَا** قِلَّةُ مَيْلِهِ إِلَىٰ هٰذَا العَاشِقِ، وَرُبَّمَا يَتَكَلَّفُ القُرْبَ مِنْهُ، وَيَعْلَمُ الإِنْسَانُ بِقِلَّةِ مَيْلِ مَحْبُوْبِهِ إِلَيْهِ، فَيَنْغَصُ[1]، بل يُبْغِضُ. فَإِنْ خَافَ مِنْهُ خِيَانَةً؛ احْتَاجَ إِلَىٰ حِرَاسَةٍ، فَقَوِيَتِ النُّغَصُ.

٧٧٤ ـ وَأَصْلَحُ المَقَامَاتِ التَّوَسُّطُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ مَا تَمِيْلُ النَّفسُ إِلَيْهِ، وَلَا يَرْتَقِي إِلَىٰ مَقَامِ العِشْقِ؛ فَإِنَّ العَاشِقَ فِي عَذَابٍ، وَإِنَّمَا يَتَخَايَلُ[2] الفَارِغُ مِنَ العِشْقِ التِذَاذَ العَاشِقِ، وَلَيْسَ كذلِكَ؛ فَإِنَّه كَمَا قِيْلَ:

وَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الهَوَىٰ عَذْبَ المَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ وَقْتٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أو لِاشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكِيْ إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الفِرَاقِ
فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّدَانِي ... وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الفِرَاقِ

١٧٠ - فصل: علو الهمة

٧٧٥ ـ مَا ابْتُلِيَ الإِنْسَانُ قَطُّ بَأَعْظَمَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُه يَخْتَارُ المَعَالِي، وَرُبَّمَا لا يُسَاعِدُه الزَّمَانُ، وَقَدْ تَضْعُفُ الآلَةُ، فَيَبْقَىٰ فِي عَذَابٍ.

وَإِنِّي أُعْطِيْتُ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ طَرَفًا؛ فَأَنَا بِهِ في عَذَاب، وَلا أَقُوْلُ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّه إِنَّمَا يَحْلُوْ العَيْشُ بِقَدْرِ عَدَمِ العَقْلِ، وَالعَاقِلُ لا يَخْتَارُ زِيَادَةَ اللَّذَّةِ بِنُقْصَانِ العَقْلِ.

٧٧٦ ـ ولَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا يَصِفُوْنَ عُلُوَّ هِمَمِهِم، فَتَأَمَّلْتُها، فَإِذَا بِهَا فِي فَنِّ

---

(١) **(ينغص)**: يتكدَّرُ، و**(النغص)**: الكدورات. (٢) **يتخايل**: يتخيل: يتصور في خياله.

وَاحِدٍ، وَلا يُبَالُوْنَ بِالنَّقْصِ فِيْمَا هُوَ أَهَمُّ. قَالَ **الرَّضِيُّ**[1]:

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُوْلِ بَلِيَّةٌ وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي

فَنَظَرْتُ؛ فَإِذا غَايَةُ أَمَلِهِ الإِمَارَةُ.

٧٧٧ ـ وَكَانَ **أَبُوْ مُسْلِمٍ الخُرَاسَانِيُّ**[2] فِي حَالِ شَبِيْبَتِهِ لا يَكَادُ يَنَامُ، فَقِيْلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ؟ **فَقَالَ**: ذِهْنٌ صَافٍ، وَهَمٌّ بَعِيْدٌ، وَنَفْسٌ تَتُوْقُ إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُوْرِ؛ مَعَ عَيْشٍ كَعَيْشِ الهَمَجِ الرَّعَاعِ! **قِيْلَ**: فَمَا الَّذِي يُبْرِدُ غَلِيْلَكَ؟ **قَالَ**: الظَّفَرُ بِالمُلْكِ. **قِيْلَ**: فَاطْلُبْهُ. **قَالَ**: لا يُطْلَبُ إِلَّا بِالأَهْوَالِ. **قِيْلَ**: فَارْكَبِ الأَهْوَالَ. **قَالَ**: العَقْلُ مَانِعٌ. **قِيْلَ**: فَمَا تَصْنَعُ؟ **قَالَ**: سَأَجْعَلُ مِن عَقْلِي جَهْلًا، وَأُحَاوِلُ بِهِ خَطَرًا، لا يُنَالُ إِلَّا بِالجَهْلِ، وَأُدبِّرُ بِالعَقْلِ مَا لا يُحْفَظُ إِلَّا بِهِ، فَإِنَّ الخُمُوْلَ أَخُوْ العَدَمِ.

فَنَظَرْتُ إِلَىٰ حَالِ هٰذا المِسْكِيْنِ؛ فَإِذا هُوَ قَدْ ضَيَّعَ أَهَمَّ المُهِمَّاتِ، وَهُوَ جَانِبُ الآخِرَةِ، وَانْتَصَبَ فِي طَلَبِ الوِلاياتِ؛ فَكَمْ فَتَكَ وَقَتَلَ حَتَّىٰ نالَ بَعْضَ مُرادِهِ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيا! ثُمَّ اغْتِيْلَ، ونَسِيَ تَدْبِيْرَ العَقْلِ، فَقُتِلَ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ الآخِرَةِ عَلَىٰ أَقْبَحِ حَالٍ.

٧٧٨ ـ وَكَانَ **المُتَنَبِّي**[3] يَقُوْلُ:

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاهُ والثَّوْبُ جِلْدُهُ
وَلٰكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ مَا لَهُ مَدًى يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادٍ أَحُدُّهُ
يَرَىٰ جِسْمَهُ يُكْسَىٰ شُفُوْفًا تَرُبُّهُ فَيَخْتَارُ أَنْ يُكْسَىٰ دُرُوْعًا تَهُدُّهُ

فَتَأَمَّلْتُ هٰذَا الآخَرَ؛ فَإِذَا نَهْمَتُه[4] فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنيا فَحَسْبُ.

٧٧٩ ـ وَنَظَرْتُ إِلَىٰ عُلُوِّ هِمَّتِي؛ فَرَأَيْتُهَا عَجَبًا، وَذَلِكَ أَنَّنِي **أَرُوْمُ**[5] **مِنَ العِلْمِ مَا**

---

(١) الشريف محمد بن طاهر الحسيني أبو الحسن (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ): أشعر الطالبيين، وأرق الشعراء غزلً،ا له ديوان شعر كبير، وهو مؤلف كتاب (نهج البلاغة) المنسوب إلى علي رضي الله عنه، ولم أجد البيت في ديوانه.

(٢) عبد الرحمٰن بن مسلم، صاحب الدعوة العباسية في خراسان، وهازم جيوش الأمويين، قتله المنصور سنة (١٣٧هـ) لما استفحل أمره، وأصبح خطرًا على دولته.

(٣) ديوانه ص(٤٥١).

(٤) **نهمته**: طلبه وشغفه.

(٥) **أروم**: أريد وأطلب.

أَتَيَقَّنُ أَنِّي لا أَصِلُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّنِي أُحِبُّ نَيْلَ كُلِّ العُلُوْمِ عَلىٰ اخْتِلَافِ فُنُوْنِهَا، وَأُرِيْدُ اسْتِقْصَاءَ كُلِّ فَنٍّ! هٰذَا أَمْرٌ يَعْجِزُ العُمْرُ عَنْ بَعْضِهِ. فَإِنْ عَرَضَ لِي ذُوْ هِمَّةٍ فِي فَنٍّ قَدْ بَلَغَ مُنْتَهاه؛ رَأَيْتُهُ نَاقِصًا فِيْ غَيْرِهِ؛ فَلا أَعُدُّ هِمَّتَهُ تامَّةً؛ مِثْلُ المُحَدِّثِ فَاتَهُ الفِقْهُ، وَالفَقِيْهِ فَاتَهُ عِلْمُ الحَدِيْثِ؛ فَلَا أَرَىٰ الرِّضا بِنُقْصَانِ العُلُوْمِ إِلَّا حَادِثًا عَنْ نَقْصِ الهِمَّةِ.

٧٨٠ ـ ثُمَّ إِنِّي أَرُوْمُ نِهَايَةَ العَمَلِ بِالعِلْمِ، فَأَتُوْقُ إِلى وَرَعٍ بِشْرٍ، وزَهادةِ مَعْرُوْفٍ! وهٰذَا ـ مَعَ مُطَالَعَةِ التَّصَانِيْفِ، وَإِفَادَةِ الخَلْقِ، ومُعَاشَرَتِهِم ـ بَعِيْدٌ.

٧٨١ ـ ثُمَّ إِنِّي أَرُوْمُ الغِنَىٰ عَنِ الخَلْقِ، وَأَسْتَشْرِفُ الإِفْضَالَ عَلَيْهِم! وَالاشْتِغَالُ بِالعِلْمِ مَانِعٌ مِنَ الكَسْبِ، وَقَبولُ المِنَنِ مِمَّا تَأْبَاهُ الهِمَّةُ العَالِيَةُ.

٧٨٢ ـ ثُمَّ إِنِّي أَتُوْقُ إِلىٰ طَلَبِ الأَوْلادِ، كَمَا أَتُوْقُ إِلَىٰ تَحْقِيْقِ التَّصَانِيْفِ؛ لِيَبْقَىٰ الخَلَفَانِ نَائِبَيْنِ عَنِّي بَعْدَ التَّلَفِ! وَفِي طَلَبِ ذٰلِكَ مَا فِيْهِ مِنْ شُغْلِ القَلْبِ المُحِبِّ للتَّفَرُّدِ.

٧٨٣ ـ ثُمَّ إِنِّي أَرُوْمُ الاسْتِمْتَاعَ بِالمُسْتَحْسَنَاتِ! وَفِي ذٰلِكَ امْتِنَاعٌ مِنْ جِهَةِ قِلَّةِ المَالِ، ثُمَّ لَوْ حَصَلَ؛ فَرَّقَ جَمْعَ الهِمَّةِ. وَكذٰلِكَ أَطْلُبُ لِبَدَنِي مَا يُصْلِحُهُ مِنَ المَطَاعِمِ والمَشَارِبِ؛ فَإِنَّه مُتَعَوِّدٌ للتَّرَفُّهِ والتَّلَطُّفِ! وفي قِلَّةِ المَالِ مَانِعٌ، وَكُلُّ ذٰلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ أَضْدَادٍ[1].

٧٨٤ ـ فَأَيْنَ أَنَا وَمَا وَصَفْتُهُ مِنْ حَالِ مَنْ كَانَتْ غَايَةُ هِمَّتِهِ الدُّنيا؛ وَأَنَا لا أُحِبُّ أَنْ يَخْدُشَ حُصُوْلُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنيا وَجْهَ دِيْنِي بِسَبَبٍ، وَلا أَنْ يُؤَثِّرَ فِي عِلْمِي، وَلا فِي عَمَلِي؟!

فَوَا قَلَقِي مِنْ طَلَبِ قِيَامِ اللَّيْلِ، وتَحْقِيْقِ الوَرَعِ؛ مَعَ إِعَادَةِ العِلْمِ، وشُغْلِ القَلْبِ بِالتَّصَانِيْفِ، وَتَحْصِيْلِ مَا يُلائِمُ البَدَنَ مِنَ المَطَاعِمِ!.

وَوَا أَسَفِي عَلىٰ مَا يَفُوْتُنِي مِنَ المُنَاجَاةِ فِي الخَلْوَةِ؛ مَعَ مُلاقَاةِ النَّاسِ وَتَعْلِيْمِهِم!

---

(١) قال الموفق عبد اللطيف في تأليف له: كان ابن الجوزي يراعي حفظ صحته، وتلطيف مزاجه وما يفيد عقله قوةً، وذهنه حدةً، جلُّ غذائه الفراريج والزرازير، ويعتاض عن الفاكهة بالأشربة والمعجونات، ولباسُه أفضلُ لباسٍ: الأبيض الناعمُ المطيب..، ولا ينفك من جارية حسناء.

وَيَا كَدَرَ الوَرِعِ؛ مَعَ طَلَبِ مَا لا بُدَّ مِنْهُ لِلْعَائِلَةِ!

٧٨٥ ـ غَيْرَ أَنِّي قَدِ اسْتَسْلَمْتُ لِتَعْذِيبِي، وَلَعَلَّ تَهْذِيبِي فِي تَعْذِيبِي؛ لَأَنَّ عُلُوَّ الهِمَّةِ تَطْلُبُ المَعَالِيَ المُقَرِّبَةَ إِلَىٰ الحَقِّ ﷻ، وَرُبَّمَا كَانَتِ الحَيْرَةُ فِي الطَّلَبِ دَلِيْلًا إِلَىٰ المَقْصُوْدِ. وها أنا أَحْفَظُ أَنْفاسِي مِنْ أَنْ يَضِيْعَ مِنْهَا نَفَسٌ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ. وَإِنْ بَلَغَ هَمِّي مُرَادَه، وَإِلَّا؛ فـ«**نِيَّةُ المُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ**».

١٧١ - فصل: لا بد من مغالطة ليتم العيش

٧٨٦ ـ لَمّا سَطَّرْتُ هٰذا الفَصْلَ المُتَقَدِّمَ؛ رَأَيْتُ ادِّكَارَ النَّفْسِ بِمَا لا بُدَّ لَهَا فِي الطَّرِيْقِ مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّه لا بُدَّ لَهَا مِنَ التَّلَطُّفِ؛ فَإِنَّ قَاطِعَ مَرْحَلَتَيْنِ فِي مَرْحَلَةٍ خَلِيقٌ بِأَنْ يَقِفَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْطَعَ الطَّرِيْقَ بِأَلْطَفِ مُمْكِنٍ، وَإِذَا تَعِبَتِ الرَّواحِلُ؛ نَهَضَ الحَادِي يُغَنِّيْهَا، وَأَخْذُ الرَّاحَةِ لِلْجِدِّ جِدٌّ، وَغَوْصُ السَّابِحِ فِي طَلَبِ الدُّرِّ صُعُوْدٌ، وَدَوَامُ السَّيْرِ يَحْسُرُ[1] الإِبِلَ، والمَفَازَةُ[2] صَعْبَةٌ.

٧٨٧ ـ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَىٰ التَّلَطُّفَ بِالنَّفْسِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي **سِيَرِ الرَّسُوْلِ** ﷺ؛ فَإِنَّه **كانَ يَتَلَطَّفُ بِنَفْسِهِ، وَيُمَازِحُ، وَيُخَالِطُ النِّسَاءَ، وَيُقَبِّلُ، وَيَمَصُّ اللِّسانَ، وَيَخْتَارُ المُسْتَحْسَنَاتِ، وَيُسْتَعْذَبُ لَهُ المَاءُ، وَيَخْتَارُ المَاءَ البَارِدَ، والأَوْفَقَ مِنَ المَطَاعِمِ؛ كَلَحْمِ الظَّهْرِ والذِّرَاعِ والحَلْوَى.**

٧٨٨ ـ وَهٰذَا كُلُّه رِفْقٌ بالنَّاقَةِ فِي طَرِيْقِ السَّيْرِ، فَأَمَّا مَنْ جَرَّدَ عَلَيْهَا السَّوْطَ؛ فَإِنَّهُ يُوْشِكُ أَلّا يَقْطَعَ الطَّرِيْقَ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**إِنَّ هٰذَا الدِّيْنَ مَتِيْنٌ؛ فَأَوْغِلُوْا فِيْهِ بِرِفْقٍ؛ فَإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ، وَلا ظَهْرًا أَبْقَى**»[3].

٧٨٩ ـ وَاعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُغالِطَ نَفْسَه فِيْمَا يَكْشِفُ العَقْلُ عَنْ

---

(١) **الحَسْر**: التعب والإعياء.

(٢) **المفازة**: الصحراء المهلكة.

(٣) رواه البيهقي في السنن (١٩١٣)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفي إسناده عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق كثير الغلط، لكن شطره الأول: رواه أحمد (٣/ ١٩٩) عن أنس رضي الله عنه، قال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٧): رجاله موثوقون إلا خلف بن مهران، فإنه لم يدرك أنسًا، و(**المنبت**) الذي يتعب دابته حتى لا تطيق السير.

عُوَارِهِ[1]؛ فَإِنَّ فِكْرَ الْمُتَيَقِّظِ يَسْبِقُ قَبْلَ مُبَاشَرَةِ الْمَرْأَةِ إِلَىٰ أَنَّها اعْتِنَاقُ جَسَدٍ يَحْتَوِي عَلىٰ قَذَارَةٍ، وَقَبْلَ بَلْعِ اللُّقْمَةِ إِلَىٰ أَنَّهَا مُتَقَلِّبَةٌ في الريقِ، لَوْ أَخْرَجَها اللِّسَانُ [لَفَظَهَا][2]، وَلَوْ [فَكَّرَ][3] فِي قُرْبِ المَوْتِ، وَمَا يَجْرِي عَلَيْهِ بَعْدَهُ؛ لَبَغَضَ عَاجِلَ لَذَّتِهِ.

فلا بُدَّ مِنْ مُغَالَطَةٍ تَجْرِي لِيَنْتَفِعَ الإِنْسَانُ بِعَيْشِهِ. كَمَا قَالَ لَبِيْدٌ[4]:

فَأَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا ... إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالأَمَلْ

وَقَالَ البُسْتِيُّ[5]:

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُوْدَ بِالهَمِّ رَاحَةً ... تُجِمُّ، وَعَلِّلْهُ بِشَيْءٍ مِنَ المَزْحِ
وَلٰكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَهُ ذاكَ فَلْيَكُنْ ... بِمِقْدَارِ ما يُعْطَىٰ الطَّعَامُ مِنَ المِلْحِ

وقال أبو عَلِيِّ بْنُ الشِّبْلِ[6]:

وَإِذَا هَمَمْتَ فَنَاجِ نَفْسَكَ بِالمُنَىٰ ... وَعْدًا فَخَيْرَاتُ الجِنَانِ عِدَاتُ
وَاجْعَلْ رَجَاءَكَ دُوْنَ يَأْسِكَ جُنَّةً ... حَتَّى تَزُوْلَ بِهَمِّكَ الأَوْقَاتُ
واسْتُرْ عَنِ الجُلَسَاءِ بَثَّكَ إِنَّمَا ... جُلَسَاؤُكَ الحُسَّادُ والشُّمَّاتُ
وَدَعِ التَّوَقُّعَ لِلحَوَادِثِ إِنَّهُ ... لِلحَيِّ مِنْ قَبْلِ المَمَاتِ مَمَاتُ
فَالهَمُّ لَيْسَ لَهُ ثَبَاتٌ مِثْلَمَا ... فِي أَهْلِهِ مَا لِلسُّرُوْرِ ثَبَاتُ
لَوْلَا مُغَالَطَةُ النُّفُوْسِ عُقُوْلَهَا ... لَمْ تَصْفُ لِلْمُتَيَقِّظِيْنَ حَيَاةُ

وَقَالَ أَيْضًا:

---

(١) **عواره**: فساده.

(٢) في هامش الأصل: بياض في ثلاث نسخ، والزيادة من (أ).

(٣) الزيادة من (ط).

(٤) لبيد بن ربيعة العامري أبو عقيل، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ وترك الشعر بعد إسلامه توفي سنة (٤١هـ).

(٥) أبو الفتح علي بن محمد البستي، شاعر زمانه. توفي سنة (٤٠٠هـ).

(٦) محمد بن الحسين بن عبد الله الشبل البغدادي أبو علي، شاعر حكيم، ولد وتوفي ببغداد، سنة (٤٧٣هـ).

بِحِفْظِ الجِسْمِ تَبْقَىٰ النَّفْسُ فِيْهِ ... بَقَاءَ النَّارِ تُحْفَظُ بِالوِعَاءِ
فَبِالْيَأْسِ المُمِضِّ فَلَا تُمِتْهَا ... وَلا تَمْدُدْ لَهَا طُوْلَ الرَّجَاءِ
وَعِدْهَا فِي شَدائِدِهَا رَخَاءً ... وَذَكِّرْهَا الشَّدائِدَ فِي الرَّخَاءِ
يُعَدُّ صَلاحُهَا هٰذَا وَهٰذَا ... وَبِالتَّرْكِيْبِ مَنْفَعَةُ الدَّوَاءِ

٧٩٠ ـ وَقَدْ كَانَ عُمُوْمُ السَّلَفِ يَخْضِبُوْنَ الشَّيْبَ؛ لِئَلَّا يَرى الإِنْسَانُ مِنْهُم مَا يَكْرَهُ، وَإِنْ كَانَ الخِضَابُ لا يُعْدِمُ النَّفْسَ عِلْمَهَا بِذٰلِكَ، وَلٰكِنَّه نَوْعُ مُخَادَعَةٍ لِلنَّفْسِ، وَمَا زَالَتِ النُّفُوْسُ تَرَىٰ الظَّاهِرَ، وَإِنَّمَا الفِكْرُ والعَقْلُ مَعَ الغَائِبِ.

٧٩١ ـ وَلا بُدَّ مِنْ مُغَالَطَةٍ تَجْرِي لِيَتِمَّ العَيْشُ، وَلَوْ عَمِلَ العَامِلِ بِمُقْتَضَى قِصَرِ الأَمَلِ؛ ما كَتَبَ العِلْمَ وَلا صَنَّفَ.

٧٩٢ ـ فَافْهَمْ هٰذا الفَصْلَ مَعَ الّذِي تَقَدَّمَهُ؛ فَإِنَّ الأَوَّلَ فِي **مَقَامِ العَزِيْمَةِ**، وَهٰذَا فِي **مَكَانِ الرُّخْصَةِ**، وَلا بُدَّ للتَّعِبِ مِنْ رَاحَةٍ وَإِعَانَةٍ، واللهُ ﷻ [مَعَكَ] عَلَىٰ قَدْرِ صِدْقِ الطَّلَبِ، وَقُوَّةِ اللَّجَإِ، وَخَلْعِ الحَوْلِ والقُوَّةِ، وَهُوَ المُوَفِّقُ.

١٧٢ - فصل: في تعليم التدبير

٧٩٣ ـ قِوامُ الآدَمِيِّ بَشَيْئَيْنِ: الحَرَارَةِ والرُّطُوْبَةِ. وَمِنْ شَأْنِ الحَرَارَةِ أَنْ تُحَلِّلَ الرُّطُوْبَةَ وَتُفْنِيْهَا؛ فَالآدَمِيُّ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ تَحْصِيْلِ خَلَفٍ لِلْمُتَحَلِّلِ.

فَأَبْدَانُ النَّشْءِ تَغْتَذِي بِأَكْثَرَ مِمَّا يَتَحَلَّلُ مِنْهَا، **وَالأَبْدَانُ المُتَنَاهِيَةُ** تَغْتَذِي بِمِقْدَارِ مَا يَتَحَلَّلُ مِنْهَا، **وَالأَبْدَانُ الَّتِي قَدْ أَخَذَتْ فِي الهَرَمِ** يَتَحَلَّلُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا تَغْتَذِي بِهِ.

٧٩٤ ـ فَيَنْبَغِي لِلنَّاشِئِ البَالِغِ أَنْ **يَتَحَفَّظَ فِي النِّكَاحِ**؛ لِأَنَّهُ[1] يُرَبِّي قَاعِدَةَ قُوَّةٍ يَجِدُ أَثَرَها فِي الكِبَرِ.

وَأَمّا **المتوسطُ والواقِفُ السِّنِّ**؛ فَيَنْبَغِي أَنْ **يَحْذَرَ فَضُوْلَ الجِمَاعِ**؛ فَإِنْ حَصَلَ لَهُ

(١) أي: الناشئ.

مِثْلُ ما يَخْرُجُ منهُ؛ فَأَسْرَفَ، فَالّلازِمُ أُخِذَ مِنَ الحَاصِلِ، وَيُوْشِكُ أَنْ يُسْرِعَ النَّفَادُ.

وأمّا **الشَّيْخُ؛ فَتَرْكُ النِّكَاحِ كالّلازِمِ لَهُ**، خُصُوْصًا إِذَا زَادَ عُلُوُّ السِّنِّ؛ لِأَنّه يُنْفِقُ مِنَ الجَوْهَرِ الّذي لا يُحَصِّلُ مِثْلَهُ أَبدًا.

٧٩٥ ـ ثُمَّ يَنْبَغِي أَنْ **يَنْظُرَ العَاقِلُ فِي مَالِهِ**، فَيَكْتَسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا يُنْفِقُ؛ لِيَكُوْنَ الفَاضِلُ مُدَّخَرًا لِوَقْتِ العَجْزِ، وَلْيَحْذَرِ السَّرَفَ؛ فَإِنَّ العَدْلَ هُوَ الأَصْلَحُ.

٧٩٦ ـ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي **الزَّوْجَةِ**، والمَطْلُوْبُ مِنْهَا شَيْئَانِ: **وُجُوْدُ الولَدِ، وَتَدْبِيْرُ المَنْزِلِ**؛ فَإِذَا كَانَتْ مُبَذِّرَةً؛ فَعَيْبٌ لا يُحْتَمَلُ، فَإِنِ انْضَمَّتْ صِفَةُ العُقْرِ؛ فَلَا وَجْهَ لِلإِمْسَاكِ؛ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ مُسْتَحْسَنَةَ الصُّوْرَةِ، فَإِنْ ضُمَّ إِلَيْهَا عَقْلٌ وَعَفَافٌ؛ حَسُنَ الإِمْسَاكُ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا يَحْتَاجُ أَنْ تُحْفَظَ[1]؛ فَتَرْكُهَا لازِمٌ.

٧٩٧ ـ فَأَمّا **الخَدَمُ**؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَحْصِيْلِ خَادِمٍ لا تَسْتَعْبِدُهُ الشَّهْوَةُ؛ فَإِنَّ عَبْدَ الشَّهْوَةِ لَهُ مَوْلًى غَيْرُ سيِّدِهِ، وَلْيَنْظُرِ المَالِكُ فِي طَبْعِ المَمْلُوْكِ؛ فَمِنْهُم: مَنْ لا يَأْتِي إِلَّا عَلَىٰ الإِكْرَامِ، فَلْيُكْرِمْه؛ فَإِنَّهُ يَرْبَحُ مَحَبَّتَهُ. **وَمِنْهُمْ**: مَنْ لَا يَأْتِي إِلَّا عَلَى الإِهَانَةِ، فَلْيُدَارِهِ، وَلْيُعْرِضْ عَنِ الذُّنُوْبِ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؛ عَاتَبَ بِلُطْفٍ، وَلْيَحْذَرِ العُقُوْبَةَ مَا أَمْكَنَ. وَلْيَجْعَلْ لِلمَمَالِيْكِ زَمَنَ رَاحَةٍ. وَالعَجَبُ مِمَّنْ يُعْنَى بِدَابَّتِهِ، وَيَنْسَىٰ مُدَارَاةَ جَارِيَتِهِ! وَأَجْوَدُ المَمَالِيْكِ الصِّغَارُ، وَكذٰلِكَ الزَّوْجَاتُ؛ لِأَنَّهُم مُتَعَوِّدُوْنَ خُلُقَ المُشْتَرِي.

٧٩٨ ـ وَلْيَحْفَظْ **نَفْسَهُ بِالهَيْبَةِ** مِن الانْحِرَافِ مَعَ الزَّوْجَةِ، وَلا يَطْلِعْها عَلَىٰ مَالِهِ؛ فَإِنَّها سَفِيْهَةٌ، تَطْلُبُ كَثْرَةَ الإِنْفَاقِ.

٧٩٩ ـ وَأَمَّا **تَدْبِيرُ الأَوْلادِ**؛ فَحِفْظُهُم مِنْ مُخَالَطَةٍ تُفْسِدُ. وَمَتَىٰ كَانَ الصَّبِيُّ ذا أَنَفَةٍ، حَيِيًّا؛ رُجِيَ خَيْرُه. وَلْيُحْمَلْ عَلَىٰ صُحْبَةِ الأَشْرَافِ والعُلَمَاءِ، وَلْيُحَذَّرْ مِنْ مُصَاحَبَتِهِ الجُهَّالَ والسُّفَهَاءَ؛ فَإِنَّ **الطَّبْعَ لِصٌّ**. وَلْيُحَذِّرِ الصَّبِيَّ مِنَ الكَذِبِ غَايَةَ التَّحْذِيْرِ، وَمِنَ المُخَالَطَةِ لِلصِّبْيَانِ، وَلْيُوْصِهِ بِزِيَادَةِ البِرِّ لِلْوَالِدَيْنِ، وَلْيُحْفَظْ مِنْ مُخَالَطَةِ النِّسَاءِ. فَإِذا بَلَغَ؛ فَلْيُزَوَّجْ بِصَبِيَّةٍ، فَيَنْتَفِعَانِ.

---

(١) غير عفيفة.

٨٠٠ ـ هٰذِهِ الإِشَارَةُ إِلىٰ **تَدْبِيْرِ أُمُورِ الدُّنيا. فَأَمَّا تَدْبِيْرُ العِلْمِ**؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ الصَّبِيُّ مِنْ حين يَبْلُغُ خَمْسَ سِنِيْنَ عَلَىٰ التَّشَاغُلِ بِالقُرْآنِ والفِقْهِ وَسَمَاعِ الحَدِيْثِ، ولْتُحَصَّلْ لَهُ المَحْفُوْظَاتِ أَكْثَرَ مِنَ المُسْمُوْعَاتِ؛ لِأَنَّ زَمَانَ الحِفْظِ إِلىٰ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ فَإِذَا بَلَغَ؛ تَشَتَّتَتْ هِمَّتُهُ، فلْيُضْرَبْ تَارَةً، ويُرْشَىٰ أُخْرَىٰ؛ لِيَبْلُغَ وَقَدْ حَصَّلَ مَحْفُوْظَاتٍ سَنِيَّةً.

٨٠١ ـ وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُكَلَّفَ **حِفْظُ القُرْآنِ** مُتْقَنًا؛ فَإِنَّه يَثْبُتُ، وَيَخْتَلِطُ باللَّحْمِ والدَّمِ، ثُمَّ **مُقَدِّمَةٌ مِنَ النَّحْوِ**، يَعْرِفُ بِهَا اللَّحَنَ، ثُمَّ **الفِقْهُ** مَذْهَبًا وخِلَافًا، وَمَا أَمْكَنَ بَعْدَ هٰذا مِنَ العُلُوْمِ؛ فَحِفْظُهُ حَسَنٌ.

٨٠٢ ـ وَلْيُحَذَّرْ مِنْ عَادَاتِ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ؛ فَإِنَّهُم يُفْنُونَ الزَّمَانَ فِي سَمَاعِ الأَجْزَاءِ، الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِيْهَا الأَحَادِيْثُ، فَيَذْهَبُ العُمُرُ، وَمَا حَصَّلُوْا فَهْمَ شَيْءٍ! فَإِذَا بَلَغُوْا سِنًّا؛ طَلَبُوْا جَوَازَ فَتْوَى أَوْ قِرَاءَةَ جُزْءٍ مِنَ القُرْآنِ، فَعَادُوْا القَهْقَرى؛ [لِأَنَّهُم] يَحْفَظونَ بَعْدَ كِبَرِ السِّنِّ، فَلَا يَحْصُلُ مَقْصُوْدُهُمْ. فَالحِفْظُ فِي الصِّبَا لِلْمُهِمِّ مِنَ العِلْمِ أَصْلٌ عَظِيْمٌ[1].

٨٠٣ ـ وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِمَّنْ تَشَاغَلَ بِالمَسْمُوْعَاتِ، وَكِتَابَةِ الأَجْزَاءِ، وَرَأَىٰ الحِفْظَ صَعْبًا، فَمَالَ إِلَىٰ الأَسْهَلِ، فَمَضَىٰ عُمُرُهُ فِي ذٰلِكَ، فَلَمَّا احْتَاجَ إِلَىٰ نَفْسِهِ؛ قَعَدَ يَتَحَفَّظُ عَلَىٰ كِبَرٍ، فَلَمْ يُحَصِّلْ مَقْصُوْدَهُ.

فَالْيَقْظَةَ لِفَهْمِ مَا ذَكَرْتُ، وَانْظُرْ فِي الإِخْلَاصِ؛ فَمَا يَنْفَعُ شَيْءٌ دُوْنَه.

١٧٣ - فصل: بادر موسم الزرع

٨٠٤ ـ اشْتَدَّ الغَلَاءُ بِبَغْدَادَ فِي أَوّلِ سَنةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ[2]، وَكُلَّمَا جَاءَ الشَّعِيْرُ؛ زَادَ السِّعْرُ، فَتَوَاقَعَ[3] النَّاسُ عَلىٰ اشْتِرَاءِ الطَّعَامِ. فَاغْتَبَطَ مَنْ يَسْتَعِدُّ كُلَّ سَنَةٍ بِزَرْعِ مَا يَقوتُهُ، وَفَرِحَ مَنْ بادَرَ فِيْ أَوّلِ النَّيْسَانِ إِلىٰ اشْتِرَاءِ الطَّعَامِ قَبْلَ أَنْ يَضَّاعَفَ ثَمَنُه،

---

(١) انظر: كتاب (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد) للمؤلف الملحقَ بهذا الكتاب.

(٢) أي: عام (٥٧٥هـ).

(٣) اجتمع.

وَأَخْرَجَ الفُقَرَاءُ مَا فِي بُيُوْتِهِم، فَرَمَوْه فِي سُوقِ الهَوَانِ؛ وَبَانَ ذُلُّ نُفُوْسٍ كانَتْ عَزِيْزَةً.

فَقُلْتُ: يَا نَفْسُ! خُذِي مِنْ هٰذه الحَالِ إِشَارَةً: **لَيُغْبَطَنَّ** مَنْ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ وَقْتَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ، **وَلَيُفْرَحَنَّ** مَنْ لَهُ جَوَابٌ عِنْدَ إِقْبَالِ المَسْأَلَةِ، وَكُلُّ الوَيْلِ عَلَىٰ المُفرِّطِ الَّذِي لا يَنْظُرُ فِي عَاقِبَتِهِ! **فَتَنبَّهِي**؛ فَقَدْ نَبَّهْتِ نَاسًا فِي الدُّنيا عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ! **وَبَادِرِي** مَوْسِمِ الزَّرْعِ مَا دَامَتِ الرُّوْحُ فِي البَدَنِ؛ فَالزَّمَانُ كُلُّه تِشْرِيْنُ[1]، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ نَيْسَانُ الحَصَادِ وَمَا لَكِ زَرْعٌ، وَحَاجَةُ المُفْتَقِرِيْنَ إِلَىٰ أَمْوَالِهِم تَمْنَعُهُم مِنَ الإِيثَارِ.

١٧٤ - فصل: المؤمن بين الخوف والرجاء

٨٠٥ ـ **تَأَمَّلْتُ** حَالةً أَزْعَجَتْنِي، وَهُوَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَفْعَلُ مَعَ امْرَأَتِهِ كُلَّ جَمِيْلٍ، وَهِيَ لا تُحِبُّهُ، وَكَذَا يَفْعَلُ مَعَ صَدِيقِهِ، والصَّدِيْقُ يُبْغِضُهُ، وَقَدْ يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، والسُّلْطَانُ لا يُؤْثِرُهُ، فَيَبْقَىٰ مُتَحَيِّرًا يَقُوْلُ: مَا حِيْلَتِي؟! فَخِفْتُ أَنْ تَكُوْنَ هٰذِهِ حَالَتِي مَعَ الخَالِقِ سُبْحَانَه؛ أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، وَهُوَ لا يُرِيْدُنِي، وَرُبَّمَا يَكُوْنُ قَدْ كَتَبَنِي شَقِيًّا فِي الأَزَلِ. وَمِنْ هٰذا خَافَ الحسنُ، فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُوْنَ اطَّلَعَ عَلَى بَعْضِ ذُنُوْبِي، فَقَالَ: لا غَفَرْتُ لكَ.

فَلَيْسَ إِلَّا القَلَقُ وَالخَوْفُ، لَعَلَّ سَفِيْنَةَ الرَّجَاءِ تَسْلَمُ ـ يَوْمَ دُخُوْلِهَا الشَّاطِئَ ـ مِنْ جُرُفٍ[2].

١٧٥ - فصل: عدد أحاديث رسول الله ﷺ

٨٠٦ ـ جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدِ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ كَلَامٌ فِيْ قَوْلِ **الإِمَامِ أَحْمَدَ**: «صَحَّ مِنَ الحَدِيْثِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ سَبْعُ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ». **فَقُلْتُ لَهُ**: إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الطُّرُقَ. **فَقَالَ**: لا؛ بَلِ المُتُوْنَ! **فَقُلْتُ**: هٰذَا بَعِيْدُ التَّصَوُّرِ.

٨٠٧ ـ ثُمَّ رَأَيْتُ **لِأَبِي عَبْدِ اللهِ الحَاكِمِ**[3] كَلَامًا يَنْصُرُ مَا قَالَ ذٰلِكَ الشَّخْصُ،

---

(١) **تشرين**: موسم الزرع. (٢) **الجرف**: الساحل الصخري.

(٣) محمد بن عبد الله النيسابوري الشهير بابن البيّع: إمام، حافظ، مصنف، توفي سنة (٤٠٥هـ).

وَهُوَ أَنَّه قَالَ فِيْ كِتَابِ (المَدْخَلِ إِلَىٰ كِتَابِ الإِكْلِيْلِ): كَيْفَ يَجُوْزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لا يَبْلُغُ عَشَرَةَ آلافِ حَدِيْثٍ؛ وَقَدْ رَوَىٰ عَنْهُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَرْبَعَةُ آلافِ رَجُلٍ وَٱمْرَأَةٍ، صَحِبُوْهُ نَيِّفًا وَعِشْرِيْنَ سَنَةً بِمَكَّةَ، ثُمَّ بِالمَدِيْنَةِ، حَفِظُوا أَقْوَالَهُ، وَأَفْعَالَهُ، وَنَوْمَهُ، وَيَقَظَتَهُ، وَحَرَكَاتِهِ، وَغَيْرَ ذٰلِكَ، سِوَىٰ مَا حَفِظُوْا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيْعَةِ؟! وَاحْتَجَّ بِقَوْلِ أَحْمَدَ: «صَحَّ مِنَ الحَدِيْثِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ سَبْعُ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ وَكَسْرٌ»، وَأَنَّ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ[1] كَانَ يُمْلِي سَبْعِيْنَ أَلْفَ حَدِيْثٍ حِفْظًا، وَأَنَّ أَبَا العَبَّاسِ بْنَ عُقْدَةَ[2] قَالَ: أَحْفَظُ لِأَهْلِ البَيْتِ ثَلَاثَ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ. قَالَ ابْنُ عُقْدَةَ: وَظَهَرَ لِابْنِ كُرَيْبٍ[3] بِالكُوْفَةِ ثَلَاثُ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ. **قُلْتُ**: وَلا يَحْسُنُ أَنْ يُشَارَ بِهٰذَا إِلَى المُتُوْنِ.

وَقَدْ عَجِبْتُ كيفَ خَفِيَ هٰذَا عَلىٰ الحَاكِمِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَجْمَعَ المَسَانِيْدِ الظَّاهِرَةِ (مُسْنَدُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل)، وَقَدْ طَافَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ حَتَّى حَصَّلَهُ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ أَلْفَ حَدِيْثٍ، مِنْهَا عَشَرَةُ آلافٍ مُكَرَّرَةٌ.

٨٠٨ ـ قَالَ حَنْبَلُ بْنُ إِسْحَاقَ[4]: جَمَعَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل أنا وصَالِح[5] وعَبْدَ اللهِ[6]، وَقَرَأَ عَلَيْنَا «المُسْنَدَ»، **وَقَالَ لَنَا**: هٰذَا كِتَابٌ جَمَعْتُهُ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ مِئَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِيْنَ أَلْفًا، فَمَا اخْتَلَفَ المُسْلِمُونَ فِيْهِ مِنْ حَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ فَٱرْجِعُوْا إِلَيْهِ؛ فَإِنْ وَجَدْتُمُوْهُ، وَإِلَّا؛ فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ[7]. أَفَتَرَىٰ يَخْفَىٰ عَلَىٰ مُتَيَقِّظٍ أَنَّهُ أَرَادَ بِكَوْنِهِ جَمَعَهُ مَنْ سَبْعِ مِئَةِ أَلْفٍ أَنَّهُ أَرَادَ الطُّرُقَ؟! لِأَنَّ السَّبْعَ مِئَةِ الأَلْفِ إِنْ كَانَتْ مِنْ كَلَامِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ فَكَيْفَ أَهْمَلَهَا؟!

---

(١) أبو يعقوب، إسحاق بن راهويه الحنظلي الحافظ، من كبار الأئمة (١٦١ ـ ٢٣٨هـ).

(٢) أحمد بن محمد الهمداني، الحافظ العلامة (٢٤٩ ـ ٣٣٢هـ).

(٣) محمد بن العلاء بن كريب: الحافظ الثقة (١٦١ ـ ٢٤٨هـ).

(٤) حنبل بن إسحاق بن حنبل: ابن عم الإمام أحمد وتلميذه، من حفاظ الحديث، توفي سنة (٢٧٣هـ).

(٥) صالح: أكبر أولاد الإمام أحمد بن حنبل، تولى قضاء أصبهان (٢٠٣ ـ ٢٦٦هـ).

(٦) عبد الله بن أحمد بن حنبل: أجل أولاد الإمام كان صينًا دينًا صادقًا (٢١٣ ـ ٢٩٠هـ).

(٧) هناك كثير من الأحاديث الصحيحة غير مخرجة في المسند.

٨٠٩ ـ **فَإِنْ قِيْلَ**: فَقَدْ أَخْرَجَ فِي «مُسْنَدِه» أَشْيَاءَ ضَعِيْفَةً، ثُمَّ أَعُوْذُ بِاللهِ أَنْ يَكُوْنَ سَبْعُ مِئَةِ أَلْفٍ مَا تَحَقَّقَ مِنْهَا سِوَى ثَلاثِيْنَ أَلْفًا! وَكَيْفَ ضَاعَتْ هٰذِهِ الجُمْلَةُ؟! وَلِمَ أُهْمِلَتْ؛ وَقَدْ وَصَلَتْ كُلُّها إِلَىٰ زَمَنِ أَحْمَدَ، فَانْتَقَىٰ مِنْهَا، وَرَمَىٰ البَاقِي؟! وَأَصْحَابُ الحَدِيْثِ قَدْ كَتَبُوْا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ المَوْضُوْعِ وَالكَذِبِ.

٨١٠ ـ وَكذٰلِكَ قَالَ أَبُوْ دَاودَ[1]: جَمَعْتُ كِتَابَ (السُّنَنِ) مِنْ سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ.

٨١١ ـ وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الصَّحَابَةَ الَّذِيْنَ رَوَوْها مَاتُوْا، وَلَمْ يُحَدِّثُوْا بِهَا التَّابِعِيْنَ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ قَدْ وَصَلَ إِلَىٰ أَحْمَدَ، فَأَحْصَىٰ سَبْعَ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ، وَمَا كَانَ الأَمْرُ لِيَذْهَبَ هٰكَذَا عَاجِلًا!

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّهُ لَوْ جُمِعَ الصَّحِيْحُ وَالمُحَالُ المَوْضُوْعُ وَكُلُّ مَنْقُوْلٍ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ ما بَلَغَ خَمْسِيْنَ أَلفًا! فَأَيْنَ البَاقِي؟!

٨١٢ ـ وَلا يَجُوْزُ أَنْ يُقَالَ: تِلْكَ الأَحَادِيْثُ كَلامُ التَّابِعِيْنَ؛ فَإِنَّ الفُقَهَاءَ نَقَلُوْا مَذَاهِبَ القَوْمِ، وَدَوَّنُوْهَا، وَأَخَذُوْا بِهَا، وَلا وَجْهَ لِتَرْكِهَا!

٨١٣ ـ فَفَهِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ أَنَّ الإِشَارَةَ إِلىٰ الطُّرُقِ، وَأَنَّ مَا تَوَهَّمَهُ **الحَاكِمُ** فَاسِدٌ، وَلَوْ عُرِضَ هٰذَا الاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ، **وَقِيْلَ لَهُ**: فَأَيْنَ البَاقِي؟! لَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ. لٰكِنَّ الفَهْمَ عَزِيْزٌ، واللهُ المُنْعِمُ بِالتَّوْفِيقِ.

٨١٤ ـ وَمِثْلُ هٰذَا تَغْفِيلُ قَوْمٍ قَالُوْا: إِنَّ البُخَارِيَّ لَمْ يُخَرِّجْ كُلَّ مَا صَحَّ عِنْدَهُ، وَإِنَّ مَا أَخْرَجَ كالأُنْمُوْذَجِ، وَإِلَّا؛ فَكَانَ يُطَوِّلُ. وَقَدْ ذَهَبَ إِلَىٰ نَحْوِ هٰذَا أَبُوْ بَكْرٍ الإِسْمَاعِيْلِيُّ[2]، وَحَكَىٰ عَنِ البُخَارِيِّ أَنَّه قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنَ الصَّحِيْحِ أَكْثَرُ. وَإِنَّمَا يَعْنِي الطُّرُقَ. يَدُلُّ عَلىٰ مَا قُلْتُهُ أَنَّ الدَّارَقُطْنِيَّ[3] ـ وَهُوَ سَيِّدُ الحُفَّاظِ ـ جَمَعَ مَا يَلْزَمُ البُخَارِيَّ وَمُسْلِمًا[4] إِخْرَاجُه، [فَبَلَغَ] مَا لَمْ يَذْكُرَاهُ أَحَادِيْثَ يَسِيْرَةً، وَلَوْ كَانَ كَمَا قَالُوْا؛ لَأَخْرَجَ مُجَلَّدَاتٍ.

---

(١) سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢ ـ ٢٧٥هـ): الإمام الحافظ صاحب السنن، ومحدث البصرة.

(٢) أحمد بن إبراهيم الجرجاني (٢٧٧ ـ ٣٧١هـ): محدّث إمام.

(٣) علي بن عمر (٣٠٦ ـ ٣٨٥هـ): كان من بحور العلم، وأئمة الدنيا، صاحب التصانيف.

(٤) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: الإمام الحجة صاحب الصحيح (٢٠٤ ـ ٢٦١هـ).

ثُمَّ قولُه: «ما يلزمُ البخاريَّ»: دليلٌ صريحٌ على ما قلتُه؛ لأنه مَن أخْرَجَ الأنموذَجَ؛ لا يلزمُهُ شيءٌ.

٨١٥ ـ وَكَذٰلِكَ أَخْرَجَ أَبُوْ عَبْدِ اللهِ الحَاكِمُ كِتَابًا[١] جَمَعَ فِيْهِ مَا يَلْزَمُ البُخَارِيَّ إِخْرَاجُهُ، فَذَكَرَ حَدِيْثَ الطَّائِرِ، فَلَمْ يَلْتَفِتِ الحُفَّاظُ إِلىٰ مَا قَالَهُ[٢].

فَمَا أَقَلَّ فَهْمَ هٰؤلاءِ الَّذِيْنَ، شَغَلَهُمْ نَقْلُ الحَدِيْثِ عَنِ التَّدْقِيْقِ، الَّذِي لا يَلْزَمُ فِي صِحَّةِ الحَدِيْثِ. وَإِنَّمَا وَقَعَ لِقِلَّةِ الفِقْهِ والفَهْمِ.

٨١٦ ـ إِنَّ البُخَارِيَّ وَمُسْلِمًا تَرَكَا أَحَادِيْثَ أَقْوَامٍ ثِقَاتٍ؛ لِأَنَّهُم خُوْلِفُوْا فِي الحَدِيْثِ، فَنَقَصَ الأَكْثَرُوْنَ مِنَ الحَدِيْثِ وَزَادُوْا، وَلَوْ كَانَ ثَمَّ فِقْهٌ؛ لَعَلِمُوْا أَنَّ الزِّيَادَةَ مِنَ الثِّقَةِ مَقْبُوْلَةٌ! وَتَرَكُوْا أَحَادِيْثَ أَقْوَامٍ، لِأَنَّهُم انْفَرَدُوْا بِالرِّوَايَةِ عَنْ شَخْصٍ، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ انْفِرَادَ الثِّقَةِ لا عَيْبَ فِيْهِ! وتَرَكُوْا مِنْ ذٰلِكَ الغَرَائِبَ. وَكُلُّ ذٰلِكَ سُوْءُ فَهْمٍ. وَلِهٰذَا لَمْ يَلْتَزِمِ الفُقَهَاءُ هٰذَا، وَقَالُوْا: الزِّيَادَةُ مِنَ الثِّقَةِ مَقْبُوْلَةٌ[٣]، وَلا يُقْبَلُ القَدْحُ حَتَّى يُبَيَّنَ سَبَبُهُ.

٨١٧ ـ وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُخَالِطِ الفُقَهَاءَ[٤] وَجَهَدَ مَعَ المُحَدِّثِيْنَ؛ تَأَذَّى، وَسَاءَ فَهْمُهُ!! فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِالحَالَتَيْنِ.

١٧٦ - فصل: اللغة منطق العرب

٨١٨ ـ اعْلَمْ أَنَّ اللهَ ﷻ وَضَعَ فِي النُّفُوْسِ أَشْيَاءَ لا تَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيْلٍ؛ فَالنُّفُوْسُ تَعْلَمُهَا ضَرُوْرَةً، وَأَكْثَرُ الخَلْقِ لا يُحْسِنُوْنَ التَّعْبِيْرَ عَنْهَا. فَإِنَّهُ وَضَعَ فِي النُّفُوْسِ أَنَّ المَصْنُوْعَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ صَانِعٍ، وَأَنَّ المَبْنِيَّ لا بُدَّ لَهُ مِنْ بَانٍ، وَأَنَّ الاثْنَيْنَ أَكْثَرُ مِنَ الوَاحِدِ، وَأَنَّ الجِسْمَ

---

(١) هو كتاب «المستدرك على الصحيحين» قال الذهبي: رأيت الهول من الموضوعات التي فيه.

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في التقريب: ولم يستوعبا (أي البخاري ومسلم في كتابيهما) الصحيح، ولا التزماه (أي استيعابه). انظر: التدريب (١/ ١٣٢) ط. دار العاصمة.

(٣) الزيادة أقسام: أحدها: زيادة تخالف الثقات، فتردُّ. والثاني: ما لا مخالفة فيها فتُقبل باتفاق العلماء. والثالث: زيادة لم يذكرها سائر رواة الحديث، والصحيح قبولها. اهـ المختصر الحاوي لمهمات تدريب النواوي ص(١٧٤).

(٤) قال المؤلف في الفصل (٣٣٢): كان المحدثون قديمًا هم الفقهاء، ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث، والمحدثون لا يعرفون الفقه.

الوَاحِدَ لَا يَكُوْنُ فِي مَكَانَيْنِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمِثْلُ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ لا تَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيْلٍ.

٨١٩ - وَأَلْهَمَ العَرَبَ النُّطْقَ بِالصَّوَابِ مِنْ غَيْرِ لَحنٍ؛ فَهُمْ يَفَرِّقُوْنَ بَيْنَ المَرْفُوْعِ وَالمَنْصُوْبِ بِأَمَارَاتٍ فِي جِبِلَّتِهِمْ[١]، وَإِنْ عَجَزُوْا عَنِ النُّطْقِ بِالْعِلَّةِ[٢].

٨٢٠ - قَالَ عُثْمَانُ بنُ جِنِّيٍّ[٣]: سَأَلْتُ يَوْمًا أَبا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَسَّافٍ العُقَيْلِيَّ[٤] **فَقُلْتُ لَهُ**: كَيْفَ تَقُوْلُ: (ضَرَبْتُ أخوكَ)؟ فَقَالَ: أَقُوْلُ: (ضَرَبْتُ أَخَاكَ). فَأَدَرْتُهُ عَلَىٰ الرَّفْعِ، فَأَبَىٰ، **وَقَالَ**: لا أَقُوْلُ (أَخُوْكَ) أَبَدًا! **قُلْتُ**: فَكَيْفَ تَقُوْلُ: (ضَرَبَنِي أَخُوْكَ)؟ فَرَفَعَ، **فَقُلْتُ**: أَلَيْسَ زَعَمْتَ أَنَّكَ لا تَقُوْلُ (أَخُوْكَ) أَبَدًا. **فَقَالَ**: إِيْشٍ هٰذَا؟! اخْتَلَفَتْ جِهَتا الكَلَام! وَهٰذَا أَدَلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ تَأَمُّلِهِم مَوَاقِعَ الكَلَامِ، وَإِعْطَائِهِمْ إِيَّاه فِي كُلِّ مَوْضِعٍ حَقَّهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ اسْتِرْسَالًا وَلا تَرْخِيْمًا.

٨٢١ - قَالَ عُثْمَانُ: وَاللُّغَةُ هِيَ أَصْوَاتٌ، يُعَبِّرُ بِهَا كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أَغْرَاضِهِم، وَالنَّحْوُ انْتِحَاءُ سَمْتِ كَلَامِ العَرَبِ فِي تَصَرُّفِهِ؛ مِنْ إِعْرَابٍ وَغَيْرِهِ؛ كَالتَّثْنِيَةِ، والجَمْعِ، والتَّحْقِيْرِ[٥]، والتَّكْسِيْرِ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ؛ لِيَلْحَقَ مَنْ لَيسَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ أَهْلَهَا.

١٧٧ - فصل مفيد: العاقل ينظر في العواقب، والغافل لا يرى إلّا الحاضر

٨٢٢ - تَدَبَّرْتُ أَحْوَالَ الأَخْيَارِ وَالأَشْرَارِ، فَرَأَيْتُ سَبَبَ صَلَاحِ الأَخْيَارِ **النَّظَرَ**، وَسَبَبَ فَسَادِ الأَشْرَارِ **إِهْمَالَ النَّظَرِ**. وَذَاكَ أَنَّ **العَاقِلَ** يَنْظُرُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ [للمصنوع] مِنْ صَانِعٍ، وَأَنَّ طَاعَتَهُ لَازِمَةٌ، وَيَتَأَمَّلُ مُعْجِزَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُسَلِّمُ قِيَادَهُ إِلَىٰ الشَّرْعِ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، وَيُزْلِفُهُ لَدَيْهِ. فَإِذَا شَقَّ عَلَيْهِ إِعَادَةُ العِلْمِ؛ تَأَمَّلَ ثَمَرَتَهُ، فَسَهُلَ ذٰلِكَ. وَإِذَا صَعُبَ عَلَيْهِ قِيَامُ اللَّيْلِ؛ فَكَذٰلِكَ، وَإِذَا رَأَىٰ مُشْتَهًى؛ تَأَمَّلَ

---

(١) الجبلة: الخلقة والفطرة. (٢) العلة: السبب.

(٣) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي من كبار أصحاب أبي علي الفارسي من أئمة العربية (٣٣٠ - ٣٩٢هـ). انظر الخصائص: (١/ ٢٥٠).

(٤) الجوثي التميمي، تميم جوثة. أعرابي من بني عقيل ممن كان يلتقيهم ابن جني ويأخذ عنهم اللغة.

(٥) **التحقير**: التصغير.

عَاقِبَتَهُ، فَعَلِمَ أَنَّ اللَّذَّةَ تَفْنَىٰ، وَالْعَارَ وَالْإِثْمَ يَبْقَيَانِ؛ فَيَسْهُلُ عَلَيْهِ التَّرْكُ. وَإِذَا اشْتَهَىٰ الْانْتِقَامَ مِمَّنْ يُؤْذِيْهِ؛ ذَكَرَ ثَوَابَ الصَّبْرِ، وَنَدَمَ الغَضْبَانِ عَلَىٰ أَفْعَالِهِ فِي حَالِ الغَضَبِ ثُمّ لا يَزَالُ يَتَأَمَّلُ سُرْعَةَ مَمَرِّ العُمُرِ، فَيَغْتَنِمُهُ بِتحْصِيْلِ أَفْضَلِ الْفَضَائِلِ، فَيَنَالُ مُنَاهُ.

٨٢٣ ـ وَأَمَّا **الغافلُ**؛ فَإِنَّهُ لَا يَرَىٰ إِلَّا الشَّيْءَ الحَاضِرَ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْ فِي مَعْنَىٰ المَصْنُوعِ وَإِثْبَاتِ الصَّانِعِ، فَجَحَدُوا، وَتَرَكُوا النَّظَرَ، وَجَحَدُوا الرُّسُلَ، وَمَا جَاؤوا بِهِ، وَنَظَرُوا إِلَىٰ العَاجِلِ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَبْدَئِهِ وَمُنْتَهَاهُ؛ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِرْفَانِ المَطْعَمِ إِلَّا الأَكْلُ، وَلَوْ تَأَمَّلُوا كَيْفَ أُنْشِئَ؟ وَلِمَاذَا جُعِلَ حَافِظًا لِلأَبْدَانِ؟ لَعَرَفُوا حَقَائِقَ الأُمُورِ! وَكَذٰلِكَ كُلُّ شَهْوَةٍ تَعْرِضُ لَهُمْ؛ لا يَنْظُرُونَ فِي عَاقِبَتِهَا، بَلْ فِي عَاجِلِ لَذَّتِهَا. وَكَمْ قَدْ جَنَتْ عَلَيْهِمْ؛ مِنْ وُقُوعِ حَدٍّ، وَقَطْعِ يَدٍ، وَفَضِيحَة! فَتَعْجِيلُ اللَّذَّةِ يُفَوِّتُ الفَضَائِلَ، وَيُحَصِّلُ الرَّذَائِلَ، وَسَبَبُهُ **عَدَمُ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ**، وَهٰذَا شُغْلُ العَقْلِ، وَذَاكَ المَذْمُومُ شُغْلُ الهَوَىٰ. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تُرِيْنَا العَوَاقِبَ، وَتَكْشِفُ لَنَا الفَضَائِلَ وَالْمَعَايِبَ، إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ ذٰلِكَ.

١٧٨ - فصل: الآمال أكبر من الآجال

٨٢٤ ـ خُلِقَتْ لِي هِمَّةٌ عَالِيَةٌ تَطْلُبُ الغَايَاتِ، بَلَغْتُ السِّنَّ وَمَا بَلَغْتُ مَا أَمَّلْتُ! فَأَخَذْتُ أَسْأَلُ تَطْوِيلَ العُمُرِ، وَتَقْوِيَةَ البَدَنِ، وَبُلُوغَ الآمَالِ، فَأَنْكَرَتْ عَلَيَّ العَادَاتُ، **وَقَالَتْ**: مَا جَرَتْ عَادَةٌ بِمَا تَطْلُبُ. **فَقُلْتُ**: إِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْ قَادِرٍ يَخْرِقُ العَادَاتِ؛ وَقَدْ **قِيلَ لِرَجُلٍ**: لَنَا حُوَيْجَةٌ[١]. **فَقَالَ**: اطْلُبُوا لَهَا رُجَيْلًا[٢] **وَقِيلَ لِآخَرَ**: جِئْنَاكَ فِي حَاجَةٍ لَا تَرْزَؤُكَ[٣]. **فَقَالَ**: هَلَّا طَلَبْتُمْ لَهَا سَفَاسِفَ النَّاس! فَإِذَا كَانَ أَهْلُ الأَنَفَةِ مِنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا يَقُولُونَ هٰذَا؛ فَلِمَ لَا نَطْمَعُ فِي فَضْلِ كَرِيمٍ قَادِرٍ؟!

وَقَدْ سَأَلْتُهُ هٰذَا السُّؤَالَ فِي رَبِيعٍ الآخِرِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ[٤]؛ فَإِنْ مَدَّ لِي أَجَلِي، وَبَلَغْتُ مَا أَمَّلْتُهُ؛ نَقَلْتُ هٰذَا الفَصْلَ إِلَىٰ مَا بَعْدُ، وَبَيَّضْتُهُ، وَأَخْبَرْتُ بِبُلُوغِ آمَالِي، وَإِنْ لَمْ يَتَّفِقْ ذٰلِكَ؛ فَسَيِّدِي أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ؛ فَإِنَّه لا يَمْنَعُ بُخْلًا، وَلا حَوْلَ إِلَّا بِهِ.

---

(١) **حويجة**: تصغير حاجة.
(٢) **رجيل**: تصغير رجل.
(٣) **لا ترزؤك**: لا تكلفك ما تنكب به.
(٤) أي (٥٧٥هـ).

١٧٩ - فصل: ما أقل من يعمل لله خالصًا!

٨٢٥ - مَا أَقَلَّ مَنْ يَعْمَلُ للهِ تَعَالَىٰ خَالِصًا! لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يُحِبُّونَ ظُهُورَ عِبَادَاتِهِم، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ كَانَ يَقُولُ: لا أَعْتَدُّ بِمَا ظَهَرَ مِنْ عَمِلِي! وَكَانُوا يَسْتُرُوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَالْيَوْمَ ثِيَابُ القَوْمِ تُشْهِرُهُم! وَقَدْ كَانَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِي[١] يُطَوِّلُ قَمِيصَهُ حَتَّىٰ يَقَعَ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ، **وَيَقُولُ**: كَانَتِ الشُّهْرَةُ فِي التَّطْوِيلِ، وَالْيَوْمَ الشُّهْرَةِ فِي التَّقْصِيرِ.

٨٢٦ - فَاعْلَمْ أَنَّ تَرْكَ النَّظَرِ إِلَىٰ الخَلْقِ، وَمَحْوَ الجَاهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِالتَّعَمُّلِ[٢]، وَإِخْلَاصِ القَصْدِ، وَسَتْرِ الحَالِ: هُوَ الَّذِي رَفَعَ مَنْ رَفَعَ، فَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل يَمْشِي حَافِيًا فِي وَقْتٍ، وَ[يَحْمِلُ] نَعْلَيْهِ فِي يَدَيْهِ، وَيَخْرُجُ لِلَّقَاطِ[٣]، وَبِشْرٌ يَمْشِي حَافِيًا عَلَىٰ الدَّوَامِ وَحْدَهُ، وَمَعْرُوفٌ يَلْتَقِطُ النَّوَىٰ[٤].

٨٢٧ - وَالْيَوْمَ صَارَتْ الرِّئَاسَاتُ أكثرَ من كُلِّ حاجةٍ، وَمَا تَتَمَكَّنُ الرِّئَاسَاتُ حَتَّىٰ تَتَمَكَّنَ مِنَ القَلْبِ الغَفْلَةُ، وَرُؤْيَةُ الخَلْقِ، وَنِسْيَانُ الحَقِّ، فَحِينَئِذٍ تُطْلَبُ الرِّئَاسَةُ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيا.

٨٢٨ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ النَّاسَ عَجَبًا، حَتَّىٰ مَنْ يَتَزَيّا بِالْعِلْمِ: إِنْ رَآنِي أَمْشِي وَحْدِي؛ أَنْكَرَ عَلَيَّ، وَإِنْ رآنِي أَزُورُ فَقِيرًا؛ عَظَّمَ ذٰلِكَ، وَإِنْ رَآنِي أَنْبَسِطُ بِتَبَسُّمٍ؛ نَقَصْتُ مِنْ عَيْنِهِ. **فَقُلْتُ**: فَوَا عَجَبًا! هٰذِهِ كَانَتْ طَرِيقَ الرَّسولِ ﷺ والصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، فَصَارَتْ أَحْوَالُ الخَلْقِ نَوَامِيسَ لإِقَامَةِ الجَاهِ. لا جَرَمَ[٥] وَاللهِ سَقَطْتُمْ مِنْ عَيْنِ الحَقِّ، فَأَسْقَطَكُمْ مِنْ عَيْنِ الخَلْقِ.

٨٢٩ - فَكَمْ مِمَّنْ يَتْعَبُ فِي تَرْبِيَةِ نَامُوسٍ؛ وَلا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَحْظَىٰ بِمُرَادِهِ، وَيَفُوتُهُ المُرَادُ الأَكْبَرُ.

فَالْتَفِتُوا إِخْوَانِي إِلَىٰ إِصْلَاحِ النِّيَّاتِ، وَتَرْكِ التَّزَيُّنِ لِلْخَلْقِ! وَلْتَكُنْ عُمْدَتُكُمُ الاسْتِقَامَةَ مَعَ الْحَقِّ؛ فَبِذٰلِكَ صَعِدَ السَّلَفُ وَسَعِدوا. وَإِيَّاكُمْ وَمَا النَّاسُ عَلَيْهِ اليَوْمَ؛ فَإِنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ يَقَظَةِ السَّلَفِ نَوْمٌ.

---

(١) هو الإمام الحافظ سيد العلماء، أحد صغار التابعين (٦٨ - ١٣١هـ).
(٢) التعمل: بالمعاملة، والتخلية والتحلية.
(٣) **اللقاط**: جمع ما يتبقى من السنابل المنثورة بعد الحصاد في الحقل.
(٤) **النوى**: بزور التمر.
(٥) **لا جرم**: لا بد، حقًا.

١٨٠ - فصل: اعملوا فكل ميسر لما خلق له

٨٣٠ ـ وَاللهِ؛ ما يَنْفَعُ تَأْدِيبُ الوَالِدِ إِذَا لَمْ يَسْبِقِ اخْتِيَارُ الخَالِقِ لِذٰلِكَ الوَلَدِ! فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ شَخْصًا رَبَّاهُ مِنْ طُفُولَتِهِ، وَهَدَاهُ إِلَىٰ الصَّوَابِ، وَدَلَّهُ عَلَىٰ الرَّشَادِ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ مَا يَصْلُحُ، وَصَحَّبَهُ مَنْ يَصْلُحُ، وَيَغَّضَ إِلَيْهِ ضِدَّ ذٰلِكَ، وَقَبَّحَ عِنْدَهُ سَفْسَافَ الأُمُورِ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْقَبَائِحِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ.

٨٣١ ـ وَإِذَا أَبْغَضَ شَخْصًا؛ تَرَكَهُ دَائِمَ التَّعْثِيرِ، مُتَخَبِّطًا فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَمْ يَخْلُقْ لَهُ هِمَّةً لِطَلَبِ الْمَعَالِي، وَشَغَلَهُ بِالرَّذَائِلِ عَنِ الْفَضَائِلِ، وَإِنْ قَالَ: لِمَ خُصِصْتَ بِهٰذَا؟! قَالَ الخِطَابُ الَّذِي لا يُجَابُ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

١٨١ - فصل: وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟

٨٣٢ ـ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلِيلِ عَلَىٰ وُجُودِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ هٰذِهِ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ الْمُمَيِّزَةُ، الْمُحَرِّكَةُ لِلْبَدَنِ عَلَىٰ مُقْتَضىٰ إِرَادَتِهَا، وَ[الَّتِي] دَبَّرَتْ مَصَالِحَهَا، وَتَرَقَّتْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الأَفْلَاكِ، وَاكْتَسَبَتْ مَا أَمْكَنَ تَحْصِيلُهُ مِنَ الْعُلُومِ، وَشَاهَدَتِ الصَّانِعَ فِي الْمَصْنُوعِ؛ فَلَمْ يَحْجُبْهَا سِتْرٌ، وَإِنْ تَكَاثَفَ! [وَ] لا يُعْرَفُ مَعَ هٰذَا مَاهِيَّتُهَا، وَلَا كَيْفِيَّتُهَا، وَلَا جَوْهَرُهَا، وَلَا مَحَلُّهَا[1]، وَلا يُفْهَمُ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ؟ وَلَا يُدْرَىٰ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ وَلَا كَيْفَ تَعَلَّقَتْ بِهٰذَا الجَسَدِ؟

وَهٰذَا كُلُّه يُوجِبُ عَلَيْهَا أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا وَخَالِقًا، وَكَفَىٰ بِذٰلِكَ دَلِيلًا عَلَيْهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ وُجِدَتْ بِهَا؛ لَمَا خَفِيَتْ أَحْوَالُهَا عَلَيْهَا. فَسبحانَهُ سبحانَه.

١٨٢ - فصل: العلماء حفظة الشريعة

٨٣٣ ـ سُبْحَانَ مَنْ مَنَّ عَلَىٰ الخَلْقِ بِالْعُلَمَاءِ الْفُقَهَاءِ، الَّذِينَ فَهِمُوا مَقْصُودَ الْأَمْرِ وَمُرَادَ الشَّارِعِ؛ فَهُمْ حَفَظَةُ الشَّرِيعَةِ، فَأَحْسَنَ اللهُ جَزَاءَهُمْ.

---

(١) في الأصل: ولا محلها بأشغالها.

٨٣٤ ـ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَجافَاهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَذَاهُ، وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ.

وَلَقَدْ تَلَاعَبَ بِأَهْلِ الجَهْلِ وَالْقَلِيلِي الفَهْمِ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ تَلَاعُبِهِ أَنْ حَسَّنَ لِأَقْوَامٍ تَرْكَ العِلْمِ، ثُمَّ لَمْ يَقْنَعُوا بِهٰذَا حَتَّىٰ قَدَحُوا فِي المُتَشَاغِلِينَ بِهِ، وَهٰذَا ـ لَوْ فَهِمُوهُ ـ قَدْحٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بَلِّغوا عنِّي»[1]، وَقَدْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ ﷻ: ﴿بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ فَإِذَا لَمْ يَتَشَاغَلْ بِالْعِلْمِ؛ فَكَيْفَ يُبَلِّغُ الشَّرِيعَةَ إِلَىٰ الخَلْقِ؟!

٨٣٥ ـ وَلَقَدْ نُقِلَ مِثْلُ هٰذَا عَنْ كِبَارِ الزُّهَّادِ؛ كَبِشْرٍ الحَافِي! فَإِنَّهُ قَالَ لِعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْعَظِيمِ: لَا تُجَالِسْ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ[2]. وَقَالَ لِإِسْحَاقَ بْنِ الضَّيْفِ[3]: إِنَّكَ صَاحِبُ حَدِيثٍ؛ فَأُحِبُّ أَنْ لَا تَعُودَ إِلَيَّ. ثُمَّ اعْتَذَرَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الحَدِيثُ فِتْنَةٌ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ، وَإِذَا لَمْ يُعْمَلْ بِهِ؛ فَتَرْكُهُ أَفْضَلُ.

وَهٰذَا عَجَبٌ مِنْهُ! مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ طُلَّابَهُ لا يُرِيدُونَ اللهَ بِهِ، وَأَنَّهُم لَا يَعْمَلُونَ بِهِ؟! أَوَ لَيْسَ العَمَلُ بِهِ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: **عَمَلٌ بِمَا يَجِبُ**، وَذٰلِكَ لا يَسَعُ أَحَدًا تَرْكُهُ. وَالثَّانِي: **نَافِلَةٌ**، وَلَا يَلْزَمُ، وَالتَّشَاغُلُ بِالْحَدِيثِ أَفْضَلُ مِنَ التَّنَفُّلِ بِالصَّوْمِ والصَّلَاةِ. وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا طَرِيقَهُ فِي دَوَامِ الْجُوعِ وَالتَّهَجُّدِ، وَذٰلِكَ شَيْءٌ لَا يُلَامُ تَارِكُه.

فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ لَا يُوغلَ فِي عُلُومِ الحَدِيثِ؛ فَهٰذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ أَقْسَامِهِ مَحْمُودَةٌ. أَفَتَرىٰ لَوْ تَرَكَ النَّاسُ طَلَبَ الحَدِيثِ؛ كَانَ بِشْرٌ يُفْتِي؟! فَاللهَ اللهَ فِي الْالْتِفَاتِ إِلَىٰ قَوْلِ مَنْ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَلَا يَهُوْلَنَّكَ تَعْظِيمُ اسْمِهِ؛ فاللهُ يَعْفُو عَنْهُ.

١٨٣ - فصل: العاقل من يحفظ جانب الله ﷻ

٨٣٦ ـ العَاقِلُ مَنْ يَحْفَظُ جَانِبَ الله ﷻ، وَإِنْ غَضِبَ الخَلْقُ. وَكُلُّ مَنْ يَحْفَظُ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) عباس بن عبد العظيم بن إسماعيل بن توبة العنبري البصري، كان ثقة مأمومًا، توفي سنة (٢٤٦هـ).

(٣) هو إسحاق بن الضيف الباهلي، أبو يعقوب العسكري البصري، نزيل مصر. ذكره ابن حبان في الثقات، ترجمته في التهذيب (٤٤٣).

جَانِبَ الْمَخْلُوقِيْنَ، وَيُضَيِّعُ حَقَّ الخَالِقِ؛ يُقَلِّبُ اللهُ قَلْبَ الَّذِي قَصَدَ أَنْ يُرْضِيَهُ، فَيُسْخِطُهُ عَلَيْهِ.

٨٣٧ ـ قَالَ المأْمُونُ[١] لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لا تَعْصِ اللهَ بِطَاعَتِي؛ فَيُسَلِّطُنِي عَلَيْكَ.

٨٣٨ ـ وَلَمَّا بَالَغَ طَاهِرُ بْنُ الحُسَيْنِ فِيمَا فَعَلَ بِالأَمِينِ[٢]، وَفَتَكَ بِهِ، وَصَلَبَ رَأْسَه، وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ عَنْ إِرَادَةِ المَأْمُونِ، وَلٰكِنْ بَقِيَ أَثَرُ ذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ، فَكَانَ المَأْمُونُ لا يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ.

وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَبَكَىٰ المَأْمُونُ، **فَقَالَ لَهُ طَاهِرٌ**: لِمَ تَبْكِي ـ لَا أَبْكَىٰ اللهُ عَيْنَكَ ـ فَلَقَدْ دَانَتْ لَكَ البِلَادُ؟ **فَقَالَ**: أَبْكِي لِأَمْرٍ ذِكْرُهُ ذُلٌّ، وَسِرُّهُ حُزْنٌ، وَلَنْ يَخْلُوَ أَحَدٌ مِنْ شَجَنٍ. فَلَمَّا خَرَجَ طَاهِرٌ؛ أَنْفَذَ إِلَىٰ حُسَيْنٍ الخَادِمِ مِئَتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَسْأَلَ المَأْمُونَ: لِمَ بَكَىٰ؟

فَلَمَّا تَغَدَّىٰ المَأْمُونُ؛ **قَالَ**: يَا حُسَيْنُ! اسْقِنِي. **قَالَ**: لَا وَاللهِ؛ لَا أَسْقِيكَ حَتَّىٰ تَقُولَ لِمَ بَكَيْتَ حِينَ دَخَلَ عَلَيْكَ طَاهِرٌ؟ قَالَ: يَا حُسَيْنُ! وَكَيْفَ عُنِيتَ بِهٰذَا حَتَّىٰ سَأَلْتَ عَنْهُ؟ قَالَ: لِغَمِّي بِذٰلِكَ. **قَالَ**: يَا حُسَيْنُ! أَمْرٌ: إِنْ خَرَجَ مِنْ رَأْسِكَ؛ قَتَلْتُكَ. **قَالَ**: يَا سَيِّدِي! وَمَتَىٰ أَخْرَجْتُ لَكَ سِرًّا؟ **قَالَ**: إِنِّي ذَكَرْتُ أَخِي مُحَمَّدًا، وَمَا نَالَهُ مِنَ الذِّلَّةِ، فَخَنَقَتْنِي العَبْرَةُ، فَٱسْتَرَحْتُ إِلَىٰ إِفَاضَتِهَا، وَلَنْ يَفُوتَ طَاهِرًا مِنِّي مَا يَكْرَهُ.

فَأَخْبَرَ حُسَيْنٌ طَاهِرًا بِذٰلِكَ، فَرَكِبَ طَاهِرٌ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، **فَقَالَ لَهُ**: إِنَّ المَعْرُوفَ عِنْدِي لَيْسَ بِضَائِعٍ؛ فَغَيِّبْنِي عَنْ عَيْنِهِ، **قَالَ**: سَأَفْعَلُ. فَدَخَلَ عَلَىٰ المَأْمُونِ، **فَقَالَ**: مَا بِتُّ البَارِحَةَ. **قَالَ**: وَلِمَ؟ **قَالَ**: لِأَنَّكَ وَلَّيْتَ غَسَّانَ بْنَ عَبَّادٍ خُرَاسَانَ، وَهُوَ وَمَنْ مَعَهُ أَكَلَةُ رَأْسٍ، فَأَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ خَارِجٌ مِنَ التُّرْكِ فَيَصْطَلِمَهُ[٣]. **قَالَ**: فَمَنْ تَرَىٰ؟ **قَالَ**: طَاهِرَ بْنَ الحُسَيْنِ. فَعَقَدَ لَهُ، فَمَضَىٰ.

---

(١) عبد الله بن هارون الرشيد، سابع الخلفاء العباسيين (١٧٠ ـ ٢١٨هـ).

(٢) محمد بن هارون الرشيد، وأمه زبيدة (١٧٠ ـ ١٩٨هـ) الخليفة السادس من خلفاء بني العباس خلع أخاه من ولاية العهد فاقتتلا، وحدثت فتنة عظيمة انتهت بمقتله.

(٣) **يصطلمه**: يستأصله.

فَبَقِيَ مُدَّةً، ثُمَّ قَطَعَ الدُّعَاءَ لِلْمَأْمُونِ عَلَىٰ المِنْبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، **فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ البَرِيْدِ**: مَا دَعَوْتَ لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ. **قَالَ**: سَهْوٌ؛ فَلَا تَكْتُبْ! فَفَعَلَ ذٰلِكَ فِي الجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ، **فَقَالَ لَهُ**: لَا بُدَّ أَنْ أَكْتُبَ؛ لِئَلَّا يَكْتُبَ التُّجَّارُ وَيَسْبِقُونِي. قَالَ: اكْتُبْ. فَكَتَبَ. فَدَعَا المَأْمُونُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي خَالِد، **وَقَالَ**: إِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ عَلَيَّ احْتِيَالُكَ فِي أَمْرٍ طَاهِرٍ، وَأَنَا أُعْطِي اللهَ عَهْدًا؛ إِنْ لَمْ تَشْخَصْ[1] حَتَّىٰ تُوَافِينِي بِهِ كَمَا أَخْرَجْتَهُ مِنْ قَبْضَتِي؛ لَتُذَمَّنَّ عُقْبَاكَ. فَشَخَصَ، وَجَعَلَ يَتَلَوَّمُ[2] فِي الطَّرِيقِ، وَيَعْتَلُّ بِالْمَرَضِ، فَوَصَلَ إِلَىٰ الرَّيِّ وَقَدْ بَلَغَتْهُ وفاةُ طَاهِرٍ.

٨٣٩ ـ قُلْتُ: وَلَمَّا خَرَجَ الرَّاشِدُ[3] مِنْ بَغْدَادَ، وَأَرَادُوا تَوْلِيَةَ المُقْتَفِي[4]؛ شَهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّهُودِ بِأَنَّ الرَّاشِدَ لا يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ، فَنَزَعُوهُ، وَوَلَّوُا المُقْتَفِي، فَبَلَغَنِي أَنَّهُ ذُكِرَ للمُقْتَفِي بَعْضُ الشُّهُودِ، فَذَمَّهُ، وَقَالَ: كَانَ فِيمَنْ أَعَانَ عَلَىٰ أَبِي جَعْفَرٍ[5].

٨٤٠ ـ وَعَلَىٰ ضِدِّ هٰذَا كُلُّ مَنْ يُرَاعِي جَانِبَ الحَقِّ والصَّوَابِ؛ يَرْضَىٰ عَنْهُ مَنْ سَخِطَ عَلَيْهِ.

٨٤١ ـ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي الوَزِيْرُ **ابْنُ هُبَيْرَةَ**[6] أَنَّ **المُسْتَنْجِدَ بِاللهِ**[7] كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ وَلِيُّ عَهْدٍ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتُرَهُ مِنْ أَبِيهِ. **قَالَ**: فَقُلْتُ لِلْوَاصِلِ بِهِ: واللهِ؛ مَا يُمْكِنُنِي أَقْرَؤُه، وَلَا أُجِيبُ عَنْهُ. فَلَمَّا وَلِيَ الخِلَافَةَ؛ دَخَلْتُ عَلَيْهِ، **فَقُلْتُ**: أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِدْقِي وَإِخْلَاصِي أَنِّي مَا خَابَيْتُكَ فِي أَبِيكَ. **فَقَالَ**: صَدَقْتَ؛ أَنْتَ الوَزِيرُ.

٨٤٢ ـ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الأَصْدِقَاءِ أَنَّ قَوْمًا أَلْحَقُوا إِلَىٰ المَخْزَنِ بَعْضَ دَيْنٍ لَهُمْ

---

(١) **تشخص**: تذهب. (٢) **يتلوم**: ينتظر ويتوانى.

(٣) الراشد بالله: أحد الخلفاء العباسيين، أبو جعفر منصور بن الفضل المسترشد بالله (٥٠٢ ـ ٥٣٢هـ) خلعه مسعود بن محمد بن ملكشاه ونصب عمه المقتفي لأمر الله.

(٤) محمد بن أحمد المقتفي لأمر الله (٤٨٩ ـ ٥٥٥هـ): من أعاظم الخلفاء العباسيين.

(٥) أبو جعفر هو الراشد بالله.

(٦) يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني الدوري الحنبلي (٤٩٩ ـ ٥٦٠هـ): كان فقيرًا فاشتغل كاتبًا، ثم ترقى فصار وزيرًا، كان عالمًا عابدًا بارًا بالعلماء، مات مسمومًا، له كتاب (الإفصاح عن معاني الصحاح) في الفقه المقارن.

(٧) الخليفة العباسي أبو المظفر يوسف بن محمد المقتفي (٥١٨ ـ ٥٦٦هـ).

لِيُسْتَخْلَصَ، فَقَالَ المُسْتَرْشِدُ[1] لِصَاحِبِ المَخْزَنِ: خَلِّصْهُ لَهُمْ، وَخُذْ مَا ضَمِنُوا لَنَا! فَأَحْضَرَ ابنَ الرُّطَبِيِّ[2]، وَعَرَضَ الأَمْرَ عَلَيْهِ؟ **فَقَالَ**: هٰذَا أَمْرٌ بِظُلْمٍ، وَمَا أَحْكُمُ فِيهِ. **فَقَالَ**: إِنَّ السُّلْطَانَ قَدْ تَقَدَّمَ[3]. **قَالَ**: مَا أَفْعَلُ؟

فَأَحْضَرَ قَاضِيًا آخَرَ، فَبَتَّ الحُكْمَ، فَأُخْبِرَ الخَلِيفَةُ بِالْحَالِ، **فَقَالَ**: أَمَّا ابْنُ الرُّطَبِيِّ؛ فَيُشْكَرُ عَلَىٰ مَا قَالَ، وَأَمَّا الآخَرُ؛ فَيُعْزَلُ. وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ بَانَ لَهُ أَنَّ الحَقَّ مَا قَالَهُ ابْنُ الرُّطَبِيِّ.

٨٤٣ ـ وَكَذٰلِكَ مَا طَلَبَهُ السُّلْطَانُ[4] مِنْ أَنْ يُلَقَّبَ مَلِكَ المُلُوكِ، فَاسْتَفْتَىٰ الفُقَهَاءَ، فَأَجَازُوا ذٰلِكَ، وَامْتَنَعَ مِنْ إِجَازَتِهِ المَاوَرْدِيُّ[5]، فَعَظُمَ قَدْرُهُ عندَ السلطانِ. وَمِثْلُ هٰذَا إِذَا تُتُبِّعَ كَثِيرٌ.

٨٤٤ ـ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ القَصْدَ لِطَاعَةِ الخَالِقِ، وَإِنْ سَخِطَ المَخْلُوقُ؛ فَإِنَّهُ يَعُودُ صَاغِرًا، وَلَا يُسْخِطَ الخَالِقَ؛ فَإِنَّهُ يُسْخِطُ المَخْلُوقَ، فَيَفُوتُ الحَظَّانِ جَمِيعًا.

١٨٤ - فصل: الأصول والصور

٨٤٥ ـ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الأُصُولِ فِيمَنْ يُخَالِطُه، وَيُعَاشِرُهُ، وَيُشَارِكُهُ، وَيُصَادِقُهُ، وَيُزَوِّجُهُ، أَوْ يَتَزَوَّجُ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي الصُّوَرِ؛ فَإِنَّ صَلَاحَها دَلِيْلٌ عَلَىٰ صَلَاحِ البَاطِنِ.

٨٤٦ ـ أَمَّا **الأُصُولُ**؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَصْلِهِ، وَبَعِيدٌ مِمَّنْ لا أَصْلَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَعْنًىٰ مُسْتَحْسَنٌ، وَإِنَّ المَرْأَةَ الحَسْنَاءَ إِذَا كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ رَدِيءٍ؛ فَقَلَّ أَنْ

---

(١) أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أحمد (٤٨٦ ـ ٥٢٩هـ) الخليفة العباسي قتلته الباطنية.

(٢) أحمد بن سلامة الكرخي الشافعي، أبو العباس، أحد أذكياء العصر، وهو مؤدب الخليفة الراشد توفي سنة (٥٢٧هـ).

(٣) أي أمر.

(٤) هو طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق (٣٨٥ ـ ٤٥٥هـ).

(٥) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي، الفقيه القاضي، الإمام صاحب الحاوي في فقه الشافعية (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ).

تَكُونَ صَيِّنَةً، وَكَذٰلِكَ أَيْضًا المُخَالِطُ وَالصَّدِيْقُ والمُبَاضِعُ[1] والمُعَاشِرُ.

فَإِيَّاكَ أَنْ تُخَالِطَ إِلَّا مَنْ لَهُ أَصْلٌ يَخَافُ عَلَيْهِ الدَّنَسَ؛ فَالغَالِبُ [مَعَهُ] السَّلَامَةُ، وَإِنْ وَقَعَ غَيْرُ ذٰلِكَ؛ كَانَ نَادِرًا.

٨٤٧ ـ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ لِرَجُلٍ: أَشِرْ عَلَيَّ فِيمَن أَسْتَعْمِلُ. فَقَالَ: أَمَّا أَرْبَابُ الدِّيْنِ؛ فَلا يُرِيدُونَكَ[2]، وَأَمَّا أَرْبَابُ الدُّنْيَا؛ فَلا تُرِدْهُم، وَلٰكِنْ عَلَيْكَ بِالأَشْرَافِ؛ فَإِنَّهم يَصُونُونَ شَرَفَهُمْ عَمَّا لا يَصْلُحُ[3].

٨٤٨ ـ وَقَدْ رَوَىٰ أَبُو بَكْرٍ الصُّولِيُّ[4]؛ **قَالَ**: حَدَّثَنِي الحُسَيْنُ بْنُ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ؛ **قَالَ**: دَعَانِي المُعْتَصِمُ[5] يَوْمًا، فَأَدْخَلَنِي مَعَهُ الحَمَّامَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَخَلا بِي، **وَقَالَ**: يَا أَبَا إِسْحَاقَ! فِي نَفْسِي شَيْءٌ أُرِيْدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ: إِنَّ أَخِي المَأْمُونَ اصْطَنَعَ قَوْمًا فَأَنْجَبُوا، وَاصْطَفَيْتُ أَنَا مِثْلَهُمْ فَلَمْ يَنْجُبوا؟ **قُلْتُ**: وَمَنْ هُمْ؟ **قَالَ**: اصْطَنَعَ طَاهِرًا وابْنَهُ[6]، وَإِسْحَاقَ وآلَ سَهْلٍ؛ فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ هُمْ، وَاصْطَنَعْتُ أَنَا الأَفْشِيْنَ[7]؛ فَقَدْ رَأَيْتُ إِلَىٰ مَا آلَ أَمْرُهُ، وَأَشْنَاس[8]؛ فَلَمْ أَجِدْهُ شَيْئًا، وَكذٰلِكَ إِيْتَاخُ وَوَصِيْفٌ. **قُلْتُ**: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! هاهُنَا جَوَابٌ، عَلَيَّ أَمَانٌ مِنَ الغَضَبِ؟ **قَالَ**: لَكَ ذاكَ. **قُلْتُ**: نَظَرَ أَخُوكَ إِلَىٰ الأُصُوْلِ فَاسْتَعْمَلَهَا، فَأَنْجَبَتْ فُرُوعُهَا، وَاسْتَعْمَلْتَ فُرُوعًا لَا أُصُوْلَ لَهَا،

---

(١) **المباضع**: الذي يضارب بماله. (٢) أي: لا يسألونك الرئاسة.

(٣) قال الأستاذ حسن الحكيم: قرأت في صدر مجلس المبعوثان العثماني هذه الأبيات:

كاتَب في السابقِ كسرى قيصَرُ ... بِمَ استقامَ ملككُم والظفَرُ
فَقالَ: قَدْ طَابَ لنا الهناءُ ... بخمسةٍ دامَ بها الولاءُ
إن استشرنا فذوي العقولِ ... وإن نولِّي فذوي الأصولِ
وإن نعاقبْ فعَلَى قدرِ السببِ ... من الذنوبِ لا على قدرِ الغضبِ
ولا نقدّم الشبابَ مطلقًا ... على الشيوخ في ولاءٍ أُطلقا
وليسَ في وعدٍ ولا وعيدِ ... نخالِفُ القولَ على التأكيدِ

(٤) محمد بن يحيى من كبار علماء الأدب، توفي سنة (٣٣٥هـ).

(٥) أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد (١٨٠ ـ ٢٢٧هـ) الخليفة العباسي الثامن كان شجاعًا مهيبًا من فحول بني العباس .

(٦) طاهر بن الحسين وابنه عبد الله وإسحاق وآل سهل هم حاشية المأمون.

(٧) خيذر بن كاووس، من الأمراء الشجعان، اتهم بالكفر، ومات مسجونًا سنة (٢٢٦هـ).

(٨) أشناس وإيتاخ ووصيف: غلمان من الترك جلبهم المعتصم إلى قصره.

فَلَمْ تَنْجُبْ! **فَقَالَ**: يَا أَبَا إِسْحَاقَ! مُقَاسَاةُ مَا مَرَّ بِي طُوْلَ هٰذِهِ المُدّةِ أَهْوَنُ عَليَّ مِنْ هٰذَا الجَوَابِ.

٨٤٩ ـ أَمَّا **الصُّوَرُ**؛ فَإِنّه مَتَىٰ صَحَّتِ البُنْيَةُ، وَلَمْ يَكُنْ فِيْهَا عَيْبٌ؛ فَالغَالِبُ صِحَّةُ البَاطِن، وَحُسْنُ الخُلُقِ، وَمَتَىٰ كَانَ فِيهَا عَيْبٌ؛ فَالْعَيْبُ فِي البَاطِنِ أَيْضًا، فَاحْذَرْ مَنْ بِهِ عَاهَةٌ؛ كالأَقْرَعِ وَالأَعْمَىٰ وَغَيْرِ ذٰلِكَ؛ فَإِنَّ بَوَاطِنَهُمْ فِي الغَالِبِ رَدِية.

٨٥٠ ـ ثُمَّ مَعَ مَعْرِفَةِ أُصُولِ المُخَالِطِ، وَكَمَالِ صُوْرَتِهِ، لَا بُدَّ مِنَ التَّجْرِبَةِ قَبْلَ المُخَالَطَةِ، وَاسْتِعْمَالُ الحَذَرِ لَازِمٌ؛ وَإِنْ كَانَ كَمَا يَنْبَغِي.

١٨٥ - فصل: تحصيل المرادات لا يتم إلا بالاحتيال

٨٥١ ـ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شُغْلُ العَاقِلِ [النَّظَرَ] فِي العَوَاقِبِ، وَالتَّحَرُّزَ، مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ.

وَمِنَ الغَلَطِ **النَّظَرُ فِي الحَالَةِ الحَاضِرَةِ**، المُوَافِقَةِ لِمَعَاشِهِ، وَلِصِحَّةِ بَدَنِه، وَرُبَّمَا لا يَجْرِي لَهُ مَصْحُوبُه[1]؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ عَلَىٰ انْقِطَاعِ ذٰلِكَ، فَيَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِتَغَيُّرِ الأَحْوَالِ.

وَكَذٰلِكَ النَّظَرِ فِي لَذَّةٍ تَفْنَىٰ، وَتَبْقَىٰ تَبِعَتُهَا وَعَارُهَا، وَإِيثَارُ الكَسَلِ وَالدَّعَةِ؛ لِمَا يَجِيءُ بَعْدَهُمَا مِنْ بَقَاءِ الجَهْلِ.

٨٥٢ ـ وَكَذٰلِكَ تَحْصِيْلُ المُرَادَاتِ الّتِي لا تُحَصَّلُ إِلَّا بِالتَّلَطُّفِ فِي الاحْتِيَالِ، خُصُوصًا إِذَا أُرِيْدَ مِنْ ذَكِيٍّ؛ فَإِنَّهُ يَفْطَنُ بِأَقَلِّ تَلْوِيحٍ. فَمَنْ أَرَادَ غَلَبَةَ الذَّكِيِّ؛ دَقَّقَ النَّظَرَ، وَتَلَطَّفَ فِي الاحْتِيَالِ.

٨٥٣ ـ وَقَدْ ذُكِرَ فِي كُتُبِ الحِيَلِ مَا يَشْحَذُ الخَوَاطِرَ، وَأَتَيْنَا بِجُمْلَةٍ مِنْهُ فِي «كِتَابِ الأَذْكِيَاءِ». مِثْلُ مَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَشْرَافِ كَانَ لَا يَقُومُ لِأَحَدٍ، وَلَا يَخْشَىٰ أَحَدًا، فَجَازَ عَلَيْهِ بَعْضُ الوُزَرَاءِ [وَحَيَّا]، فَلَمْ يَرُدَّ وَلَمْ يَقُمْ. فَقَالَ ذَاكَ الوَزِيرُ

---

(١) **مصحوبه**: ما هو فيه من النعمة.

لِرَجُلٍ: أَخْبِرْ فُلانًا أَنِّي قَدْ كَلَّمْتُ أَمِيْرَ المُؤْمِنِينَ فِي حَقِّهِ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِمِئَةِ أَلْف؛ فَلْيَحْضُرْ لِيَقْبِضَهَا. فَأَخْبَرَهُ ذٰلِكَ الرَّجُلُ، **فَقَالَ الشَّرِيْفُ**: إِنْ كَانَ أَمَرَ لِي بِشَيْءٍ؛ فَلْيُنْفِذْهُ لِي، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُ أَنْ يَضَعَ مِنِّي بِالتَّرَدُّدِ عَلَيْهِ.

٨٥٤ ـ فَمَتَىٰ وَقَعَ الْإِنْسَانُ مَعَ ذَكِيٍّ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّزَ مِنْهُ، وَيَسْرِقَ أَغْرَاضَهُ بِصُنُوفِ الاحْتِيَالِ، وَيَنْظُرَ فِيمَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ؛ فَلْيَحْتَرِزْ مِنْهُ؛ كَمَا يَنْظُرُ صَاحِبُ الرُّقْعَةِ النَّقَلاتِ[1].

٨٥٥ ـ وَكَثِيرٌ مِنَ الأَذْكِيَاءِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ أَغْرَاضِهِمْ مِنْ ذَكِيٍّ، فَأَعْطَوْهُ، وَبَالَغُوا فِي إِكْرَامِهِ لِيَصِيدُوهُ؛ فَإِنْ كَانَ قَلِيلَ الفِطْنَةِ؛ وَقَعَ فِي الشَّرَكِ، وَإِنْ كَانَ أَقْوَىٰ مِنْهُمْ ذَكَاءً؛ عَلِمَ أَنَّ تَحْتَ هٰذِهِ الجَنْيَةِ خَبِيئَةً، فَزَادَهُ ذٰلِكَ احْتِرَازًا.

٨٥٦ ـ وَأَقْوَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الاحْتِرَازُ مِنْ مَوْتُورٍ؛ فَإِنَّكَ إِذَا آذَيْتَ شَخْصًا؛ فَقَدْ غَرَسْتَ فِي قَلْبِهِ عَدَاوَةً؛ فَلَا تَأْمَنْ تَفْرِيعَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَىٰ مَا يُظْهِرُ مِنْ وُدٍّ، وَإِنْ حَلَفَ؛ فَإِنْ قَارَبْتَهُ؛ فَكُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرٍ.

٨٥٧ ـ وَمِنَ التَّغَفُّلِ أَنْ تُعَاقِبَ شَخْصًا، أَوْ تُسِيءَ إِلَيْهِ إِسَاءَةً عَظِيمَةً، وَتَعْلَمَ أَنَّ مِثْلَ ذٰلِكَ يُجَدِّدُ الحِقْدَ، فَتَرَاهُ ذَلِيلًا لَكَ طَائِعًا تَائِبًا مُقْلِعًا عَمَّا فَعَلَ، فَتَعُودَ، فَتَسْتَطِيبَهُ، وَتَنْسَىٰ مَا فَعَلْتَ، وَتَظُنَّ أَنَّهُ قَدِ انْمَحَىٰ مِنْ قَلْبِهِ مَا أَسْلَفْتَ؛ فَرُبَّمَا عَمِلَ لَكَ المِحَنَ، وَنَصَبَ لَكَ المَكَايِدَ؛ كَمَا جَرَىٰ لِقَصِيرٍ مَعَ الزَّبَّاءِ، وَأَخْبَارُهُ مَعْرُوفَةٌ[2].

٨٥٨ ـ فَإِيَّاكَ أَنْ تُسَاكِنَ مَنْ آذَيْتَهُ، بَلْ إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ؛ فَمِنْ خَارِجٍ؛ فَمَا تُؤْمَنُ الأَحْقَادُ.

وَمَتَىٰ رَأَيْتَ عَدُوَّكَ فِيهِ غَفْلَةٌ، لا يَثْنِيهِ مِثْلُ هٰذَا؛ فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْسَىٰ عَدَاوَتَكَ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ أَضْمَرْتَ لَهُ جَزَاءً عَلَىٰ قُبْحِ فِعْلِهِ؛ فَحِينَئِذٍ تَقْدِرُ عَلَىٰ بُلُوغِ كُلِّ غَرَضٍ مِنْهُ.

٨٥٩ ـ وَمِنَ الخَوَرِ[3] إِظْهَارُ العَدَاوَةِ لِلْعَدُوِّ. وَمِنْ أَحْسَنِ التَّدْبِيرِ التَّلَطُّفُ

---

(١) نقلات أحجار الشطرنج.

(٢) انظر ذلك في: شرح (مقصورة ابن دريد) للخطيب التبريزي ص(٢٨ ـ ٣٢).

(٣) الخور: الضعف والخوف.

بِالأَعْدَاءِ إِلَىٰ أَنْ يُمْكِنَ كَسْرُ شَوْكَتِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يُمْكِنْ ذَاكَ؛ كَانَ اللُّطْفُ سَبَبًا فِي كَفِّ أَكُفِّهِمْ عَنِ الأَذَىٰ وَفِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِيي لِحُسْنِ فِعْلِكَ، فَيَتَغَيَّرُ قَلْبُهُ لَكَ.

٨٦٠ ـ وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِذَا بَلَغَهُمْ أَنَّ رَجُلًا قَدْ شَتَمَهُمْ؛ أَهْدَوا إِلَيْهِ وَأَعْطَوْهُ؛ فَهُمْ بِالْعَاجِلِ يَكُفُّونَ شَرَّهُ، وَيَحْتَالُونَ فِي تَقْلِيبِ قَلْبِهِ، وَيَقَعُ بِذٰلِكَ لَهُمْ مُهْلَةٌ لِتَدْبِيرِ الحِيَلِ عَلَيْهِ إِنْ أَرَادُوا. وَكَفَىٰ بِالذِّهْنِ النَّاظِرِ إِلَى الْعَوَاقِبِ وَالتَّأَمُّلِ لِكُلِّ مُمْكِنٍ مُؤَدِّبًا.

١٨٦ - فصل: في حفظ السرّ*

٨٦١ ـ رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَتَمَالَكُوْنَ مِنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِمْ؛ فَإِذَا ظَهَرَ؛ عَاتَبُوا مَنْ أَخْبَرُوْا بِهِ. فَوَا عَجَبًا! كَيْفَ ضَاقُوا بِحَبْسِهِ ذَرْعًا، ثُمَّ لَامُوْا مَنْ أَفْشَاهُ؟!

وَفِي الْحَدِيثِ: «**اسْتَعِينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ أُمُورِكُمْ بِالْكِتْمَانِ**»(١).

٨٦٢ ـ وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ النَّفْسَ يَصْعُبُ عَلَيْهَا كَتْمُ الشَّيْءِ، وَتَرَىٰ بِإِفْشَائِهِ رَاحَةً، خُصُوصًا إِذَا كَانَ مَرَضًا أَوْ هَمًّا أَوْ عِشْقًا، وَهٰذِهِ الأَشْيَاءُ فِي إِفْشَائِهَا قَرِيبَةٌ(٢)، إِنَّمَا اللَّازِمُ كِتْمَانُهُ احْتِيَالُ المُحْتَالِ فِيمَا يُرِيدُ أَنْ يُحَصِّلَ بِهِ غَرَضًا؛ فَإِنَّ [مِنْ] سُوءِ التَّدْبِيرِ إِفْشَاءَ ذٰلِكَ قَبْلَ تَمَامِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا ظَهَرَ؛ بَطَلَ مَا يُرَادُ أَنْ يَفْعَلَ، وَلا عُذْرَ لِمَنْ أَفْشَىٰ هٰذَا النَّوْعَ. وَقَدْ **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا؛ وَرَّىٰ بِغَيْرِهِ**(٣).

٨٦٣ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: إِنَّمَا أَحَدِّثُ [مَن أَثِقُ بِهِ]. **قِيْلَ لَهُ**: وَكُلُّ حَدِيثٍ جَاوَزَ الاثْنَيْنِ شَائِعٌ، وَرُبَّمَا لَمْ يَكْتُمْ صَدِيقُكَ، وَكَمْ قَدْ سَمِعْنَا مَنْ يُحَدِّثُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْقَبْضِ عَلَىٰ صَاحِبٍ(٤)، فَنَمَّ(٥) الحَدِيثَ إِلَى الصَّاحِبِ، وَهَرَبَ، فَفَاتَ السُّلْطَانَ مُرَادُهُ! وَإِنَّمَا الرَّجُلُ الحَازِمُ الَّذِي لا يَتَعَدَّاهُ سِرُّهُ، وَلا يُفْشِيْهِ إِلَىٰ أَحَدٍ.

---

(١) رواه ابن حبان في روضة العقلاء ص(١٨٧)، والسهمي في تاريخ جرجان ص(١٨٢) عن أبي هريرة.

(٢) في الأصل: قرينة، وهو تصحيف.

(٣) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك، **(وارى)** أراد شيئًا وأظهر غيره.

(٤) **صاحب**: وزير.

(٥) **نمّ الحديث**: أشاعه ابتغاء المضرة.

٨٦٤ ـ وَمِنَ العَجْزِ إِفْشَاءُ السِّرِّ إِلَىٰ الْوَلَدِ وَالزَّوْجَةِ، وَالْمَالُ مِنْ جُمْلَةِ السِّرِّ؛ فَاطِّلَاعُهُمْ عَلَيْهِ: إِنْ كَانَ كَثِيرًا؛ فَرُبَّمَا تَمَنَّوْا هَلَاكَ المُوَرِّثِ[1]، وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا؛ تَبَرَّمُوا بِوُجُودِهِ، وَرُبَّمَا طَلَبُوا مِنَ الكَثِيرِ علَىٰ مِقْدَارِ كَثْرَتِهِ، فَأَتْلَفَتْهُ النَّفَقَاتُ.

٨٦٥ ـ وَسَتْرُ المَصَائِبِ مِنْ جُمْلَةِ كِتْمَانِ السِّرِّ؛ لِأَنَّ إِظْهَارَهَا يَسُرُّ الشَّامِتَ، وَيُؤْلِمُ المُحِبَّ.

٨٦٦ ـ وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكْتُمَ مِقْدَارَ السِّنِّ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَبِيرًا؛ اسْتَهْرَمُوهُ، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا؛ احْتَقَرُوهُ.

٨٦٧ ـ وَمِمَّا قَدِ انْهَالَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ المُفَرِّطِيْنَ: أَنَّهُمْ يَذْكُرُوْنَ بَيْنَ أَصْدِقَائِهِمْ أَمِيْرًا أَوْ سُلْطَانًا، فَيَقُولُونَ فِيهِ، فَيَبْلُغُ ذٰلِكَ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ سَبَبَ الهَلَاكِ. وَرُبَّمَا رَأَىٰ الرَّجُلُ مِنْ صَدِيقِهِ إِخْلاصًا وَافِيًا، فَأَشَاعَ سِرَّهُ. وَقَدْ قِيْلَ[2]:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً ... وَاحْـذَرْ صَـدِيـقَـكَ أَلْـفَ مَـرَّهْ

فَـلَـرُبَّـمَـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيْـ ... ـقُ فَـكَـانَ أَدْرَىٰ بِـالْـمَـضَـرَّهْ

٨٦٨ ـ وَرُبَّ مُفْشٍ سِرَّهُ إِلَىٰ زَوْجَةٍ أَوْ صَدِيْقٍ، فَيَصِيْرُ بِذٰلِكَ رَهِيْنًا عِنْدَهُ، وَلَا يَتَجَاسَرُ أَنْ يُطَلِّقَ الزَّوْجَةَ، وَلَا أَنْ يَهْجُرَ الصَّدِيْقَ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَظْهَرَ سِرُّهُ القَبِيْحُ.

فَالْحَازِمُ مَنْ عَامَلَ النَّاسَ بِالظَّاهِرِ، فَلَا يَضِيْقُ [صَدْرُهُ بِسِرِّهِ][3]؛ فَإِنْ فَارَقَتْهُ امْرَأَةٌ أَوْ صَدِيقٌ أَوْ خَادِمٌ؛ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ فِيهِ مَا يَكْرَهُ.

٨٦٩ ـ وَمِنْ أَعْظَمِ الْأَسْرَارِ الخَلَواتُ؛ فَلْيَحْذَرِ الحَازِمُ فِيهَا مِنَ الانْبِسَاطِ بِمَرْأًى مِنْ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ خُلِقَ لَهُ عَقْلٌ ثَاقِبٌ؛ دَلَّهُ عَلَىٰ الصَّوَابِ قَبْلَ الوَصَايَا.

١٨٧ - فصل: ما رأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم!

٨٧٠ ـ ما رَأَيْتُ أَصْعَبَ علَىٰ النَّفْسِ مِنَ الحِفْظِ لِلْعِلْمِ وَالتَّكْرَارِ [لَهُ]، خُصُوْصًا

---

(١) في الأصل: الموروث.

(٢) البيتان لعلي بن عيسى، انظر: محاضرات الراغب (٣/ ٢٨).

(٣) في الأصل: فلا يضيق سِرُّه في صدره.

تَكْرَارَ مَا لَيْسَ لَهَا فِي تَكْرَارِهِ وَحِفْظِهِ حَظٌّ؛ مِثْلُ مَسَائِلِ الفِقْهِ؛ بِخِلَافِ الشِّعْرِ والسَّجْعِ؛ فَإِنَّ لَهَا لَذَّةً فِي إِعَادَتِهِ، وَإِنْ كَانَ يَصْعُبُ؛ لِأَنَّهَا تَلْتَذُّ بِهِ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ؛ فَإِذَا زَادَ التَّكْرَارُ؛ صَعُبَ عَلَيْهَا، وَلٰكِنْ دُوْنَ صُعُوبَةِ الفِقْهِ وَغَيْرِهِ مِنَ المُسْتَحْسَنَاتِ عِنْدَ الطَّبْعِ، فَتَرَاهَا تَخْلُدُ إِلَىٰ الحَدِيثِ وَالشِّعْرِ وَالتَّصَانِيفِ والنَّسْخِ؛ لِأَنَّهُ يَمُرُّ بِهَا كُلَّ لَحْظَةٍ مَا لَمْ تَرَهُ؛ فَهُوَ فِي الْمَعْنَىٰ كَالمَاءِ الجَارِي؛ لِأَنَّهُ جُزْءٌ بَعْدَ جُزْءٍ، وَكَذَا مَنْ يَنْسَخُ مَا يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَهُ أَوْ يُصَنِّفُ، فَإِنَّهُ يَلْتَذُّ بِالْجِدَّةِ، وَيَسْتَرِيحُ مِنْ تَعَبِ الإِعَادَةِ.

٨٧١ ـ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ جُلُّ زَمَانِهِ لِلْإِعَادَةِ، خُصُوْصًا الصَّبِيَّ وَالشَّابَّ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَقِرُّ المَحْفُوْظُ عِنْدَهُمَا اسْتِقْرَارًا لا يَزُوْلُ، وَيَجْعَلُ أَوْقَاتَ التَّعَبِ مِنَ الإِعَادَةِ لِلنَّسْخِ، وَيَحْذَرُ مِنْ تَفَلُّتِهَا إِلَىٰ النَّسْخِ عِنْدَ الإِعَادَةِ، فَيَقْهَرُهَا؛ فَإِنَّهُ يَحْمَدُ ذٰلِكَ حَمْدَ السُّرَى وَقْتَ الصَّبَاحِ[1].

وَسَيَنْدَمُ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ نَدَمَ **الكُسَعِيِّ**[2] وَقْتَ الحَاجَةِ إِلَىٰ النَّظَرِ وَالْفَتْوَىٰ.

٨٧٢ ـ وَفِي الحِفْظِ نُكْتَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُلْحَظَ، وَهُوَ أَنَّ الفَقِيهَ يَحْفَظُ الدَّرْسَ وَيُعِيْدُهُ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ فَيَنْسَاهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ زَمَانٍ آخَرَ لِحِفْظِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْكِمَ الحِفْظَ، وَيُكْثِرَ التَّكْرَارَ؛ لِيُثَبِّتَ قَاعِدَةَ الحِفْظِ.

١٨٨ - فصل: العزلة إنما هي للعَالِم والزاهد

٨٧٣ ـ مَا أَعْرِفُ نَفْعًا كَالْعُزْلَةِ عَنِ الخَلْقِ، خُصُوصًا لِلْعَالِمِ وَالزَّاهِدِ؛ فَإِنَّكَ لا تَكَادُ تَرَىٰ إِلَّا شَامِتًا بِنَكْبَةٍ، أَوْ حَسُودًا عَلَىٰ نِعْمَةٍ، أَوْ مَنْ يَأْخُذُ عَلَيْكَ غَلَطَاتِكَ!

فَيَا لَلْعُزْلَةِ! مَا أَلَذَّهَا! سَلِمَتْ مِنْ كَدَرِ غِيْبَةٍ، وَآفَاتِ تَصَنُّعٍ، وَأَحْوَالِ المُدَاجَاةِ[3]، وَتَضْيِيعِ الوَقْتِ، ثُمّ خَلا فِيْهَا القَلْبُ بِالْفِكْرِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَلَذٌّ عَنْهُ بِالْمُخَالَطَةِ، فَدَبَّرَ أَمْرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الحِمْيَةِ؛ يَخْلُوْ فِيْهَا المَعْيُ بِالْأَخْلَاطِ فَيُذِيْبُهَا.

---

(١) جاء في المثل: «عند الصباح يحمد القوم السرى» والسرى هو السير في الليل.

(٢) محارب بن قيس الكُسعي، شاعر يضرب به المثل في الندامة، وهو منسوب إلى كُسَع قبيلة في اليمن.

(٣) **المداجاة**: إظهار الصداقة وإبطان العداوة.

٨٧٤ ـ وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا يَصْنَعُ المُخَالِطُ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ حَالَتَهُ الحَاضِرَةَ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ وَكَلَامِهِم، فَيَشْتَغِلُ بِهَا عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ يُرِيْدُ سَفَرًا قَدْ أَزِفَ[1]، فَجَالَسَ أَقْوَامًا، فَشَغَلُوهُ بِالْحَدِيثِ، حَتّى ضَرَبَ البُوقُ[2] وَمَا تَزَوَّدَ!

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي العُزْلَةِ إِلَّا التَّفْكِيرُ فِي زَادِ الرَّحِيلِ، وَالسَّلَامَةُ مِنْ شَرِّ المُخَالَطَةِ؛ كَفى.

٨٧٥ ـ ثُمَّ لا عُزْلَةَ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ إِلَّا **لِلْعَالِمِ وَالزَّاهِدِ**؛ فَإِنَّهُمَا يَعْلَمَانِ مَقْصُودَ العُزْلَةِ، وَإِنْ كَانا لا فِي عُزْلَةٍ.

أَمَّا **العَالِمُ**؛ فَعِلْمُهُ مُؤْنِسُهُ، وَكُتُبُهُ مُحَدِّثُهُ، والنَّظَرُ فِي سِيَرِ السَّلَفِ مُقَوِّمُهُ، والتَّفَكُّرُ فِي حَوَادِثِ الزَّمَانِ السَّابِقِ فُرْجَتُهُ؛ فَإِنْ ترقَّى بِعِلْمِهِ إِلَىٰ مَقَامِ المَعْرِفَةِ الكَامِلَةِ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَتَشَبَّثَ بِأَذْيَالِ مَحَبَّتِهِ: تَضَاعَفَتْ لَذَّاتُهُ، وَاشْتَغَلَ بِهَا عَنِ الأَكْوَانِ وَمَا فِيهَا، فَخَلَا بِحَبِيبِهِ، وَعَمِلَ مَعَهُ بِمُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ.

وكَذَلِكَ **الزَّاهِدُ**؛ تَعبُّدُه أَنِيْسُهُ، وَمَعْبُودُهُ جَلِيْسُهُ؛ فَإِنْ كُشِفَ لِبَصَرِهِ عَنِ المَعْمُوْلِ مَعَهُ؛ غَابَ عَنِ الخَلْقِ، وَغَابُوا عَنْهُ. **إِنَّمَا اعْتَزَلَا مَا يُؤْذِي؛ فَهُمَا فِي الْوَحْدَةِ بَيْنَ جَمَاعَةٍ.**

فَهٰذَانِ رَجُلَانِ قَدْ سَلِمَا مِنْ شَرِّ الخَلْقِ، وَسَلِمَ الخَلْقُ مِنْ شُرُوْرِهِمَا، بَلْ هُمَا قُدْوَةٌ لِلْمُتَعَبِّدِيْنَ، وَعَلَمٌ لِلسَّالِكِيْنَ؛ يَنْتَفِعُ بِكَلَامِهِمَا السَّامِعُ، وَتُجْرِي مَوْعِظَتُهُمَا المَدَامِعَ، وَتَنْتَشِرُ هَيْبَتُهُمَا فِي المَجَامِعِ؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِأَحَدِهِمَا؛ فَلْيُصَابِرِ الخَلْوَةَ، وَإِنْ كَرِهَها؛ لِيُثْمِرَ لَهُ الصَّبْرُ العَسَلَ.

٨٧٦ ـ وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَالِمٍ مُخَالِطٍ لِلْعَالَمِ، خُصُوْصًا لِأَرْبَابِ المَالِ وَالسَّلَاطِيْنِ؛ يَجْتَلِبُ وَيُجْتَلَبُ[3]، [وَيَخْتَلِبُ] ويُخْتَلَبُ[4]؛ فَمَا يَحْصُلُ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيا إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَ مِنْ دِيْنِهِ أَمْثَالُه.

ثُمَّ أَيْنَ الأَنَفَةُ مِنَ الذُّلِّ لِلْفُسَّاقِ؟!

---

(١) **أزف**: دنا واقترب.
(٢) **ضرب البوق**: إيذان بالسفر.
(٣) ينتفع وينفع.
(٤) يَخدَع ويُخدع.

فَالَّذِي لا يُبَالِي بِذٰلِكَ هُوَ الَّذِي لا يَذُوقُ طَعْمَ العِلْمِ، وَلا يَدْرِي مَا المُرَادُ بِهِ، وَكَأَنَّهُ بِهِ وَقَدْ وَقَعَ فِي بَادِيَةٍ جُرُزٍ[1]، وَقَفْرٍ مُهْلِكٍ فِي تِلْكَ البَرَارِي.

٨٧٧ ـ وَكَذٰلِكَ المُتَزَهِّدُ إِذَا خَالَطَ وَخَلَّطَ؛ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ إِلىٰ الرِّيَاءِ وَالتَّصَنُّعِ وَالنِّفَاقِ، فَيَفُوتُهُ الحَظَّانِ؛ لا الدُّنيا ونَعِيْمُهَا تحصُلُ لَهُ، وَلَا الآخِرَةُ. فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ خَلْوَةً حُلْوَةً، وَعُزْلَةً عَنِ الشَّرِّ لَذِيذَةً؛ يَسْتَصْلِحُنَا فِيهَا لِمُنَاجَاتِهِ، وَيُلْهِمُ كُلًّا مِنّا طَلَبَ نَجاتِهِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

١٨٩ - فصل: الاستعداد للموت

٨٧٨ ـ مَا أَبْلَهَ مَنْ لَا يَعْلَمُ مَتىٰ يَأْتِيهِ المَوْتُ؛ وَهُوَ لا يَسْتَعِدُّ لِلِقَائِهِ! وَأَشَدُّ النَّاسِ بَلَهًا وَتَغْفِيلًا مَنْ قَدْ عَبَرَ السِّتِّيْنَ، وَقَارَبَ السَّبْعِينَ ـ فَإِنَّ مَا بَيْنَهُمَا هُوَ مُعْتَرَكُ المَنَايَا، وَمَنْ نَازَلَ المُعْتَرَكَ؛ اسْتَعَدَّ ـ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ غَافِلٌ عَنِ الاسْتِعْدَادِ.

قَالَ الشَّبَابُ: لَعَلَّنَا فِي شَيْبِنَا نَدَعُ الذُّنُوبَ، فَمَا يَقُوْلُ الأَشْيَبُ؟

وَاللهِ؛ إِنَّ الضَّحِكَ مِنَ الشَّيْخِ مَا لَهُ مَعنًى، وَإِنَّ المُزَاحَ مِنْهُ بَارِدُ المَعْنىٰ، وَإِنَّ تَعَرُّضَهِ بِالدُّنْيا ـ وَقَدْ دَفَعَتْهُ عَنْهَا ـ يُضْعِفُ القُوَى، وَيُضْعِفُ الرَّأْيَ. وَهَلْ بَقِيَ لابْنِ سِتِّينَ مَنْزِلٌ؟!

٨٧٩ ـ فَإِنْ طَمِعَ فِي **السَّبْعِينَ**؛ فَإِنَّمَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا بِعَنَاءٍ شَدِيدٍ: إِنْ قَامَ؛ دَفَعَ الأَرْضَ، وَإِنْ مَشَىٰ؛ لَهَثَ، وَإِنْ قَعَدَ؛ تَنَفَّسَ، وَيَرَىٰ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ تَنَاوُلِهَا؛ فَإِنْ أَكَلَ؛ كَدَّ المَعِدَةَ، وَصَعُبَ الهَضْمُ، وَإِنْ وَطِئَ، آذَىٰ المَرْأَةَ، وَوَقَعَ دَنِفًا[2]، لا يَقْدِرُ عَلَىٰ رَدِّ مَا ذَهَبَ مِنَ القُوَّةِ إِلى مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ فَهُوَ يَعِيْشُ عَيْشَ الأَسِيرِ.

٨٨٠ ـ فَإِنْ طَمِعَ فِي **الثَّمَانِيْنَ**؛ فَهُوَ يَزْحَفُ إِلَيْهَا زَحْفَ الصَّغِيْرِ.

وَعَشْرُ الثَّمَانِيْنَ مَنْ خَاضَهَا فَإِنَّ المُلِمَّاتِ فِيْهَا فُنُونُ

---

(١) **الجزر**: القاحلة.

(٢) **الدنف**: الذي أثقله المرض.

٨٨١ ـ فَالعَاقِلُ مَنْ فَهِمَ مَقَادِيْرَ الزَّمَانِ، فَإِنَّهُ فِيمَا قَبْلَ البُلُوغِ صَبِيٌّ، لَيْسَ عَلَىٰ عُمُرِهِ عِيَارٌ[١]؛ إِلَّا أَنْ يُرْزَقَ فِطْنَةً؛ فَفِي بَعْضِ الصِّبْيَانِ فِطْنَةٌ تَحُثُّهُمْ مِنَ الصِّغَرِ عَلَىٰ اكْتِسَابِ المَكَارِمِ والعُلُومِ.

فَإِذَا بَلَغَ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ زَمَانُ المُجَاهَدَةِ لِلْهَوَىٰ، وَتَعَلُّمِ العِلْمِ، فَإِذَا رُزِقَ الأَوْلَادَ؛ فَهُوَ زَمَانُ الكَسْبِ لِلْمُعَامَلَةِ. فَإِذَا بَلَغَ **الْأَرْبَعِينَ**؛ انْتَهَىٰ تَمَامُهُ، وَقَضَىٰ مَنَاسِكَ الأَجَلِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الانْحِدَارُ إِلَىٰ الوَطَنِ.

كَأَنَّ الفَتَىٰ يَرْقَىٰ مِنَ العُمْرِ سُلَّمًا ... إِلَىٰ أَنْ يَجُوزَ الأَرْبَعِيْنَ وَيَنْحَطُّ

فَيَنْبَغِي لَهُ عِنْدَ **تَمَامِ الْأَرْبَعِينَ** أَنْ يَجْعَلَ جُلَّ هِمَّتِهِ التَّزَوُّدَ لِلآخِرَةِ، وَيَكُونَ كُلُّ تَلَمُّحِهِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَأْخُذَ فِي الاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ، وَإِنْ كَانَ الخِطَابُ بِهٰذَا لابْنِ عِشْرِينَ؛ إِلَّا أَنَّ رَجَاءَ التَّدَارُكِ فِي حَقِّ الصَّغِيرِ لا فِي حَقِّ الكَبِيرِ.

٨٨٢ ـ فَإِذَا بَلَغَ **السِّتِّيْنَ**؛ فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الأَجَلِ، وَجَازَ مِنَ الزَّمَنِ[٢]؛ فَلْيُقْبِلْ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَىٰ جَمْعِ زَادِهِ، وَتَهْيِئَةِ[٣] آلاتِ السَّفَرِ، وَلْيَعْتَقِدْ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَحْيَا فِيهِ غَنِيمَةٌ[٤] مَا هِيَ فِي الحِسَابِ؛ خُصُوصًا إِذَا قَوِيَ عَلَيْهِ الضَّعْفُ وَزَادَ؛ فَإِنَّهُ لا مُحَرِّكَ كَهُوَ[٥]. وكُلَّمَا عَلَتْ سِنُّه؛ فَينبغي أن يزيدَ اجتهادُهُ.

٨٨٣ ـ فَإِذَا دَخَلَ فِي عَشْرِ **الثَّمَانِينَ**؛ فَلَيْسَ إِلَّا الوَدَاعُ، وَمَا بَقِيَ مِنَ العُمُرِ إِلَّا أَسَفٌ عَلَىٰ تَفْرِيطٍ، أَوْ تَعَبُّدٌ عَلَىٰ ضَعْفٍ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تامَّةً، تَصْرِفُ عَنَّا رُقَادَ الغَفَلَاتِ، وَعَملًا صَالِحًا نَأْمَنُ مَعَهُ مِنَ النَّدَمِ يَوْمَ الانْتِقَالِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٩٠ - فصل: على العاقل أن يكف عن التطلع إلى ما لا يطيق

٨٨٤ ـ مَا نَهَى السَّلَفُ عَنِ الخَوْضِ فِي الكَلَامِ إِلَّا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ أَنَّ

---

(١) **العيار**: الوزن أو الكيل.
(٢) مضى من العمر أكثره.
(٣) في الأصل: تهييئ.
(٤) في الأصل: لغنيمة.
(٥) أي: كالضعف.

الإِنْسَانَ يُرِيدُ أَنْ يَنْظُرَ مَا لا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ بَصَرُهُ، فَرُبَّمَا تَحَيَّرَ، فَخَرَجَ إِلَىٰ الحَجْبِ.

لِأَنَّا إِذَا نَظَرْنَا فِي **ذَاتِ الْخَالِقِ**؛ حَارَ العَقْلُ، وَبُهِتَ الحِسُّ؛ لِأَنَّهُ لا يَعْرِفُ شَيْئًا لا بِدَايَةَ لَهُ! [و] لا يَعْلَمُ إِلَّا الجِسْمَ وَالْجَوْهَرَ وَالعَرَضَ؛ فَإِثْبَاتُ مَا يَخْرُجُ عَنْ ذَاكَ لا يَفْهَمُهُ.

وَإِنْ نَظَرْنَا فِي أَفْعَالِهِ؛ رَأَيْنَاهُ يُحْكِمُ البِنَاءَ ثُمَّ يَنْقُضُهُ! وَلَا نَطَّلِعُ عَلَىٰ تِلْكَ الحِكْمَةِ. **فَالْأَوْلَىٰ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُفَّ التَّطَلُّعَ إِلَىٰ مَا لا يُطِيْقُ النَّظَرَ إِلَيْهِ.**

وَمَتَىٰ قَامَ العَقْلُ، فَنَظَرَ فِي دَلِيلِ وُجُوْدِ الخَالِقِ بِمَصْنُوعَاتِهِ، وَأَجَازَ بِعْثَةَ نَبِيٍّ، وَاسْتَدَلَّ بِمُعْجِزَاتِهِ؛ كَفَاهُ ذٰلِكَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِمَا قَدْ أُغْنِيَ عَنْهُ.

وَإِذَا قَالَ: القُرْآنُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ كَفَاهُ.

٨٨٥ ـ وَأَمَّا مَنْ تَحَذْلَقَ فَقَالَ: التِّلَاوَةُ هِيَ المَتْلُوُّ أَوْ غَيْرُ المَتْلُوِّ، وَالْقِرَاءَةُ هِيَ المَقْرُوءُ أَوْ غَيْرُ المَقْرُوءِ؛ فَيُضَيِّعُ الزَّمَانَ فِي غَيْرِ تَحْصِيلٍ، وَالْمَقْصُودُ العَمَلُ بِمَا فَهِمَ.

٨٨٦ ـ وَقَدْ حِكِيَ أَنَّ مَلِكًا كَتَبَ إِلَىٰ عُمَّالِهِ فِي البُلْدَانِ: إِنِّي قَادِمٌ عَلَيْكُمْ؛ فَاعْمَلوا كَذَا وَكَذَا! فَفَعَلُوا؛ إِلَّا وَاحِدًا مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُ قَعَدَ يَتَفَكَّرُ فِي الكِتَابِ، **فَيَقُولُ**: أَتُرَىٰ كَتَبَهُ بِمِدَادٍ أَوْ بِحِبْرٍ؟! أَتُرَىٰ كَتَبَهُ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا؟! فَمَا زَالَ يَتَفَكَّرُ حَتَّى قَدِمَ المَلِكُ، وَلَمْ يَعْمَلْ مِمَّا أَمَرَهُ بِهِ شَيْئًا! فَأَحْسَنَ جَوَائِزَ الكُلِّ، وَقَتَلَ هٰذَا.

١٩١ - فصل: لذة العاقل ولذة الجاهل

٨٨٧ ـ لَقَدْ غَفَلَ طُلَّابُ الدُّنْيا عَنِ اللَّذَّةِ فِيْهَا، وَمَا اللَّذَّةُ فِيْهَا؛ [إِلَّا] شَرَفُ العِلْمِ، وَزَهْرَةُ العِفَّةِ، وَأَنَفَةُ الحَمِيَّةِ، وَعِزُّ القَنَاعَةِ، وَحَلَاوَةُ الإِفْضَالِ عَلَى الخَلْقِ.

٨٨٨ ـ فَأَمَّا الالتِذَاذُ **بِالْمَطْعَمِ وَالْمَنْكَحِ**؛ فَشُغْلُ جَاهِلٍ بِاللَّذَّةِ؛ لِأَنَّ ذَاكَ لا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِإِقَامَةِ العِوَضِ فِي البَدَنِ وَالوَلَدِ.

وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي **النِّكَاحِ**؛ وَهِيَ قَبْلَ المُبَاشَرَةِ لا تَحْصُلُ، وَفِي حَالِ المُبَاشَرَةِ قَلَقٌ لا يَثْبُتُ، وَعِنْدَ انْقِضَائِهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ، ثُمَّ تُثْمِرُ الضَّعْفَ فِي البَدَنِ؟!

وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي **جَمْعِ المَالِ** فَضْلًا عَنِ الحَاجَةِ؛ فَإِنَّه مُسْتَعْبِدٌ لِلْخَازِنِ؛ يَبِيْتُ حَذَرًا عَلَيْهِ، وَيَدْعُوْهُ قَلِيْلُهُ إِلىٰ كَثِيرِهِ!

وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي **المَطْعَمِ**؛ وَعِنْدَ الجُوعِ يَسْتَوِي خَشِنُهُ وَحَسَنُهُ؛ فَإِذَا ازْدَادَ الأَكْلُ؛ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ؟!

٨٨٩ ـ قَالَ **عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** ﷺ: بُنِيَتِ الفِتْنَةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ: **النِّسَاءِ**؛ وَهُنَّ فَخُّ إِبْلِيسَ المَنْصُوبُ، **وَالشَّرَابِ**؛ وَهُوَ سَيفُهُ المُرْهَفُ، **وَالدِّينارِ والدِّرْهَمِ**؛ وَهُمَا سَهْمَاهُ المَسْمُومَانِ. فَمَنْ مَالَ إِلَى النِّسَاءِ؛ لَمْ يَصْفُ لَهُ عَيْشٌ، وَمَنْ أَحَبَّ الشَّرَابَ؛ لَمْ يُمَتِّعْ بِعَقْلِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ الدِّيْنَارَ والدِّرْهَمَ؛ كَانَ عَبْدًا لَهُمَا مَا عَاشَ.

١٩٢ - فصل: أصل كل محنة قياس صفات الخالق على صفات المخلوقين

٨٩٠ ـ أَصْلُ كُلِّ مِحْنَةٍ فِي العَقَائِدِ قِيَاسُ أَمْرِ الخَالِقِ عَلَىٰ أَحْوَالِ الخَلْقِ. فَإِنَّ الفَلَاسِفَةَ لَمَّا رَأَوْا إِيجَادَ شَيْءٍ لا مِنْ شَيْءٍ، كَالْمُسْتَحِيلِ فِي العَادَاتِ؛ قَالُوا بِقِدَمِ العَالَمِ! وَلَمَّا عَظُمَ عِنْدَهُمْ فِي العَادَةِ الإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ قَالُوا: إِنَّهُ يَعْلَمُ الجُمَلَ لا التَّفَاصِيلَ! وَلَمَّا رَأَوْا تَلَفَ الأَبْدَانِ بِالْبَلَاءِ؛ أَنْكَرُوا إِعَادَتَهَا، وَقَالُوا: الإِعَادَةُ رُجُوْعُ الأَرْوَاحِ إِلَىٰ مَعَادِنِهَا!

٨٩١ ـ وَكُلُّ مَنْ قَاسَ صِفَةَ الخَالِقِ عَلى صِفَاتِ المخلوقينَ؛ خَرَجَ إِلىٰ الكُفْرِ؛ فَإِنَّ المُجَسِّمَةَ دَخَلُوْا فِي ذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ حَمَلُوا أَوْصَافَهُ عَلَىٰ مَا يَعْقِلُونَ.

وَكَذٰلِكَ تَدْبِيْرُهُ ﷻ؛ **فَإِنَّ مَنْ حَمَلَهُ عَلَىٰ مَا يُعْقَلُ فِي العَادَاتِ؛ رَأَىٰ ذَبْحَ الحَيَوَانِ لا يُسْتَحْسَنُ، والأَمْرَاضَ تُسْتَقْبَحُ، وَقِسْمَةَ الغِنَىٰ لِلْأَبْلَهِ، وَالْفَقْر للجَلْدِ العَاقِلِ أَمْرًا يُنَافِي الحِكْمَةَ.**

٨٩٢ ـ وَهٰذَا فِي الأَوْضَاعِ بَيْنَ الخَلْقِ؛ فَأَمَّا الخَالِقُ سُبْحَانَهُ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ لا يَنْتَهِي إِلى حِكْمَتِهِ. بَلَىٰ؛ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَهُ وُجُوْدُهُ، وَمُلْكُهُ، وَحِكْمَتُهُ؛ فَتَعَرُّضُهُ بِالتَّفَاصِيْلِ عَلَىٰ مَا تَجْرِي بِهِ عَادَاتُ الخَلْقِ جَهْلٌ.

أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ أَوَّلِ المُعْتَرِضِيْنَ ـ وَهُوَ إِبْلِيسُ ـ كَيْفَ نَاظَرَ فَقَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]؟! وَقَوْلُ خَلِيْفَتِهِ ـ وَهُوَ **أبو العَلاءِ المَعَرِّي**[١] ـ:

.... **رَأَىٰ مِنْكَ مَا لا يَشْتَهِي فَتَزَنْدَقَا**

وَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ تَوْفِيقًا لِلتَّسْلِيم، وَتَسْلِيمًا لِلْحَكِيْم، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. أَتُرَىٰ نَقْدِرُ عَلَىٰ تَعْلِيلِ أَفْعَالِهِ فَضْلًا عَنْ مُطَالَعَةِ ذَاتِهِ؟!

وَكَيْفَ نَقِيْسُ أَمْرَهُ عَلَىٰ أَحْوَالِنَا؟! فَإِذَا رَأَيْنَا نَبِيَّنَا ﷺ يَسْأَلُ فِي أُمِّهِ[٢] وَعَمِّهِ[٣]؛ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ، وَيَتَقَلَّبُ جَائِعًا؛ وَالدُّنيا مُلْكُ يَدِهِ، وَيُقْتَلُ أَصْحَابُهُ؛ وَالنَّصْرُ بِيَدِ خَالِقِهِ؛ أَوَلَيْسَ هٰذَا مِمَّا يُحَيِّرُ؟! فَمَا لَنَا وَالاعْتِرَاضَ عَلَىٰ مَالِكٍ قَدْ ثَبَتَتْ حِكْمَتُهُ واسْتَقَرَّ مُلْكُهُ؟!

١٩٣ - فصل: كل نفيس يكثر التعب في تحصيله

٨٩٣ ـ **تَأَمَّلْتُ** عَجَبًا، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفِيسٍ خَطِيرٍ يَطُوْلُ طَرِيقُهُ، وَيَكْثُرُ التَّعَبُ فِي تَحْصِيلِهِ. فَإِنَّ **العِلْمَ** لَمَّا كَانَ أَشْرَفَ الأَشْيَاءِ؛ لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا بِالتَّعَبِ وَالسَّهَرِ وَالتَّكْرَارِ، وَهَجْرِ اللَّذَّاتِ والرَّاحَةِ، حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الفُقَهَاءِ: بَقِيْتُ سِنِيْنَ أَشْتَهِي الهَرِيْسَةَ[٤] لَا أَقْدِرُ؛ لِأَنَّ وَقْتَ بَيْعِهَا وَقْتُ سَمَاعِ الدَّرْسِ!

وَنَحْوُ هٰذَا **تَحْصِيْلُ المَالِ**؛ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ المُخَاطَرَاتِ وَالْأَسْفَارِ والتَّعَبِ الكَثِيرِ. وَكَذٰلِكَ **نَيْلُ الشَّرَفِ بِالْكَرَمِ والْجُوْدِ**؛ فَإِنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَىٰ جِهَادِ النَّفْسِ فِي بَذْلِ

---

(١) أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي (٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ): شاعر فيلسوف موسوعي المعرفة، عجيب الحفظ، ولد ومات في المعرة في بلاد الشام.

(٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن الله» رواه مسلم (٩٧٦).

(٣) عن المسيب بن حزن: أن النبي ﷺ قال لما توفي عمه أبو طالب: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، ونزل قوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٤) قمح مهروس يسلق مع اللحم.

المَحْبُوبِ، وَرُبَّمَا آلَ إِلىٰ الفَقْرِ. وَكَذٰلِكَ **الشَّجَاعَةُ**؛ فَإِنَّهَا لا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْمُخَاطَرَةِ بِالنَّفْسِ. قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

لَوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الجُوْدُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

٨٩٤ ـ وَمِنْ هٰذَا الفَنِّ تَحْصِيْلُ **الثَّوَابِ فِي الآخِرَةِ**؛ فَإِنَّهُ يَزِيدُ عَلَىٰ قُوَّةِ الاجْتِهَادِ وَالتَّعَبُّدِ، أَوْ عَلَىٰ قَدْرِ وَقْعِ المَبْذُولِ مِنْ المَالِ فِي النَّفْسِ، أَوْ عَلَى قَدْرِ الصَّبْرِ عَلَىٰ فَقْدِ المَحْبُوْبِ، وَمَنْعِ النَّفْسِ مِنَ الجَزَعِ.

وَكَذٰلِكَ **الزُّهْدُ**، يَحْتَاجُ إِلى صَبْرٍ عَنِ الْهَوَىٰ. **والعفافُ** لَا يَكُونُ إِلَّا بِكَفِّ كَفِّ الشَّرَهِ. وَلَوْلَا مَا عَانَىٰ يُوْسُفُ عليه السلام؛ مَا قِيْلَ لَهُ: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

٨٩٥ ـ وَلِلَّهِ أَقْوَامٌ مَا رَضُوْا مِنَ الفَضَائِلِ إِلَّا بِتَحْصِيلِ جَمِيْعِهَا؛ فَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي كُلِّ عِلْمٍ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي كُلِّ عَمَلٍ، وَيُثَابِرُوْنَ عَلَىٰ كُلِّ فَضِيلَةٍ؛ فَإِذَا ضَعُفَتْ أَبْدَانُهُم عَنْ بَعْضِ ذٰلِكَ؛ قَامَتِ النِّيَّاتُ نَائِبَةً، وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ. وَأَكْمَلُ أَحْوَالِهِمْ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ؛ فَهُمْ يَحْتَقِرُونَهَا مَعَ التَّمَامِ، وَيَعْتَذِرُوْنَ مِنَ التَّقْصِيْرِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَزِيْدُ عَلَىٰ هٰذَا، فَيَتَشَاغَلُ بِالشُّكْرِ عَلَىٰ التَّوْفِيقِ لِذٰلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَرَىٰ مَا عَمِلَ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ لِسَيِّدِهِ.

٨٩٦ ـ وَبِالْعَكْسِ مِنَ المَذْكُورِ مِنْ أَرْبَابِ الاجْتِهَادِ **حَالُ أَهْلِ الكَسَلِ والشَّرَهِ والشَّهَوَاتِ**؛ فَلَئِنْ ٱلْتَذُّوْا بِعَاجِلِ الرَّاحَةِ؛ لَقَدْ أَوْجَبَتْ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ كُلِّ تَعَبٍ مِنَ الأَسَفِ والحَسْرَةِ. وَمَنْ تَلَمَّحَ صَبْرَ يُوسُفَ عليه السلام، وَعَجَلَةَ مَاعِزٍ[2]؛ بَانَ لَهُ الفَرْقُ، وَفَهِمَ الرِّبْحَ مِنَ الخُسْرَانِ! وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ نَيْلَ الدُّرِّ مِنَ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ مُعَانَاةِ الشَّدَائِدِ. وَمَنْ تَفَكَّرَ فِيمَا ذَكَرْتُهُ مَثَلًا؛ بَانَتْ لَهُ أَمْثَالٌ.

٨٩٧ ـ فَالمُوَفَّقُ مَنْ تَلَمَّحَ قِصَرَ المَوْسِمِ المَعْمُولِ فِيهِ، وَامْتِدَادَ زَمَانِ الجَزَاءِ

---

(١) أبو الطيب المتنبي، ديوانه ص(٥٠٥).

(٢) ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاء إلى النبي ﷺ تائبًا معترفًا بذنبه، فأقام عليه النبي ﷺ الحد وقال: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم». انظر: خبره في البخاري (٢١ ـ ٢٩)، ومسلم (١٦٩١ ـ ١٦٩٥).

الَّذِي لا آخِرَ لَهُ، فَانْتَهَبَ[1] حَتَّىٰ اللَّحْظَةَ، وَزَاحَمَ كُلَّ فَضِيلَةٍ؛ فَإِنَّهَا إِذَا فَاتَتْ؛ فَلَا وَجْهَ لاسْتِدْرَاكِهَا. أَوَلَيْسَ فِي الحَدِيْثِ: «**يُقَالُ لِلرَّجُلِ: اقْرَأْ وَارْقَ؛ فَمَنْزِلُكَ عِنْدَ آخِرِ آيةٍ تَقْرَؤُهَا**»[2]؟ فَلَوْ أَنَّ الفِكْرَ عَمِلَ فِي هٰذَا حَقَّ العَمَلِ؛ حَفِظَ القُرْآنَ عَاجِلًا.

١٩٤ - فصل: المؤمن هو الكامل الإيمان

٨٩٨ - لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالَّذِي يُؤَدِّي فَرَائِضَ العِبَادَاتِ صُوْرَةً، وَيَتَجَنَّبُ المَحْظُورَاتِ فَحَسْبُ! إِنَّمَا المُؤْمِنُ هُوَ الكَامِلُ الإِيْمَانِ، ولا يَخْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ، ولا يُسَاكِنُ [نَفْسَهُ] فِيمَا يَجْرِي وَسْوَسَةً، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ البَلَاءُ عَلَيْهِ؛ زَادَ إِيمَانُهُ، وَقَوِيَ تَسْلِيمُهُ، وَقَدْ يَدْعُوْ، فَلَا يَرَىٰ لِلْإِجَابَةِ أَثَرًا؛ وَسِرُّهُ لَا يَتَغَيَّرُ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَمْلُوكٌ، وَلَهُ مَالِكٌ يَتَصَرَّفُ بِمُقْتَضَىٰ إِرَادَتِهِ. فَإِنِ اخْتَلَجَ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ؛ خَرَجَ مِنْ مَقَامِ العُبُودِيَّةِ إِلَىٰ مَقَامِ المُنَاظَرَةِ؛ كَمَا جَرَىٰ لِإِبْلِيسَ.

٨٩٩ - وَالإِيْمَانُ القَوِيُّ يَبِينُ أَثَرُهُ عِنْدَ قُوَّةِ البَلَاءِ. فَأَمَّا إِذَا رَأَيْنَا مِثْلَ يَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا؛ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ فَاجِرٌ، فَيَأْمُرُ بِذَبْحِهِ، فَيُذْبَحُ! وَرُبَّمَا اخْتَلَجَ فِي الطَّبْعِ أَنْ يَقُوْلَ: فَهَلَّا رَدَّ عَنْهُ مَنْ جَعَلَهُ نَبِيًّا؟! وَكَذٰلِكَ كُلُّ تَسَلُّطٍ مِنَ الكُفَّارِ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ والمُؤْمِنِيْنَ؛ وَمَا وَقَعَ رَدٌّ عَنْهُم!

فَإِنْ هَجَسَ بِالفِكْرِ أَنَّ القُدْرَةَ تَعْجِزُ عَنِ الرَّدِّ عَنْهُمْ؛ كَانَ ذٰلِكَ كُفْرًا.

وَإِنْ عَلِمَ أَنَّ القُدْرَةَ مُتَمَكِّنَةٌ مِنَ الرَّدِّ، وَمَا رَدَّتْ، وَيُجَوِّعُ المُؤْمِنِيْنَ، وَيُشْبِعُ الكُفَّارَ، وَيُعَافِي العُصَاةَ، وَيُمْرِضُ المُتَّقِيْنَ؛ لَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْلِيْمُ لِلْمَالِكِ، وَإِنْ أَمَضَّ[3] وَأَرْمَضَ[4].

٩٠٠ - وَقَدْ ذَهَبَ يُوْسُفُ بْنُ يَعْقُوْبَ عليه السلام، فَبَكَىٰ يَعْقُوْبُ ثَمَانِيْنَ سَنَةً، ثُمَّ لَمْ يَيْأَسْ، [فَلَمَّا ذَهَبَ ابنُهُ الآخَرُ]؛ قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

---

(١) رواه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وأحمد (٢/ ١٩٢)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) **أمض**: آلم وأوجع.

(٣) **انتهب**: انتهز.

(٤) **أرمض**: أحرق.

وَقَدْ دَعَا مُوْسَىٰ عليه السلام عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَأُجِيْبَ بَعْدَ أَرْبَعِيْنَ سَنةً؛ وَكَانَ يَذْبَحُ الأَنْبِيَاءَ، وَلا تَرُدُّهُ القُدْرَةُ القَدِيْمَةُ العَظِيْمَةُ، وَصَلَبَ السَّحَرَةَ، وَقَطَعَ أَيْدِيَهم.

٩٠١ ـ وَكَمْ مِنْ بَلِيَّةٍ نَزَلَتْ بِمُعَظَّمِ القَدْرِ؛ فَمَا زَادَه ذٰلِكَ إِلَّا تَسْلِيْمًا ورضًا! فَهُنَاكَ يَبِينُ مَعْنَى قَولِهِ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٨]، وَهَاهُنَا يَظْهَرُ قَدْرُ قوَّةِ الإِيمانِ لا فِي رَكَعاتٍ. قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: اسْتَوَىٰ النَّاسُ في العَافِيَةِ؛ فَإِذَا نَزَلَ البَلَاءُ؛ تَبَايَنُوا.

١٩٥ - فصل: أضر ما على العوام المتكلّمون

٩٠٢ ـ أَضَرُّ مَا عَلَىٰ العَوَامِّ المُتَكَلِّمُوْنَ؛ فَإِنَّهُمْ يُخَلِّطونَ عَقَائِدَهُم بِمَا يَسْمَعُوْنَه مِنْهُم.

مِنْ أَقْبَحِ الأَشْيَاءِ أَنْ يَحْضُرَ العَامِّيُّ ـ الّذي لا يَعْرِفُ أَرْكَانَ الصَّلاةِ، ولا الرِّبا فِي البَيْعِ ـ مَجْلسَ الوعظِ؛ فَلا يَنْهَاهُ عَنِ التَّوَانِي في الصَّلاةِ، وَلا يَعَلِّمُهُ الخَلاصَ مِنَ الرِّبَا، بَلْ يَقُوْلُ لَهُ: القُرْآنُ قَائِمٌ بِالذَّاتِ! وَالّذِيْ عِنْدَنَا مَخْلُوْقٌ!! فَيَهُوْنُ القُرْآنُ عِنْدَ ذٰلِكَ العَامِّيِّ، فَيَحْلِفُ بِهِ عَلَىٰ الكَذِبِ.

٩٠٣ ـ وَيْحَ المُتَكَلِّمِ! لَوْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ؛ لَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تعالى نَصَبَ أَعْلامًا[1] تَأْنَسُ بِهَا النُّفُوْسُ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا؛ كالكَعْبَةِ ـ وَسَمّاهَا بَيْتَهُ ـ، وَالعَرْشِ ـ وذَكَرَ اسْتِوَاءَه عَلَيْهِ ـ، وذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِ اليَدَ، والسَّمْعَ، والبَصَرَ، والعَيْنَ، وَيَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيا، ويَضْحَكُ، وَكُلُّ هٰذَا لِتَأْنَسَ النُّفُوْسُ بِالعَادَاتِ، وَقَدْ جَلَّ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ هٰذِهِ الصِّفَاتُ مِنَ الجَوَارِحِ. وَكَذٰلِكَ عَظَّمَ أَمْرَ القُرْآنِ، وَنَهَىٰ المُحْدِثَ أَنْ يَمَسَّ المُصْحَفَ، فَآلَ الأَمْرُ بِقَوْمٍ مِنَ المُتَكَلِّمِيْنَ إِلَى أَنْ أَجَازُوْا الاسْتِنْجَاءَ بِهِ!! فَهؤلاءِ عَلَىٰ مُعَانَدَةِ الشَّرِيْعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يُهِيْنُوْنَ مَا عَظَّمَ الشَّرْعُ. وَهَلِ الإِيْغَالُ[2] فِي الكَلَامِ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الحَقَائِقِ، الّتِي لا يُمْكِنُ خِلَافُهَا؟! هَيْهَاتَ! لَوْ كَانَ كذٰلِكَ؛ مَا وَقَعَ بَيْنَ المُتَكَلِّمِيْنَ خِلَافٌ.

---

(١) **أعلام**: علامات.

(٢) **الإيغال**: التعمق.

٩٠٤ ـ أَوَلَيْسَ السِّرْبُ الأَوَّلُ مَا تَكَلَّمُوْا فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذَا؛ وَإِنْ كَانُوْا تَعَرَّضوا بِبَعْضِ الأُصُوْلِ؟! ثُمَّ جَاءَ فُقَهَاءُ الأَمْصَارِ، فَنَهَوْا عَنِ الخَوْضِ فِي الكَلَامِ؛ لِعِلْمِهِم مَا يُجْلَبُ وَمَا يُجْتَنَبُ! وَمَنْ لَمْ يقنعْ بِعَقِيْدَةٍ مِثْلِ [عَقِيْدَةِ] الصَّحَابةِ، وَلا بِطَرِيْقٍ مثلِ طَرِيْقِ أَحْمَدَ والشَّافِعِيِّ فِي تَرْكِ الخَوْضِ؛ فَلا كَانَ مَنْ كَانَ.

٩٠٥ ـ ثُمَّ بِاللهِ تَأَمَّلُوْا، أَلَيْسَ قَدْ وَجَبَ عَلَيْنَا هَجْرُ الرِّبا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وهَجْرُ الزِّنا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء ٣٢]؟! فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَنَا فِي ذِكْرِ قِرَاءَةٍ وَمَقْرُوْءٍ، وَتِلَاوَةٍ وَمَتْلُوٍّ، وَقَدِيْمٍ وَمُحْدَثٍ؟!

فَإِنْ قِيْلَ: فَلَا بُدَّ مِن اعْتِقَادِهِ. **قُلْنا: طَرِيْقُ السَّلَفِ أَوْضَحُ مَحَجَّةً؛ لأَنَّا لا نَقُوْلُه تَقْلِيْدًا، بَل بِالدَّلِيْلِ، وَلٰكِنَّا لَمْ نَسْتَفِدْهُ عَنْ جَوْهَرٍ وَعَرَضٍ، وَجُزْءٍ لا يَتَجَزَّأُ، بَلْ بِأَدِلَّةِ النَّقْلِ مَعَ مُسَاعَدَةِ العَقْلِ؛ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ عَمَّا لا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ هٰذَا مَكَانَ الشَّرْحِ.**

١٩٦ - فصل: الأجساد إلى البلى والأرواح إلى راحة

٩٠٦ ـ مَا زِلْتُ عَلىٰ عَادَةِ الخَلْقِ فِي الحُزْنِ عَلىٰ مَنْ يَمُوْتُ مِنَ الأَهْلِ وَالأَوْلَادِ، ولا أَتَخَايَلُ إِلَّا بِلَى[1] الأَبْدَانِ فِي القُبُوْرِ، فَأَحْزَنُ لِذٰلِكَ.

فَمَرَّتْ بِي أَحَادِيْثُ قَدْ كَانَتْ تَمُرُّ بِي، وَلا أَتَفَكَّرُ فِيْهَا، مِنْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: **«إِنَّمَا نَفْسُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَرُدَّهُ اللهُ ﷻ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»**.

فَرَأَيْتُ أَنَّ الرَّحِيْلَ إِلىٰ الرَّاحَةِ، وَأَنَّ هٰذا البَدَنَ لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ مَرْكَبٌ تَفَكَّكَ وفَسَدَ، وسَيُبْنَى جَدِيْدًا يَوْمَ البَعْثِ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَفَكَّرَ في بِلَاهُ، ولْتَسْكُنِ النَّفْسُ إِلىٰ أَنَّ الأَرْوَاحَ انْتَقَلَتْ إِلىٰ رَاحَةٍ، فَلَا يَبْقَىٰ كَبِيْرُ حُزْنٍ، وَأَنَّ اللِّقَاءَ لِلأَحْبَابِ عَنْ قُربٍ.

وَإِنَّما يَبْقَى الأَسَفُ لِتَعَلُّقِ الخَلْقِ بِالصُّوَرِ، فَلا يَرَىٰ الإِنْسَانُ إِلَّا جَسَدًا مُسْتَحْسَنًا قَدْ نُقِضَ، فَيَحْزَنُ لِنَقْضِهِ.

---

(١) تفسّخ.

٩٠٧ ـ وَالجَسَدُ لَيْسَ هُوَ الآدَمِيَّ، وَإِنَّمَا هُوَ مَرْكَبُهُ؛ فَالأَرْوَاحُ لا يَنَالُهَا البِلَى، وَالأَبْدَانُ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ.

وَاعْتَبِرْ هٰذَا بِمَا إِذَا قَلَعْتَ ضِرْسَكَ، وَرَمَيْتَه فِي حُفْرَةٍ؛ فَهَلْ عِنْدَكَ خَبَرٌ مِمّا يَلْقَى فِي مُدَّةِ حَيَاتِكَ؟! فحُكْمُ الأَبْدَانِ حُكْمُ ذٰلِكَ الضِّرْسِ؛ لا تَدْرِي النَّفْسُ ما يَلْقَىٰ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ تَغْتَمَّ بِتَمْزِيْقِ جَسَدِ المَحْبُوْبِ وَبِلَاهُ، وَٱذْكُرْ تَنَعُّمَ الأَرْوَاحِ وقُرْبَ التَّجْدِيْدِ، وَعَاجِلَ اللِّقَاءِ؛ فَإِنَّ الفِكْرَ فِي تَحْقِيقِ هٰذَا يَهُوِّنُ الحُزْنَ، وَيُسَهِّلُ الأَمْرَ.

١٩٧ - فصل: حفظ اللسان

٩٠٨ ـ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلّا يَتَكَلَّمَ فِي الخَلْوَةِ عَنْ أَحَدٍ بِشَيْءٍ، حَتَّى يُمَثِّلَ ذٰلِكَ الشَّيْءَ ظَاهِرًا مُعْلنًا بِهِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِيْمَا يَجْنِي!

فَرُبَّ رَجُلٍ وَثِقَ بِصَدِيْقٍ، فَتَكَلَّمَ أَمَامَهُ عِنْ سُلْطَانٍ بِأَمْرٍ، فَبَلَغَهُ، فَأَهْلَكَهُ. أَوْ عَنْ صَدِيْقٍ، فَبَلَغَهُ، فَوَقَعَتِ الوَاقِعَةُ.

٩٠٩ ـ وَكذٰلِكَ يَنْبَغِي كَتْمُ المَذَاهِبِ؛ فَإِنَّه مَا يَرْبَحُ مُظْهِرُها إِلَّا المُعَادَاةَ. وَلَمّا صَرَّحَ الشَّرِيْفُ أَبُوْ جَعْفَرٍ[١] فِي زَمَانِ المُقْتَدِي[٢] بِمُخَالَفَةِ الأَشَاعِرَةِ[٣]؛ أُخِذَ، وحُبِسَ حَتّى مَاتَ، وَكَانَ المَقْصُوْدُ قَطْعَ الفِتَنِ، وَإِصْلَاحَ الرَّعِيَّةِ؛ فَإِنَّه أَهَمُّ إِلَىٰ السّلْطَانِ مِنَ التَّعَصُّبِ لِمَذْهَبٍ.

---

(١) عبد الخالق بن أبي موسى الهاشمي العباسي، أكبر تلامذة أبي يعلى الفراء (٤١١ ـ ٤٧٠هـ).

(٢) أبو القاسم عبيد الله بن ذخيرة الله بن محمد القائم (٤٤٧ ـ ٤٨٧هـ): الخليفة العباسي، كان حسن السيرة، وافر الحرمة، فيه ديانة ونجابة.

(٣) أتباع أبي الحسن الأشعري. وهم لم يلتزموا بما آل إليه اعتقاده في كتاب (الإبانة) الذي هو آخره كتبه، بل أخذوا منهج المعتزلة وإن خالفوهم في كثير من النتائج، لكن ذلك أدى إلى تسرّب كثيرٍ من آراء المعتزلة والفلاسفة إلى المذهب الأشعري فعند عبد القاهر البغدادي وهو من متقدمي الأشاعرة أن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو رأي المعتزلة وهو رأي مرذول كما صرح بذلك في كتابه (أصول الدين) أما عند متأخري الأشاعرة فأصبح تأويل الاستواء بالاستيلاء هو أحد قوليهم وربما رجحوه! انظر: شرح جوهرة التوحيد للباجوري.

١٩٨ - فصل: حكمة الله أوفى من كل حكيم

٩١٠ ـ رَأَيْتُ كَثِيْرًا مِنَ المُغَفَّلِيْنَ يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ السَّخَطُ بِالأَقْدَارِ، وَفِيْهِم مَنْ قَلَّ إِيْمَانُه، فَأَخَذَ يَعْتَرِضُ! وَفِيْهِم مَنْ خَرَجَ إِلىٰ الكُفْرِ، وَرَأَىٰ أَنَّ ما يَجْرِي كَالْعَبَثِ، وَقَالَ: مَا فَائِدَةُ الإِعْدَامِ بَعْدَ الإِيْجَادِ، وَالابْتِلَاءِ مِمَّنْ هُوَ غَنِيٌّ عَنْ أَذَانَا؟!

فَقُلْتُ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ يَرْمُزُ إِلىٰ هٰذَا: إِنْ حَضَرَ عَقْلُكَ وَقَلْبُكَ؛ حَدَّثْتُكَ، وَإِنْ كُنْتَ تَتَكَلَّمُ بِمُجَرَّدِ وَاقِعِكَ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَإِنْصَافٍ؛ فَالحَدِيْثُ مَعَكَ ضَائِعٌ.

وَيْحَكَ! أَحْضِرْ عَقْلَكَ! وَاسْمَعْ مَا أَقُوْلُ: أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ مَالِكٌ، وَلِلْمَالِكِ أَنْ يَتَصَرَّفَ كَيْفَ يَشَاءُ؟! أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَكِيْمٌ، والحَكِيْمُ لا يَعْبَثُ؟!

وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ فِي نَفْسِكَ مِنْ هٰذِه الكَلِمَةِ شَيْئًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ سَمِعْنا عَنْ جَالِيْنُوْسَ[1] أَنَّه قَالَ: مَا أَدْرِي؛ أَحَكِيْمٌ هُوَ أَمْ لا؟! وَالسَّبَبُ فِي قَوْلِهِ هٰذَا؟ أَنَّه رَأَىٰ نَقْضًا بَعْدَ إِحْكَامَ، فَقَاسَ الحَالَ عَلىٰ أَحْوَالِ الخَلْقِ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ بَنَىٰ ثُمَّ نَقَضَ لا لِمَعْنًى؛ فَلَيْسَ بِحَكِيْمٍ. وَجَوَابُهُ ـ لَوْ كَانَ حَاضِرًا ـ أَنْ يُقَالَ: **بِمَاذَا بَانَ لَكَ أَنَّ النَّقْضَ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ؟ أَلَيْسَ بِعَقْلِكَ الَّذِي وَهَبَهُ الصَّانِعُ لَكَ؟ وَكَيْفَ يَهَبُ لَكَ الذِّهْنَ الكَامِلَ، وَيَفُوْتُهُ هُوَ الكَمَالُ؟!**

٩١١ ـ وَهٰذِهِ هِيَ المِحْنَةُ الَّتي جَرَتْ لإِبْلِيْسَ؛ فَإِنَّهُ أَخَذَ يَعِيْبُ الحِكْمَةَ بِعَقْلِهِ؛ فَلَوْ تَفَكَّرَ؛ عَلِمَ أَنَّ وَاهِبَ العَقْلِ أَعْلَىٰ مِنَ العَقْلِ، وأَنَّ حِكْمَتَهُ أَوْفَى مِنْ كُلِّ حَكِيْمٍ؛ لأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ التَّامَّةِ أَنْشَأَ العُقُوْلَ. فَهٰذَا إِذَا تَأَمَّلَهُ المُنْصِفُ؛ زَالَ عَنْهُ الشَّكُّ. وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَه إِلىٰ نَحْوِ هٰذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]؛ أَيْ: أَجَعَلَ لِنَفْسِهِ النَّاقِصَاتِ، وَأَعْطَاكُمُ الكَامِلِيْنَ؟! فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نُضِيْفَ العَجْزَ عَنْ فَهْمِ مَا يَجْرِي إِلَىٰ نَفْسِنا، وَنَقُوْلَ: هٰذا فِعْلُ عَالِمٍ حَكِيْمٍ، وَلٰكِنْ ما يَبِينُ لَنَا مَعْنَاهُ.

٩١٢ ـ وَلَيْسَ هٰذَا بِعَجَبٍ؛ فَإِنَّ مُوْسَى عليه السلام خَفِيَ عَلَيْهِ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِيْ نَقْضِ

---

(١) كلاوديوس جالينوس (١٣٠ ـ ٢٠١م): أعظم الأطباء في تاريخ الطب من أصل يوناني، أقام في رومة.

السَّفِيْنةِ الصَّحِيْحَةِ، وقَتْلِ الغُلَامِ الجَمِيْلِ، فَلَمَّا بَيَّنَ لَهُ الخَضِرُ وَجْهَ الحِكْمَةِ؛ أَذْعَنَ. فَلْنَكُنْ مَعَ الخَالِقِ كَمُوسَىٰ مَعَ الخَضِرِ.

٩١٣ ـ أَوَلَسْنا نَرَىٰ المَائِدَةَ المُسْتَحْسَنةَ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ فُنُوْنِ الطَّعَامِ النَّظِيْفِ الظَّرِيْفِ يُقْطَعُ ويُمْضَغُ، [وَيَصِيْرُ إِلىٰ مَا نَعْلَمُ]، وَلَسْنا نَمْلِكُ تَرْكَ تِلْكَ الأَفْعَالِ، وَلا نُنْكِرُ الإِفْسَادَ لَهُ؛ لِعِلْمِنا بِالمَصْلَحَةِ البَاطِنَةِ فِيْهِ.

فَمَا المَانِعُ أَنْ يَكُوْنَ فِعْلُ الحَقِّ سُبْحَانَه لَهُ بَاطِنٌ لَا نَعْلَمُهُ؟!

٩١٤ ـ وَمِنْ أَجْهَلِ الجُهَّالِ العَبْدُ المَمْلُوْكُ إِذَا طَلَبَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلىٰ سِرِّ مَوْلَاهُ؛ فَإِنَّ فَرْضَهُ التَّسْلِيْمُ لا الاعْتِرَاضُ. وَلَوْ لَمْ يكنْ فِي الابْتِلَاءِ بِمَا تُنْكِرُهُ الطِّبَاعُ إِلَّا أَنْ يَقْصِدَ إِذْعَانَ العَقْلِ وَتَسْلِيمَهُ؛ لَكَفَى.

٩١٥ ـ وَلَقَدْ **تَأَمَّلْتُ حَالَةً عَجِيْبَةً**، يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ المَقْصُوْدُ بِالمَوْتِ هِيَ، وَذٰلِكَ أَنَّ الخَالِقَ سُبْحَانَهُ فِي غَيْبٍ لا يُدْرِكُهُ الإِحْسَاسُ؛ فَلَوْ أَنَّه لَمْ يَنْقُضْ هٰذِهِ البُنْيَةَ؛ لَتَخَايَلَ لِلإِنْسَانِ أَنَّهُ صُنِعَ لا بِصَانِعٍ؛ فَإِذَا وَقَعَ المَوْتُ؛ عَرَفَتِ النَّفْسُ نَفْسَها، الَّتِي كانَتْ لا تَعْرِفُها؛ لِكَوْنِها فِي الجَسَدِ، وتُدْرِكُ عَجَائِبَ الأُمُوْرِ بَعْدَ رَحِيْلِهَا؛ فَإِذا رُدَّتْ إِلىٰ البَدَنِ؛ عَرَفَتْ ضَرُوْرَةً أَنَّهَا مَخْلُوْقَةٌ لِمَنْ أَعَادَهَا، وَتَذَكَّرَتْ حَالَهَا فِي الدُّنيا ـ فَإِنَّ الأَفْكارَ تُعَادُ كَمَا تُعَادُ الأَبْدَانُ ـ، فَيَقُوْلُ قَائِلُهُم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وَمَتَىٰ رَأَتْ مَا قَدْ وُعِدَتْ بِهِ مِنْ أُمُوْرِ الآخِرَةِ؛ أَيْقَنَتْ يَقِيْنًا لا شَكَّ مَعَهُ ـ وَلا يَحْصُلُ هٰذَا بِإِعَادَةِ مَيِّتٍ سِوَاهَا، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِرُؤْيَةِ هٰذَا الأَمْرِ فِيْهَا ـ، فَتُبْنَى بُنْيَةً تَقْبَلُ البَقَاءَ، وتُسكَنُ جَنَّةً لا يَنْقَضِي دَوَامُهَا، فيَصْلُحُ بِذٰلِكَ اليَقِيْنِ أَنْ تُجَاوِرَ الحَقَّ؛ لِأَنَّهَا آمَنَتْ بِمَا وَعَدَ، وَصَبَرَتْ بِمَا ابْتَلَى، وَسَلَّمَتْ لِأَقْدَارِهِ، فَلَمْ تَعْتَرِضْ، وَرَأَتْ فِي غَيْرِهَا العِبَرَ، ثُمَّ في نَفْسِهَا؛ فَهٰذِهِ هِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ [الفجر].

٩١٦ ـ **فَأَمَّا الشَّاكُّ والكَافِرُ**؛ فَيَحِقُّ لَهُمَا الدُّخُوْلُ إِلىٰ النَّارِ، واللُّبْثُ فِيْهَا؛ لِأَنَّهُمَا رَأَيَا الأَدِلَّةَ، وَلَمْ يَسْتَفِيْدَا، وَنَازَعا الحَكِيْمَ، وَاعْتَرَضَا عَلَيْهِ، فَعَادَ شُؤْمُ كُفْرِهِمَا يَطْمِسُ قلوبَهما، فَبَقِيَتْ عَلىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا لَمْ تَنْتَفِعْ بالدَّلِيْلِ فِي الدُّنْيَا؛ لَمْ

تَنْتَفِعْ بِالمَوْتِ وَالإِعَادَةِ، وَدَلِيْلُ بَقَاءِ الخَبَثِ فِي القُلُوْبِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ عَقْلًا مُسَلِّمًا، يَقِفُ عَلَىٰ حَدِّهِ، ولا يَعْتَرِضُ عَلَىٰ خَالِقِهِ وَمُوْجِدِهِ، ثُمَّ الوَيْلُ لِلْمُعْتَرِضِ! أَيَرُدُّ اعْتِرَاضُهُ الأَقْدَارَ؟! فَما يَسْتَفِيْدُ إِلَّا الخِزْيَ! نَعُوْذُ باللهِ مِمَّنْ خُذِلَ.

١٩٩ - فصل: على المؤمن التصبّر مهما أمكن

٩١٧ ـ لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَنْزَعِجَ مِنْ مَرَضٍ أَوْ نُزُوْلِ مَوْتٍ، وَإِنْ كَانَ الطَّبْعُ لا يُمْلَكُ؛ إِلَّا أَنَّه يَنْبَغِي لَهُ التَّصَبُّرُ مَهْمَا أَمْكَنَ: إِمَّا لِطَلَبِ الأَجْرِ بِمَا يُعَانِي، أَوْ لِبَيَانِ أَثَرِ الرِّضا بِالقَضَاءِ، وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ ثُم تَنْقَضِي.

٩١٨ ـ وَلْيَتَفَكَّرِ المُعَافَى مِنَ المَرَضِ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي كَانَ يَقْلَقُ فِيْهَا: أَيْنَ هِيَ فِي زَمَانِ العَافِيَةِ؟! ذَهَبَ البَلاءُ، وحَصَلَ الثَّوَابُ؛ كَمَا تَذْهَبُ حَلَاوَةُ اللَّذَّاتِ المُحَرَّمَةِ، وَيَبْقَىٰ الوِزْرُ، وَيَمْضِي زَمَانُ التَّسَخُّطِ بِالأَقْدَارِ، وَيَبْقَىٰ العِتَابُ.

وَهَلِ المَوْتُ إِلَّا آلَامٌ تَزِيْدُ، فَتَعْجِزُ النَّفْسُ عَنْ حَمْلِهَا، فَتَذْهَبُ؟! فَلْيَتَصَوَّرِ المَرِيْضُ وُجُوْدَ الرَّاحَةِ بَعْدَ رَحِيْلِ النَّفْسِ، وَقَدْ هَانَ مَا يَلْقَىٰ؛ كَمَا يَتَصَوَّرُ العَافِيَةَ بَعْدَ شُرْبِ الشَّرْبَةِ المُرَّةِ.

٩١٩ ـ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ جَزَعٌ بِذِكْرِ البِلَىٰ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ شَأْنُ المَرْكَبِ[١]، أَمَّا الرَّاكِبُ[٢]؛ فَفِي الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ الاهْتِمَامُ الكُلِّيُّ بِمَا يَزِيْدُ فِي دَرَجَاتِ الفَضَائِلِ، قَبْلَ نُزُوْلِ المُعَوِّقِ عَنْهَا؛ فَالسَّعِيْدُ مِنْ وُفِّقَ لِاغْتِنَامِ العَافِيَةِ، ثُمَّ يَخْتَارُ تَحْصِيْلَ الأَفْضَلِ فَالأَفْضَلِ فِي زَمَنِ الاغْتِنَامِ.

٩٢٠ ـ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ زِيَادَةَ المَنَازِلِ فِي الجَنَّةِ عَلَىٰ قَدْرِ التَّزَيُّدِ مِنَ الفَضَائِلِ هَاهُنا، والعُمُرُ قَصِيْرٌ، وَالفَضَائِلُ كَثِيْرَةٌ؛ فَلْيُبَالِغْ فِي البِدَارِ؛ فَيَا طُوْلَ رَاحَةِ التَّعِبِ! وَيَا فَرْحَةَ المَغْمُوْمِ! وَيَا سُرُوْرَ المَحْزُوْنِ! وَمَتَىٰ تَخَايَلَ دَوَامَ اللَّذَّةِ فِي الجَنَّةِ مِنْ غَيْرِ مُنَغِّصٍ وَلا قَاطِعٍ؛ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ بلاءٍ وشِدَّةٍ.

---

(١) **المركب**: الجسد. (٢) **الراكب**: الروح.

٢٠٠ - فصل: الغفلة المحمودة والغفلة المذمومة

٩٢١ ـ حَضَرْنا يَوْمًا جِنازَةَ شَابٍّ مَاتَ أَحْسَنَ مَا كَانَتِ الدُّنْيا لَهُ؛ فَرَأَيْتُ مِنْ ذَمِّ النَّاسِ للدُّنيا؛ وعَيْبِ مَنْ سَكَنَ إِلَيْهَا؛ والتَّقْبِيحِ لِلغَافِلِيْنَ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لهٰذَا المَصْرَعِ أمرًا كَبِيْرًا مِنَ الحَاضِرِيْنَ، **فَقُلْتُ**: نِعْمَ مَا قُلْتُم، وَلٰكِنِ اسْمَعُوْا مِنِّي مَا لَمْ تَسْمَعُوْهُ:

أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ أَنَّ العَاقِلَ إِذَا عَلِمَ قُرْبَ هٰذَا المَصْرَعِ مِنْهُ؛ أَوْجَبَ عَلَيْهِ عَقْلُهُ البِدارَ بالعَمَلِ، والقَلَقَ مِنَ الخَوْفِ. وَقَد اشْتَدَّ ذٰلِكَ بِأَقْوَامٍ، فَهَامُوْا فِي البَرَارِي، وَطَوَوُا الأَيَّامَ بِالمَجَاعَةِ، وَدَامُوْا عَلىٰ سَهَرِ اللَّيْلِ، وَلازَمُوْا المَقَابِرَ، فَهَلَكُوْا سَرِيْعًا. وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ ما خَافُوْهُ يَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا الفِعْلِ.

وَلٰكِنْ نَرَىٰ **العَقْلَ** الَّذِيْ أَوْجَبَ هٰذا القَلَقَ، قَدْ أَمَرَ بِمَا يُوْجِبُ السُّكُوْنَ، **فَقالَ**: إِنَّمَا خُلِقَ هٰذَا البَدَنُ لِيَحْمِلَ النَّفْسَ، كَمَا تَحْمِلُ النَّاقَةُ الرَّاكِبَ، وَلَا بُدَّ مِنَ التَّلَطُّفِ بِالنَّاقَةِ، لِيَحْصُلَ المَقْصُوْدُ مِنَ السَّيْرِ. وَلَا يَحْسُنُ فِي العَقْلِ دَوَامُ السَّهَرِ، وَطُوْلُ القَلَقِ؛ لِأَنَّهُ يُؤَثِّرُ فِي البَدَنِ، فَيَفُوْتُ أَكْثَرُ المَقْصُوْدِ. كَيْفَ وَقَدْ خُلِقَ بَدَنُ الآدَمِيِّ خَلْقًا لَطِيْفًا؛ فَإِذَا هَجَرَ الدَّسَمَ؛ نَشِفَ الدِّمَاغُ، وإِذَا دَامَ عَلىٰ السَّهَرِ؛ قَوِيَ اليُبْسُ، وَإِذَا لازَمَ الحُزْنَ؛ مَرِضَ القَلْبُ؟! فَلَا بُدَّ مِنَ التَّلَطُّفِ بِالبَدَنِ؛ بِتَنَاوُلِ مَا يُصْلِحُهُ، وَبِالقَلْبِ؛ بِمَا يَدْفَعُ الحُزْنَ المُؤْذِيَ لَهُ، وَإِلَّا؛ فَمَتَىٰ دَامَ المُؤْذِي؛ عَجِلَ التَّلَفُ.

ثُمَّ يَأْتِي **الشَّرْعُ** بِمَا قَدْ قَالَهُ العَقْلُ: فَيَقُوْلُ: **«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ ونَمْ»**. وَيَقُوْلُ: **«كَفَى بِالمَرْءِ إِثمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقوتُ»**. **ويَحُثُّ عَلىٰ النِّكاحِ**[1].

٩٢٢ ـ وَدَوَامُ القَلَقِ واليُبْسِ يَتْرُكُ الزَّوْجَةَ كَالأَرْمَلَةِ، وَالوَلَدَ كَاليَتِيْمِ؛ وَلا وَجْهَ للتَّشَاغُلِ بِالعِلْمِ مَعَ هٰذا القَلَقِ. وَمَنْ أَرَادَ مِصْدَاقَ مَا قُلْتُهُ؛ فَلْيَتَأَمَّلْ حَالَةَ الرَّسُوْلِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُعَدِّلُ مَا عَنْدَهُ مِنَ الخَوْفِ **فيُمَازِحُ، وَيُسَابِقُ عَائِشَةَ، ويُكْثِرُ مِن التزوُّجِ**، وَكَانَ

---

(١) قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج...» الحديث رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يَتَلَطَّفُ بِبَدَنِهِ؛ **فَيَخْتَارُ الماءَ البائت**[1]، **وَيُحِبُّ الحَلْوَىٰ وَاللَّحْمَ**.

٩٢٣ - وَلَوْلَا مُسَاكَنَةُ نَوْعِ غَفْلَةٍ؛ لَمَا صَنَّفَ العُلَمَاءُ، وَلَا حُفِظَ العِلْمُ، وَلَا كُتِبَ الحَدِيْثُ؛ لِأَنَّ مَنْ يَقُوْلُ: ربَّما مُتُّ اليَوْمَ؛ كَيْفَ يَكْتُبُ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُ ويُصَنِّفُ؟!

فَلَا يَهُوْلَنَّكُم مَا تَرَوْنَ مِنْ غَفْلَةِ النَّاسِ عَنِ المَوْتِ، وَعَدَمِ ذِكْرِهِ حَقَّ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَه، بِهَا تَقُوْمُ الدُّنْيا وَيَصْلُحُ الدِّينُ.

٩٢٤ - وَإِنَّمَا **تُذَمُّ قُوَّةُ الغَفْلَةِ المُوْجِبَةُ لِلتَّفْرِيْطِ**، وَإِهْمَالِ المُحَاسَبَةِ لِلنَّفْسِ، وَتَضْيِيعِ الزَّمَانِ فِي غَيْرِ التَّزَوُّدِ، وَرُبَّمَا قَوِيَتْ فَحَمَلَتْ عَلَىٰ المَعَاصِي.

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ بِقَدَرٍ؛ كَانَتْ كَالْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، لَا بُدَّ مِنْهُ؛ فَإِنْ كَثُرَ؛ صَارَ الطَّعَامُ زُعاقًا[2]. فَالغَفْلَةُ تُمْدَحُ إِذَا كَانَتْ بِقَدَرٍ كَمَا بَيَّنَّا، وَمَتَىٰ زادَتْ؛ وَقَعَ الذَّمُّ. فَافْهَمْ مَا قُلْتُهُ، وَلا تَقُلْ: فُلَانٌ شَدِيْدُ اليَقَظَةِ مَا يَنَامُ اللَّيْلَ، وَفُلَانٌ غَافِلٌ يَنَامُ أَكْثَرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ غَفْلَةً تُوْجِبُ مَصْلَحَةَ البَدَنِ وَالقَلْبِ لا تُذَمُّ والسَّلَامُ.

٢٠١ - فصل: من راءى الخلق عبدهم وهو لا يعلم

٩٢٥ - مَا يَكَادُ يُحِبُّ الاجْتِمَاعَ بِالنَّاسِ إِلَّا فَارِغٌ؛ لِأَنَّ المَشْغُوْلَ القَلْبِ بِالحَقِّ يَفِرُّ مِنَ الخَلْقِ، وَمَتَىٰ تَمَكَّنَ فَرَاغُ القَلْبِ مِنْ مَعْرِفَةِ الحَقِّ؛ امْتَلأَ بِالخَلْقِ، فَصَارَ يَعْمَلُ لَهُمْ، وَمِنْ أَجْلِهِم، وَيَهْلِكُ بِالرِّياءِ، وَلا يَعْلَمُ.

٩٢٦ - وَإِنِّي لَأَتَأَمَّلُ بَعْضَ[3] مَنْ يَتَزَيَّا بِالفَقْرِ والتَّصَوُّفِ، وَهُوَ يَلْبَسُ ثِيَابًا لا تُسَاوِي دِيْنَارًا، وَعِنْدَهُ المَالُ الكَثِيْرُ، وَقَدْ أَمْرَحَ[4] نَفْسَه فِي المَطَاعِمِ الشَّهِيَّةِ، وَهُوَ عَامِلٌ بِمُقْتَضَىٰ الكِبْرِ والتَّصَدُّرِ، فَيَتَقَرَّبُ إِلَىٰ أَرْبَابِ الدُّنْيا، وَيَسْتَزْرِي أَرْبَابَ العِلْمِ، وَيَزُوْرُ أُولٰئِكَ دُوْنَهُم، وَإِنَّمَا يَرُدُّ ما يُعْطَىٰ لِيَشيعَ لَهُ اسْمُ زَاهِدٍ، فَتَرَاهُ يُرَبِّي النَّامُوْسَ، وَهُوَ فِي احْتِيَالِهِ كَثَعْلَبٍ، وَفِي نُهُوْضِهِ إِلَىٰ أَغْرَاضِهِ فِي البَاطِنِ كَلْبُ شَرى. فَأَقُوْلُ:

---

(١) كانوا يبيتون الماء في العراء ليبرد.

(٢) الزعاق: شديد الملوحة، في الأصل: زعافًا، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: زيادة (على) قبل كلمة (بعض)، ولا وجه لها.

(٤) كذا في الأصل، ولعلها: أمرع، أي: أشبع. والله أعلم.

سُبْحَانَ اللهِ! ما يَزْهَدُ إلَّا الثِّيابُ! أَتُرَىٰ مَا سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ**»[1]؟!

٩٢٧ ـ وَأَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ وَرُؤْيَةِ الخَلْقِ: فَإِنَّ مَنْ رَأَىٰ نَفْسَهُ؛ تَكَبَّرَ، والمُتَكَبِّرُ أَحْمَقُ؛ لِأَنَّه مَا مِنْ شَيْءٍ يَتَكَبَّرُ بِهِ إلَّا وَلِغَيْرِهِ أَكْثَرُ مِنْهُ. وَمَنْ رَاءَىٰ الخَلْقَ؛ عَبَدَهُم وَهُوَ لا يَعْلَمُ!

٩٢٨ ـ فَأَمَّا العَامِلُ للهِ ﷻ؛ فَهُوَ بَعِيْدٌ مِنَ الخَلْقِ؛ فَإِنْ تَقَرَّبُوْا إِلَيْهِ؛ سَتَرَ حَالَه بِمَا يُوْجِبُ بُعْدَهُم عَنْهُ.

٩٢٩ ـ وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ يُرَائِي وَلا يَدْرِي، فَيَمْتَنِعُ مِنَ المَشْي فِي السُّوْقِ، وَمِنْ زِيَارَةِ الإِخْوَانِ، وَمِنْ أَنْ يَشْتَرِيَ شَيْئًا بِنَفْسِهِ! وَتُوْهِمُهُ نَفْسُه أَنِّي أَكْرَهُ مُخَالَطَةَ السُّوْقَة!! وَإِنَّمَا هٰذَا يُرَبِّي جَاهًا بَيْنَ العُلَمَاءِ؛ إِذْ لَوْ خَالَطَهُم؛ لامْتُحِيَ جَاهُهُ، وبَطَلَ تَقْبِيْلُ يَدِهِ!

٩٣٠ ـ وَقَدْ كَانَ **بِشرٌ الحَافِي** يَجْلِسُ في مَجْلِسٍ عِنْدَ العَطَّارِ، وَأَبْلَغُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ أَنَّ نَبِيَّنا ﷺ كَانَ يَشْتَرِي حَاجَتَهُ وَيَحْمِلُهَا.

وخَرَجَ **عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** ﷺ، وَهُوَ أَمِيْرُ المؤْمِنِيْنَ إِلىٰ السُّوْقِ، فَاشْتَرَىٰ ثَوْبًا.

٩٣١ ـ وَقَدْ كَانَ **طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ** قَارِئَ أَهْلِ الكُوْفَةِ، فَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ عَلَيْهِ؛ مَشَى إِلَىٰ **الأَعْمَشِ**[2]، فَقَرَأَ عَلَيْهِ، فَمَالَ النَّاسُ إِلَىٰ **الأَعْمَشِ**، وتَرَكوا طَلْحَةَ[3].

هٰذَا واللهِ الكِبْرِيْتُ الأَحْمَرُ[4] والإِكْسِيْرُ[5]، لا مَا يُظَنُّ إِكْسِيْرًا فِي الكِيْمِيَاءِ. والمُعَامَلَةُ مَعَ اللهِ تَعَالىٰ هٰكذا تَكُوْنُ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩)، والحاكم (٤/ ١٣٥)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) طلحة بن مصرف: أبو محمد اليامي الإمام، الحافظ المقرئ، توفي سنة (١١٢هـ). وقد تصحف في الأصل إلى (مطرف).

(٣) سليمان بن مهران الكوفي: الإمام شيخ المحدثين والمقرئين (٦١ ـ ١٤٨هـ).

(٤) الكبريت الأحمر يضرب بندرته المثل.

(٥) الإكسير: شراب زعم الأقدمون أنه يطيل الأعمار، وأطلق أيضًا على حجر تعالج به المعادن الخسيسة فتتحول إلى ذهب.

٩٣٢ ـ فَأمّا ضِدُّ هٰذِهِ الحَالِ؛ فَحَالَةُ عَابِدٍ لِلْخَلقِ مُلَبِّسٍ. وَقَدْ عَمَّ هٰذا جُمْهُوْرَ الخَلْقِ، حَاشَا السَّلَفِ.

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الكَلامِ وَلا صَبْغَ الحَوَاجِيْبِ

٢٠٢ - فصل: كل المعاصي قبيحة

٩٣٣ ـ كُلُّ المَعَاصِي قَبِيْحَةٌ، وَبَعْضُهَا أَقْبَحُ مِنْ بَعْضٍ: فَإِنَّ الزِّنَا مِنْ أَقْبَحِ الذُّنُوْبِ؛ فَإِنَّهُ يُفْسِدُ الفُرُشَ، ويُغَيِّرُ الأَنْسَابَ. وَهُوَ بالجَارَةِ أَقْبَحُ: فَقَدْ رُوِيَ فِي «**الصَّحِيْحَيْنِ**»(١) مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ؛ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! أَيُّ ذَنْبٍ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**». قُلْتُ: ثُمّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيْلَةَ جَارِكَ**». وَقَدْ رَوَىٰ البُخَارِيُّ في «تارِيْخِهِ» مِنْ حَدِيْثِ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «**لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ، وَلَأَنْ يَسْرِقَ مِنْ عَشَرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جَارِهِ**»(٢). وَإِنَّمَا كانَ هٰذا؛ لِأَنَّهُ يَضُمُّ إِلىٰ مَعْصِيَةِ الله ﷻ انْتِهَاكَ حَقِّ الجَارِ.

٩٣٤ ـ وَمِنْ أَقْبَحِ الذُّنُوْبِ أَنْ يَزْنِيَ الشَّيْخُ؛ فَفِي الحَدِيْثِ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّانِي**»(٣)؛ لِأَنَّ شَهْوَةَ الطَّبْعِ قَدْ مَاتَتْ، وَلَيْسَ فِيْهَا قُوَّةٌ تَغْلِبُ؛ فَهُوَ يُحَرِّكُهَا وَيُبَالِغُ، فَكَانَتْ مَعْصِيَتُهُ عِنَادًا.

٩٣٥ ـ وَمِنَ المَعَاصِي الّتِي تُشْبِهُ المُعَانَدَةَ لُبْسُ الرَّجُلِ الحَرِيْرَ وَالذَّهَبَ، خُصُوْصًا خَاتَمَ الذَّهَبِ، الَّذِي يَتَحَلَّى بِهِ الشَّيْخُ، وَإِنَّهُ مِنْ أَبْرَدِ الأَفْعَالِ، وَأَقْبَحِ الخَطَايَا.

٩٣٦ ـ وَمِنْ هٰذَا الفَنِّ الرِّيَاءُ وَالتَّخَاشُعُ، وَإِظْهَارُ التَّزَهُّدِ لِلْخَلْقِ؛ فإِنَّه كَالعِبَادَةِ

---

(١) البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦).

(٢) رواه أحمد (٨١٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، والطبراني (٢٠/٢٥٦/٦٠٥)، قال المنذري: رواته ثقات، وكذلك قال الهيثمي.

(٣) رواه النسائي (٢٥٧٥)، وابن حبان (٥٥٥٨)، والقضاعي (٣٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لَهُمْ؛ مَعَ إِهْمَالِ جَانِبِ الحَقِّ ﷻ. وَكَذٰلِكَ المُعَامَلَةُ بِالرِّبَا الصَّرِيْحِ، خُصُوْصًا مِنَ الغَنِيِّ الكَثِيْرِ المَالِ.

٩٣٧ ـ وَمِنْ أَقْبَحِ الأَشْيَاءِ أَنْ يَطُوْلَ المَرَضُ بِالشَّيْخِ الكَبِيْرِ، وَلا يَتُوْبَ مِنْ ذَنْبٍ؛ وَلا يَعْتَذِرَ مِنْ زَلَّةٍ، وَلا يَقْضِي دَيْنًا، وَلا يُوْصِي بِإِخْرَاجِ حَقٍّ عَلَيْهِ!

٩٣٨ ـ وَمِنْ قَبَائِحِ الذُّنُوْبِ أَنْ يَتُوْبَ السَّارِقُ أَوِ الظَّالِمُ وَلا يَرُدَّ المَظَالِمَ. والمُفَرِّطُ فِي الزَّكَاةِ، أَوْ فِي الصَّلَاةِ، وَلا يَقْضِي.

٩٣٩ ـ وَمِنْ أَقْبَحِهَا أَنْ يَحْنَثَ فِي يَمِيْنِ طَلَاقِهِ، ثُمَّ يُقِيْمَ مَعَ المَرْأَةِ!

وَقِسْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتُهُ؛ فَالمَعَاصِي كَثِيْرَةٌ، وَأَقْبَحُهَا لا يَخْفَى. وهٰذِهِ المُسْتَقْبَحَاتُ ـ فَضْلًا عَنِ القَبَائِحِ ـ تُشْبِهُ العِنَادَ لِلآمِرِ، فَيَسْتَحِقُّ صَاحِبُهَا اللَّعْنَ، ودَوَامَ العُقُوْبَةِ.

٩٤٠ ـ وَإِنِّي لَأَرَىٰ شُرْبَ الخَمْرِ مِنْ ذٰلِكَ الجِنْسِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُشْتَهَاةً لِذَاتِهَا، وَلا لِرِيْحِهَا، وَلا لِطَعْمِهَا ـ فِيْمَا يُذْكَرُ ـ؛ إِنَّمَا لَذَّتُهَا ـ فِيْمَا يُقَالُ ـ بَعْدَ تَجَرُّعِ مَرَارَتِهَا؛ فَالإِقْدَامُ عَلَىٰ مَا لا يَدْعُوْ إِلَيْهِ الطَّبْعُ ـ إِلَىٰ أَنْ يَصِلَ التَّنَاوُلُ إِلَى اللَّذَّةِ ـ مُعَانَدَةٌ. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ إِيْمَانًا يَحْجُزُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُخَالَفَتِهِ، وَتَوْفِيْقًا لِمَا يُرْضِيْهِ؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ.

٢٠٣ - فصل التحذير من الإعجاب بالنفس

٩٤١ ـ **اعْتَبَرْتُ** عَلَىٰ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ أَنَّهُمْ يُبْطِنونَ الكِبْرَ؛ فَهٰذَا يَنْظُرُ فِيْ مَوْضِعِهِ، وَارْتِفَاعِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، وَهٰذا لا يَعُوْدُ مَرِيْضًا فَقِيْرًا، يَرَىٰ نَفْسَه خَيْرًا مِنْهُ. حَتَّى إِنِّي رَأَيْتُ جَمَاعَةً يُومَأُ[1] إِلَيْهِم: **مِنْهُم** مَنْ يَقُولُ: لا أُدْفَنُ إِلَّا فِي دَكَّةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل[2]! وَيَعْلَمُ أَنَّ فِي ذٰلِكَ كَسْرَ عِظَامِ المَوْتَىٰ، ثُمَّ يَرَىٰ نَفْسَهُ أَهْلًا لِذٰلِكَ التَّصَدُّرِ.

وَمِنْهُم مَنْ يَقُوْلُ: ادْفِنُوْنِي إِلَىٰ جَانِبِ مَسْجِدِي! ظَنًّا مِنْهُ أَنَّه يَصِيْرُ بَعْدَ مَوْتِهِ مَزَارًا؛ كَمَعْرُوْفٍ الكَرْخِيِّ.

وهٰذِهِ خَلَّةٌ مُهْلِكَةٌ! وَلا يَعْلَمُوْنَ!! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ ظَنَّ أَنَّه خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ؛**

---

(١) **يومأ**: يُشار.

(٢) **دكة أحمد بن حنبل**: المكان الذي فيه قبر الإمام.

فَقَدْ تَكَبَّرَ»[1]. وَقَلَّ مَنْ رَأَيْتُ إِلَّا وَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ[2]!

٩٤٢ ـ وَالعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِمَّنْ يَرىٰ نَفْسَه! أَتُرَاهُ بِمَاذَا رَآهَا؟! إِنْ كَانَ بِالعِلْمِ؛ فَقَدْ سَبَقَهُ العُلَمَاءُ، وَإِنْ كَانَ بِالتَّعَبُّدِ؛ فَقَدْ سَبَقَهُ العُبَّادُ، أَوْ بِالمَالِ؛ فَإِنَّ المَالَ لا يُوْجِبُ بِنَفْسِهِ فَضِيْلَةً دِيْنِيَّةً.

فَإِنْ قَالَ: قَدْ عَرَفْتُ مَا لَمْ يَعْرِفْ غَيْرِي مِنَ العِلْمِ فِي زَمَنِي؛ فَمَا عَلَيَّ مِمَّنْ تَقَدَّمَ؟ قِيْلَ لَهُ: مَا نأمُرُكَ يَا حَافِظَ القُرْآنِ أَنْ تَرَىٰ نَفْسَكَ فِي الحِفْظِ كَمَنْ يَحْفَظُ النِّصْفَ، وَلا يَا فَقِيْهُ أَنْ تَرَىٰ نَفْسَكَ في العِلْمِ كالعَامِّيِّ، إِنَّمَا نَحْذَرُ عَلَيْكَ أَنْ تَرَىٰ نَفْسَكَ خَيْرًا مِنْ ذٰلِكَ الشَّخْصِ المُؤْمِنِ، وَإِنْ قَلَّ عِلْمُهُ؛ فَإِنَّ الخَيْرِيَّةَ بِالمَعَانِي لا بِصُوْرَةِ العِلْمِ والعِبَادَةِ.

٩٤٣ ـ ومَن تَلَمَّحَ خِصَالَ نفسِهِ وذنوبَها؛ عَلِمَ أَنَّه عَلىٰ يَقِيْنٍ مِنَ الذُّنُوْبِ وَالتَّقْصِيْرِ، وَهُوَ مِنْ حَالِ غَيْرِهِ عَلىٰ شَكٍّ؛ فَالَّذِي يُحْذَرُ مِنْهُ الإِعجابُ بِالنَّفْسِ، وَرُؤْيَةُ التَّقَدُّمِ فِي أَحْوَالِ الآخِرَةِ.

٩٤٤ ـ والمُؤْمِنُ لا يَزَالُ يَحْتَقِرُ[3] نَفْسَه. وَقَدْ قِيْلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ رضي الله عنه: إِنْ مُتَّ؛ نَدْفِنُكَ فِي حُجْرَةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: لَأَنْ أَلْقَىٰ اللهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ غَيْرَ الشِّرْكِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَىٰ نَفْسِيَ أَهْلًا لِذٰلِكَ.

٩٤٥ ـ وَقَدْ رُوِّيْنا: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الرُّهْبَانِ رَأَىٰ فِي المَنَامِ قَائِلًا يَقُوْلُ لَهُ: فُلَانٌ الإِسْكَافِيُّ خَيْرٌ مِنْكَ! فنَزَلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَن عَمَلِهِ، فَلَمْ يَذْكُرْ كَبِيْرَ عَمَلٍ! فَقِيْلَ لَهُ في المَنَامِ: عُدْ إليهِ، وَقُلْ لهُ: مِمَّ صُفْرَةُ وَجْهِكَ؟ فَعَادَ، فَسَأَلَهُ؟ **فَقَالَ**: مَا رَأَيْتُ مُسْلِمًا إِلَّا وَظَنَنْتُهُ خَيْرًا مِنِّي. **فَقِيْلَ لَهُ**: فَبِذَاكَ ارْتَفَعَ.

٢٠٤ - فصل: الغضبان كالسكران لا يُؤاخذ بما يقول

٩٤٦ ـ مَتَىٰ رَأَيْتَ صَاحِبَكَ قَدْ غَضِبَ، وَأَخَذَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لا يَصْلُحُ؛ فَلا يَنْبَغِي

---

(١) لم أجده.
(٢) أي: يعجب بها.
(٣) **يحتقر**: يستصغر.

أَنْ تَعْقِدَ عَلىٰ ما يَقُوْلُهُ خِنْصِرًا[1]، وَلا أَنْ تُؤَاخِذَهُ بِهِ؛ فَإِنَّ حَالَهُ حَالُ السَّكْرَانِ، لا يَدْرِي مَا يَجْرِي. بَلِ اصْبِرْ لِفَوْرَتِهِ، وَلا تُعَوِّلْ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ غَلَبَهُ، والطَّبْعَ قدْ هَاجَ، والعَقْلَ قَدِ اسْتَتَرَ[2].

٩٤٧ - وَمَتَىٰ أَخَذْتَ فِي نَفْسِكَ عَلَيْهِ، أَوْ أَجَبْتَهُ بِمُقْتَضَىٰ فِعْلِهِ؛ كُنْتَ كَعَاقِلٍ وَاجَهَ مَجْنُوْنًا، أَوْ كَمُفِيْقٍ عَاتَبَ مُغْمًى عَلَيْهِ؛ فَالذَّنْبُ لكَ.

بَلِ انْظُرْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وَتَلَمَّحْ تَصْرِيْفَ القَدَرِ لَهُ، وَتَفَرَّجْ فِي لَعِبِ الطَّبْعِ بِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا انْتَبَهَ؛ نَدِمَ عَلىٰ مَا جَرَىٰ، وَعَرَفَ لَكَ فَضْلَ الصَّبْرِ.

وَأَقلُّ الأَقْسَام أَنْ تُسْلِمَهُ فِيْمَا يَفْعَلُ فِي غَضَبِهِ إِلىٰ مَا يَسْتَرِيحُ بِهِ.

٩٤٨ - وَهٰذِهِ الحَالَةُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَلَمَّحَها الوَلَدُ عِنْدَ غَضَبِ الوَالِدِ، والزَّوْجَةُ عَنْدَ غَضَبِ الزَّوْجِ؛ فَتَتْرُكَهُ يَشْتَفِي بِمَا يَقُوْلُ، وَلا تُعَوِّلَ عَلىٰ ذٰلِكَ؛ فَسَيَعُوْدُ نَادِمًا مُعْتَذِرًا.

وَمَتَى قُوبِلَ عَلىٰ حَالَتِهِ وَمَقَالتِهِ؛ صَارَتِ العَدَاوَةُ مُتَمَكِّنَةً، وَجَازَىٰ فِي الإِفَاقَةِ عَلىٰ مَا فُعِلَ فِي حَقِّهِ وَقْتَ السُّكْرِ.

٩٤٩ - وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَلىٰ غَيْرِ هٰذه الطَّرِيْقِ: مَتَىٰ رَأَوْا غَضْبَانَ؛ قَابَلُوْهُ بِمَا يَقُوْلُ وَيَعْمَلُ، وَهٰذَا عَلىٰ غَيْرِ مُقْتَضَىٰ الحِكْمَةِ، بَلِ الحِكْمَةُ مَا ذَكَرْتُهُ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢٠٥ - فصل: لا ينبغي أن تعادي أحدًا

٩٥٠ - لَيْسَ فِي الدُّنْيا أَبْلَهُ مِمَّنْ يُسِيْءُ إِلَىٰ شَخْصٍ، وَيَعْلَمُ أَنَّه قَدْ بَلَغَ إِلَىٰ قَلْبِهِ بِالأَذَىٰ، ثُمَّ يَصْطَلِحَانِ فِي الظَّاهِرِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ ذٰلِكَ الأَثَرَ مُحِيَ بِالصُّلْحِ! وَخُصُوْصًا المُلُوْكَ؛ فَإِنَّ لَذَّتَهُمُ الكُبْرَى ألا يَرْتَفِعَ عَلَيْهِم أَحَدٌ، ولا يَنْكَسِرَ لَهُمْ غَرَضٌ؛ فَإِذَا جَرَىٰ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ؛ لم يَنْجَبِرْ.

---

(١) أي: لا يعتد بكلامه.

(٢) ومن هذا الباب قوله ﷺ: «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان»، رواه البخاري.

٩٥١ ـ وَاعْتَبِرْ هٰذَا بِأَبِي مُسْلِمٍ الخُرَاسَانِيِّ؛ فَإِنَّه غَض مِنْ قَدْرِ المَنْصُوْرِ[١] قَبْلَ ولَايتِهِ، فَحَمَلَ ذٰلِكَ فِي نَفْسِهِ، فَقَتَلَهُ. ومَنْ نَظَرَ فِي التَّوارِيْخِ؛ رَأَىٰ جَمَاعَةً قَدْ جَرَىٰ لَهُمْ مِثْلُ هٰذَا.

٩٥٢ ـ وَلَا يَنْبَغِي لِمَنْ أَسَاءَ إِلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ أَنْ يَقَعَ فِي يَدِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا رَأَمَ التَّخَلُّصَ؛ لَمْ يَقْدِرْ، فَيَبْقَىٰ نَدَمُهُ عَلَىٰ تَرْكِ احْتِرَازِهِ، وَحَسْرَتُهُ عَلَىٰ مُسَاكَنَةِ الضَّمَانِ للسَّلَامَةِ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا يُلْقَى بِهِ مِنَ الهَوَانِ والأَذَىٰ.

٩٥٣ ـ وَمِنْ هٰذَا الجِنْسِ الأَصْدِقاءُ المُتَمَاثِلُوْنَ؛ فَإِنَّكَ مَتَىٰ آذَيْتَ شَخْصًا، وَبَلَغَ إِلَىٰ قَلْبِهِ أَذَاكَ؛ فَلا تَثِقْ بِمَوَدَّتِهِ؛ فَإِنَّ أَذَاكَ نُصْبَ عَيْنِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَحْتَلْ عَلَيْكَ؛ لَمْ يَصْفُ لَكَ.

٩٥٤ ـ وَلا تُخَالِطْ إِلَّا مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ فَحَسْبُ؛ فَهُوَ لَمْ يَرَ مِنْكَ إِلَّا خَيْرًا، فَيَكُوْنُ فِي نَفْسِهِ. وَكَذٰلِكَ الوَلَدُ والزَّوْجَةُ والمُعَامِلُونَ.

٩٥٥ ـ وَيَلْحَقُ بِهٰذَا أَنْ أَقُوْلَ: لا يَنْبَغِي أَنْ تُعَادِيَ أَحَدًا ولا تَتَكَلَّمَ فِي حَقِّهِ؛ فَرُبَّمَا صَارَتْ لَهُ دَوْلَةٌ فَاشْتَفَىٰ، وَرُبَّمَا احْتِيْجَ إِلَيْهِ فَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ. فَالعَاقِلُ يَصَوِّرُ فِي نَفْسِهِ كُلَّ مُمْكِنٍ، وَيَسْتُرُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ البُغْضِ والوُدِّ، وَيُدَارِي مَعَ الغَيْظِ والحِقْدِ. هٰذِهِ مُشَاوَرَةُ العَقْلِ إِنْ قُبِلَتْ.

٢٠٦ - فصل: كامل العقل من يتلمَّح العواقب

٩٥٦ ـ كُلُّ مَنْ لا يَتَلَمَّحُ العَوَاقِبَ، وَلا يَسْتَعِدُّ لِمَا يَجُوْزُ وُقُوْعُهُ؛ فَلَيْسَ بِكَامِلِ العَقْلِ!

وَاعْتَبِرْ هٰذَا فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ! مِثْلُ أَنْ يَغْتَرَّ بِشَبَابِهِ، وَيَدُوْمَ عَلَىٰ المَعَاصِي، وَيُسَوِّفَ بِالتَّوْبَةِ؛ فَرُبَّمَا أُخِذَ بَغْتَةً، وَلَمْ يَبْلُغْ بَعْضَ مَا أَمَّلَ. وَكَذٰلِكَ إِذَا سَوَّفَ بِالعَمَلِ، أَوْ بِحِفْظِ العِلْمِ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ يَنْقَضِي بِالتَّسْوِيْفِ، وَيُفَوِّتُ المَقْصُوْدَ. وَرُبَّمَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِ خَيْرٍ، أَوْ وَقْفِ شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ، فَسَوَّفَ، فَبُغِتَ[٢].

---

(١) أبو جعفر عبد الله بن محمد الهاشمي، الخليفة العباسي الثاني، وفحل بني العباس شجاعة وهيبة ودهاءً ورأيًا وحزمًا (٩٥ ـ ١٥٨هـ).

(٢) انظر: كتاب (الحيل النفسية) للأستاذ نهاد درويش، ط. دار الفتح بدمشق.

فَالعَاقِلُ مَنْ أَخَذَ بِالحَزْمِ فِي تَصْوِيْرِ مَا يَجُوْزُ وُقُوْعُهُ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضىٰ ذٰلِكَ؛ فَإِنِ امْتَدَّ الأَجَلُ؛ لَمْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ وَقَعَ المَخُوْفُ؛ كَانَ مُحترِزًا.

٩٥٧ ـ وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنيا: أَنْ يَمِيْلَ مَعَ السُّلْطَانِ، وَيُسِيْءَ إِلىٰ بَعْضِ حَوَاشِيْهِ؛ ثِقَةً بِقُرْبِهِ مِنْهُ، فَرُبَّمَا تَغَيَّرَ ذٰلِكَ السُّلْطَانُ، فَٱرْتَفَعَ عَدُوُّهُ، فَٱنْتَقَمَ مِنْهُ. وَقَدْ يُعَادِي بَعْضَ الأَصْدِقَاءِ، وَلا يُبَالِي بِهِ، لِأَنَّهُ دُوْنَهُ فِي الحَالَةِ الحَاضِرَةِ؛ فَرُبَّمَا صَعِدَتْ مَرْتَبَةُ ذٰلِكَ، فَٱسْتَوْفَىٰ مَا أَسْلَفَهُ إِلَيْهِ مِنَ القَبِيْحِ وَزَادَ.

فَالعَاقِلُ مَنْ نَظَرَ فِيْمَا يَجُوْزُ وَقُوْعُهُ، وَلَمْ يُعَادِ أَحَدًا: فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مَا يُوْجِبُ المُعَادَاةَ؛ كَتَمَ ذٰلِكَ؛ فَإِنْ صَحَّ لَهُ أَنْ يَثِبَ علىٰ عَدُوِّهِ، فَيَنْتَقِمَ مِنْهُ ٱنْتِقَامًا يُبِيْحُهُ الشَّرْعُ؛ جَازَ، علىٰ أَنَّ العَفْوَ أَصْلَحُ فِي بَابِ العَيْشِ.

وَلِهٰذَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْدَمَ البَطَّالُ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا عَمِلَ، فَعَرَفَ ذٰلِكَ لِمَنْ خَدَمَ. وَقِسْ علىٰ أُنْمُوْذَجِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جَمِيْعِ الأَحْوَالِ.

٢٠٧ - فصل: بقدر صعود الإنسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة

٩٥٨ ـ بِقَدْرِ صُعُوْدِ الإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا تَنْزِلُ مَرْتَبَتُهُ فِي الآخِرَةِ. وَقَدْ صَرَّحَ بِهٰذَا **ٱبْنُ عُمَرَ** رضي الله عنهما، فَقَالَ: وَاللهِ؛ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا؛ إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عَنْدَ اللهِ؛ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ كَرِيْمًا.

٩٥٩ ـ فَالسَّعِيْدُ مَنِ ٱقْتَنَعَ بِالبُلْغَةِ[1]؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ مِنْ أَنْ يَضِيْعَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مُتَوَرِّعًا فِي كَسْبِهِ، مُعِيْنًا لِنَفْسِهِ عَنِ الطَّمَعِ، قَاصِدًا إِعَانَةَ أَهْلِ الخَيْرِ، وَالصَّدَقَةَ علىٰ المُحْتَاجِيْنَ؛ فَكَسْبُ هٰذَا أَصْلَحُ مِنْ بَطَالَتِهِ.

فَأَمَّا الصُّعُوْدُ الَّذِي سَبَبُهُ مُخَالَطَةُ السَّلاطِيْنِ؛ فَبَعِيْدٌ أَنْ يَسْلَمَ مَعَهُ الدِّيْنُ؛ فَإِنْ وَقَعَتْ سَلامَتُهُ ظَاهِرًا؛ فَالعَاقِبَةُ خَطِرَةٌ.

٩٦٠ ـ قَالَ أَبُوْ **مُحَمَّدٍ التَّمِيْمِيُّ**: مَا غَبَطْتُ أَحَدًا؛ إِلَّا الشَّرِيْفَ أَبَا جَعْفَرٍ يَوْمَ

---

(١) البلغة: ما يسد الحاجة.

مَاتَ القَائِمُ بِأَمْرِ اللهِ[1] ؛ فَإِنَّه غَسَّلَهُ، وَخَرَجَ يَنْفُضُ أَكْمَامَهُ، فَقَعَدَ فِي مَسْجِدِهِ لا يُبَالِي بِأَحَدٍ، وَنَحْنُ مُنْزَعِجُوْنَ لا نَدْرِي مَا يَجْرِي عَلَيْنَا. وَذَاكَ أَنَّ التَّمِيْمِيَّ كَانَ مُتَعَلِّقًا عَلىٰ السُّلْطَانِ، يَمْضِي لَهُ فِي الرَّسَائِلِ، فَخَافَ مَغَبَّةَ القُرْبِ[2]. وَقَدْ رَأَيْنا جَمَاعَةً مِنَ العُلَمَاءِ خَالَطُوْا السُّلْطَانَ، فَكَانَتْ مَغَبَّتُهُم سَيِّئَةً.

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّهُمْ طَلَبُوْا الرَّاحَةَ، فَأَخْطَؤُوْا طَرِيْقَهَا؛ لِأَنَّ غُمُوْمَ القَلْبِ لا تُوَازِيْهَا لَذَّةُ مَالٍ، وَلا لَذَّةُ مَطْعَمٍ، هٰذَا فِي الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَةِ.

٩٦١ ـ وَمَنْ أَشْرَفُ وَأَطْيَبُ عَيْشًا مِنْ مُنْفَرِدٍ فِي زَاوِيةٍ؛ لا يُخَالِطُ السَّلَاطِيْنَ، وَلا يُبَالِي أَطَابَ مَطْعَمُهُ أَمْ لَمْ يَطِبْ؟! فَإِنَّه لا يَخْلُوْ مِنْ كِسْرَةٍ وَقَعْبٍ[3] ماءٍ، ثُمّ هُوَ سَلِيْمٌ مِنْ أَنْ تُقَالَ لَهُ كَلِمَةٌ تُؤْذِيْهِ، أَوْ يَعِيْبَهُ الشَّرْعُ حِيْنَ دُخُوْلِهِ عَلَيْهِم أَوِ الخَلْقُ.

٩٦٢ ـ وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل فِي انْقِطَاعِهِ، وَحَالَ ٱبْنِ أَبِي دُوَادٍ[4] وَيَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَ؛ عَرَفَ الفَرْقَ فِي طِيْبِ العَيْشِ في الدُّنْيَا، والسَّلامَةِ فِي الآخِرَةِ.

٩٦٣ ـ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ٱبْنُ أَدْهَمَ: **لَوْ عَلِمَ المُلُوْكُ وَأَبْنَاءُ المُلُوْكِ مَا نَحْنُ فِيْهِ مِنْ لَذِيْذِ العَيْشِ؛ لَجَالَدُوْنَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوْفِ**[5]. وَلَقَدْ صَدَقَ ٱبْنُ أَدْهَمَ؛ فَإِنَّ السُّلْطَانَ إِنْ أَكَلَ شَيْئًا؛ خَافَ أَنْ يَكُوْنَ قَدْ طُرِحَ لَهُ فِيْهِ سُمٌّ، وَإِنْ نَامَ؛ خَافَ أَنْ يُغْتَالَ، وَهُوَ وَرَاءَ المَغَالِيْقِ، لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْرُجَ لِفَرْجَةٍ[6]؛ فَإِنْ خَرَجَ؛ كَانَ مُنْزَعِجًا مِنْ أَقْرَبِ الخَلْقِ إِلَيْهِ، وَاللَّذَّةُ الّتِي يَنَالُهَا تَبْرُدُ عِنْدَهُ، وَلا تَبْقَىٰ لَهُ لَذَّةَ مَطْعَمٍ وَلا مَنْكَحٍ، وَكُلَّمَا اسْتَطْرَفَ المَطَاعِمَ؛ أَكْثَرَ مِنْهَا، فَفَسَدَتْ مَعِدَتُهُ، وَكُلَّمَا اسْتَجَدَّ الجَوَارِيَ؛ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ، فَذَهَبَتْ قُوَّتُه، وَلا يَكَادُ يُبْعِدُ مَا بَيْنَ الوَطْءِ والوَطْءِ؛ فَلا يَجِدُ فِي الوَطْءِ كَبِيْرَ لَذَّةٍ؛ لأَنّ لَذَّةَ الوَطْءِ بِقَدْرِ بُعْدِ مَا بَيْنَ الزَّمَانَيْنِ، وَكذٰلِكَ لَذَّةُ الأَكْلِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَكَلَ عَلىٰ شِبعٍ، وَوَطِئَ

---

(١) عبد الله بن القادر بالله أحمد بن إسحاق، الخليفة العباسي كان في خير واهتمام بالرعية، توفي سنة (٤٦٧هـ).

(٢) **مغبة القرب**: عاقبته. (٣) **القعب**: القدح.

(٤) الإيادي، أبو عبد الله (١٦٠ ـ ٢٤٠هـ) القاضي، رأس فتنة القول بخلق القرآن.

(٥) **جالدونا**: قاتلونا. (٦) **الفرجة**: الخروج للتنزه والتفسح.

مَنْ غَيْرِ صِدْقِ شَهْوَةٍ وَقَلَقٍ؛ لَمْ يَجِدِ اللَّذَّةَ التَّامَّةَ الَّتِي يَجِدُهَا الفَقِيْرُ إِذَا جَاعَ، والعَزَبُ إِذَا وَجَدَ ٱمْرَأَةً. ثُمَّ إِنَّ الفَقِيْرَ يَرْمِي نَفْسَهُ عَلىٰ الطَّرِيقِ فِي اللَّيْلِ فَيَنَامُ، وَلَذَّةُ الأَمْنِ قَدْ حُرِمَها الأُمَرَاءُ؛ فَلَذَّتُهُم نَاقِصَةٌ، وَحِسَابُهُم زَائِدٌ.

٩٦٤ ـ وَاللهِ؛ مَا أَعْرِفُ مَنْ عَاشَ رَفِيْعَ القَدْرِ بَالِغًا مِنَ اللَّذَّاتِ مَا لَمْ يَبْلُغْ غَيْرُهُ؛ إِلَّا العُلَمَاءَ المُخْلِصِيْنَ؛ كَالحَسَنِ وسُفْيَانَ وَأَحْمَدَ، والعُبَّادَ المُحَقِّقِيْنَ؛ كَمَعْرُوْفٍ. فَإِنَّ لَذَّةَ العِلْمِ تَزِيْدُ عَلىٰ كُلِّ لَذَّةٍ، وَأَمَّا ضُرُّهُمْ إِذَا جَاعُوْا، أَوِ ابْتُلُوْا بِأَذًى؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَزِيْدُ فِي رِفْعَتِهِم، وَكذٰلِكَ لَذَّةُ الخَلْوَةِ والتَّعَبُّدِ.

٩٦٥ ـ فهٰذَا **مَعْرُوْفٌ**، كَانَ مُنْفَرِدًا بِرَبِّهِ، طَيِّبَ العَيْشِ مَعَهُ، لَذِيْذَ الخَلْوَةِ بِهِ، ثُمَّ قَدْ مَاتَ مُنْذُ نَحْوِ أَرْبَعِ مِئَةِ سَنَةٍ؛ فَمَا يَخْلُوْ أَنْ يُهْدَىٰ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مَا تَقْدِيْرُ مَجْمُوْعِهِ أَجْزَاءٌ مِنَ القُرْآنِ! وَأَقَلُّهُ مَنْ يَقِفُ عَلىٰ قَبْرِهِ فَيَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . . .﴾ وَيُهْدِيْهَا لَهُ، والسَّلَاطِيْنُ تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ قَبْرِهِ ذَلِيْلَةً، هٰذَا بَعْدَ المَوْتِ، وَيَوْمَ الحَشْرِ تُنْشَرُ الكَرَامَاتُ الَّتِي لا تُوْصَفُ! وكذٰلِكَ قُبُوْرُ العُلَمَاءِ المُحَقِّقِيْنَ.

٩٦٦ ـ وَلَمَّا بُلِيَتْ أَقْوَامٌ بِمُخَالَطَةِ الأُمَرَاءِ؛ أَثَّرَ ذٰلِكَ التَّكْدِيْرَ فِي أَحْوَالِهِم كُلِّهَا: فَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مُنْذُ أَخَذْتُ مِنْ مَالِ فُلَانٍ الأَمِيْرِ؛ مُنِعْتُ مَا كَانَ وُهِبَ لِي مِنْ فَهْمِ القُرْآنِ. وَهٰذَا أَبُوْ يُوْسُفَ القَاضِي[1] لا يَزُوْرُ قَبْرَهُ اثْنَانِ. فَالصَّبْرُ عَنْ مُخَالَطَةِ الأُمَرَاءِ ـ وَإِنْ أَوْجَبَ ضِيْقَ العَيْشِ مِنْ وَجْهٍ ـ يُحَصِّلُ طِيْبَ العَيْشِ مِنْ جِهَاتٍ، وَمَعَ التَّخْلِيْطِ لا يَحْصُلُ مَقْصُوْدٌ؛ فَمَنْ عَزَمَ جَزَمَ.

٩٦٧ ـ كَانَ أَبُوْ الحَسَنِ القَزْوِينِيُّ[2] لا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا وَقْتَ الصَّلَاةِ؛ فَرُبَّمَا جَاءَ السُّلْطَانُ، فَيَقْعُدُ لِانْتِظَارِهِ لِيُسَلِّمَ عَلَيْهِ. وَمَدُّ النَّفَسِ[3] فِي هٰذَا رُبَّمَا أَضْجَرَ السَّامِعَ، وَمَنْ ذَاقَ عَرَفَ.

---

(١) يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي (١١٣ ـ ١٨٢هـ): صاحب أبي حنيفة وتلميذه، من حفاظ الحديث، ولي القضاء ببغداد، وكان الرشيد يبالغ في إجلاله.

(٢) علي بن عمر أبو الحسن القزويني، زاهد، من علماء الشافعية (٣٦٠ ـ ٤٤٢هـ) ويقال له: الحربي: نسبة إلى باب حرب، محلة ببغداد.

(٣) مد النفس: الإطالة.

٢٠٨ - فصل: أكثر الناس يمشون مع العادة

٩٦٨ ـ مَنْ عَرَفَ الشَّرْعَ كَمَا يَنْبَغِي، وَعَلِمَ حَالَةَ الرَّسُوْلِ ﷺ وَأَحْوَالَ الصَّحَابَةِ وَأَكَابِرِ العُلَمَاءِ؛ عَلِمَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، وَإِنَّمَا يَمْشُوْنَ مَعَ العَادَةِ، يَتَزَاوَرُوْنَ؛ فَيَغْتَابُ بَعْضُهُم بَعْضًا، وَيَطلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم عَوْرَةَ أَخِيْهِ، وَيَحْسُدُهُ إِنْ كانَتْ نِعْمةٌ، ويَشْمَتُ بِهِ إِنْ كانَتْ مُصِيْبَةٌ، وَيَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ إِنْ نَصَحَ لَهُ، وَيُخَادِعُهُ لِتَحْصِيْلِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنيا، ويَأْخُذُ عَلَيْهِ العَثَرَاتِ إِنْ أَمْكَنَ. هٰذَا كُلُّهُ يَجْرِي بَيْنَ المُنْتَمِيْنَ إِلىٰ الزُّهْدِ لا الرَّعَاعِ.

٩٦٩ ـ فَالأَوْلَى بِمَنْ عَرَفَ الله سُبْحَانَهُ؛ وعَرَفَ الشَّرْعَ؛ وَسِيَرَ السَّلَفِ الصَّالِحِيْنِ: الانْقِطَاعُ عَنِ الكُلِّ. فَإِنِ اضْطُرَّ إِلَىٰ لِقَاءِ مُنْتَسِبٍ إِلَىٰ العِلْمِ والخَيْرِ؛ تَلَقَّاهُ، وَقَدْ لَبِسَ دِرْعَ الحَذَرِ، وَلَمْ يُطِلْ مَعَهُ الكَلَامَ، ثُمَّ عَجَّلَ الهَرَبَ مِنْهُ إِلى مُخَالَطَةِ الكُتُبِ الّتِي تَحْوِي تَفْسِيْرًا لِنِطَاقِ الكَمَالِ.

٢٠٩ - فصل: الكمال عزيز

٩٧٠ ـ الكَمَالُ عَزِيْزٌ، وَالكَامِلُ قَلِيْلُ الوُجُوْدِ. فَأَوَّلُ أَسْبَابِ الكَمَالِ: تَنَاسُبُ أَعْضَاءِ البَدَنِ، وَحُسْنُ صُوْرَةِ الباطِنِ؛ فَصُوْرَةُ البَدَنِ **تُسَمَّى خَلْقًا**، وَصُوْرَةُ البَاطِنِ **تُسمَّى خُلُقًا**.

وَدَلِيْلُ **كَمَالِ صُوْرَةِ البَدَنِ**: حُسْنُ السَّمْتِ، واسْتِعْمَالُ الأَدَبِ. ودليلُ **صورةِ الباطن**: حُسْنُ الطَّبَائِعِ والأَخْلَاقِ:

فَالطَّبَائِعُ: العِفَّةُ، والنَّزَاهَةُ، وَالأَنَفَةُ مِنَ الجَهْلِ، وَمُبَاعَدَةُ الشَّرِّ.

وَالأَخْلَاقُ: الكَرَمُ، والإِيْثَارُ، وسَتْرُ العُيُوْبِ، وَابْتِدَاءُ المَعْرُوْفِ، وَالحِلْمُ عَنِ الجَاهِلِ.

فَمَنْ رُزِقَ هٰذِهِ الأَشْيَاءُ؛ رَقَّتْهُ إِلَىٰ الكَمَالِ، وظَهَرَ عَنْهُ أَشْرَفُ الخِلَالِ، وَإِنْ نَقَصَتْ خَلَّةٌ؛ أَوْجَبَتِ النَّقْصَ.

٢١٠ - فصل: من أراد السلامة ما عرف التكليف

٩٧١ ـ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَبْلَهُ مِمَّنْ يُرِيْدُ مُعَامَلَةَ الحَقِّ سُبْحَانَهُ عَلىٰ بُلُوْغِ الأَغْرَاضِ. فَأَيْنَ تَكُوْنُ البَلْوَىٰ إِذَن؟!

لا وَاللهِ؛ لا بُدَّ مِنَ انْعِكَاسِ المُرَادَاتِ، وَمِنْ تَوَقُّفِ أَجْوِبَةِ السُّؤَالَاتِ، وَمِنْ تَشَفِّي الأَعْدَاءِ في أَوْقَاتٍ.

فَأَمَّا مَنْ يُرِيْدُ أَنْ تَدُوْمَ لَهُ السَّلَامةُ، والنَّصْرُ عَلىٰ مَنْ يُعَادِيْهِ، والعَافِيَةُ مِنْ غَيْرِ بَلاءٍ؛ فَمَا عَرَفَ التَّكْلِيْفَ، وَلا فَهِمَ التَّسْلِيمَ.

أَلَيْسَ الرَّسُوْلُ ﷺ يُنْصَرُ يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا جَرَىٰ يَوْمَ أُحُدٍ؟! أَلَيْسَ يُصَدُّ عَنِ البَيْتِ ثُمَّ قَهَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ؟!

٩٧٢ ـ فَلَا بُدَّ مِنْ جَيِّدٍ وَرَدِيءٍ، وَالجَيِّدُ يُوْجِبُ الشُّكْرَ، وَالرَّدِيءُ يُحَرِّكُ إِلىٰ السُّؤَالِ والدُّعَاءِ؛ فَإِنِ امْتَنَعَ الجَوَابُ؛ أُرِيْدَ نُفُوْذُ البَلَاءِ، والتَّسْلِيمُ لِلْقَضَاءِ.

وَهاهُنا يَبِيْنُ الإِيْمَانُ، ويَظْهَرُ فِي التَّسْلِيْمِ جَوَاهِرُ الرِّجَالِ. فَإِنْ تَحَقَّقَ التَّسْلِيْمُ بَاطِنًا وظَاهِرًا؛ فَذٰلِكَ شَأْنُ الكَامِلِ. وَإِنْ وُجِدَ فِي البَاطِنِ انْعِصَارٌ مِنَ القَضَاءِ لا مِنَ المَقْضِيِّ ـ فَإِنَّ الطَّبْعَ لا بُدَّ أَنْ يَنْفِرَ مِنَ المُؤْذِي ـ؛ دَلَّ عَلَىٰ ضَعْفِ المَعْرِفَةِ. فَإِنْ خَرَجَ الأَمْرُ إِلىٰ الاعْتِرَاضِ بِاللِّسَانِ؛ فَتِلْكَ حَالُ الجُهَّالِ، نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْهَا.

٢١١ - فصل: من الابتلاء العظيم إقامة الرجل في غير مقامه

٩٧٣ ـ مِنَ الابْتِلَاءِ العَظِيْمِ إِقَامَةُ الرَّجُلِ فِيْ غَيْرِ مَقَامِهِ. مِثْلُ أَنْ يُحْوَجَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ إِلىٰ مُدَارَاةِ الظَّالِمِ وَالتَّرَدُّدِ إِلَيْهِ، وَإِلىٰ مُخَالَطَةِ مَنْ لا يَصْلُحُ، وَإِلىٰ أَعْمَالٍ لا تَلِيْقُ بِهِ، أَوْ إِلىٰ أُمُوْرٍ تَقْطَعُ عَلَيْهِ مُرَادَهُ الَّذِي يُؤْثِرُهُ. مِثْلُ أَنْ يُقَالَ لِلعَالِمِ: تَرَدَّدْ إِلىٰ الأَمِيْرِ، وَإِلَّا؛ خِفْنا عَلَيْكَ سَطْوَتَه! فَيَتَرَدَّدُ، فَيَرَىٰ مَا لا يَصْلُحُ لَهُ، وَلا يُمْكِنُهُ أَنْ يُنْكِرَ.

٩٧٤ ـ أَوْ يَحْتَاجُ إِلىٰ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا ـ وَقَدْ مُنِعَ حَقَّهُ ـ فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ يُعَرِّضَ بِذِكْرِ ذٰلِكَ، أَوْ يُصَرِّحُ لِيَنَالَ بَعْضَ حَقِّهِ، وَيَحْتَاجُ إِلىٰ مُدَارَاةِ مَنْ تَصْعُبُ مَدَارَاتُه، بَلْ يَتَشَتَّتُ هَمُّهُ لِتِلْكَ الضَّرُوْرَاتِ.

٩٧٥ ـ وَكذٰلِكَ يَفْتَقِرُ إِلىٰ الدُّخُوْلِ فِي أُمُوْرٍ لا تَلِيْقُ به؛ مِثْلُ أَنْ يَحْتَاجَ إِلىٰ الكَسْبِ، فَيَتَرَدَّدَ إِلىٰ السُّوْقِ، أَوْ يَخْدُمَ مَنْ يُعْطِيْهِ أُجْرَتَهُ! وَهٰذَا لا يَحْتَمِلُهُ قَلْبُ المُرَاقِبِ للهِ سُبْحَانَه؛ لِأَجْلِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ الأَكْدَارِ، أَوْ يَكُوْنَ لَهُ عَائِلَةٌ وَهُوَ فَقِيْرٌ، فَيَتَفَكَّرَ فِي إِغْنَائِهِم، فَيَدْخُلَ فِي مَدَاخِلَ كُلُّهَا عِنْدَهُ عَظِيْمَةٌ.

٩٧٦ ـ وَقَدْ يُبْتَلَىٰ بِفَقْدِ مَنْ يُحِبُّ، أَوْ بِبَلاءٍ في بَدَنِهِ، أَوْ بِعَكْسِ أَغْرَاضِهِ، وَتَسْلِيْطِ مُعَادِيْهِ عَلَيْهِ، فَيَرَىٰ الفَاسِقَ يَقْهَرُهُ، والظَّالِمَ يُذِلُّهُ! وَكُلُّ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ تُكَدِّرُ عَلَيْهِ العَيْشَ، وَتَكَادُ تُزَلْزِلُ القَلْبَ.

٩٧٧ ـ وَلَيْسَ فِي الابْتِلَاءِ بِقُوَّةِ الأَشْيَاءِ إِلَّا التَّسْلِيْمُ، وَاللَّجَأُ إِلَىٰ المُقَدِّرِ فِي الفَرَجِ، فَيُرَى الرَّجُلُ المُؤْمِنُ الحَازِمُ يَثْبُتُ لِهٰذِهِ العَظَائِمِ، وَلا يَتَغَيَّرُ قَلْبُهُ، وَلا يَنْطِقُ بِالشَّكْوَىٰ لِسَانُهُ.

أَوَلَيْسَ **الرَّسُوْلُ** ﷺ يَحْتَاجُ أَنْ يَقُوْلَ: «**مَنْ يُؤْوِيني؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟**»[(١)]، وَيَفْتَقِرُ إِلىٰ **أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ فِي جِوَارِ كَافِرٍ**[(٢)]، **وَيُلْقَىٰ السَّلَىٰ عَلىٰ ظَهْرِهِ**[(٣)]، **وَيُقْتَلُ أَصْحَابُهُ، وَيُدَارِي المُؤَلَّفَةَ، وَيَشْتَدُّ جُوْعُه**، وَهُوَ سَاكِنٌ لا يَتَغَيَّرُ؟! وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّه عَلِمَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ، لِيَنْظُرَ اللهُ فِيْهَا كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ؟

وَمِمَّا يُهَوِّنُ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ عِلْمُ العَبْدِ بِالأَجْرِ، وَأَنَّ ذٰلِكَ مُرَادُ الحَقِّ.

..... **فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ**[(٤)]

٢١٢ - فصل: العالم الذي يجمع المال من وجوه قبيحة

٩٧٨ ـ لَا يُنْكَرُ أَنَّ الطِّبَاعَ تُحِبُّ المَالَ؛ لأَنَّهُ سَبَبُ بَقَاءِ الأَبْدَانِ، لٰكِنَّهُ يَزِيْدُ حُبُّهُ فِي بَعْضِ القُلُوْبِ، حَتَّىٰ يَصِيْرَ مَحْبُوبًا لِذَاتِهِ، لَا للتَّوَصُّلِ بِهِ إِلَىٰ المَقَاصِدِ! فَتَرَىٰ

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) بجوار المطعم بن عدي.

(٣) رواه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه، و(السلى) جلدة رقيقة يخرج المولود ملفوفًا به.

(٤) عجز بيت لأبي الطيب المتنبي، وصدره: (إن كان سركم ما قال حاسدنا)، ديوانه ص(٣٢٤).

البَخِيْلَ يَحْمِلُ عَلىٰ نَفْسِهِ العَجَائِبَ، وَيَمْنَعُها اللَّذَّاتِ، وتَصِيْرُ لَذَّاتُهُ فِي جَمْعِ المَالِ! وَهٰذِهِ جِبِلَّةٌ[1] فِي خَلْقٍ كَثِيْرٍ، وَلَيْسَ العَجَبُ أَنْ تَكُوْنَ فِي الجُهَّالِ.

٩٧٩ ـ وَيَنْبَغِي أَنْ يُؤْثَرَ فِيْهَا عِنْدَ العُلَمَاءِ المُجَاهَدَةُ لِلطَّبْعِ ومُخَالَفَتُهُ، خُصُوْصًا فِي الأَفْعَالِ اللّازِمَةِ فِي جَمْعِ المَالِ، فَأَمَّا أَنْ يَكُوْنَ العَالِمُ جَامِعًا لِلْمَالِ مِنْ وُجُوْهٍ قَبِيْحَةٍ، وَمَنْ شُبُهاتٍ قويَّةٍ، وَبِحرْصٍ شَدِيْدٍ، وَبِذُلٍّ فِيْ الطَّلَبِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنَ الزَّكَواتِ، وَلا تَحِلُّ لَهُ مَعَ الغِنَىٰ، ثُمَّ يدَّخِرُهُ، ولا يَنْفَعُ بِهِ: فَهٰذِهِ بَهِيْمِيَّةٌ تَخْرُجُ عَنِ صِفَاتِ الآدَمِيَّةِ، بَلِ البَهِيْمِيَّةُ أَعْذَرُ؛ لأَنَّها بِالرِّيَاضَةِ تَتَغَيَّرُ طِبَاعُهَا، وَهٰؤُلاءِ مَا غَيَّرَتْهُمْ الرِّيَاضَةُ، ولا أَفَادَهُمُ العِلْمُ!

٩٨٠ ـ وَلَقَدْ كَانَ أَبُو الحَسَنِ البِسْطَامِيُّ[2] مُقِيْمًا فِي رِبَاطِ البِسْطامِيِّ[3] الَّذِي عَلَىٰ نَهْرِ عِيْسَىٰ، وَكَانَ لا يَلْبَسُ إِلَّا الصُّوْفَ شِتَاءً وَصَيْفًا، وَكَانَ يُحْتَرَمُ وَيُقْصَدُ، فَخَلَّفَ مَالًا يَزِيْدُ عَلىٰ أَرْبَعَةِ آلافِ دِيْنَارٍ!

٩٨١ ـ وَرَأَيْنَا بَعْضَ أَشْيَاخِنَا، وَقَدْ بَلَغَ الثَّمَانِيْنَ، وَلَيْسَ لَهُ أَهْلٌ وَلا وَلَدٌ، وَقَدْ مَرِضَ، فَأَلْقَىٰ نَفْسَه عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ؛ يَتَكَلَّفُ لَهُ ذٰلِكَ الرَّجُلُ مَا يَشْتَهِيْهِ وَمَا يَشْفِيْهِ، فَمَاتَ، فَخَلَّفَ أَمْوَالًا عَظِيْمَةً!

٩٨٢ ـ وَرَأَيْنَا صَدَقَةَ بْنَ الحُسَيْنِ[4] النَّاسِخَ، وَكَانَ عَلىٰ الدَّوَامِ يَذُمُّ الزَّمَانَ وَأَهْلَهَ، وَيُبَالِغُ فِي الطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ، وَيَتَجَفَّفُ، وَهُوَ فِي المَسْجِدِ وَحْدَهُ، لَيْسَ لَهُ مَنْ يَقُوْمُ بِأَمْرِهِ، فَمَاتَ، فَخَلَّفَ فِيْمَا قِيْلَ ثَلَاثَ مِئَةِ دِيْنَارٍ.

٩٨٣ ـ وَكَانَ يَصْحَبُنا أَبُو طَالِبِ بْنُ المُؤَيَّدِ الصُّوْفِيُّ[5]، وَكَانَ يَجْمَعُ المَالَ، فَسُرِقَ مِنْهُ نَحْوُ مِئَةِ دِيْنَارٍ، فَتَلَهَّفَ عَلَيْهَا، وَكانَ ذٰلِكَ سَبَبَ هَلَاكِهِ.

٩٨٤ ـ وَمِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ أَنَّكَ تَرَىٰ أَقْوَامًا جَلَسُوْا عَلىٰ صِفَةِ القَوْمِ، يَطْلُبُوْنَ

---

(١) **الجبلة**: الخلقة والطبيعة.
(٢) لم أقف على ترجمته.
(٣) في بغداد.
(٤) صدقة بن الحسين العلامة البغدادي الفرضي، توفي سنة (٥٧٣هـ).
(٥) لم أجد ترجمته.

الفُتُوْحَ، فَيَأْتِيهِم مِنْهَا الكَثِيْرُ، الّذِي يَصِيْرُوْنَ بِهِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ، وَهُمْ لا يَمْتَنِعُوْنَ مِنْ أَخْذِ زَكَاةٍ، وَلا مِنْ طَلَبٍ! وَكَذٰلِكَ **القُصَّاصُ**؛ يَخْرُجُوْنَ إِلىٰ البِلَادِ، وَيَطْلُبُوْنَ، فَيَحْصُلُ لَهُمُ المَالُ الكَثِيْرُ، فَلَا يَتْرُكُوْنَ الطَّلَبَ عَادَةً.

فَيَا سُبْحَانَ اللهِ! أَيُّ شَيْءٍ أَفَادَ العِلْمُ؟! بَلِ الجَهْلُ كَانَ لِهٰؤلَاءِ أَعْذَرُ!

٩٨٥ ـ وَمِنْ أَقْبَحِ أَحْوَالِهِم لُزُوْمُهُم الأَسْبَابَ الّتِي تَجْلِبُ لَهُمُ الدُّنْيَا؛ مِنَ التَّخَاشُعِ، والتَّنَسُّكِ فِي الظَّاهِرِ، وَمُلَازَمَةِ حَثِّ العُزْلَةِ عَنِ المُخَالَطَةِ! وَكُلُّ هٰؤلاءِ بِمَعْزِلٍ عَنِ الشَّرْعِ.

٩٨٦ ـ وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ عَلىٰ بَعْضِهِم مِنَ القَدْحِ فِي نَظِيْرِهِ إِلَىٰ أَنْ يَبْلُغَ إِلىٰ التَّعَرُّضِ بِهِ لِلهَلَاكِ. فَالْوَيْلُ لَهُمْ! مَا أَقَلَّ مَا يَتَمَتَّعُوْنَ بِظَوَاهِرِ الدُّنْيا! وَإِنْ كَانَ مُقَلِّبُ القُلُوْبِ، قَدْ صَرَفَ القُلُوْبَ عَنْ مَحَبَّتِهِم ـ لِأَنَّ الحَقَّ ﷻ لا يَمِيْلُ بِالقُلُوْبِ إِلَّا إِلىٰ المُخْلِصِيْنَ ـ؛ فَقَدْ فَاتَتْهُمُ الدُّنيا عَلىٰ الحَقِيْقَةِ، وَمَا حَصَّلُوا إِلَّا صُوْرَةَ الحُطَامِ! نَسْأَلُ اللهَ ﷻ عَقْلًا يُدبِّرُ دُنْيانا، ويُحَصِّلُ لَنَا آخِرَتَنا، وَالرزَّاقُ قَادِرٌ.

٢١٣ - فصل: من عرف شرف الوجود يحصّل أفضل الموجود

٩٨٧ ـ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ شَرَفَ الوُجُوْدِ أَنْ يُحَصِّلَ أَفْضَلَ المَوْجُوْدِ. هٰذَا العُمُرُ مَوْسِمٌ، وَالتِّجَارَاتُ تَخْتَلِفُ، وَالعَامَّةُ تَقُوْلُ: عَلَيْكُمْ بِمَا خَفَّ حَمْلُهُ، وكَثُرَ ثَمَنُهُ؛ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْتَيْقِظِ ألّا يَطْلُبَ إِلَّا الأَنْفَسَ.

٩٨٨ ـ وَأَنْفَسُ الأَشْيَاءِ فِي الدُّنْيا مَعْرِفَةُ الحَقِّ ﷻ. **فَمِنَ** العَارِفِيْنَ السَّالِكِيْنَ مَنْ وَافَىٰ فِي طَرِيْقِهِ بُغْيَتَه فِي السَّفَرِ. **وَمِنهُم** مَنْ هِمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِطَلَبِ رِبْحِهِ. **وَمِنْهُمْ** مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يُرْضِي الحَبِيْبَ، فَيَجْلِبُهُ إِلَىٰ بَلَدِ المُعَامَلَةِ، وَيَرْضَىٰ بِالقَبُوْلِ ثَمَنًا، وَيَرَىٰ أَنَّ كُلَّ البَضَائِعِ لا تَفِي بِحَقِّ الخِفَارَةِ[1]. **وَمِنْهُمْ** مَنْ يَرَىٰ لُزُوْمَ الشُّكْرِ فِي اخْتِيَارِهِ [هٰذَا] السُّلُوْكَ دُوْنَ غَيْرِهِ، فيُقِرُّ بِالعَجْزِ.

وَقَدِ ارْتَفَعَ قَوْمٌ عَنْ هٰذِهِ الأَحْوَالِ، فَرَأَوْا مُجَرَّدَ التَّوْفِيْقِ يَشْغَلُهُم عَنِ النَّظَرِ إِلىٰ

---

(١) **الخفارة**: الحفظ، وفي نسخة: الحفاوة.

العَمَلِ. أولئكَ الأَقَلُّوْنَ عَدَدًا، وَإِنَّ الأَعْظَمِيْنَ قَدْرًا أَقَلُّ نَسْلًا مِنْ عَنْقَاءِ مَغْرِبَ[1].

٢١٤ - فصل: البدار البدار فقد قرب الرحيل

٩٨٩ - مَنْ عَلِمَ قُرْبَ الرَّحِيْلِ عَنْ مَكَّةَ؛ اسْتَكْثَرَ مِنَ الطَّوَافِ، خُصُوْصًا إِنْ كَانَ لا يُؤَمِّلُ العَوْدَ؛ لِكِبَرِ سِنِّهِ، وَضَعْفِ قوَّتِه. فكذٰلِكَ يَنْبَغِي لِمَنْ قَارَبَهُ سَاحِلُ الأَجَلِ بِعُلوِّ سِنِّه أَنْ يُبَادِرَ اللَّحَظَاتِ، ويَنْتَظِرَ الهَاجِمَ[2] بِمَا يَصْلُحُ لَهُ؛ فَقَدْ كَانَ فِي قَوْسِ الأَجَلِ مِنْزَعٌ[3] زَمَانَ الشَّبَابِ، واسْتَرْخَىٰ الوَتَرُ فِي المَشِيْبِ عَنْ سِيَةِ القَوْسِ[4]، فَانْحَدَرَ إِلىٰ القَابِ[5]، وَضَعُفَتِ القُوَىٰ، وَمَا بَقِيَ إِلَّا الاسْتِسْلَامُ لِمَحَارِبِ التَّلَفِ.

فَالبِدَارَ البِدَارَ إِلىٰ التَّنْظِيْفِ؛ لِيَكُوْنَ القُدُوْمُ عَلىٰ طَهَارَةٍ.

٩٩٠ - وَأَيُّ عَيْشٍ فِي الدُّنْيَا يَطِيْبُ لِمَنْ أَيَّامُهُ السَّلِيْمَةُ تُقَرِّبُهُ إِلَىٰ الهَلَاكِ، وَصُعُوْدُ عُمُرِهِ نُزُوْلٌ عَنِ الحَيَاةِ، وَطُوْلُ بَقَائِهِ نَقْصُ مَدَىٰ المُدَّةِ؟!

فَلْيَتَفَكَّرْ فِيْمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ أَهَمُّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ. أَلَيْسَ فِي (الصحِيْحِ): **«مَا مِنْكُم أَحَدٌ إِلَّا وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هٰذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ»**[6]؟!

فَوَا أَسَفا لِمُهَدَّدٍ كَمْ يُقْتَلُ قَبْلَ القَتْلِ! وَيَا طِيْبَ عَيْشٍ لِمَوْعُوْدٍ بِأَزْيَدِ المُنَىٰ! وَلِيَعْلَمْ مَنْ شَارَفَ السَّبْعِيْنَ أَنَّ النَّفَسَ أَنِيْنٌ! أَعَانَ اللهُ مَنْ قَطَعَ عَقَبَةَ العُمُرِ عَلَىٰ رَمَلِ زَرُوْدٍ[7] المَوْتِ.

---

(١) طائر أسطوري يضرب مثلًا لما يستحيل وجوده.

(٢) **الهاجم**: الموت.

(٣) **المنزع**: السهم.

(٤) **سية القوس**: ما عطف من طرفيه.

(٥) **القاب**: ما بين مقبض القوس والسية.

(٦) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما. وطرفه: «إنّ أحدكم إذا مات..».

(٧) **زرود**: صحراء بين الثعلبية والحزيمية للقادم إلى مكة من العراق.

٢١٥ - فصل: رضا الرسول ﷺ عن ربّه

٩٩١ ـ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ حَقِيْقَةَ الرِّضَا عَنِ اللهِ ﷻ فِي أَفْعَالِهِ، وَأَنْ يَدْرِيَ مِنْ أَيْنَ يَنْشَأُ الرِّضَا؛ فَلْيَتَفَكَّرْ فِي أَحْوَالِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

فَإِنَّهُ لَمَّا تَكَامَلَتْ مَعْرِفَتُهُ بِالخَالِقِ سبحانَه؛ رَأَىٰ أَنَّ الخَالِقَ **مَالِكٌ**، وَلِلمَالِكِ التَّصَرُّفُ فِي مَمْلُوْكِهِ، وَرَآهُ **حَكِيْمًا** لا يَصْنَعُ شَيْئًا عَبَثًا، فَسَلَّمَ تَسْلِيْمَ مَمْلُوْكٍ لِحَكِيْمٍ، فَكَانَتِ العَجَائِبُ تَجْرِي عَلَيْهِ، وَلا يُوْجَدُ مِنْهُ تَغيُّرٌ، وَلا مِنَ الطَّبْعِ تَأَفُّفٌ، وَلا يَقُوْلُ بِلِسَانِ الحَالِ: لَوْ كَانَ كَذَا! بَلْ يَثْبُتُ لِلأَقْدَارِ ثُبُوْتَ الجَبَلِ لِعَوَاصِفِ الرِّيَاحِ.

٩٩٢ ـ هٰذَا سَيِّدُ الرُّسْلِ ﷺ بُعِثَ إِلَىٰ الخَلْقِ وَحْدَهُ، وَالكُفْرُ قَدْ مَلأَ الآفَاقَ، فَجَعَلَ يَفِرُّ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، وَاسْتَتَرَ فِي دَارِ الخَيْزُرَانِ[١]، وَهُمْ يَضْرِبُوْنَه إِذا خَرَجَ، وَيُدْمُونَ عَقِبَهُ[٢]، وَأُلْقِيَ[٣] السَّلَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، وَهُوَ سَاكِتٌ سَاكِنٌ وَيَخرُجُ كُلَّ مَوْسِمٍ فَيَقُوْلُ: «**مَنْ يُؤْوِيني؟ مَنْ يَنْصُرُني؟**»... ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ العَوْدِ إِلَّا فِي جِوَارِ كَافِرٍ[٤].

وَلَمْ يُوْجَدْ مِنَ الطَّبْعِ تَأَفُّفٌ، وَلا مِنَ البَاطِنِ اعْتِرَاضٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ؛ لَقَالَ: يَا رَبِّ! أَنْتَ مَالِكُ الخَلْقِ، وقادرٌ عَلَىٰ النَّصْرِ؛ فَلِمَ أُذَلُّ؟! كَمَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه يَوْمَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ: أَلَسْنا عَلَىٰ الحَقِّ؟! فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِيْنِنَا؟! وَلَمَّا قَالَ هٰذَا؛ قَالَ لَهُ الرَّسُوْلُ ﷺ: «**إِنِّي عَبْدُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي**»[٥]. فَجَمَعَتِ الكَلِمَتَانِ الأَصْلَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا: فَقَوْلُهُ: «**إِنِّي عَبْدُ اللهِ**»: إِقْرَارٌ بِالمِلْكِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا مَمْلُوْكٌ يَفْعَلُ بِيْ مَا يَشَاءُ. وَقَوْلُهُ: «**لَنْ يُضَيِّعَنِي**»: بَيَانُ حِكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ لا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا.

ثُمَّ يُبْتَلَىٰ بِالجُوْعِ، فَيَشُدُّ الحَجَرَ[٦]، ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧].

---

(١) هي دار الأرقم بن أبي الأرقم، ثم تملكتها الخيزران زوجة الخليفة العباسي محمد المهدي وأم ابنيه موسى الهادي وهارون الرشيد، وكانت حازمةً متفقهة، توفيت سنة (١٧٣هـ).

(٢) رواه ابن هشام في السيرة (١/ ٢٦٠) عن ابن إسحاق.

(٣) في الأصل: وشُقَّ.

(٤) هو مطعم بن عدي.

(٥) رواه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥) عن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٦) كما في غزوة الخندق رواه البخاري (٤١٠٢)، و(٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩) عن جابر رضي الله عنه.

وَيُقْتَلُ أَصْحَابُه، ويُشَجُّ وَجْهُهُ، وتُكْسَرُ رَبَاعِيَتُهُ[١]، ويُمَثَّلُ بِعَمِّهِ[٢]... وهو ساكتٌ. ثم يُرْزَقُ ابنًا، ويُسْلَبُ منهُ[٣]، فَيَتَعَلَّلُ[٤] بِالحَسَنِ والحُسَيْنِ، فَيُخْبَرُ بِمَا سَيَجْرِي عَلَيْهِما[٥]. ويَسْكُنُ بِالطَّبْعِ إِلَىٰ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فيُنَغَّصُ عَيْشُهُ بقذفِها[٦]. وَيُبَالِغُ فِي إِظْهَارِ المُعْجِزَاتِ، فَيُقَامُ فِي وَجْهِهِ مُسَيْلَمَةُ[٧] والعَنْسِيُّ[٨] وابنُ صَيّادٍ[٩]. وَيُقِيْمُ نَامُوْسَ الأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ، فَيُقَالُ: كذَّابٌ! سَاحِرٌ!

ثُمَّ يَعْلَقُهُ المَرْضُ كَمَا يُوْعَكُ رَجُلَانِ، وَهُوَ سَاكِنٌ سَاكِتٌ[١٠]. فَإِنْ أَخْبَرَ بِحَالِهِ؛ فَلِيُعَلِّمَ الصَّبْرَ. ثُمَّ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ المَوْتُ، فيُسْلَبُ رُوْحَهُ الشَّرِيْفَةَ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ فِي كِسَاءٍ مُلَبَّدٍ، وَإِزَارٍ غَلِيْظٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ زَيْتٌ يُوْقَدُ بِهِ المِصْبَاحُ لَيْلَتَئِذٍ[١١].

هٰذا الشَّيْءُ مَا قَدَرَ عَلَىٰ الصَّبْرِ عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَلَوِ ابْتُلِيَتْ بِهِ المَلَائِكَةُ؛ مَا صَبَرَتْ.

٩٩٣ ـ هٰذَا **آدَمُ** عليه السلام تُبَاحُ لَهُ الجَنَّةُ سِوَىٰ شَجَرَةٍ، فَلَا يَقَعُ ذُبَابُ حِرْصِهِ[١٢] إِلَّا عَلَىٰ العَقْرِ[١٣]، وَنَبِيُّنا ﷺ يَقُوْلُ فِي المُبَاحِ: **«ما لي وللدُّنيا؟!»**[١٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٧٩٠) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٠٧٢) عن وحشي. (٣) رواه البخاري (١٣٠٣) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) **يتعلل**: يسلي نفسه.

(٥) رواه البخاري (٢٧٠٤) عن الحسن رضي الله عنه.

(٦) انظر: سورة النور الآيات (١١ ـ ٢٠)، والبخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٧) مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب، كان مقتله سنة (١٢هـ)، انظر: بقية شأنه في الفصل (٣٠٩).

(٨) عيهلة بن كعب المذحجي، المعروف بالأسود، متنبئ مشعوذ، كان مقتله سنة (١١هـ)، انظر: تتمة خبره في الفصل (٣٠٩).

(٩) من كهنة يهود المدينة خبره في البخاري (١٣٥٤ و١٣٥٥)، ومسلم (٢٩٣٠ و٢٩٣١).

(١٠) رواه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(١١) لم أجده.

(١٢) ذباب حرصه: شبه الحرص بالسيف، وذبابه: رأسه الذي يجرح، فكأن الحرص ينكأ جرحًا قديمًا. أو أن يكون قصد الذباب المعروف الذي يقع على الجروح فيفسدها.

(١٣) **العقر**: الجرح.

(١٤) رواه البخاري (٢٦١٣) عن ابن عمر رضي الله عنه

وهٰذا **نُوحٌ** عليه السلام يَضِجُّ مِمَّا لَاقَىٰ، فَيَصِيْحُ مِنْ كَمَدِ وَجْدِهِ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وَنَبِيُّنا ﷺ يَقُوْلُ: «**اللَّهُمَّ! اهْدِ قَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُوْنَ**»(١).

٩٩٤ ـ هٰذا الكَلِيْمُ **مُوْسَىٰ** عليه السلام؛ يَسْتَغِيْثُ عِنْدَ عِبَادَةِ قَوْمِهِ العِجْلَ عَلَىٰ القَدَرِ قَائِلًا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وَيُوَجَّهُ إِلَيْهِ مَلَكُ المَوْتِ فَيَقْلَعُ عَيْنَهُ(٢). **وَعِيْسَىٰ** عليه السلام يَقُوْلُ: إِنْ صَرَفْتَ المَوْتَ عَنْ أَحَدٍ؛ فَٱصْرِفْهُ عَنِّي، وَنَبِيُّنا ﷺ يُخَيَّرُ بَيْنَ البَقَاءِ والمَوْتِ، فَيَخْتَارُ الرَّحِيْلَ إِلَىٰ الرَّفِيْقِ الأَعْلَىٰ(٣).

٩٩٥ ـ هٰذَا سُلَيْمَانُ عليه السلام يَقُوْلُ: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥]، وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُوْلُ: «**اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا**»(٤). هٰذَا واللهِ فِعْلُ رَجُلٍ عَرَفَ الوُجُوْدَ وَالمُوْجِدَ، فَمَاتَتْ أَغْرَاضُهُ، وَسَكَنَتْ ٱعْتِرَاضَاتُهُ، فَصَارَ هَوَاهُ فِيْمَا يَجْرِي.

٢١٦ - فصل: أكثر شهوات الحسِّ النِّسَاءُ

٩٩٦ ـ **أَكْثَرُ شَهَوَاتِ الحِسِّ النِّسَاءُ**. وَقَدْ يَرَىٰ الإِنْسَانُ ٱمْرَأَةً فِي ثِيَابِهَا، فَيَتَخَايَلُ لَهُ أَنَّهَا أَحْسَنُ مِنْ زَوْجَتِهِ، أَوْ يَتَصَوَّرُ بِفِكْرِهِ المُسْتَحْسَنَاتِ، وَفِكْرُهُ لا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَىٰ الحُسْنِ مِنَ الْمَرْأَةِ، فَيَسْعَىٰ فِي التَّزَوُّجِ والتَّسَرِّي؛ فَإِذَا حَصَلَ لَهُ مُرَادُهُ؛ لَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ فِي العُيُوْبِ الحَاصِلَةِ، الّتِي مَا كَانَ يَتَفَكَّرُ فِيْهَا، فَيَمَلُّ، وَيَطْلُبُ شَيْئًا آخَرَ، وَلا يَدْرِي أَنَّ حُصُوْلَ أَغْرَاضِهِ فِي الظَّاهِرِ رُبَّمَا ٱشْتَمَلَ عَلَىٰ مِحَنٍ، مِنْهَا أَنْ تَكُوْنَ الثَّانِيَةُ لَا دِيْنَ لَهَا، أَوْ لَا عَقْلَ، أَوْ لا مَحَبَّةَ لَهَا، أَوْ لا تَدْبِيْرَ، فَيَفُوْتُ أَكْثَرُ مِمَّا حَصَلَ!

وَهٰذَا المَعْنَىٰ هُوَ الّذِي أَوْقَعَ الزُّنَاةَ فِي الفَوَاحِشِ؛ لأَنَّهُمْ يُجَالِسُوْنَ المَرْأَةَ حَالَ ٱسْتِتَارِ عُيُوْبِهَا عَنْهُمْ، وظُهُوْرِ مَحَاسِنِهَا، فَتَلَذُّهُم تِلْكَ السَّاعَةَ، ثُمَّ يَنْتَقِلُوْنَ إِلَىٰ أُخْرَىٰ!

---

(١) البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢) عن ابن مسعود.
(٢) رواه البخاري (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٤) رواه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٩٩٧ ـ فَلْيَعْلَمِ العَاقِلُ أَنْ لا سَبِيْلَ إِلَىٰ حُصُوْلِ مُرَادٍ تامٍّ، كَمَا يُرِيدُ، ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وَمَا عِيْبَ نِسَاءُ الدُّنيا بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

٩٩٨ ـ وَذُوْ الأَنَفَةِ يَأْنَفُ مِنَ الوَسَخِ صُوْرَةً، وعَيْبِ الخُلُقِ مَعْنًىٰ؛ فَلْيَقْنَعْ بِمَا بَاطِنُهُ الدِّيْنُ، وظَاهِرُهُ السَّتْرُ والقَنَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ يَعِيْشُ مُرَفَّهَ السِّرِّ، طَيِّبَ القَلْبِ، وَمَتَىٰ اسْتَكْثَرَ؛ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ شُغْلِ قَلْبِهِ، وَرِقَّةِ دِيْنِهِ.

٢١٧ ـ فصل: كل شخص شغله الله بفن

٩٩٩ ـ سُبْحَانَ مَنْ شَغَلَ كُلَّ شَخْصٍ بِفَنٍّ لِتَنَامَ العُيُوْنُ فِي الدُّنْيَا. فَأَمّا فِي **العُلوم**؛ فَحَبَّبَ إِلَىٰ هٰذا القُرْآنَ، وَإِلَىٰ هٰذَا الحَدِيْثَ، وإِلَىٰ هٰذا النَّحْوَ... إِذْ لَوْلا ذٰلِكَ؛ مَا حُفِظَتِ العُلُوْمُ.

وَأَلْهَمَ هٰذا المُتَعَيِّشَ أَنْ يَكُوْنَ خَبّازًا، وَهٰذا أَنْ يَكُوْنَ هَرّاسًا[1]، وَهٰذَا أَنْ يَنْقُلَ الشَّوْكَ مِنَ الصَّحَرَاءِ، وَهٰذَا أَنْ يُنْقِيَ البِثارَ[2]. لِيَلْتَئِمَ أَمْرُ الخَلْقُ، وَلَوْ أَلْهَمَ أَكْثَرَ النَّاسِ أَنْ يَكُوْنُوْا خَبَّازِينَ مَثَلًا؛ بَاتَ الخُبْزُ وهَلَكَ! أَوَ هَرَّاسِيْنَ؛ جَفَّتِ الهَرايِسُ! بَلْ يُلْهِمُ هٰذَا وذَاكَ بِقَدَرٍ؛ لِيَنْتَظِمَ أَمرُ الدُّنْيا وَأَمْرُ الآخِرَةِ.

١٠٠٠ ـ وَيَنْدُرُ مِنَ الخَلْقِ مَنْ يُلْهِمُه الكَمَالَ، وَطَلَبَ الأَفْضَلِ، والجَمْعَ بَيْنَ العُلُوْمِ وَالأَعْمَالِ، وَمُعَامَلاتِ القُلُوْبِ. وَتتَفَاوَتُ أَرْبَابُ هٰذِهِ الحَالُ. فَسُبْحَانَ مَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ. نَسْأَلُهُ العَفْوَ إِنْ لَمْ يَقَعِ الرِّضا، والسَّلَامةَ [إِنْ] لَمْ نَصْلُحْ لِلْمُعَامَلَةِ.

٢١٨ ـ فصل: علم الحديث هو الشريعة

١٠٠١ ـ عِلْمُ الحَدِيْثِ هُوَ الشَّرِيْعَةُ؛ لأَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِلْقُرْآنِ، وَمُوَضِّحٌ لِلْحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَكَاشِفٌ عَنْ سِيَرِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَسِيَرِ أَصْحَابِهِ.

---

(١) **الهراس**: صانع الهريسة.

(٢) **البثار**: كذا في الأصل، ولعلها البذار.

وقد مَزَجوهُ[1] بالكَذِبِ، وأدْخلوا في المنقولاتِ كلَّ قبيحٍ. فَإِذَا وُفِّقَ الزَّاهِدُ والوَاعِظُ؛ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا مَا شَهِدَا بِصِحَّتِهِ. وَإِنْ حُرِمَا التَّوْفِيْقَ؛ عَمِلَ الزَّاهِدُ بِكُلِّ حَدِيْثٍ يَسْمَعُهُ؛ لِحُسْنِ ظَنِّهِ بِالرُّوَاةِ! وَقَالَ الوَاعِظُ كُلَّ شَيْءٍ يَرَاهُ؛ لِجَهْلِهِ بِالتَّصْحِيْحِ! فَفَسَدَتْ أَحْوَالُ الزَّاهِدِ، وَانْحَرَفَ عَنِ جَادَّةِ الهُدَىٰ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ.

وَكَيْفَ لا، وَعُمُوْمُ الأَحَادِيْثِ الدَّالَةِ عَلَىٰ الزُّهْدِ لا تَثْبُتُ؟! مِثْلُ حَدِيْثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: **«أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ اشْتَهَىٰ شَهْوَةً، فَرَدَّ شَهْوَتَهُ، وَآثَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ غُفِرَ له»**. وهٰذا **حديثٌ موضوعٌ**[2]، يَمْنَعُ الإِنْسَانَ مَا أُبِيْحَ لَهُ، مِمَّا يَتَقَوَّىٰ بِهِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ.

وَمِثْلُ قَوْلِهِ: **«مَنْ وَضَعَ ثِيَابًا حِسَانًا...»**[3]. وَكَذٰلِكَ مَا رَوَوْا: أَنَّ **رَسُوْلَ اللهِ** ﷺ قُدِّمَ لَهُ أُدْمَانٍ، فَقَالَ: **«أُدْمَانٍ في قَدَحٍ؟! لا حَاجَةَ لِي فِيْهِ، أَكْرَهُ أَنْ يَسْأَلَنِيَ اللهُ عَنْ فُضُوْلِ الدُّنْيَا»**[4]. وَفِي «الصَّحِيْحِ»[5]: أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ **أَكَلَ البطِيْخَ بِالرُّطَبِ**.

وَمِثْلُ هٰذَا إِذَا تُتُبِّعَ كَثِيْرٌ[6]!

فَقَدْ بَنَوْا عَلَىٰ فَسَادِه، فَفَسَدَتْ أَحْوَالُ الوَاعِظِ والمَوْعُوْظِ؛ لأَنَّهُ يَبْنِي كَلَامَهُ عَلَىٰ أَشْيَاءَ فَاسِدَةٍ وَمُحَالاتٍ.

١٠٠٢ ـ وَلَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ، يَعْمَلونَ عَلَىٰ أَحَادِيْثَ وَمَنْقُوْلاتٍ لَا تَصِحُّ، فَيَضِيْعُ زَمَانُهُمْ فِي غَيْرِ المَشْرُوْعِ، ثُمَّ يُنْكِرُوْنَ عَلَىٰ العُلَمَاءِ اسْتِعْمَالَهُمْ لِلْمُبَاحَاتِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ التَّجَفُّفَ هُوَ الدِّيْنُ!

---

(١) أي: الزنادقة وجهلة الصوفية إلا أن الله تعالى هيأ للسنة جهابذة المحدثين، فنفوا عنها كل دخيل.

(٢) رواه الدارقطني عن ابن عمر مرفوعًا، وهو موضوع كما قال المؤلف.

(٣) مثال للحديث الموضوع.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٧٤٠٠)، والحاكم (٤/ ١٢٢)، وهو موضوع كما ذكر المؤلف قال الذهبي: منكر واهٍ.

(٥) الذي في البخاري (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٠٤٣) عن عبد الله بن جعفر: كان يأكل القثاء بالرطب. أما أكل البطيخ بالرطب فرواه أبو داود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٨٤٣) عن عائشة رضي الله عنها.

(٦) قد جمع المؤلف كتابًا حافلًا في الأحاديث الموضوعة اسمه (الموضوعات في الأحاديث المرفوعات) وقد طبع محققًا في الرياض في أربعة أجزاء.

١٠٠٣ ـ وَكَذٰلِكَ الوُعَّاظُ يُحَدِّثُونَ النَّاسَ بِمَا لا يَصِحُّ عَنْ الرَّسُوْلِ ﷺ وَلَا أَصْحَابِهِ؛ فَقَدْ صَارَ المُحَالُ عِنْدَهُمْ شَرِيْعَةً. فَسُبْحَانَ مَنْ حَفِظَ هٰذِهِ الشَّرِيْعَةَ بِأَخْبَارِ أَخْيَارٍ، يَنْفُوْنَ عَنْهَا تَحْرِيْفَ الغَالِيْنَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِيْنَ!

٢١٩ - فصل: مسند الإمام أحمد فيه الصحيح وغيره

١٠٠٤ ـ كَانَ قَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ: هَلْ فِي (مُسْنَدِ أَحْمَدَ) مَا لَيْسَ بِصَحِيْحٍ؟ **فَقُلْتُ**: نَعَمْ.

فَعَظُمَ ذٰلِكَ عَلىٰ جَمَاعَةٍ يُنْسَبُوْنَ إِلَىٰ المَذْهَبِ! فَحَمَلْتُ أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُم عَوَامٌّ، وَأَهْمَلْتُ فِكْرَ ذٰلِكَ. وَإِذَا بِهِمْ قَدْ كَتَبُوْا فَتَاوَىٰ، فَكَتَبَ فِيْهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ، ـ مِنْهُمْ أَبُوَ العَلاءِ الهَمْذَانِيُّ[1] ـ يُعْظِمُوْنَ هٰذَا القَوْلَ، وَيَرُدُّوْنَه، وَيُقَبِّحُوْنَ قَوْلَ مَنْ قَالَه! فَبَقِيْتُ دَهِشًا مُتَعَجِّبًا، **وَقُلْتُ فِي نَفْسِي**: وَا عَجَبًا! صَارَ المُنْتَسِبُوْنَ إِلَىٰ العِلْمِ عَامَّةً أَيْضًا! وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُمْ سَمِعُوْا الحَدِيْثَ، وَلَمْ يَبْحَثُوْا عَنْ صَحِيْحِهِ وَسَقِيْمِهِ، وَظَنُّوْا أَنَّ مَنْ قَالَ مَا قُلْتُهُ تَعَرَّضَ لِلطَّعْنِ فِيْمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَلَيْسَ كذٰلِكَ! فَإِنَّ الإِمَامَ أَحْمَدَ رَوَىٰ المَشْهُوْرَ وَالجَيِّدَ والرَدِيْءَ، ثُمَّ هُوَ قَدْ رَدَّ كَثِيْرًا مِمَّا رَوَىٰ، وَلَمْ يَقْبَلْ بِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مَذْهَبًا لَهُ. أَلَيْسَ هُوَ القَائِلَ فِي حَدِيْثِ الوُضُوْءِ بِالنَّبِيْذِ[2]: مَجْهُوْلٌ؟!

١٠٠٥ ـ وَمَنْ نَظَرَ فِي «كِتَابِ العِلَلِ» الّذِي صَنَّفَهُ أَبُوْ بَكْرٍ الخَلَّالُ[3]؛ رَأَىٰ أَحَادِيْثَ كَثِيْرَةً، كُلُّهَا فِي «المُسْنَدِ»، وَقَدْ طَعَنَ فِيْهَا أَحْمَدُ.

وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّ القَاضِي أَبِي يَعْلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ الحُسَيْنِ الفَرَّاءِ[4] فِي مَسْأَلَةِ النَّبِيْذِ؛ قَالَ: إِنَّمَا رَوَىٰ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» مَا اشْتَهَرَ، وَلَمْ يَقْصِدِ الصَّحِيْحَ وَلَا السَّقِيْمَ، وَيَدُلُّ

---

(١) الحسن بن أحمد الهمذاني العطار (٤٨٨ ـ ٥٦٩هـ): حافظ متقن، ومقرئ فاضل رضيُّ الطريقة.

(٢) رواه أبو داود (٨٤)، والترمذي (٨٨)، وابن ماجه (٣٨٤)، وأحمد (١/ ٣٩٨)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أحمد بن محمد (٢٣٤ ـ ٣١١هـ) الإمام الحافظ، وهو الذي جمع علم الإمام أحمد.

(٤) البغدادي، ولي القضاء، وإليه انتهت رئاسة المذهب الحنبلي في عصره، له تصانيف هي عمدة المذهب (٣٨٠ ـ ٤٥٨هـ).

عَلَىٰ ذٰلِكَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ **قَالَ**: قُلْتُ لأَبِي: مَا تَقُوْلُ فِي حَدِيْثِ رِبْعِيِّ بْنِ حِراشٍ عَنْ حُذَيْفَةَ؟ **قَالَ**: الَّذِي يَرْوِيْهِ عَبْدُ العَزِيْزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ[1]؟ **قُلْتُ**: نَعَمْ. **قَالَ**: الأَحَادِيْثُ بِخِلَافِهِ. **قُلْتُ**: فَقَدْ ذَكَرْتَهُ فِي «المُسْنَدِ»؟ **قَالَ**: قَصَدْتُ فِي «المُسْنَدِ» المَشْهُوْرَ؛ فَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْصِدَ مَا صَحَّ عِنْدِي؛ لَمْ أُرِدْ بِهٰذَا (المُسْنَدِ) إِلَّا الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ اليَسِيْرِ، وَلٰكِنَّكَ يَا بُنَيَّ تَعْرِفُ طَرِيْقَتِي فِي الحَدِيْثِ؛ **لَسْتُ أُخَالِفُ مَا ضَعُفَ مِنَ الحَدِيْثِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي البَابِ شَيْءٌ يَدْفَعُهُ**. قَالَ القَاضِي: وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ كَيْفَ طَرِيْقُهُ فِي «المُسْنَدِ»؛ فَمَنْ جَعَلَهُ أَصْلًا لِلصِّحَّةِ؛ فَقَدْ خَالَفَهُ، وَتَرَكَ مَقْصِدَهُ.

١٠٠٦ ـ قُلْتُ: قَدْ غَمَّنِي فِي هٰذَا الزَّمَانِ أَنَّ العُلَمَاءَ ـ لِتَقْصِيْرِهِم فِي العِلْمِ ـ صَارُوْا كالعَامَّةِ، وَإِذَا مَرَّ بِهِم حَدِيْثٌ مَوْضُوْعٌ؛ قَالُوْا: قَدْ رُوِيَ! والبُكَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ عَلَىٰ خَسَاسَةِ الهِمَمِ. وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ.

٢٢٠ - فصل: الأنفة من الرذائل

١٠٠٧ ـ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ فُسَّاقِ القُدَمَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُوْلُ:

مَا أَرَىٰ العَيْشَ غَيْرَ أَنْ تُتْبِعَ النَّفْـ ـسَ هَوَاهَا؛ فَمُخْطِئًا أَوْ مُصِيْبَا

فَتَدَبَّرْتُ حَالَ هٰذَا، وَإِذَا بِهِ مَيِّتُ النَّفْسِ، لَيْسَ لَهُ أَنَفَةٌ عَلَىٰ عِرْضِهِ، وَلا خَوْفُ عَارٍ! وَمِثْلُ هٰذَا لَيْسَ فِي مِسْلَاخِ[2] الآدَمِيِّيْنَ!

فَإِنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يُقْدِمُ عَلَىٰ القَتْلِ لِئَلَّا يُقَالَ: جَبَانٌ. وَيَحْمِلُ الأَثْقَالَ لِيُقَالَ: مَا قَصَّرَ. وَيَخَافُ العَارَ، فَيَصْبِرُ عَلَىٰ كُلِّ آفَةٍ مِنَ الفَقْرِ، وَهُوَ يَسْتُرُ ذٰلِكَ، حَتَّىٰ لا يُرَىٰ بِعَيْنٍ نَاقِصَةٍ. حَتَّىٰ إِنَّ الجَاهِلَ إِذَا قِيْلَ لَهُ: يَا جَاهِلُ! غَضِبَ. وَاللُّصُوْصُ المُتَهَيِّئُوْنَ لِلْحَرَامِ إِذَا قَالَ أَحَدُهُم لِلآخَرِ: لا تَتَكَلَّمْ؛ فَإِنَّ أُخْتَكَ تَفْعَلُ وَتَصْنَعُ! أَخَذَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَتَلَ الأُخْتَ. وَمَنْ لَهُ نَفْسٌ؛ لا يَقِفُ فِي مَقَامِ تُهْمَةٍ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ بِهِ.

---

(١) صدوق عابد، ربما وهم، رمي بالإرجاء، مات سنة (١٥٩هـ) وقد وقع في الأصل (داود)، وهو تصحيف.

(٢) **المسلاخ**: الجلد.

فَأَمّا مَنْ لَا يُبَالِي أَنْ يُرَىٰ سَكْرَانَ، وَلا يُهِمُّهُ إِنْ شُهِرَ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْلِمُهُ ذِكْرُ النَّاسِ لَهُ بِالسَّوْءِ؛ فَذَاكَ فِي عِدَادِ البَهَائِمِ. وَهٰذَا الّذِي يُرِيْدُ أَنْ يُتْبِعَ النَّفْسَ هَوَاهَا؛ لَا يَلْتَذُّ؛ إِلَّا أَلّا يَخَافَ عَنَتًا[1] وَلَا لَوْمًا، وَلَا يَكُوْنُ لَهُ عِرْضٌ يَحْذَرُ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ بَهِيْمَةٌ فِي مِسْلاخِ إِنْسَانٍ. وَإِلَّا؛ فَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ شَرِبَ الخَمْرَ، وَأُخِذَ عَقِيْبَ ذٰلِكَ، وَضُرِبَ، وَشَاعَ فِي النَّاسِ مَا قَدْ فُعِلَ بِهِ؟! أَمَا يَفِي ذٰلِكَ بِاللَّذَّةِ؟! لَا؛ بَلْ يَرْبُوْ عَلَيْهَا أَضْعَافًا. وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ سَاكَنَ الكَسَلَ: إِذَا رَأَىٰ أَقْرَانَهُ قَدْ بَرَّزُوْا فِي العِلْمِ وَهُوَ جَاهِلٌ، أَوِ اسْتَغْنَوا بِالتِّجَارَةِ وَهُوَ فَقِيْرٌ؟! فَهَلْ يَبْقَىٰ للالتِذَاذِ بِالكَسَلِ والرَّاحَةِ مَعْنًىٰ؟! وَلَوْ تَفَكَّرَ الزَّانِي فِي الأُحْدُوْثَةِ عَنْهُ، أَوْ تَصَوَّرَ أَخْذَ الحَدِّ مِنْهُ؛ لَكَفَّ الكَفَّ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَرَىٰ لَذَّةً حَاضِرَةً كَأَنَّهَا لَمْعُ بَرْقٍ، وَيَا شُؤْمَ مَا أَعْقَبَتْ مِنْ طُوْلِ الأَسَىٰ!

هٰذَا كُلُّه فِي العَاجِلِ، فَأَمّا الآجِلُ؛ فَمَنْغَصَةُ العَذَابِ دَائِمَةٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورىٰ: ١٨].

نَسْأَلُ اللهَ أَنَفَةً مِنَ الرَّذَائِلِ، وَهِمَّةً فِي طَلَبِ الفَضَائِلِ؛ إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

٢٢١ - فصل: قد تبغت العقوبات، وقد يؤخرها الحلم

١٠٠٨ - قَدْ تَبْغَتُ العُقُوْبَاتُ، وَقَدْ يُؤَخِّرُهَا الحِلْمُ. وَالعَاقِلُ مَنْ إِذَا فَعَلَ خَطِيْئَةً؛ بادَرَهَا بِالتَّوْبَةِ. فَكَمْ مَغْرُوْرٍ بِإِمْهَالِ العُصَاةِ لَمْ يُمْهَلْ!

١٠٠٩ - وَأَسْرَعُ المَعَاصِي عُقُوْبَةً مَا خَلا عَنْ لَذَّةٍ تُنْسِي النُّهَىٰ[2]، فَتَكُوْنُ تِلْكَ الخَطِيْئَةُ كالمُعَانَدَةِ والمُبَارَزَةِ؛ فَإِنْ كَانَتْ تُوْجِبُ اعْتِرَاضًا عَلَىٰ الخَالِقِ، أَوْ مُنَازَعَةً لَهُ فِي عَظَمَتِهِ: فَتِلْكَ الّتي لا تُتَلافَىٰ، خُصُوْصًا إِنْ وَقَعَتْ مِنْ عَارِفٍ بِاللهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْدُرُ إِهْمَالُهُ.

١٠١٠ - قَالَ **عَبْدُ المَجِيْدِ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ**[3]: كَانَ عِنْدَنَا **بِخُرَاسَانَ** رَجُلٌ كَتَبَ مُصْحَفًا فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: فِيْ كَمْ كَتَبْتَ هٰذَا؟ فَأَوْمَأَ بِالسَّبَّابَةِ

---

(١) **العنت**: المشقة والإثم.
(٢) **النهى**: جمع نهية: العقل.
(٣) ابن أبي روّاد، العالم القدوة، شيخ الحرم، توفي سنة (٢٠٦هـ).

وَالوُسْطَىٰ وَالإِبْهَامِ، وَقَالَ: فِي ثَلَاثٍ، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [الشورىٰ: ١٨]، فَجَفَّتْ أَصَابِعُهُ الثَّلَاثُ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا فِيمَا بَعْدُ.

١٠١١ ـ وَخَطَرَ لِبَعْضِ الفُصَحَاءِ أَنَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَقُوْلَ مِثْلَ القُرْآنِ! فَصَعِدَ إِلَىٰ غُرْفَةٍ، فَانْفَرَدَ فِيْهَا، وَقَالَ: أَمْهِلُوْنِي ثَلَاثًا! فَصَعِدُوْا إِلَيْهِ بَعْدَ الثَّلَاثِ، وَيَدُهُ قَدْ يَبِسَتْ عَلَىٰ القَلَمِ، وَهُوَ مَيِّتٌ.

١٠١٢ ـ قَالَ عَبْدُ المَجِيْدِ: وَرَأَيْتُ رَجُلًا كَانَ يَأْتِي ٱمْرَأَتَهُ حَائِضًا، فَحَاضَ[1]، فَلَمَّا كَثُرَ الأَمْرُ بِهِ؛ تَابَ، فَانْقَطَعَ عَنْهُ.

١٠١٣ ـ وَيَلْحَقُ هٰذَا أَنْ يُعَيِّرَ الإِنْسَانُ شَخْصًا بِفِعْلٍ، وَأَعْظَمُهُ أَنْ يُعَيِّرَهُ بِمَا لَيْسَ إِلَيْهِ، فَيَقُوْلَ: يَا أَعْمَىٰ! وَيَا قَبِيْحَ الخِلْقَةِ! وَقَالَ ابنُ سِيْرِيْنَ: عَيَّرْتُ رَجُلًا بِالفَقْرِ، فَحُبِسْتُ عَلَىٰ دَيْنٍ.

١٠١٤ ـ وَقَدْ تَتَأَخَّرُ العُقُوْبَةُ وَتَأْتِي فِي آخِرِ العُمُرِ؛ فَيَا طُوْلَ التَّعْثِيْرِ مَعَ كِبَرِ السِّنِّ لِذُنُوْبٍ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ!

فالحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ عَوَاقِبِ الخَطَايَا، وَالبِدَارَ البِدَارَ إِلَىٰ مَحْوِهَا بِالإِنَابَةِ؛ فَلَهَا تَأْثِيْرَاتٌ قَبِيْحَةٌ، إِنْ أَسْرَعْتَ، وَإِلَّا؛ اجْتَمَعَتْ وَجَاءَتْ.

٢٢٢ - فصل: أسعد الناس من له قوت بقدر الكفاية

١٠١٥ ـ اعْلَمْ أَنَّ الآدَمِيَّ قَدْ خُلِقَ لأَمْرٍ عَظِيْمٍ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بِمَعْرِفَةِ خَالِقِهِ بِالدَّلِيْلِ، وَلا يَكْفِيْهِ التَّقْلِيْدُ، وَذٰلِكَ يَفْتَقِرُ إِلَىٰ جَمْعِ الهَمِّ فِي طَلَبِهِ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بِإِقَامَةِ المَفْرُوْضَاتِ، وَاجْتِنَابِ المَحَارِمِ؛ فَإِنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَىٰ طَلَبِ العِلْمِ؛ احْتَاجَ إِلَىٰ زِيَادَةِ جَمْعِ الهَمِّ.

١٠١٦ ـ فَأَسْعَدُ النَّاسِ مَنْ لَهُ قُوْتٌ دَارٌّ بِقَدَرِ الكِفَايَةِ، لا مِنْ مِنَنِ النَّاسِ وَصَدَقَاتِهِم، وَقَدْ قَنِعَ بِهِ. فَإِنَّهُ حِيْنَئِذٍ يَجْتَمِعُ هَمُّهُ لمطلوباتِهِ من الدِّيْنِ والدُّنيا والعِلْمِ.

---

(١) أي: خرج بوله أحمر بلون الدم ويسمّى هذا بيلة دموية.

وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُوْتٌ يَكْفِي؛ فَالْهَمُّ الَّذِي يُرِيْدُ اجْتِمَاعَهُ فِي تِلْكَ الأُمُوْرِ يَتَشَتَّتُ، وَيَصِيْرُ طَالِبًا لِلتَّحَيُّلِ فِي [جَمْعِ] القُوْتِ، فَيَذْهَبُ العُمُرُ فِي تَحْصِيْلِ قُوْتِ البَدَنِ الَّذِي يُرِيْدُ مِنْ بَقَائِهِ غَيْرَ بَقَائِهِ، وَيَفُوْتُ المَقْصُوْدُ بِبَقَائِهِ، وَرُبَّمَا احْتَاجَ إِلَىٰ الأَنْذَالِ[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

حَسْبِي مِنَ الدَّهْرِ مَا كَفَانِي ... يَصُونُ عِرْضِي عَنِ الهَوَانِ
مَخَافَةَ أَنْ يَقُوْلَ قَوْمٌ ... فَضْلُ فُلَانٍ عَلَىٰ فُلَانِ

١٠١٧ ـ فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ إِذَا رُزِقَ قُوْتًا، أَوْ كَانَ لَهُ مَوَادُّ: أَنْ يَحْفَظَها؛ لِيَتَجَمَّعَ هَمُّهُ، وَلا يَنْبَغِي أَنْ يُبَذِّرَ فِي ذٰلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ فَيَتَشَتَّتُ هَمُّهُ، وَالنَّفْسُ إِذَا أَحْرَزَتْ قُوْتَها اطْمَأَنَّتْ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ؛ اكْتَسَبَ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ، وَقَلَّلَ الغُلُوَّ؛ لِيَجْمَعَ هَمَّهُ. وَلْيَقْنَعْ بِالْقَلِيْلِ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَىٰ فُضُوْلِ المَالِ؛ وَقَعَ المَحْذُورُ مِنَ التَّشَتُّتِ؛ لأَنَّ التَّشَتُّتَ فِي الأَوَّلِ لِلْعَدَمِ، وَهٰذَا التَّشَتُّتُ يَكُوْنُ لِلْحِرْصِ عَلَىٰ الفُضُوْلِ، فَيَذْهَبُ العُمُرُ عَلَىٰ البَارِدِ[2]:

وَمَنْ يُنْفِقُ الأَيَّامَ فِي حِفْظِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ، فَالَّذِي فَعَلَ الفَقْرُ

١٠١٨ ـ فَافْهَمْ هٰذَا يَا صَاحِبَ الهِمَّةِ فِي طَلَبِ الفَضَائِلِ؛ فَإِنَّك مَا لَمْ تَعْزِلْ قُوْتَ الصِّبْيَانِ؛ شَتَّتُوْا قَلْبَكَ، وَطَبْعُك طِفْلٌ؛ فَفَرِّغْ هَمَّكَ مِن اسْتِعَانَتِهِ، وَاعْرِفْ قَدْرَ شَرَفِ المَالِ الَّذِي أَوْجَبَ جَمْعَ هَمِّكَ، وَصَانَ عِرْضَكَ عَنِ الخَلْقِ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَحْمِلَكَ الكَرَمُ عَلَىٰ فَرْطِ الإِخْرَاجِ، فَتَصِيْرَ كَالفَقِيْرِ المُتَعَرِّضِ لَكَ بِالتَّعَرُّضِ لِغَيْرِكَ.

١٠١٩ ـ وَفِي الحَدِيْثِ: أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ **رَسُوْلَ اللهِ** ﷺ، فَرَأَىٰ عَلَيْهِ آثَارَ الفَقْرِ، فَعَرَّضَ بِهِ، فَأُعْطِيَ شَيْئًا، فَجَاءَ فَقِيْرٌ آخَرُ، فَآثَرَهُ الأَوَّلُ بِبَعْضِ مَا أُعْطِيَ، فَرَمَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ، وَنَهَاهُ عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ[3].

١٠٢٠ ـ وَالقَنَاعَةُ بِمَا يَكْفِي؛ وَتَرْكُ التَّشَوُّفِ إِلَىٰ الفُضُوْلِ أَصْلُ الأُصُوْلِ. وَلَمَّا

---

(١) في الأصل: الانذلال.
(٢) دون فائدة.
(٣) رواه أبو داود (١٦٧٥)، والترمذي (٥١١)، والنسائي (٢٥٣٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

آيَسَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل نَفْسَه مِنْ قَبُوْلِ الهَدَايَا والصِّلَاتِ؛ اجْتَمَعَ هَمُّه، وَحَسُنَ ذِكْرُهُ، وَلَمَّا أَطْمَعَها ابنُ المَدِيْنِيِّ[1] وَغَيْرُهُ؛ سَقَطَ ذِكْرُهُ.

ثُمَّ فِيْمَنْ؟! إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ جَائِرٌ، أَوْ مُزَكٍّ مَنَّانٌ، أَوْ صَدِيْقٌ مُدِلٌّ[2] بِمَا يُعْطِي. وَالعِزُّ أَلَذُّ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ، وَالخُرُوْجُ عَنْ رِبْقَةِ المِنَنِ ـ وَلَوْ بِسَفِّ التُّرَابِ ـ أَفْضَلُ.

٢٢٣ - فصل: التجلد عن المصائب

١٠٢١ ـ قَدْ رُكِّبَ فِي الطِّبَاعِ حُبُّ التَّفْضِيْلِ عَلَىٰ الجِنْسِ؛ فَمَا أَحَدٌ إِلَّا وهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ أَعْلَىٰ دَرَجَةً مِنْ غَيْرِهِ. فَإِذَا وَقَعَتْ نَكْبَةٌ أَوْجَبَتْ نُزُوْلَه عَنْ مَرْتَبَةِ سِوَاهُ؛ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَلَّدَ بِسَتْرِ تِلْكَ النَّكْبَةِ؛ لِئَلَّا يُرَىٰ بِعَيْنِ نَقْصٍ، وَلِيَتَجَمَّلِ المُتَعَفِّفُ حَتَّىٰ لا يُرَىٰ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وَلِيَتَحَامَلِ المَرِيْضُ لِئَلَّا يَشْمَتَ بِهِ ذُوْ العَافِيَةِ.

١٠٢٢ ـ وَقَدْ قَالَ ﷺ لأَصْحَابِهِ حِيْنَ قُدُوْمِهِ مَكَّةَ؛ وَقَدْ أَخَذَتْهُمُ الحُمَّىٰ، فَخَافَ أَنْ يَشْمَتَ بِهِمُ الأَعْدَاءُ حِيْنَ ضَعْفِهِم عَنِ السَّعْيِ، فَقَالَ: «**رَحِمَ اللهُ مَنْ أَظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ الجَلَدَ**»[3]، فَرَمَلُوْا ـ وَالرَّمَلُ: شِدَّةُ السَّعْيِ ـ وَزَالَ ذٰلِكَ السَّبَبُ، وَبَقِيَ الحُكْمُ؛ لِيُتَذَكَّرَ السَّبَبُ، فَيُفْهَمَ مَعْنَاهُ.

١٠٢٣ ـ وَاسْتَأْذَنُوْا عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ، وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ لأَهْلِهِ: أَجْلِسُوْنِي! فَقَعَدَ مُتَمَكِّنًا يُظْهِرُ العَافِيَةَ، فَلَمَّا خَرَجَ العُوَّادُ؛ أَنْشَدَ[4]:

وتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِيْنَ أُرِيهُمُ ... أَنِّيْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيْمَةٍ لا تَنْفَعُ

---

(١) علي بن عبد الله بن جعفر السعدي (١٦١ ـ ٢٣٤هـ): الإمام الحجة أمير المؤمنين في الحديث، ساد الحفاظ في معرفة العلل.

(٢) المدل: المنان.

(٣) رواه البخاري (٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) متمثلًا بهذين البيتين وهما لأبي ذؤيب الهذلي، ديوانه: (٤) وهي مُفضَّلية. و(**ريب الدهر**) مصائبه، و(**أتضعضع**) أضعف، و(**ألفيت**) وجدت. و(**التميمة**) عوذة يحملها الإنسان يزعم أنها ترد الأذى عنه، وقد حرمها الإسلام.

١٠٢٤ ـ وَمَا زَالَ العُقَلَاءُ يُظْهِرُوْنَ التَّجَلُّدَ عِنْدَ المَصَائِبِ وَالفَقْرِ والبَلَاءِ؛ لَئِلَّا يَتَحَمَّلُوا مَعَ النَّوَائِبِ شَمَاتَةَ الأَعْدَاءِ ـ وَإِنَّهَا لأَشَدُّ مِنْ كُلِّ نَائِبَةٍ ـ وَكَانَ فَقِيْرُهُمْ يُظْهِرُ الغِنَىٰ، وَمَرِيْضُهُم يُظْهِرُ العَافِيَةَ.

١٠٢٥ ـ بَلَىٰ، ثَمَّ نُكْتَةٌ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهَا: رُبَّما أَظْهَرَ الإِنْسَانُ كَثْرَةَ المَالِ؛ وَسُبُوْغَ النِّعَمِ، فَأَصَابَهُ عَدُوُّهُ بِالعَيْنِ، فَلَا يَفِي مَا تَبَجَّحَ بِهِ بِمَا يُلاقِي مِن انْعِكَاسِ النِّعْمَةِ!

وَالعَيْنُ لا تُصِيْبُ إِلَّا مَا يُسْتَحْسَنُ، وَلا يَكْفِي الاسْتِحْسَانُ فِي إِصَابَةِ العَيْنِ حَتَّىٰ يَكُوْنَ مِنْ حَاسِدٍ، وَلا يَكْفِي ذٰلِكَ حَتَّىٰ يَكُوْنَ مِنْ شريرِ الطَّبْعِ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هٰذِهِ الصِّفَاتُ؛ خِيْفَ مِنْ إِصَابَةِ العَيْنِ.

فَلْيَكُنِ الإِنْسَانُ مُظْهِرًا لِلتَّجَمُّلِ مَقْدَارَ مَا يَأْمَنُ إِصَابَةَ العَيْنِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ فِي خَيْرٍ، وَلْيَحْذَرِ الإِفْرَاطَ فِي إِظْهَارِ النِّعَمِ؛ فَإِنَّ العَيْنَ هُنَاكَ مَحْذُوْرَةٌ.

وَقَدْ قَالَ يَعْقُوْبُ لِبَنِيْهِ عليه السلام: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، وَإِنَّمَا خَافَ عَلَيْهِمُ العَيْنَ. فَلْيُفْهَمْ هٰذَا الفَصْلُ؛ فَإِنَّهُ يَنْفَعُ مَنْ لَهُ تَدَبُّرٌ.

٢٢٤ - فصل: منازل المؤمنين في الآخرة على قدرهم

١٠٢٦ ـ إِنَّمَا خُلِقْنا لِنَحْيَا مَعَ الخَالِقِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمُحَادَثَتِهِ وَرُؤيَتِهِ فِي البَقَاءِ الدَّائِمِ، وَإِنَّمَا ابْتُدِئَ كَوْنُنَا فِي الدُّنْيَا؛ لأَنَّها فِي مِثَالِ مَكْتَبٍ؛ نَتَعَلَّمُ فِيْهِ الخَطَّ والأَدَبَ؛ لِيَصْلُحَ الصَّبِيُّ عِنْدَ بُلُوْغِهِ للرُّتَبِ.

١٠٢٧ ـ فَمِنَ الصِّبْيَانِ بَعِيْدُ الذِّهْنِ، يَطُوْلُ مُكْثُهُ فِي المَكْتَبِ، وَيَخْرُجُ وَمَا فَهِمَ شَيْئًا. **وَهٰذَا مِثَالُ** مَنْ لا يَعْلَمُ وُجُوْدَهُ، ولا نَالَ المُرَادَ مِنْ كَوْنِهِ.

١٠٢٨ ـ وَمِنَ الصِّبْيَانِ مَنْ يَجْمَعُ مَعَ بُعْدِ ذِهنِهِ، وقِلَّةِ فَهْمِهِ، وَعَدَمِ تَعَلُّمِهِ: أَذَىٰ الصِّبْيَانِ؛ فَهُوَ يُؤذِيْهِم، وَيَسْرِقُ مَطَاعِمَهُمْ، وَيَسْتَغِيْثُوْنَ مِنْ يَدِهِ؛ فَلَا هُوَ صَلَحَ، ولا فَهِمَ، ولا كفَّ عَنِ الشَّرِّ. **وَهٰذَا مَثَلُ** أَهْلِ الشَّرِّ والمُؤْذِيْنَ.

١٠٢٩ ـ وَمِنَ الصِّبْيَانِ مَنْ عَلِقَ بِشَيْءٍ مِنَ الخطِّ، لٰكِنَّهُ ضَعِيْفُ الاسْتِخْرَاجِ،

رَدِيءُ الكِتَابَةِ، فَخَرَجَ، وَلَمْ يَعْلَقْ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَعْلَقُ بِهِ حِسَابُ مُعَامَلَتِهِ. وَهٰذَا **مَثَلُ** مَنْ فَهِمَ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَفَاتَتْهُ الفَضَائِلُ التَّامَّةُ.

١٠٣٠ ـ **وَمِنْهُم**: مَنْ جَوَّدَ الخَطَّ، وَلَمْ يَتَعَلَّمِ الحِسَابَ، وَأَتْقَنَ الآدَابَ حِفْظًا، غَيْرَ أَنَّهُ قَاصِرٌ فِي أَدَبِ النَّفْسِ. فَهٰذَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُوْنَ كَاتِبًا لِلسُّلْطَانِ عَلىٰ مُخَاطَرَةٍ؛ لِسُوْءِ مَا فِي بَاطِنِهِ مِنَ الشَّرَهِ، وَقِلَّةِ التَّأَدُّبِ.

١٠٣١ ـ **وَمِنْهُمْ** مَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَىٰ المَعَالِي الكَامِلَةِ؛ فَهُوَ مُقَدَّمُ الصِّبْيَانِ فِي المَكْتَبِ، وَنَائِبٌ عَنْ مُعَلِّمِهِم، ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْهُمْ بِعِزَّةِ نَفْسِهِ، وَأَدَبِ بَاطِنِهِ، وَكَمَالِ صِنَاعَةِ الآدَابِ الظَّاهِرَةِ، وَلا يَزَالُ حَاثٌّ مِنْ بَاطِنِهِ يَحُثُّهُ عَلىٰ تَعْجِيلِ التَّعَلُّمِ، وَتَحْصِيلِ كُلِّ فَضِيْلَةٍ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ المَكْتَبَ لا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، بَلْ لأَخْذِ الأَدَبِ مِنْهُ، والرِّحْلَةِ إِلَىٰ حَالَةِ الرُّجُوْلِيَّةِ وَالتَّصَرُّفِ؛ فَهُوَ يُبَادِرُ الزَّمَانَ فِي نَيْلِ كُلِّ فَضِيْلَةٍ. فَهٰذَا مَثَلُ المُؤْمِنِ الكَامِلِ؛ يَسْبِقُ الأَقْرَانَ يَوْمَ التَّجَارِي[1]، وَيَعْرِضُ لَوْحَ عَمَلِهِ، جَيِّدَ الخَطِّ، فَيَقُوْلُ بِلِسَانِ حَالِهِ: ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

١٠٣٢ ـ وَكَذٰلِكَ الدُّنْيَا وَأَهْلُهَا: **مِنَ النَّاسِ**: هَالِكٌ بَعِيْدٌ عَنِ الحَقِّ، وَهُمُ الكُفَّارُ. **وَمِنهُمْ** خَاطِئٌ مَعَ قَلِيْلٍ مِنَ الإِيْمَانِ؛ فَهُوَ مُعَاقَبٌ، والمَصِيْرُ إِلَىٰ خَيْرٍ. **وَمِنْهُم** سَلِيمٌ، لٰكِنَّهُ قَاصِرٌ. **وَمِنْهُمْ** تَامٌّ، لٰكِنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَنْ دُوْنَه، وَهُوَ نَاقِصٌ بِالإِضَافَةِ إِلىٰ مَنْ فَوْقَهُ.

١٠٣٣ ـ فَالبِدَارَ البِدَارَ يَا أَرْبَابَ الفُهُوْمِ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرٌ إِلىٰ دَارِ إِقَامَةٍ، وَسَفَرٌ إِلىٰ [المُسْتَقَرِّ]، والقُرْبِ مِنَ السُّلْطَانِ وَمُجَاوَرَتِهِ؛ فَتَهَيَّؤوا لِلمُجَالَسَةِ، وَاسْتَعِدُّوا لِلمُخَاطَبَةِ، وَبَالِغُوْا فِي اسْتِعْمَالِ الأَدَبِ؛ لِتَصْلُحُوا لِلقُرْبِ مِنَ الحَضْرَةِ، وَلا يَشْغَلَنَّكُمْ عَنْ تَضْمِيرِ[2] الخَيْلِ تَكَاسُلٌ، وَلْيَحْمِلْكُمْ عَلىٰ الجِدِّ فِي ذٰلِكَ تَذَكُّرُكُمْ يَوْمَ السِّبَاقِ؛ فَإِنَّ قُرْبَ المُؤْمِنِيْنَ مِنَ الخَالِقِ عَلىٰ قَدْرِ حَذَرِهِم فِي الدُّنْيا، وَمَنَازِلُهُم عَلىٰ قَدْرِهِم، فَمَا مَنْزِلُ النَّفَّاطِ[3] كَمَنْزِلِ الحَاجِبِ، وَلَا مَنْزِلُ الحَاجِبِ، كَمَكَانِ الوَزِيْرِ «**جَنَّتَانِ مِنْ**

---

(١) في الأصل: التجارير، وهو تصحيف في (أ) التجاريب.

(٢) **تضمير الخيل**: تدريبها على الجري حتى تخف ويذهب شحمها الزائد.

(٣) **النفاط**: الذي يرمي النفط.

ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1]، وَالفِرْدَوْسُ الأَعْلَىٰ لآخَرِيْنَ، وَالَّذِيْنَ فِي أَرْضِ الجَنَّةِ يَنْظُرُوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ، كَمَا يَرَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ.

١٠٣٤ ـ فَلْيَتَذَكَّرِ السَّاعِي حَلَاوَةَ التَّسْلِيْمِ إِلَىٰ الأَمِيْنِ، وَلْيَتَذَكَّرْ فِي لَذاذَةِ المَدْحِ يَوْمَ السِّبَاقِ، وَلْيَحْذَرِ المُسَابِقُ مِنْ تَقْصِيْرٍ لا يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُهُ، وَلْيَخَفْ مِنْ عَيْبٍ يَبْقَىٰ قُبْحُ ذِكْرِهِ. «**هٰؤُلاءِ الجَهَنَّمِيُّونَ عُتَقَاءُ الرَّحْمٰنِ**»[2]، [أَزْرَىٰ بِهِمُ اتِّبَاعُ الهَوَىٰ، ثُمَّ لَحِقْتُهُم العَافِيَةُ، فَنَجَوْا بَعْدَ لَأْيٍ.

فَلْيَتَّعِظْ][3] وَلْيَصْبِرْ عَنِ المُشْتَهَىٰ[4]؛ فَالأَيَّامُ قَلائِلُ. «**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ المُؤْمِنِيْنَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِم إِلَى الجَنَّةِ بِخَمْسِ مِئَةِ عَامٍ**»[5].

١٠٣٥ ـ فَالجِدَّ الجِدَّ، يا أَقدامَ المُبَادَرةِ؛ فَقَدْ لَاحَ العَلَمُ، خُصُوْصًا لِمَنْ بَانَتْ لَهُ بَانَةُ[6] الوَادِي: إِما بالعِلْمِ الدَّالِّ علىٰ الطريقِ، وإما بالشيبِ الذي هو عَلَمُ الرحيل، وهو ما يأملُهُ أهلُ الجِدِّ.

١٠٣٦ ـ وَكَانَ الجُنَيْدُ يَقْرَأُ وَقْتَ خُرُوْجِ رُوْحِهِ، **فَيُقَالُ** لَهُ: فِي هٰذَا الوَقْتِ؟! **فَيَقُوْلُ**: أُبَادِرُ طَيَّ صَحِيْفَتِي. وَبَعْدَ هٰذَا؛ فَالمُرَادُ مُوَفَّقٌ، والمَطْلُوْبُ مُعَانٌ، وَإِذَا أَرَادَكَ لأَمْرٍ هَيَّأَكَ لَهُ.

٢٢٥ - فصل: الجزاء على قدر العمل

١٠٣٧ ـ **تَأَمَّلْتُ** حَالَةً عَجِيْبَةً، وَهُوَ أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ السَّاكِنِيْنَ فِي أَرْضِهَا فِي نَقْصٍ عَظِيْمٍ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَهُم، وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ فَضْلَ أُولٰئِكَ؛ فَلَوْ تَفَكَّرُوْا فِيْمَا فَاتَهُم مِنْ ذٰلِكَ؛ وَقَعَتِ الحَسَرَاتُ؛ غَيْرَ أَنَّ ذٰلِكَ لا يَكُوْنُ؛ لأَنَّ ذٰلِكَ لا يَقَعُ لَهُمْ؛ لِطِيْبِ مَنَازِلِهِم، وَلَا يَقَعُ فِي الجَنَّةِ غَمٌّ، وَيَرْضَىٰ كُلٌّ بِمَا أُعْطِيَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٤) عن أبي موسى رضي الله عنه.
(٢) انظر: البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٣).
(٣) زيادة من (غ).
(٤) في الأصل الهوى.
(٥) انظر: حديث أبي هريرة في الترمذي (٢٣٥٣)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وأحمد (٢/٢٩٦).
(٦) البانة: شجرة طويلة الأغصان لينة، ورقها كورق الصفصاف.

أَحَدُهُمَا: أَنَّه لا يَظُنُّ أَنْ يَكُوْنَ نَعِيْمٌ فَوْقَ مَا هُوَ فِيْهِ، وَإِنْ عَلَتْ مَنْزِلَةُ غَيْرِهِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ يُحَبَّبُ إِلَيْهِ، كَمَا يُحَبَّبُ إِلَيْهِ وَلَدُهُ المُسْتَوْحِشُ الخِلْقَةِ؛ فَإِنَّهُ يُؤْثِرُه عَلَىٰ الأَجْنَبِيِّ المُسْتَحْسَنِ.

١٠٣٨ ـ إِلَّا أَنَّ تَحْتَ هٰذَا مَعْنًىٰ لَطِيْفًا، وَهُوَ أَنَّ القَوْمَ خُلِقَتْ لَهُمْ هِمَمٌ قَاصِرَةٌ فِي الدُّنيا عَنْ طَلَبِ الفَضَائِلِ، وَيَتَفَاوَتُ قُصُوْرُهَا: **فَمِنْهُم** مَنْ يَحْفَظُ بَعْضَ القُرْآنِ، وَلا يَتُوْقُ إِلَىٰ التَّمَامِ، **وَمِنْهُمْ** مَنْ يَسْمَعُ يَسِيْرًا مِنَ الحَدِيْثِ، **وَمِنْهُم** مَنْ يَعْرِفُ قَلِيلًا مِنَ الفِقْهِ، **وَمِنْهُم** مَنْ قَدْ رَضِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِيَسِيْرِهِ، **وَمِنْهُم** مُقْتَصِرٌ عَلَىٰ الفَرَائِضِ، **ومِنْهُم** قَنُوعٌ بِصَلاةِ رَكْعَتَيْنِ فِي اللَّيْلِ. وَلَوْ عَلَتْ بِهِمُ الهِمَمُ؛ لَجَدَّتْ فِي تَحْصِيْلِ كُلِّ الفَضَائِلِ، ونَبَتْ[1] عَنِ النَّقْصِ، فَاسْتَخْدَمَتِ البَدَنَ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[2]:

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُوْلِ بَلِيَّةٌ وبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي

١٠٣٩ ـ وَيَدُلُّ عَلَىٰ تَفَاوُتِ الهِمَمِ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ يَسْهَرُ فِي سَمَاعِ سَمَرٍ، ولا يَسْهُلُ عَلَيْهِ السَّهَرُ فِي سَمَاعِ القُرْآنِ! وَالإِنْسَانُ يُحْشَرُ، وَمَعَهُ تِلْكَ الهِمَّةُ، فَيُعْطَىٰ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا حَصَّلَتْ فِي الدُّنْيَا؛ فَكَمَا لَمْ تَتُق إِلَىٰ الكَمَالِ، وقَنِعَتْ بِالدُّوْنِ؛ قَنِعَتْ فِي الآخِرَةِ بِمِثْلِ ذٰلِكَ.

١٠٤٠ ـ ثُمّ إِنَّ القَوْمَ يَتَفَكَّرُوْنَ بِعُقُوْلِهِم، فَيَعْلَمُوْنَ أَنَّ الجَزَاءَ عَلَىٰ قَدْرِ العَمَلِ، وَلا يَطْمَعُ مَنْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ فِي ثَوَابِ مَنْ صَلَّىٰ أَلْفًا.

١٠٤١ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ لَهَا أَلَّا تَرُوْمَ مَا نَالَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا!!

قُلْتُ: إِنْ لَمْ يُتَصَوَّرْ نَيْلُهُ؛ [فكيف] يُتَصَوَّرُ الحُزْنُ عَلَىٰ فَوْتِهِ؟! وَهَلْ رَأَيْتَ عَامِيًّا يَحْزَنُ عَلَىٰ فَوَاتِ الفِقْهِ حُزْنًا يُقْلِقُهُ؟! هَيْهَاتَ! لَوْ كَانَ ذٰلِكَ الحُزْنُ عِنْدَهُ؛ لَحَرَّكَهُ إِلَىٰ التَّشَاغُلُ! فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ همّة تُوْجِبُ الأَسَفَ؛ مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ رَضُوْا بِمَا هُمْ فِيْهِ. فَافْهَمْ مَا قُلْتُهُ، وَبَادِرْ؛ فَهٰذَا مَيْدَانُ السِّبَاقِ.

---

(١) **نبت**: ابتعدت.

(٢) نسبه المؤلف في الفصل (١٧٠) للرضي ولم أجدهُ وفي ديوانه.

٢٢٦ - فصل: الحكمة من أخذ الجزية

١٠٤٢ ـ تَفَكَّرْتُ فِي إِبْقَاءِ اليَهُوْدِ وَالنَّصَارَىٰ بَيْنَنا، وَأَخْذِ الجِزْيَةِ مِنْهُم، فَرَأَيْتُ فِي ذٰلِكَ حِكَمًا عَجِيْبَةً: **مِنْهَا**: مَا قَدْ ذُكِرَ أَنَّ الإِسْلَامَ كَانَ ضَعِيفًا، فَتَقَوَّىٰ بِمَا يُؤْخَذُ مِنْ جزيَتِهِم. **ومِنْهَا**: ظُهُوْرُ عِزِّهِ بِذُلِّهِم. إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ قِيْلَ.

وَوَقَعَ لِي فِيْهِ مَعْنًىٰ عَجِيْبٌ، وَهُوَ أَنَّ وُجُوْدَهُم وَتَعَبُّدَهُم، وَحِفْظَهُم شَرْعَ نَبِيِّهُمْ ﷺ دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَنْبِيَاءُ وَشَرَائِعُ، وَأَنَّ نَبِيَّنا ﷺ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَقَدِ اجْتَمَعَتِ الجِنُّ وَهُمْ عَلَىٰ إِثْبَاتِ صَانِعٍ، وإِقرارِ برسُلٍ، فَبَانَ أَنَّنَا مَا ابْتَدَعْنَا مَا لَمْ يَكُنْ. وَهُمْ يَصْبِرُوْنَ عَلَىٰ بَاطِلِهِم، وَيُؤَدُّونَ الجِزْيَةَ؛ فَكَيْفَ لا نَصْبِرُ عَلَىٰ حَقٍّ، وَالدَّوْلَةُ لَنَا، وَفِي بَقَائِهِم احْتِرَامٌ لِمَا كَانَ صَحِيْحًا مِنَ الدِّيْنِ، وَلِيَرْجِعَ مُتَبَصِّرٌ، وَلِيَسْتَعْمِلَ مُفَكِّرٌ.

٢٢٧ - فصل: ينبغي للعالم أن يأخذ طرفًا من كل علم

١٠٤٣ ـ قَدْ ثَبَتَ بِالدَّلِيْلِ شَرَفُ العِلْمِ وَفَضْلُهُ؛ إِلَّا أَنَّ طُلّابَ العِلْمِ افْتَرَقوا؛ فَكُلٌّ تَدْعُوْهُ نَفْسُهُ إِلَىٰ شَيْءٍ: **فَمِنْهُمْ** مَنْ أَذْهَبَ عُمُرَهُ فِي القِرَاءَاتِ، وَذاكَ تَفْرِيْطٌ فِي العُمُرِ؛ لأَنَّهُ إِنَّما يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَىٰ المَشْهُورِ مِنْهَا لا علىٰ الشَّاذِّ، وَمَا أَقْبَحَ القَارِئَ يُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الفِقْهِ، وَهُوَ لا يَدْرِي! وَلَيْسَ مَا شَغَلَهُ عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا كَثْرَةُ الطُّرُقِ فِي رِوَايَاتِ القِرَاءَاتِ!! **وَمِنْهُم** مَنْ يَتَشَاغَلُ بِالنَّحْوِ وَعِلَلِهِ فَحَسْبُ، وَمِنْهُم مَنْ يَكْتُبُ الحَدِيْثَ، وَيُكْثِرُ، وَلَا يَنْظُرُ فِي فَهْمِ ما كَتَبَ.

وَقَدْ رَأَيْنَا فِي مَشَايِخِنَا المُحَدِّثِينَ مَنْ كَانَ يُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الصَّلَاةِ؛ فَلا يَدْرِي مَا يَقُوْلُ! وَكَذٰلِكَ القُرَّاءُ! وكذٰلِكَ أَهْلُ اللُّغَةِ والنَّحْوِ!

١٠٤٤ ـ وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عِيْسَى الفَقِيْهُ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي ٱبْنُ المَنْصُوْرِي؛ قَالَ: حَضَرْنا مَعَ أَبِي مُحَمَّد بْنِ الخَشَّابِ[1] ـ وَكَانَ إِمَامَ النّاسِ فِي النَّحْو واللُّغَةِ ـ،

---

(١) عبد الله بن أحمد: إمام في النحو، بلغ مرتبة أبي علي الفارسي (٤٩٢ ـ ٥٦٧هـ).

فَتَذَاكَرُوْا الفِقْهَ، فَقَالَ: سَلُوْنِي عَمَّا شِئْتُم! فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: **إِنْ قِيْلَ لَنَا**: رَفْعُ اليَدَيْنِ فِي الصَّلَاةِ؛ مَا هُوَ؟ فَمَاذَا نَقُوْلُ؟ **فَقَالَ**: هُوَ رُكْنٌ! فَدُهِشَتِ الجَمَاعَةُ مِنْ قِلَّةِ فِقْهِهِ.

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا، ثُمَّ يَهْتَمَّ بِالفِقْهِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِي مَقْصُوْدِ العُلُومِ، وَهُوَ المعَامَلَةُ لله سُبْحَانَهُ، والمَعْرِفَةُ بِهِ، والحُبُّ لَهُ.

١٠٤٥ ـ وَمَا أَبْلَهَ مَنْ يَقْطَعُ عُمُرَهُ فِي مَعْرِفَةِ عَلْمِ النُّجُوْمِ! وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ مِنْ ذٰلِكَ التَّسْيِيْرَ والمَنَازِلَ لِعِلْمِ الأَوْقَاتِ[1]، فَأَمَّا النَّظَرُ فِيْمَا يُدَّعَىٰ أَنَّهُ القَضَاءُ والحُكْمُ؛ فَجَهْلٌ مَحْضٌ؛ لِأَنَّهُ لا سَبِيْلَ إِلىٰ عِلْمِ ذٰلِكَ حَقِيْقَةً، وَقَدْ جُرِّبَ فَبَانَ جَهْلُ مُدَّعِيْهِ، وَقَدْ تَقَعُ الإِصَابَةُ فِي وَقْتٍ، وَعَلَى تَقْدِيْرِ الإِصَابَةِ! لا فَائِدَةَ فِيْهِ إِلَّا تَعْجِيْلُ الغَمِّ! **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: يُمْكِنُ دَفْعُ ذٰلِكَ؛ فَقَدْ سَلَّمَ أَنَّهُ لا حَقِيْقَةَ لَهُ!

١٠٤٦ ـ وَأَبْلَهُ مِنْ هٰؤلاءِ مَنْ يَتَشاغَلُ بِعِلْمِ الكِيمِيَاءِ[2]؛ فَإِنَّهُ هَذَيَانٌ فَارِغٌ، وَإِذَا كَانَ لا يُتَصَوَّرُ قَلْبُ الذَّهَبِ نُحَاسًا، لَمْ يُتَصَوَّرْ قَلْبُ النُّحَاسِ ذَهَبًا؛ فَإِنَّمَا فَاعِلُ هٰذَا مُسْتَحِلٌّ لِلتَّدْلِيْسِ عَلىٰ النَّاسِ فِي النُّقُوْدِ. هٰذَا إِذَا صَحَّ لَهُ مُرَادُهُ!

١٠٤٧ ـ **وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يُصَحِّحَ قَصْدَهُ؛ إِذْ فُقْدَانُ الإِخْلَاصِ يَمْنَعُ قَبُوْلَ الأَعْمَالِ! وَلْيَجْتَهِدْ فِي مُجَالَسَةِ العُلَمَاءِ، والنَّظَرِ فِي الأَقْوَالِ المُخْتَلِفَةِ، وَتَحْصِيْلِ الكُتُبِ؛ فَلَا يَخْلُوْ كِتَابٌ مِنْ فَائِدَةٍ! وَلْيَجْعَلْ هِمَّتَهُ لِلحِفْظِ، وَلا يَنْظُرْ، ولا يَكْتُبْ إِلَّا وَقْتَ التَّعَبِ مِنَ الحِفْظِ! وَلْيَحْذَرْ صُحْبَةَ السُّلطانِ! ولْيَنْظُرْ فِي مِنْهَاجِ الرَّسُوْلِ ﷺ والصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ! ولْيَجْتَهِدْ فِي رِيَاضَةِ نَفْسِهِ، والعَمَلِ بِعِلْمِهِ! وَمَنْ تَوَلَّاهُ الحَقُّ؛ وَفَّقَهُ.**

٢٢٨ - فصل: الكبر والحسد يغطيان نور العقل

١٠٤٨ ـ طَالَ تَعَجُّبِي مِنْ أَقْوَامٍ لَهُمْ أَنَفَةٌ، وَعِنْدَهُمْ **كِبْرٌ** زَائِدٌ فِي الحَدِّ! خُصُوْصًا العَرَبَ، الَّذِيْنَ مِنْ كَلِمَةٍ يَنْفِرُوْنَ، وَيُحَارِبُوْنَ، ويَرْضَوْنَ بِالقَتْلِ! حَتَّى إِنَّ قَوْمًا مِنْهُم

(١) من أجل معرفة الأوقات. والتسيير: حركة الفلك.

(٢) كان موضوع علم الكيمياء القديم تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب.

أَدْرَكُوْا الإِسْلَامَ، فَقَالُوْا: كَيْفَ نَرْكَعُ وَنَسْجُدُ فَتَعْلُوْنَا أَسْتَاهُنَا[1]؟ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**لا خَيْرَ فِي دِيْنٍ لَيْسَ فِيْهِ رُكُوْعٌ وَلَا سُجُوْدٌ**»[2]. وَمَعَ هٰذِهِ الأَنَفَةِ؛ يَذِلُّونَ لِمَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُ؛ هٰذَا يَعْبُدُ حَجَرًا! وَهٰذَا يَعْبُدُ خَشَبَةً! وَقَدْ كَانَ قَوْمٌ يَعْبُدُوْنَ الخَيْلَ وَالبَقَرَ!

وَإِنَّ هٰؤلاءِ لَأَخسُّ مِنْ إِبْلِيْسَ؛ فَإِنَّ إِبْلِيْسَ أَنِفَ ـ لِادِّعَائِهِ الكَمَالَ ـ أَنْ يَسْجُدَ لِنَاقِصٍ، فَقَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦]! وَفِرْعُوْنُ أَنِفَ أَنْ يَعْبُدَ شَيْئًا أَصْلًا! فَالعَجَبُ مِنْ ذُلِّ هؤلاءِ المُفْتَخِرِيْنَ المُتَعَاظِمِيْنَ المُتَكَبِّرِيْنَ لِحَجَرٍ أَوْ خَشَبَةٍ! وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَذِلَّ النَّاقِصُ لِلكَامِلِيْنَ!!

وَقَدْ أُشِيْرَ إِلىٰ هٰذَا فِي ذَمِّ الأَصْنَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ**﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وَالمَعْنَى: أَنْتُمْ لَكُمْ هٰذِهِ الآلاتُ المُدْرِكَةُ، وَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ؛ فَكَيْفَ يَعْبُدُ الكَامِلُ النَّاقِصَ؟!

غَيْرَ أَنَّ هَوَىٰ القَوْمِ فِي مُتَابَعَةِ الأَسْلَافِ، واسْتِحلاءِ مَا اخْتَرَعُوْهُ بِآرَائِهِم، غَطَّىٰ عَلىٰ العُقُوْلِ، فَلَمْ تَتَأَمَّلْ حَقَائِقَ الأمورِ!

١٠٤٩ ـ ثُمَّ غَطَّىٰ **الحَسَدُ** عَلىٰ أَقْوَامٍ فَتَرَكُوا الحَقَّ، وَقَدْ عَرَفُوْهُ! **فَأُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ**[3] يُقِرُّ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَيَقْصِدُهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ، ثُمَّ يَعُوْدُ فَيَقُوْلُ: لا أُؤمِنُ بِرَسُوْلٍ لَيْسَ مِنْ ثَقِيْفٍ. **وَأَبُوْ جَهْلٍ** يَقُوْلُ: وَاللهِ؛ مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلٰكِنْ؛ إِذَا كَانَت السِّدَانَةُ والحِجَابَةُ فِي بَنِي هَاشِم، ثُمَّ النُّبُوَّةُ؛ فَمَا بَقِيَ لَنَا؟! **وَأَبُوْ طَالِبٍ** يَرَىٰ المُعْجِزَاتِ، وَيَقُوْلُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ عَلىٰ الحَقِّ، وَلَوْلا أَنْ تُعَيِّرَني نِسَاءُ قُرَيْشٍ؛ لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ[4].

فَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ ظُلْمَةِ حَسَدٍ، وغَيَابَةِ كِبْرٍ، وَحَمَاقَةِ هَوًى، تُغَطِّي عَلىٰ نُوْرِ العَقْلِ، وَنَسْأَلُهُ إِلْهَامَ الرُّشْدِ، والعَمَلَ بِمُقْتَضَى الحَقِّ.

---

(١) **الأستاه**: الأعجاز.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٢٦)، وأحمد (٤/٢١٨) عن عثمان بن أبي العاص ﷺ وفي سنده انقطاع (ضعيف).

(٣) **الثقفي**: شاعر من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، أكثر في شعره في ذكر الآخرة، أدرك النبي ﷺ ولم يسلم كبرًا وحسدًا، مات في الطائف سنة (٥هـ).

(٤) رواه مسلم (٢٥) عن أبي هريرة ﷺ.

٢٢٩ - فصل: من الصالحين من غلب عليه الرفق ومنهم من غلب عليه الخوف

١٠٥٠ ـ قَدْ سَمِعْنا بِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّالِحِيْنَ عَامَلُوْا الله ﷻ عَلىٰ طَرِيْقِ السَّلَامَةِ والمَحَبَّةِ واللُّطْفِ، فَعَامَلَهُم كَذٰلِكَ؛ لِأَنَّهُم لا يَحْتَمِلُ طَبْعُهُم غَيْرَ ذٰلِكَ، فِفِي الأَوَائِلِ **بُرْخٌ العَابِدُ**؛ خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَقَالَ [مُنَاجِيًا الله]: مَا هٰذَا الذِي لا نَعْرِفُهُ مِنْكَ؟! اسْقِنَا السَّاعَةَ! فَسُقُوا.

وَفِي الصَّحابَةِ **أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ**؛ يَقُوْلُ: واللهِ؛ لا تُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّعِ. فَجَرَىٰ الأَمْرُ كَمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ**».

وهٰؤلاءِ قَوْمٌ غَلَبَ عَلَيْهِمْ مُلَاحَظَةُ اللُّطْف وَالرِّفْقِ، فَلُطِفَ بِهِم، وَأُجْرُوْا عَلَى مَا اعْتَقَدُوْا.

١٠٥١ ـ وَهُنَاكَ أَعْلَىٰ مِنْ هٰؤلاءِ؛ يَسْأَلُوْنَ فَلَا يُجَابُوْنَ، وَهُمْ بِالمَنْعِ رَاضُوْنَ، لَيْسَ لَأَحَدِهِمُ انْبِسَاطٌ، بَلْ قَدْ قَيَّدَهُمُ الخَوْفُ، وَنَكَسَ رُؤُوْسَهُم الحَذَرُ، وَلَمْ يَرَوْا أَلْسِنَتَهُم أَهْلًا للانْبِسَاطِ؛ فَغَايَةُ آمَالِهِمُ العَفْوُ؛ فَإِن انْبَسَطَ أَحَدُهُم بِسُؤَالٍ، فَلَمْ يَرَ الإِجَابَةَ؛ عَادَ عَلَى نَفْسِهِ بالتَّوْبِيْخِ، فَقَالَ: مِثْلُكَ لا يُجَابُ! وَرُبَّما قَالَ: لَعَلَّ المَصْلَحَةَ فِي مَنْعِي. وهٰؤلاءِ الرِّجالُ حَقًّا.

١٠٥٢ ـ وَالأَبَلَهُ الّذِي يَرَىٰ لَهُ مِنَ الحَقِّ أَنْ يُجَابَ؛ فَإِنْ لَمْ يُجَبْ؛ تَذَمَّرَ فِي بَاطِنِه، كَأَنَّه يَطْلُبُ أُجْرَةَ عَمَلِهِ، وَكَأَنَّهُ قَدْ نَفَعَ الخَالِقَ بِعَبَادَتِهِ!

وَإِنَما العَبْدُ حَقًّا مَنْ يَرْضَىٰ مَا يَفْعَلُهُ الخَالِقُ؛ فَإِنْ سَأَلَ، فَأُجِيْبَ؛ رَأَىٰ ذٰلِكَ فَضْلًا، وَإِنْ مُنِعَ؛ رَأَىٰ تَصَرُّفَ مَالِكٍ فِي مَمْلُوْكٍ، فَلَمْ يَجُلْ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ بِحَالٍ.

٢٣٠ - فصل: العلم معرفة الأصول

١٠٥٣ ـ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ العُلَمَاءِ يَتَفَسَّحُوْنَ[1]، وَيَظُنُّونَ أَنَّ العِلْمَ يَدْفَعُ عَنْهُم!

---

(١) **يتفسحون**: يترخَّصون، وفي الأصل يتعسمون وهو تصحيف.

وَمَا يَدْرُوْنَ أَنَّ العِلْمَ خَصْمُهُم! وَأَنَّهُ يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُوْنَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ، وَذَاكَ لِأَنَّ الجَاهِلَ لَمْ يَتَعَرَّف بِالحَقِّ، والعَالِمَ لَمْ يَتَأَدَّبْ مَعَهُ.

١٠٥٤ - وَرَأَيْتُ بَعْضَ القُوْمِ يَقُوْلُ: أَنَا قَدْ أَلْقَيْتُ مِنْجَلي بَيْنَ الحَصَّادِيْنَ وَنِمْتُ! ثُمَّ كانَ يَتَفَسَّحَ فِي أَشْيَاءَ لا تَجُوْزُ!! فَتَفَكَّرْتُ؛ فَإِذَا العِلْمُ - الّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الحَقَائِقِ، والنَّظَرُ فِي سِيَرِ القُدَمَاءِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِ القَوْمِ، وَمَعْرِفَةُ الحَقِّ، وَمَا يَجِبُ لَهُ لَيْسَ عَنْدَ القَوْمِ، إِنَّ مَا عِنْدَهُم صُوَرُ أَلْفَاظٍ، يَعْرِفُوْنَ بِهَا مَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ، وَلَيْسَ كَذٰلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ، **إِنَّمَا العِلْمُ فَهْمُ الأُصُوْلِ، وَمَعْرِفَةُ المَعْبُوْدِ وَعَظَمَتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّه، وَالنَّظَرُ فِي سِيَرِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِمْ، وَفَهْمُ مَا نُقِلَ عَنْهُم**، هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ الّذِي يَدَعُ أَعْظَمَ العُلَمَاءِ أَحْقَرَ عِنْدَ نَفْسِهِ مِنْ أَجْهَلِ الجُهَّالِ.

١٠٥٥ - وَرَأَيْتُ بَعْضَ مَنْ تَعَبَّدَ مُدَّةً، ثُمَّ فَتَرَ، فبَلَغَنِي أَنَّه **قَالَ**: عَبَدْتُهُ عِبَادَةً مَا عَبَدَهُ بِهَا أَحَدٌ!! وَالآنَ قَدْ ضَعُفْتُ. **فَقُلْتُ**: مَا أَخْوَفَنِي أَنْ تَكُوْنَ كَلِمَتُهُ هٰذِهِ سَبَبًا لِرَدِّ الكُلِّ! لِأَنَّه قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُ عَمِلَ مَعَ الحَقِّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا وَقَفَ يَسْأَلُ النَّجَاةَ بِطَلَبِ الدَّرَجَاتِ؛ فَفِي حَقِّ نَفْسِهِ فَعَلَ، وَمَا مَثَلُهُ إِلَّا كَمَثَلِ مَنْ وَقَفَ يُكْدِي[1]؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَمُنَّ عَلىٰ المُعْطِي. وَإِنَّمَا سَبَبُ هٰذَا الانْبِسَاطِ الجَهْلُ بِالحَقَائِقِ.

وَأَيْنَ هُوَ مِنَ كِبَارِ عُلَمَاءِ المُعَامَلَةِ، والّذِيْنَ كَانَ فِيْهِم مِثْلُ صِلَةَ بْنِ أَشْيَمَ[2]؛ إِذَا رَآهُ السَّبُعُ؛ هَرَبَ مِنْهُ، وَهُوَ يَقُوْلُ إِذَا انْقَضَىٰ اللَّيْلُ عِنْدَ صَلَاتِهِ: يَا رَبِّ! أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ، أَوَ[3] مِثْلِي يَسْأَلُ الجَنَّةَ؟! وَأَبْلَغُ مِنْ ذا قَوْلُ عُمَر: وَدِدْتُ أَنْ أَنْجُوَ كَفَافًا لَا لِي وَلَا عَلَيَّ[4]! وَقَوْلُ سُفْيَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ لِحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ: أَتَرْجُوْ لِمِثْلِي أَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ. وَقَوْلُ أَحْمَدَ: لا؛ بَعْدُ.

١٠٥٦ - فَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ ﷻ إِذْ تَخَلَّصْتُ مِنْ جَهْلِ المُتَسَمِّينَ بِالعِلْمِ مِنْ هٰؤلاءِ الّذِيْنَ ذَمَمْتُهُم، وَبالزُّهْدِ مِنْ هؤلاءِ الّذِيْنَ عِبْتُهُم؛ فَإِنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ مِنْ عَظَمَةِ الخَالِقِ

---

(١) **يكدي**: يلحّ في المسألة.

(٢) الزاهد العابد، تابعي قتل في سجستان أثناء معركة مع الترك سنة (٦٢هـ).

(٣) في الأصل: و.

(٤) رواه البخاري (٣٧٠٠).

وَسِيَرِ المُحَقِّقِيْنَ عَلَى مَا يُخْرِسُ لِسَانَ الانْبِسَاطِ، وَيَمْحُوْ النَّظَرَ إِلىٰ كُلِّ فعلٍ. وَكَيْفَ أَنْظُرُ إِلىٰ فِعْلِي المُسْتَحْسَنِ؛ وَهُوَ الَّذِي وَهَبَهُ لِي، وَأَطْلَعَنِي عَلىٰ مَا خَفِيَ عَنْ غَيْرِي؟! فَهَلْ حَصَلَ ذٰلِكَ بِي أَوْ بِلُطْفِهِ؟ وَكَيْفَ أَشْكُرُ تَوْفِيْقِيَ للشُّكر؟!

١٠٥٧ ـ ثُمّ أَيُّ عَالِمٍ إِذَا سَبَرَ أُمُوْرَ العُلَمَاءِ مِنَ القُدَمَاءِ لا يَحْتَقِرُ نَفْسَه[1]؟! هٰذَا فِي صُوْرَةِ العِلْمِ، فَدَعْ مَعْنَاهُ. وَأَيُّ عَابِدٍ يَسْمَعُ بِالعُبَّادِ، وَلَا يَجْرِي في صُوْرَةِ التَّعَبُّدِ؟! فَدَعِ المُعْنَى.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ مَعْرِفَةً تُعَرِّفُنا أَقْدَارَنا، حتّى لا يَبْقَى لِلْعُجْبِ بِمُحْتَقَرِ مَا عِنْدَنَا أَثَرٌ فِي قُلُوْبِنَا، وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي مَعْرِفَةٍ لِعَظَمَتِهِ تُخْرِسُ الأَلْسُنَ أَنْ تَنْطِقَ بَالإِدْلَالِ، وَنَرْجُو مِنْ فَضْلِهِ تَوْفِيْقًا نُلَاحِظُ بِهِ آفَاتِ الأَعْمَالِ الَّتِي بِهَا نَزْهُوْ، حَتَّى تُثْمِرَ المُلاحَظَةُ لِعُيوبِهَا الخَجَلَ مِنْ وُجُوْدِهَا! إِنَّه قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

٢٣١ - فصل: سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة

١٠٥٨ ـ سَبَبُ تَنْغِيْصِ العَيْشِ فَوَاتُ الحُظُوْظِ العَاجِلَةِ. وَلَيْسَ فِي الدُّنيا طِيْبُ عَيشٍ عَلىٰ الدَّوَامِ، إِلَّا للعَارِفِ الَّذِي شَغَلَهُ رِضا حَبِيْبِهِ، والتَّزَوُّدُ للرَّحِيلِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّه إِنْ وَجَدَ رَاحَةً فِي الدُّنْيَا؛ اسْتَعَانَ بِهَا عَلىٰ طَلَبِ الآخِرَةِ، وَإِنْ وَجَدَ شِدَّةً؛ اغْتَنَمَ الصَّبْرَ عَلَيْهَا لِثَوَابِ الآخِرَةِ؛ فَهُوَ رَاضٍ بِكُلِّ ما يَجْرِي عَلَيْهِ، يَرَىٰ ذٰلِكَ مِنْ قَضَاءِ الخَالِقِ، وَيعْلَمُ أَنَّهُ مُرَادُهُ؛ كَمَا قَالَ قَائِلُهُم:

إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهَرِي ... فَسَلامُ اللهِ عَلىٰ وَسَنِي

١٠٥٩ ـ فَأَمَّا مَنْ طَلَبَ حَظَّهُ؛ فَإِنَّه يَقْلَقُ لِفَوْتِ مُرَادِهِ، وَيَتَنَغَّصُ لِبُعْدِ مَا يَشْتَهِي؛ فَلَوِ افْتَقَرَ؛ تَغَيَّرَ قَلْبُه، وَلَوْ ذَلَّ؛ تَغَيَّرَ، وَهٰذَا لِأَنَّه قَائِمٌ مَعَ غَرَضِهِ وَهَوَاهُ.

١٠٦٠ ـ وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الحُصْرِيِّ[2]:

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: ما نحن فيما مضى إلّا كالفسيل في أصولِ نخلٍ طوالٍ.

(٢) أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري، البصري الأصل، سكن بغداد، ومات بها سنة (٣٧١هـ) كان شيخ العراق في وقته، صحب الشبلي، وإليه كان ينتمي.

إِيْش عَلَيَّ مِنِّي   وَإِيْش لِي فِيَّ؟!

وَهَذا كَلَامُ عَارِفٍ؛ لِأَنَّه إِنْ يَنْظُرْ إِلىٰ حَقِيْقَةِ المِلْكِيَّة[1]؛ فَعَبْدٌ يَتَصَرَّفُ فِيْه مَوْلَاهُ؛ فَاعْتِرَاضُهُ لا وَجْهَ لَهُ، وَإِرَادَتُهُ أَنْ يَقَعَ غَيْرَ مَا يَجِبُ فُضُوْلٌ فِي البَيِّنِ[2]. وَإِنْ نَظَرَ أَنَّ النَّفْسَ كالمِلْكِ لَهُ؛ فَقَدْ خَرَجَتْ عَنْ يَدِهِ مِنْ يَوْم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]؛ أَفَيَحْسُنُ لِمَنْ بَاعَ شَاةً أَنْ يَغْضَبَ عَلىٰ المُشْتَرِي إِذَا ذَبَحها، أَوْ يَتَغَيَّرُ قَلْبُهُ؟!

١٠٦١ ـ وَاللهِ؛ لَوْ قَالَ المَالِكُ سُبْحَانَهُ: إِنَّمَا خَلَقْتُكُم لِيُسْتَدَلَّ عَلىٰ وُجُوْدِي، ثُمَّ أَنا أُفْنِيْكُم، وَلَا إِعَادَةَ! لَكَانَ يَجِبُ عَلىٰ النُّفُوْسِ العَارِفَةِ بِهِ أَنْ تَقُوْلَ: سَمْعًا لِمَا قُلْتَ وَطَاعَةً، وَأَيُّ شَيْءٍ لَنَا فِيْنَا حَتَّى نَتَكَلَّمَ؟! فَكَيْفَ وَقَدْ وَعَدَ بِالأَجْرِ الجَزِيْلِ، وَالخُلُوْدِ فِي النَّعِيْمِ الَّذِي لا يَنْفَدُ؟!

١٠٦٢ ـ لٰكِنَّ طَرِيْقَ الوُصُوْلِ تَحْتَاجُ إِلى صَبْرٍ عَلىٰ المَشَقَّةِ، وَمَا يَبْقَى لِتَعَبِ رَمْلِ زَرُود أَثَرٌ إِذَا لَاحَ الحَرَمُ.

١٠٦٣ ـ فَالصَّبرَ الصَّبْرَ يَا أَقْدَامَ المُبْتَدِئِيْنَ! لاحَ المَنْزِلُ. وَالسُّرُوْرَ السُّرُوْرَ يا مُتَوَسِّطِيْنَ! ضُرِبَتِ الخِيَمُ. وَالفَرَحَ الكَامِلَ يَا عَارِفِيْنَ! قَدْ تُلُقِّيْتُم بِالبَشَائِرِ...

١٠٦٤ ـ زَالَتْ واللهِ أَثْقَالُ المُعَامَلاتِ عَنْكُم، فَكَانَتْ مَعْرِفَتُكُم بِالمُبْتَلِي حَلَاوَةً أَعْقَبَتْ شَرْبَةَ المَجَاهَدةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الفَمِ للمُرِّ أَثَرٌ. تَخَايَلُوْا قُرْبَ المُنَاجَاةِ وَلَذَّةَ الحُضُوْرِ، وَدُوَارِ كُؤُوْسِ الرِّضَا عَنْكُم؛ فَقَدْ أَخَذَتْ شَمْسُ الدُّنْيَا فِي الأُفُوْلِ:

مَا بَيْنَنَا إِلَّا تَصَرْ   رُمُ هٰذِهِ السَّبْعِ البَوَاقِي[3]
حَتَّىٰ يَطُوْلَ حَدِيْثُنَا   بِصُنُوْفِ مَا كُنَّا نُلَاقِي

٢٣٢ - فصل عُدّ منع الله إياك عطاء لك

١٠٦٥ ـ تَفَكَّرْتُ فِي قَوْلِ شَيْبَانَ الرَّاعِي[4] لِسُفْيَانَ: يَا سُفْيَانُ! عُدَّ مَنْعَ اللهِ إِيَّاكَ

---

(١) في الأصل: الملكة، وهو تصحيف.   (٢) في البين: في الظاهر.

(٣) تصرم: انقضاء، وفي الأصل: (ما بيننا له إلا تصدم).

(٤) شيبان الراعي: أبو محمد، عابد مشهور، عاش في القرن الثاني الهجري، عاصر سفيان الثوري.

obeikandi.com

عَطَاءً مِنْهُ لَكَ؛ فَإِنَّه لَمْ يَمْنَعْكَ بُخْلًا، إِنَّمَا مَنَعَكَ لُطْفًا. فَرَأْيُتُه كَلَامَ مَنْ قَدْ عَرَفَ الحَقَائِقَ.

١٠٦٦ ـ فَإِنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يُرِيْدُ المُسْتَحْسَناتِ الفَائِقَاتِ فَلَا يَقْدِرُ، وعَجْزُهُ أَصْلَحُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلَيْهِنَّ؛ تَشَتَّتَ قَلْبُهُ؛ إِمَّا بِحِفْظِهِنَّ، أَوْ بِالكَسْبِ عَلَيْهِنَّ. فَإِنْ قَوِيَ عِشْقُهُ لَهُنَّ؛ ضَاعَ عُمُرُهُ، وَانقَلَبَ هَمُّ الآخِرَةِ إِلىٰ الاهْتِمَامِ بِهِنَّ. فَإِنْ لَمْ يُرِدْنَهُ؛ فَذَاكَ الهَلَاكُ الأَكْبَرُ. وَإِنْ طَلَبْنَ نَفَقَةً؛ لَمْ يُطِقْها؛ كَانَ سَبَبَ ذَهَابِ مُرُوْءَتِهِ وَهَلَاكِ عِرْضِهِ. وَإِنْ أَرَدْنَ الوَطْءَ، وَهُوَ عَاجِزٌ؛ فَرُبَّمَا أَهْلَكْنَهُ أَوْ فَجَرْنَ. وَإِنْ مَاتَ مَعْشُوْقُهُ؛ هَلَكَ هُوَ أَسَفًا. فَالَّذِي يَطْلُبُ الفَائِقَ يَطْلُبُ سِكِّينًا لِذَبْحِهِ، وَمَا يَعْلَمُ.

١٠٦٧ ـ وَكذٰلِكَ إِنْفَاذُ قَدْرِ القُوْتِ؛ فَإِنَّه نِعْمَةٌ، وَفِي (الصَّحِيْحَيْنِ): **أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا»**. وَمَتَىٰ كَثُرَ؛ تَشَتَّتَ الهمُّ. فَالعَاقِلُ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الدُّنيا لَمْ تُخْلَقْ للتَّنْعِيْمِ، فَقَنِعَ بِدَفْعِ الوَقْتِ عَلىٰ كُلِّ حَالٍ.

٢٣٣ - فصل: التعلل بالأقدار

١٠٦٨ ـ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الخَلْقِ يَتَعَلَّلونَ بِالأَقْدَارِ، فَيَقُوْلُ قَائِلُهُم: إِنْ وُفِّقْتُ؛ فَعَلْتُ!

وَهٰذَا تَعلُّلٌ بارِدٌ[1]، وَدَفْعٌ لِلأَمْرِ بِالرَّاحِ[2]، وَهُوَ يُشِيْرُ إِلىٰ رَدِّ أَقْوَالِ الأَنْبِيَاءِ وَالشَّرَائِعِ جَمِيْعِهَا؛ فَإِنَّه لَوْ قَالَ كَافِرٌ للرَّسُوْلِ: إِنْ وَفَّقَنِي؛ أَسْلَمْتُ! لَمْ يُجِبْهُ إِلَّا بِضَرْبِ العُنُقِ.

وهٰذا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّاسِ[3] لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: نَدْعُوْكَ إِلىٰ كِتَابِ اللهِ. فَقَالَ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيْدَ بِهَا بَاطِلٌ، وَكذٰلِكَ قَوْلُ المُمْتَنِعِيْنَ عَنِ الصَّدَقَةِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]!

١٠٦٩ ـ وَلعَمْرِي إِنَّ التَّوْفِيْقَ أَصْلُ الفِعْلِ، وَلٰكِنَّ التَّوْفِيْقَ أَمْرٌ خَفِيٌّ، وَالخِطَابُ بِالفِعْلِ أَمْرٌ جَلِيٌّ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَشاغَلَ عَنِ الجَلِيِّ بِذِكْرِ الخَفِيِّ.

---

(١) **بارد**: سخيف.
(٢) أي: باليد، وهو الدفع الضعيف.
(٣) قال رضي الله عنه ذلك للخوارج الذين عارضوه في التحكيم يوم صفين.

١٠٧٠ - وَمِمّا يَقْطَعُ هٰذا الاحْتِجَاجَ أَنْ يُقَالَ لِهٰذَا القَائِلِ: إِنَّ الله سُبْحَانَه لَمْ يُكَلِّفْكَ شَيْئًا إِلَّا وَعِنْدَكَ أَدَوَاتُ ذٰلِكَ الفِعْلِ، ولَكَ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ كَانَتِ القُدْرَةُ عَلَيْهِ مَعْدُوْمَةً، وَالأَدَوَاتُ غَيْرَ مُحَصَّلَةٍ؛ فَلَا أَمْرَ، وَلا تَكْلِيْفَ.

وَإِنْ كُنْتَ تَسَعَىٰ بِتِلْكَ الأَدَوَاتِ فِي تَحْصِيْلِ غَرَضِكَ وَهَوَاكَ؛ فَٱسْعَ بِهَا فِي إِقَامَةِ مَفْرُوْضِكَ.

١٠٧١ - مِثَالُ ذٰلِكَ: أَنَّكَ تُسَافِرُ فِي طَلَبِ الرِّبْحِ، وَتُسْأَلُ الحَجَّ، فَلَا تَفْعَلُ! ويَثْقُلُ عَلَيْكَ الانْتِبَاهُ بِاللَّيْلِ؛ فَلَوْ أَرَدْتَ الخُرُوْجَ إِلىٰ العِيْدِ؛ انْتَبَهْتَ سَحَرًا! وتَقِفُ فِي بَعْضِ أَغْرَاضِكَ مَعَ صَدِيْقٍ تُحَادِثُهُ سَاعَاتٍ؛ فَإِذَا وَقَفْتَ في الصَّلَاةِ؛ اسْتَعْجَلْتَ، وثَقُلَ عَلَيْكَ!

١٠٧٢ - فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَتَعلَّقَ بِأَمْرٍ لا حُجَّةَ لَكَ فِيْهِ! ثُمَّ مِنْ نَصِيْبِكَ يَنْقُصُ، وَمِنْ حَظِّكَ يَضِيْعُ؛ فَإِنَّمَا تُحَرِّكُ لَكَ، وَإِنَّمَا تُحَرَّضُ لِنَفْعِكَ؛ فَبَادِرْ؛ فَإِنَّكَ مُبَادَرٌ بِكَ! وَمِمَّا يُزِيْلُ كَسَلَكَ - إِنْ تَأَمَّلْتَهُ - أَنْ تَتَخَايَلَ ثَوَابَ المُجْتَهِدِيْنَ، وَقَدْ فَاتَكَ! وَيكْفِي ذٰلِكَ فِي تَوْبِيْخِ المُقَصِّرِ إِنْ كانَتْ لَهُ نَفْسٌ؛ فَأَمَّا المَيِّتُ الهِمَّةِ؛ فـ:

..... مَـا لِـجُـرْحٍ بِـمَـيِّـتٍ إِيْـلَامُ[1]

١٠٧٣ - كَيْفَ بِكَ إِذَا قُمْتَ مِنْ قَبْرِكَ، وَقَدْ قُرِّبَتْ نَجَائِبُ[2] النَّجَاةِ لِأَقْوَامٍ وتَعَثَّرْتَ، وَأَسْرَعَتْ أَقْدَامُ الصَّالِحِيْنَ عَلىٰ الصِّرَاطِ وتَخَبَّطْتَ؟! هَيْهَاتَ! ذَهَبَتْ حَلَاوَةُ البَطَالَةِ، وَبَقِيَتْ مَرَارَةُ الأَسَفِ، ونَضَبَ مَاءُ كَأْسِ الكَسَلِ، وبَقِيَ رَسُوْبُ النَّدَامَةِ! وَمَا قَدْرُ البَقَاءِ فِي الدُّنْيا بِالإِضَافَةِ إِلىٰ دَوَامِ الآخِرَةِ؟! ثُمَّ مَا قَدْرُ عُمُرِكَ فِي الدُّنْيا؛ وَنِصْفُهُ نَوْمٌ، وَبَاقِيْهِ غَفْلَةٌ؟

١٠٧٤ - فَيَا خَاطِبًا حُوْرَ الجَنَّةِ، وَهُوَ لا يَمْلِكُ فَلْسًا مِنْ عَزِيْمَةٍ! افْتَحْ عَيْنَ الفِكْرِ فِي ضَوْءِ العِبَرِ، لَعَلَّكَ تُبْصِرُ مَوَاقِعَ خِطَابِكَ! فَإِنْ رَأَيْتَ تَثْبِيْطًا مِنَ البَاطِنِ؛ فَاسْتَغِثْ بِعَوْنِ اللُّطْفِ، وَتَنَبَّه فِي الأَسْحَارِ؛ لَعَلَّكَ تَتَلَمَّحُ رَكْبَ الأَرْبَاحِ! وَتَعَلَّقْ عَلَىٰ

---

(١) عجز بيت للمتنبي، وصدره: (من يهن يسهل الهوان عليه)، ديوانه ص(١٤٩).
(٢) **النجائب**: كرام الإبل.

قِطَارِ المُسْتَغْفِرِيْنَ، وَلَوْ خُطُواتٍ، وانْزِلْ فِي رِبَاعِ[1] المُجْتَهِدِيْنَ، وَلَوْ مَنْزِلًا؛ أَيَّ مَنْزِلٍ!

٢٣٤ - فصل: الشريعة هي الطريق

١٠٧٥ ـ نَظَرْتُ فِي قَوْلِ **أَبِي الدَّرْدَاءِ** ﷺ: مَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ اليَوْمَ إِلَّا القِبْلَةَ! فَقُلْتُ: وَا عَجَبًا! كَيْفَ لَوْ رَآنا اليومَ؛ وَمَا مَعْنَا مِنَ الشَّرِيْعَةِ إِلَّا الرَّسْمُ[2]؟! **والشَّرِيْعَةُ هِيَ الطَّرِيْقُ. وَإِنَّمَا تُعْرَفُ شَرِيْعَةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ إِمَّا بِأَفْعَالِهِ أَوْ أَقْوَالِهِ.**

١٠٧٦ ـ وَسَبَبُ الانْحِرَافِ عَنْ طَرِيْقِهِ ﷺ: إِمّا **الجَهْلُ بِهَا**؛ فَيَجْرِي الإِنْسَانُ مَعَ الطَّبْعِ والعَادَاتِ، وَرُبَّمَا اتَّخَذَ مَا يُضَادُّ الشَّرِيْعَةَ طَرِيْقًا، وَقَدْ كَانَتِ الصَّحَابَةُ شَاهَدَتْهُ، وسَمِعَتْ مِنْهُ، فَقَلَّ أَنْ يَنْحَرِفَ أَحَدٌ مِنْهُم عَنْ جادَّتِهِ. إِلَّا أَنَّ أَبا الدَّرْدَاءِ ﷺ رَأَىٰ بَعْضَ الانْحِرَافِ **لِمَيْلِ الطِّبَاعِ**، فَضَجَّ؛ فَإِنَّه قَدْ يَعْرِفُ الإِنْسَانُ الصَّوَابَ؛ غَيْرَ أَنَّ طَبْعَهُ يَمِيْلُ عَنْهُ.

١٠٧٧ ـ وَمَا زَالَتِ الأَحَادِيْثُ المَنْقُوْلَةُ عَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ يَقِلُّ الإِسْعَادُ بِهَا، والنَّظَرُ فِيْهَا، إِلَىٰ أَنْ أُعْرِضَ عَنْهَا بالكُلِّيَّةِ فِي زَمَانِنا هٰذَا، وَجُهِلَتْ؛ إِلَّا النَّادِرَ، واتُّخِذَتْ طَرَائِقُ تُضَادُّ الشَّرِيْعَةَ، وَصَارَتْ عَادَاتٍ، وَكَانَتْ أَسْهَلَ عِنْدَ الخَلْقِ مِن اتِّبَاعِ الشَّرِيْعَةِ.

وَإِذَا كَانَ عَامَّةُ مَنْ يُنْسَبُ إِلَىٰ العِلْمِ قَدْ أَعْرَضَ عَنْ عُلُوْمِ الشَّرِيْعَةِ؛ فَكَيْفَ العَوَامُّ؟! وَلَمّا أَعْرَضَ كَثِيْرٌ مِنَ العُلَمَاءِ عَنِ المَنْقُوْلاتِ؛ ابْتَدَعُوْا فِي الأُصُوْلِ والفُرُوْعِ؛ فَالأُصُوْلِيُّوْنَ تَشَاغَلُوْا **بِالكَلَامِ**، وَأَخَذُوْهُ مِنَ الفَلاسِفَةِ وَعُلَمَاءِ المَنْطِقِ! وَدَخَلَتْ أَيْدِي الفُرُوْعِيِّينَ فِي ذٰلِكَ، فَتَشَاغَلُوْا **بِالجَدَلِ، وتَرَكُوْا الحَدِيْثَ الذي يَدُوْرُ عَلَيْهِ الحُكْمُ!**

١٠٧٨ ـ ثُمَّ رَأَىٰ القُصَّاصُ أَنَّ النَّفَاقَ[3] بِالنِّفَاقِ؛ فَأَقْبَلَ قَوْمٌ مِنْهُم عَلَىٰ التَّلْبِيْسِ

---

(١) **رباع**: منازل.
(٢) **الرسم**: الشكل.
(٣) **النِّفَاق**: بفتح النون: الرواج.

بِالزُّهْدِ، وَمَقْصُوْدُهُم الدُّنيا! وَرَأىٰ جُمْهُوْرُهُم أَنَّ القُلُوْبَ تَمِيْلُ إِلىٰ الأَغَانِي، فَأَحْضَرُوْا المُطْرِبِيْنَ مِنَ القُرَّاءِ، وَأَنْشَدُوْا أَشْعَارَ الغَزَلِ، وَتَرَكُوْا الاشْتِغَالَ بِالحَدِيْثِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوْا إِلىٰ نَهْيِ العَوَامِّ عَنِ الرِّبا وَالزِّنَا، وَأَمْرِهِم بِأَدَاءِ الوَاجِبَاتِ! وَصَارَ مُتَكَلِّمُهُم يَقْطَعَ المَجْلِسَ بِذِكْرِ لَيْلَىٰ وَالمَجْنُوْنِ، وَالطُّوْرِ وَمُوْسَى، وأبي يَزِيْدَ والحَلَّاج، والهَذَيانِ الذي لا مَحْصُوْلَ لَهُ!

١٠٧٩ ـ وَانْفَرَدَ أَقْوَامٌ بِالتَّزَهُّدِ وَالانْقِطَاعِ، فَامْتَنَعُوْا عَنْ عِيادَةِ المَرْضَىٰ والمَشْيِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَظْهَرُوْا التَّخَاشُعَ، وَوَضَعُوْا كُتُبًا لِلرِّياضَاتِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الطَّعَامِ، وَصَارَتِ الشَّرِيْعَةُ عِنْدَهُم كَلَامَ أَبي يَزِيْدَ وَالشِّبْلِيِّ والمُتَصَوِّفَةِ! وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ مَنْ سَبَرَ[1] الشَّرِيْعَةَ؛ لَمْ يَرَ فِيْهَا مِنْ ذَاكَ شَيْئًا.

١٠٨٠ ـ وَأَمَّا الأُمَرَاءُ؛ فَجَرَوا مَعَ العَادَاتِ، وَسَمَّوْا مَا يَفْعَلونَه مِنَ القَتْلِ والقَطْعِ سِيَاسَاتٍ، لَمْ يَعْمَلوا فِيْهَا بِمُقْتَضَىٰ الشَّرِيْعَةِ! وَتَبِعَ الأَخِيْرُ فِي ذٰلِكَ المُتَقَدِّمَ، فَأَيْنَ الشَّرِيْعَةُ المُحَمَّدِيَّةُ؟! وَمِنْ أَيْنَ تُعْرَفُ مَعَ الإِعْرَاضِ عَنِ المَنْقُوْلاتِ؟! نَسْأَلُ اللهَ ﷻ التَّوْفِيْقَ لِلْقِيَامِ بِالشَّرِيْعَةِ، وَالإِعَانَةَ عَلىٰ رَدِّ البِدَعِ! إِنَّهُ قَادِرٌ.

٢٣٥ - فصل: لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

١٠٨١ ـ كُنْتُ أَسْمَعُ عَلِيَّ بْنَ الحُسَيْنِ[2] الوَاعِظَ يَقُوْلُ عَلىٰ المِنْبَرِ: وَاللهِ؛ لَقَدْ بَكَيْتُ البَارِحَةَ مِن يَدِ نَفْسِي[3]. فَبَقِيْتُ أَنَا أَتَفَكَّرُ وَأَقُولُ: أَيَّ شَيْءٍ قَدْ فَعَلَتْ نَفْسُ هٰذَا حَتَّى يَبْكِي؟! هٰذَا رَجُلٌ مُتَنَعِّمٌ، لَهُ الجَوَارِي التُّرْكِيَّاتُ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّه تَزَوَّجَ في السِّرِّ بِجُمْلَةٍ مِنَ النِّسَاءِ، ولا يَطْعَمُ إِلَّا الغَايَةَ مِنَ الدَّجَاجِ والحَلْوَى، وَلَهُ الدَّخْلُ الكَثِيْرُ، وَالمَالُ الوَافِرُ، وَالجَاهُ العَرِيْضُ، وَالأَفْضَالُ عَلىٰ النَّاسِ، وَقَد حَصَّلَ طَرَفًا مِنَ العِلْمِ، وَاسْتَعْبَدَ كَثِيْرًا مِنَ العُلَمَاءِ بِمَعْرُوْفِهِ، وَرَاحَتُهُ دَائِمَةُ النَّدَىٰ؛ فَمَا الذِي يُبْكِيهِ؟!

---

(١) **سبر الشريعة**: علم بواطنها وأسرارها.

(٢) علي بن الحسين الغزنوي، أبو الحسن، واعظ، مليح الإيراد، بنت له زوجة الخليفة رباطًا، وصار له جاه عظيم، حيث كان السلطان والأمراء يزورونه، توفي سنة (٥٥١هـ).

(٣) بما كسبت يدي.

١٠٨٢ ـ فَتَفَكَّرْتُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ النَّفْسَ لا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، بَلْ تَرُوْمُ[١] مِنَ اللَّذَّاتِ مَا لَا مُنْتَهٰى لَهُ، وَكُلَّمَا حَصَل لَهَا غَرَضٌ؛ بَرَدَ عِنْدَهَا، وَطَلَبَتْ سِوَاهُ، فَيَفْنَى العُمُرُ، ويَضْعُفُ البَدَنُ، ويَقَعُ النَّقْصُ، وَيَرِقُّ الجَاهُ، ولا يَحْصُلُ المُرَادُ.

وَلَيْسَ فِي الدُّنْيا أَبْلَهُ مِمَّنْ يَطْلُبُ النِّهايةَ فِي لَذَّاتِ الدُّنيا، وَلَيْسَ فِي الدُّنيا عَلىٰ الحَقِيْقَةِ لَذَّةٌ، إِنَّما هِيَ رَاحَةٌ مِنْ مُؤْلِمٍ.

١٠٨٣ ـ فَالسَّعِيْدُ مَنْ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ ٱمْرَأَةٌ أَوْ جَارِيَةٌ، فَمَالَ إِلَيْهَا، وَمَالَتْ إِلَيْهِ، وعَلِمَ سِتْرَها وَدِيْنَها: أَنْ يعْقِدَ الخِنْصَرَ[٢] عَلىٰ صُحْبَتِهَا.

وَأَكْثَرُ أَسْبَابِ دَوَامِ مَحَبَّتِهَا أَنْ لا يُطْلِقَ بَصَرَهُ؛ فَمَتَّىٰ أَطْلَقَ، أَوْ أَطْمَعَ نَفْسَه فِي غَيْرِهَا؛ فَإِنَّ الطَّمَعَ فِي الجَدِيْدِ يُنَغِّصُ الخُلُقَ، وَيَنْقصُ المُخَالَطَةَ، وَيَسْتُرُ عُيُوْبَ الخَارِجِ، فَتَمِيْلُ النَّفْسُ إِلى المُشَاهَدِ الغَرِيْبِ، وَيَتَكَدَّرُ العَيْشُ مَعَ الحَاضِرِ القَرِيْبِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالـمَـرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَـيْـنٍ يُـقَـلِّـبُـهَـا ... فِيْ أَعْيُنِ العِينِ مَوْقوفٌ عَلىٰ الخَطَرِ[٣]

يَـسُـرُّ مُـقْـلَـتَـهُ مَـا ضَـرَّ مُـهْـجَـتَـهُ ... لا مَـرْحَـبًـا بِـسُـرُوْرٍ عَـادَ بـالـضَّـرَرِ

ثُمَّ تَصِيْرُ الثَّانِيَةُ كالأُوْلَىٰ، وَتَطْلُبُ النَّفْسُ ثَالِثَةً. وَلَيْسَ لِهٰذَا آخِرٌ.

بَلِ الغَضُّ عَنِ المُشْتَهَيَاتِ، وَيَأْسُ النُّفُوْسِ مِنْ طَلَبِ المُسْتَحْسَنَاتِ: يُطَيِّبُ العَيْشَ مَعَ المُعَاشَرِ.

وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ هٰذَا النُّصْحَ؛ تَعَثَّرَ في طُرُقِ الهَوَىٰ، وهَلَكَ عَلىٰ البَارِدِ، وَرُبَّمَا سَعَىٰ لِنَفْسِهِ فِي الهَلَاكِ العَاجِلِ، وفي العَارِ الحَاضِرِ؛ فَإِنَّ كَثِيْرًا مِنَ المُسْتَحْسَنَاتِ لَسْنَ بِصَيِّناتٍ، ولا يَفي التَّمَتُّعُ بِهِنَّ بالعارِ الحاصلِ، وَمِنْهنَّ المُبَذِّراتُ في المال، ومنهنَّ المُبْغِضَةُ للزَّوْج، وهُو يُحِبُّها كعابدِ صَنَمٍ.

---

(١) **تروم**: تطلب.

(٢) كناية عن الحرص.

(٣) **العين**: النساء واسعات الأعين. وفي الأصل: بالناس، وقد أورد المؤلف البيتين في الفصل (٣١٣) على الوجه.

١٠٨٤ - وَأَبْلَهُ البُلْهِ الشَّيْخُ الَّذِي يَطْلُبُ صَبِيَّةً! وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ كَمَالَ المُتْعَةِ إِنَّما يَكُوْنُ بِالصِّبَا؛ كَمَا قَالَ القَائِلُ[١]:

..... لقُلْتُ: بِنَفْسِيَ النَّشَأُ الصِّغارُ

وَمَتَىٰ لَمْ تَكُنِ الصَّبِيَّةُ بَالِغَةً؛ لَمْ يَكْمُلِ الاسْتِمْتَاعُ! فَإِذا بَلَغَتْ؛ أَرَادَتْ كَثْرَةَ الجِمَاعِ، والشَّيْخُ لا يَقْدِرُ! فَإِنْ حَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ لَمْ يَبْلُغْ مُرَادَها، وهَلَكَ سَرِيْعًا.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِشَهْوَتِهِ الجِمَاعَ؛ فَإِنَّ شَهْوَتَهُ كالفَجْرِ الكَاذِبِ.

وَقَدْ رَأَيْنا شَيخًا اشْتَرَىٰ جَارِيَةً، فَبَاتَ مَعَها، فَانْقَلَبَ عَنْهَا مَيْتًا.

وَكَانَ فِي المَارِسْتَانِ[٢] شَابٌّ قَدْ بَقِيَ شَهْرَيْنِ بِالقِيَامِ، فدَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ، فَوَطِئَها، فَانْقَلَبَ عَنْهَا مَيْتًا.

فَبَانَ أَنَّ النَّفْسَ بَاقِيَةٌ بِمَا عَنْدَهَا مِنَ الدَّمِ والمَنِيِّ؛ فَإِذا فَرَغَا، وَلَمْ تَجِد مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ؛ ذَهَبَتْ.

وَإِنْ قَنِعَ الشَّيْخُ بِالاسْتِمْتَاعِ مِنْ غَيْرِ وَطْءٍ؛ فَهِيَ لا تَقْنَعُ، فَتَصَيْرُ كَالعَدُوِّ لهُ؛ فَرُبَّمَا غَلَبَها الهَوَى فَفَجَرَتْ، أَوِ احْتَالَتْ عَلَىٰ قَتْلِهِ، خُصُوْصًا الجَوَارِيَ اللَّوَاتِي أَغْلَبُهُنَّ قَدْ جِئْنَ مِنْ بِلَادِ الشِّرْكِ؛ فَفِيْهِنَّ قَسْوَةُ القَلْبِ.

١٠٨٥ - وَقَبِيْحٌ بِمَنْ عَبَرَ **السِّتِينَ** أَنْ يَتَعَرَّضَ بِكَثْرَةِ النِّسَاءِ! فَإِنِ اتَّفَقَ مَعَ[٣] صاحِبَةِ دِينٍ قَبْلَ ذٰلِكَ فَلْيَرْعَ لَهَا مَعَاشَرَتَها، وَلْيُتِمَّمْ نَقْصَهُ عِنْدَها؛ تَارَةً بِالإِنْفَاقِ، وَتَارَةً بِحُسْنِ الخُلُقِ، وَلْيَزِدْ فِي تَعْرِيْفِهَا أَحْوَالَ الصَّالِحَاتِ والزَّاهِدَاتِ، وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ القِيَامَةِ وَذَمِّ الدُّنْيَا، وَلْيُعَرِّضْ بِذِكْرِ مَحَبَّةِ العَرَبِ؛ فَإِنَّهُم كَانُوا يَعْشَقُوْنَ، وَلا يَرَوْنَ وَطْءَ المَعْشُوْقِ[٤]؛ كَما قَالَ قَائِلُهُم:

إِنَّـمَـا الـحُـبُّ قُـبْـلَـةٌ وَغَـمْـزُ كَـفٍّ وعَـضُـدْ

---

(١) هو نصيب بن رباح، مولى عبد العزيز بن مروان، وصدره: «ولولا أن يقال صبا نصيب» وفي الأصل: (فقلت بنفسي النساء) والتصويب من الأغاني: ١٠٧/١٦ ط دار صادر.

(٢) **المارستان**: المشفى.

(٣) في الأصل: معه.

(٤) ويعرف عندهم بالحب العذري.

إِنَّـمَـا الـعِـشْـقُ كَـذا إِنْ نُـكِـحَ الـحُـبُّ فَـسَـدْ

فَإِنْ قَدرَ أَنْ يَشْغَلَها بِحَمْلٍ أَوْ وَلَدٍ؛ عَرْقَلَها بِه، فاسْتَبْقى قُوَّتَه فِي مُدَّةِ اشْتِغالِهَا بِذٰلِكَ.

فَإِنْ وَطِئَ؛ فَلْيَصْبِرْ عَنِ الإِنْزال حِفْظًا لِقُوَّتِهِ، وَقَضاءً لِحَقِّها.

١٠٨٦ ـ وَقَدْ قِيلَ لِبِشرٍ: لِمَ لَمْ تَتَزَوَّجْ؟ فَقَالَ: عَلىٰ مَاذَا أَغُرُّ مُسْلِمَةً؛ وَقَدْ قَالَ الله ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

١٠٨٧ ـ وَالمِسْكِيْنُ مِنْ دَخَلَ فِي أَمْرٍ لَمْ يَتَلَمَّحْ عَوَاقِبَهُ قَبْلَ الدُّخُوْلِ، وَرَأَىٰ حَبَّةَ الفَخِّ، فَبَادَرَ طالِبًا لَهَا، ناسِيًا تَعَرْقُلَ الجَناحِ والذَّبْحَ.

١٠٨٨ ـ وَمَجْمُوْعُ مَا قَدْ بَسَطْتُهُ: حِفْظُ البَصَرِ عَنِ الإِطْلَاقِ، وَيَأْسُ النَّفْسِ عَنِ التَّحْصِيْلِ قُنُوْعًا بالحَاصِلِ، خُصُوْصًا مَنْ قَدْ عَلَتْ سِنُّهُ، وعَلِمَ أَنَّ الصَّبِيَّةَ عَدُوٌّ لَهُ، مُتَمَنِّيَةٌ هَلَاكَهُ، وهو يُرَبِّيهَا لِغَيْرِهِ. وفي بَعْضِ ما ذَكَرْتُهُ ما يَرْدَعُ العَاقِلَ عَنِ التَّعَرُّضِ لِهَذِهِ الآفَاتِ. نَسْأَلُ الله ﷻ تَوْفِيقًا مِنْ فَضْلِهِ، وعَمَلًا بِمُقْتَضىٰ العَقْلِ والشَّرْعِ؛ إِنَّه مُجِيْبٌ قَرِيْبٌ.

٢٣٦ - فصل: ليس للأمل منتهى ولا للاغترار حدّ

١٠٨٩ ـ أَعْجَبُ الأَشْياءِ اغْتِرَارُ الإِنْسَانِ بِالسَّلَامَةِ، وَتَأْمِيلُهُ الإِصْلَاحَ فِيْمَا بَعْدُ!

وَلَيْسَ لِهٰذَا الأَمَلِ مُنْتَهًى، ولا للاغْتِرَارِ [حَدٌّ]؛ فَكُلَّما أَصْبَحَ وَأَمْسَى مُعَافًى؛ زادَ الاغْتِرَارُ، وطَالَ الأَمَلُ.

١٠٩٠ ـ وَأَيُّ مَوْعِظَةٍ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ تَرىٰ دِيَارَ الأَقْرانِ، وَأَحْوَالَ الإِخْوَانِ، وقُبورَ المَحْبُوْبِيْنَ، فَتَعْلَمَ أَنَّكَ بَعْدَ أَيَّامٍ مِثْلَهُم، ثُمَّ لا يَقَعَ انْتِباهٌ حَتَّى يَنْتَبِهَ الغَيْرُ بِكَ؟! وهٰذَا والله شَأْنُ الحَمْقَى! حُوْشِيَ مَنْ لَهُ عَقْلٌ أَنْ يَسْلُكَ هٰذَا المَسْلَكَ.

١٠٩١ ـ بَلىٰ وَاللهِ؛ إِنَّ العَاقِلَ لَيُبَادِرُ السَّلامَةَ، فَيَدَّخِرُ مِنْ زَمَنِهَا لِلزَّمَنِ، وَيَتَزَوَّدُ عِنْدَ القُدْرَةِ عَلىٰ الزَّادِ لِوَقْتِ العُسْرَةِ، خُصُوْصًا لِمَنْ قَدْ عَلِمَ أَنَّ مَراتِبَ الآخِرَةِ إِنَّما تَعْلُوْ بِمِقْدَارِ عُلوِّ العَمِلِ لَهَا، وَأَنَّ التَّدارُكَ بَعْدَ الفَوْتِ لا يُمْكِنُ. وقدِّرْ أَنَّ العَاصِيَ عُفِيَ عنه؛ أَيَنالُ مَراتِبَ العُمَّالِ؟!

١٠٩٢ ـ وَمَنْ أَجَالَ عَلىٰ خَاطِرِهِ ذِكْرَ الجَنَّةِ، الَّتِي لا مَوْتَ فِيْهَا وَلا مَرَضَ، ولا نَوْمَ وَلَا غَمَّ، بَلْ لَذَّاتُهَا مُتَّصِلَةٌ مِنْ غيْرِ انْقِطَاعٍ، وَزِيَادَتُها عَلىٰ قَدْرِ زَيَادَةِ الجِدِّ هاهنا؛ انْتَهَبَ هٰذَا الزَّمَانَ؛ فَلَمْ يَنَمْ إِلَّا ضَرُوْرَةً، وَلَمْ يَغْفَلْ عَنْ عُمُرِهِ[1] لَحْظَةً.

١٠٩٣ ـ وَمَنْ رَأَىٰ أَنَّ ذَنْبًا قَدْ مَضَتْ لَذَّتُهُ، وَبَقِيَتْ آفَاتُهُ دَائِمَةً؛ كَفَاهُ ذٰلِكَ زَاجرًا عَنْ مِثْلِهِ؛ خُصُوْصًا الذُّنُوْبَ الَّتِي تتَّصِلُ آثَارُهَا؛ مِثْلَ أَنْ يَزْنِيَ بِذَاتِ زَوْجٍ، فَتَحْمِلَ مِنْهُ، فَتُلْحِقَ بِالزَّوْجِ، فَيَمْنَعَ المِيْرَاثَ أَهْلَهُ، وَيَأْخُذَهُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَتَتَغَيَّرَ الأَنْسَابُ وَالفُرُشُ، وَيَتَّصِلَ ذٰلِكَ أَبَدًا، وَكُلُّه شُؤْمُ لَحْظَةٍ. فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ تَوْفِيْقًا يُلْهِمُ الرَّشَادَ، وَيَمْنَعُ الفَسَادَ؛ إِنَّه قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

٢٣٧ - فصل: سبب تخليط العقائد قياس الحاضر على الغائب

١٠٩٤ ـ تَأَمَّلْتُ سَبَبَ تَخْلِيْطِ العَقَائِدِ؛ فَإِذَا هُوَ المَيْلُ إِلىٰ الحِسِّ، وَقِيَاسُ الغَائِبَاتِ عَلىٰ الحَاضِرِ، فَإِنَّ أَقْوَامًا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الحِسُّ، فَلَمَّا لَمْ يُشَاهِدُوْا الصَّانِعَ؛ جَحَدوا وُجُوْدَه، ونَسوا أَنَّه قَدْ ظَهَرَ بِأَفْعَالِهِ، وَأَنَّ هٰذِهِ الأَفْعَالَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ فَاعِلٍ؛ فَإِنَّ العَاقِلَ إِذَا مَرَّ عَلىٰ صَحْرَاءَ خَالِيَةٍ، ثُمَّ عَادَ وفِيْهَا غَرْسٌ وَبِنَاءٌ؛ عَلِمَ أَنَّه لا بُدَّ مِنْ غَارِسٍ؛ إِذِ الغَرْسُ لا يَكُوْنُ بِنَفْسِهِ وَلا البِنَاءُ.

١٠٩٥ ـ ثُمَّ جَاءَ قَوْمٌ، فَأَثْبَتوا وُجُوْدَ الصَّانِعِ، ثُمَّ قاسُوْهُ عَلىٰ أَحْوَالِهِم، فَشَبَّهُوا، حَتَّى إِنَّ قَائِلَهُم يَقُوْلُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**يَنْزِلُ إِلىٰ السَّمَاءِ**»: يَنْتَقِلُ! ويَسْتَدِلُّ بِأَنَّ العَرَبَ لا تَعْرِفُ النُّزُوْلَ إِلَّا الانْتِقَالَ. وَضَلَّ خَلْقٌ كَثِيْرٌ فِي **صِفَاتِهِ**، كَمَا ضَلَّ خَلْقٌ كَثِيْرٌ فِي **ذَاتِهِ**، فَظَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّه يَتَأَثَّرُ حِيْنَ سَمِعُوْا أَنَّه يَغْضَبُ وَيَرْضَىٰ، ونَسُوْا أَنَّ صِفَتَهُ تَعَالَىٰ قَدِيْمَةٌ، لا يَحْدُثُ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَضَلَّ خَلْقٌ فِي **أَفْعَالِهِ**، فَأَخَذُوْا يُعَلِّلُوْنَ، فَلَمْ يَقْنَعُوا بِشَيْءٍ، فخَرَجَ مِنْهُم قَوْمٌ إِلىٰ أَنْ نَسَبوا فِعْلَهُ إِلى ضِدِّ [الحِكْمَةِ] تَعَالىٰ عَنْ ذٰلِكَ!!

١٠٩٦ ـ وَمَنْ رُزِقَ التَّوْفِيقَ؛ فَلْيُحْضِرْ قَلْبَهُ لِمَا أَقُولُ: **اعْلَمْ أَنَّ ذَاتَهُ سُبْحَانَه لا**

---

(١) في الأصل: عمارة.

تُشْبِهُ الذَّوَاتِ، وَصِفَاتِهِ لَيْسَتْ كالصِّفَاتِ، وَأَفْعَالَهُ لا تُقَاسُ بِأَفْعَالِ الخَلْقِ.

أَمَّا **ذَاتُهُ** سُبْحَانَه؛ فَإِنَّا لا نَعْرِفُ ذاتًا: إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ جِسْمًا، وذاكَ يَسْتَدْعِي سَابِقَةَ تَأْلِيْفٍ، وَهُوَ مُنزَّهٌ عَنْ ذٰلِكَ؛ لِأَنَّ المُؤَلَّفَ. إِمّا أَنْ يَكُوْنَ **جَوْهَرًا**، فَالجَوْهَرُ مُتَحَيِّزٌ، وَلَهُ أَمْثَالٌ، وَقَدْ جَلَّ عَنْ ذٰلِكَ. أَوْ **عَرَضًا**؛ فَالعَرَضُ لا يَقُوْمُ بِنَفْسِهِ، بَلِ بِغَيْرِهِ، وَقَدْ تَعَالىٰ عَنْ ذٰلِكَ.

فَإِذَا أَثْبَتْنا ذَاتًا قَدِيْمَةً خَارِجَةً عَمَّا يُعْرَفُ؛ فَلْيُعْلَمُ أَنَّ **الصِّفَاتِ** تَابِعَةٌ لِتِلْكَ الذَّاتِ؛ فَلَا يَجُوْزُ لَنَا أَنْ نَقِيْسَ شَيْئًا عَلىٰ مَا نَفْعَلُهُ وَنَفْهَمُهُ، بَل نُؤْمِنُ بِهِ، وَنُسَلِّمُه.

وَكذٰلِكَ **أَفْعَالُهُ**؛ فَإِنَّ أَحَدَنا لَوْ فَعَلَ فِعْلًا لا يَجْتَلِبُ بِهِ نَفْعًا، ولا يَدْفَعُ عَنْهُ ضُرًّا؛ عُدَّ عَابِثًا، وَهُوَ سُبْحَانَه أَوْجَدَ الخَلْقَ، لا لِنَفْعٍ يَعُوْدُ إِلَيْهِ وَلا لِدَفْعِ ضُرٍّ؛ إِذِ المَنَافِعُ لا تَصِلُ إِلَيْهِ، وَالمَضَارُّ لا تَتَطَرَّقُ عَلَيْهِ.

١٠٩٧ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: إِنَّمَا خَلَقَ الخَلْقَ لِيَنْفَعهُن. **قلنا**: يُبْطِلُه أَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُم [صِنْفًا] لِلْكُفْرِ، وَعَذَّبَهُم، وَنَرَاهُ يُؤْلِمُ الحَيْوَانَ وَالأَطْفَالَ، ويَخْلُقُ المَضَارَّ، وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ لا يَفْعَلَ ذٰلِكَ.

١٠٩٨ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: إِنَّه يُثِيْبُ عَلىٰ ذٰلِكَ. **قُلْنا**: وَهُوَ قادِرٌ أَنْ يُثِيْبَ بِلا هٰذِهِ الأَشْيَاءِ؛ فَإِنَّ السُّلْطَانَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُغْنِيَ فَقِيْرًا، فَجَرَحَهُ، ثُمَّ أَغْنَاهُ؛ لِيْمَ عَلىٰ ذٰلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يُغْنِيَهُ بِلَا جِراحٍ.

١٠٩٩ ـ ثُمَّ مَنْ يَرَىٰ مَا جَرَىٰ لِرَسُوْلِ الله ﷺ وَعَلىٰ أَصْحَابِهِ مِنَ الجُوْعِ والقَتْلِ، مَعَ قُدْرَةِ النَّاصِرِ، ثُمَّ **يَسْأَلُ فِي أُمِّه فَلَا يُجَابُ**، وَلَوْ كَانَ المَسْؤُوْلَ بَعْضُنا؛ قُلْنَا: لِمَ تَمْنَعُ مَا لا يَضُرُّكَ؟!

١١٠٠ ـ غَيْرَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحَانَه لا تُقَاسُ أَفْعَالُه عَلَى أَفْعَالِنَا، ولا تُعَلَّلُ، **وَالَّذِي يُوجِبُ عَلَيْنَا التَّسْلِيْمَ أَنَّ حِكْمَتَهُ فَوْقَ العَقْلِ؛ فَهِيَ تَقْضِي عَلَى العُقُوْلِ، والعُقُوْلُ لا تَقْضِي عَلَيْهَا، وَمَنْ قَاسَ فِعْلَهُ عَلىٰ أَفْعَالِنَا؛ غَلِطَ الغَلَطَ الفَاحِشَ.**

١١٠١ ـ وَإِنَّمَا هَلَكَتِ **المَعْتَزِلةُ** مِنْ هٰذَا الفَنِّ؛ **فَإِنَّهُم قالُوْا**: كَيْفَ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ وَيَقْضِي بِامْتِنَاعِهِ؟! وَلَوْ أَن إِنْسَانًا دَعانَا إِلى دَارِهِ، ثُمَّ أَقَامَ مَنْ يَصُدُّ الدَّاخِلَ؛ لَعِيبَ.

وَلَقَدْ صَدَقُوا فِيمَا يَتَعلَّقُ بِالشَّاهِدِ، فأمّا مَنْ أَفْعَالُهُ لا تُعَلَّلُ، ولا يُقَاسُ بِشَاهِدٍ؛ فَإِنَّا لا نَصِلُ إِلىٰ مَعْرِفَةِ حِكْمَتِهِ.

١١٠٢ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: فَكَيْفَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَقُودَ عَقْلِي إِلىٰ مَا يُنَافِيهِ؟ **قُلْنَا**: لَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّ العَقْلَ قَدْ قَطَعَ بِالدَّلِيلِ الجَلِيِّ أَنَّهُ حَكِيمٌ، وَأَنَّهُ مَالِكٌ، والحَكِيمُ لا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ؛ غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الحِكَمة لا يَبْلُغُها العَقْلُ. أَلا تَرَىٰ أَنَّ **الخَضِرَ** عليه السلام خَرَقَ سِفْينَةً، وقَتَلَ شخْصًا، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ **مُوسَىٰ** عليه السلام بحُكْمِ العِلْمِ، وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلىٰ حِكْمَةِ فِعْلِهِ، فَلَمَّا أَظْهَرَ لَهُ الحِكْمَةَ؛ أَذْعَنَ؟ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَىٰ.

١١٠٣ ـ **فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَقِيسَ شَيْئًا مِنْ أَفْعَالِهِ عَلىٰ أَفْعَالِ الخَلْقِ، أَوْ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ، أَوْ ذَاتِهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَىٰ؛ فَإِنَّكَ إِنْ حَفِظْتَ هٰذا؛ سَلِمْتَ مِنَ التَّشْبِيْهِ الَّذِي وَقَعَ فِيْهِ مَنْ رَأَىٰ الاسْتِوَاءَ اعْتِمَادًا، وَالنُّزُوْلَ نُقْلَةً، وَنَجَوْتَ مِنَ الاعْتِرَاضِ، الَّذِي أَخْرَجَ قَوْمًا إِلىٰ الكُفْرِ، حَتَّى طَعَنوا فِي الحِكْمَةِ.**

١١٠٤ ـ وَأَوَّلُ القَوْمِ[1] إبليسُ؛ فَإِنَّه رَأَىٰ تَقْدِيمَ الطِّيْنِ عَلىٰ النَّارِ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ، فَنسِيَ أَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ ذٰلِكَ ـ بِزَعْمِهِ ـ بِالفَهْمِ الَّذِي وُهِبَ لَهُ، والعَقْلِ الَّذِي مُنِحَهُ، فَنَسِيَ أَنَّ الوَاهِبَ أَعْلَمُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]!

١١٠٥ ـ وَلَقَدْ رَأَيْتُ **لِابْنِ الرُّومِيِّ**[2] اعْتِرَاضًا عَلىٰ مَنْ يَقُوْلُ بِتَخْلِيْدِ الكُفَّارِ في النَّارِ؛ [قَالَ: إِنَّ ذٰلِكَ التَّأْبِيْدَ مَزِيدٌ مِنَ الانْتِقَامِ، يُنْكِرُهُ العَقْلُ، وَ] يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ كُلُّ مَا يَقولُهُ العَقْلُ، ولا يُرَدَّ بَعْضُه؛ إِذْ لَيْسَ رَدُّ بَعْضِهِ بِأَوْلَىٰ مِنْ رَدِّ الكُلِّ، وَتَخْلِيْدُ الكُفَّارِ لا غَرَضَ فِيْهِ لِلْمُعَذِّبِ وَلَا لِلْمُعَذَّبِ؛ فَلَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ.

فَقُلْتُ: العَجَبُ مِنْ هٰذا الَّذِي يَدَّعِي وُجُوْدَ العَقْلِ، ولا عَقْلَ عِنْدَهُ! وَأَوَّلُ مَا أَقُوْلُ لَهُ: أَصَحَّ عِنْدَكَ الخَبَرُ عَنِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِخُلُوْدِ أَهْلِ النَّارِ، أَمْ لَمْ يَصِحَّ؟ فَإِنْ كَانَ [مَا] صَحَّ عِنْدَهُ؛ فَالكَلَامُ إِذنْ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ، وَصِحَّةِ القُرْآنِ؛ فَمَا وَجْهُ ذِكْرِكَ الفَرْعَ مَعَ جَحْدِ الأَصْلِ؟!

---

(١) اعتراضًا.

(٢) كذا في الأصل وبعيد أن يكون قد أراد الشاعر المشهور أبا الحسن علي بن العباس (٢٢١ ـ ٢٨٢هـ).

وَإِنْ قَالَ: قَدْ ثَبَتَ عِنْدِي: فَواجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَحَّلَ[1] لإِقَامَةِ العُذْرِ؛ إِلَّا أَنْ يَقِفَ فِي وَجْهِ المُعَارَضَةِ.

١١٠٦ ـ وَإِنَّمَا يُنْكِرُ هٰذَا مَنْ يَأْخُذُ الأَمْرَ مِنَ الشَّاهِدِ، وَقَدْ بَيَّنَا أَنَّ ذَاتَ الحَقِّ لا كَالذَّوَاتِ، وَأَنَّ صفاتِه لا كَالصِّفَاتِ، وَأَنَّ أَفعَالَهُ لا تُعَلَّلُ. وَلَوْ تَلَمَّحَ شَيْئًا مِنَ التَّعْلِيْلِ لِخُلُوْدِ الكُفَّارِ؛ لَبَانَ. إِذْ مِنَ **الجَائِزِ** أَنْ يَكُوْنَ دَوَامُ تَعْذِيْبِهِمْ لإِظْهَارِ صِدْقِ الوَعِيْدِ، فَإِنَّهُ قَالَ: مَنْ كَفَرَ بِي؛ خَلَّدْتُهُ فِي العَذَابِ، وَلا جِنَايَةَ كَالكُفْرِ، وَلَا عُقُوْبَةَ كَدَوَامِ الإِحْرَاقِ؛ فَهُوَ يَدُوْمُ لِيُظْهِرَ صِدْقَ الوَعِيْدِ[2]. ومِنَ **الجَائِزِ** أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ لِتَتِمَّةِ تَنْعِيْمِ المُؤْمِنِيْنَ؛ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ الكُفَّارِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١٤]، وَكَمْ مِنْ قَلَقٍ فِي صَدْرٍ، وحَنَقٍ عَلىٰ **أبي جَهْل** فِيْمَا فَعَلَ! وَكَمْ مِن غَمٍّ فِي قَلْبِ **عَمَّارٍ**، وَأُمِّهِ **سُمَيَّةَ** وَغَيْرِهِم مِنْ أَفْعَالِ الكُفَّارِ بِهِمْ! فَدَوَامُ عَذَابِهِم شِفَاءٌ لِقُلُوْبِ أَهْلِ الإِيْمَانِ.

وَمِنَ **الجَائِزِ** أَنْ يَدُوْمَ العَذَابُ لِدَوَامِ الاعْتِرَاضِ، وذِكْرِ المُعَذِّبِ بِمَا لا يَحْسُنُ؛ فَكُلَّمَا زَادَ عَذَابُهُم؛ زَادَ كُفْرُهُم وَاعْتِرَاضُهُم؛ فَهُمْ يُعَذَّبُوْنَ لِذٰلِكَ. وَدَلِيْلُ دَوَامِ كُفْرِهِم: ﴿**يَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ**﴾ [المجادلة: ١٨]؛ فَإِذنْ كُفْرُهُم مَا زَالَ، وَمَعْرِفَتُهُم بِهِ مَا حَصَلَتْ، وَالشَّرُّ كَامِنٌ فِي البَوَاطِنِ، وَعَلىٰ ذٰلِكَ يَقَعُ التَّعْذِيْبُ: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ [الأنعام: ٢٨].

٢٣٨ - فصل: ليكن همّ العاقل إقامة الحق والرضا به

١١٠٧ ـ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ إِذَا نَظَرَ فِي الفَصْلِ الَّذِي قَدْ تَقَدَّمَ هٰذَا أَلَّا يَعْتَرِضَ عَلىٰ اللهِ سُبْحَانَه فِي شَيْءٍ؛ لا فِي بَاطِنِهِ، وَلا فِي ظَاهِرِهِ، وَلا يَطْلُبَ تَعْلِيْلَاتِ أَفْعَالِهِ كُلِّها؛ فَإِنَّ المُتَكَلِّمِيْنَ أَعْرَضُوْا عَنِ السُّنَنِ، وَتَكَلَّمُوْا بِآرَائِهِم؛ فَمَا صَفَا لَهُمْ شِرْبٌ[3]؛ بِدَلِيْلِ اخْتِلافِهِم. وَكذٰلِكَ إِضْمَارُ القِيَاسِ؛ فَإِنَّهُم لَمّا أَعْمَلُوْهُ؛ جَاءَتْ

---

(١) يتكلف.

(٢) في الأصل: الوعد، وهو تصحيف.

(٣) مورد وأصل يحتكمون إليه.

أَحَادِيْثُ تُعَكِّرُ عَلَيْهِم. **والصَّوَابُ التَّعْلِيْلُ لِمَا يُمْكِنُ، والتَّسْلِيْمُ لِمَا يَخْفَىٰ.**

١١٠٨ - وَكذٰلِكَ سُؤَالُ الحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ فَإِذَا دَعَاهُ المُؤْمِنُ، وَلَمْ يَرَ إِجَابَةً: سَلَّمَ، وفَوَّضَ، وَتَأَوَّلَ لِلْمَنْعِ، **فَيَقُوْلُ: رُبَّمَا** يَكُوْنُ المَنْعُ أَصْلَحَ، **وَرُبَّمَا** يَكُوْنَ لِأَجْلِ ذُنُوْبِي، **وَرُبَّمَا** يَكُوْنُ التَّأْخِيْرُ أَوْلىٰ، **وَرُبَّمَا** لَمْ يَكُنْ هٰذَا مَصْلَحَةً.

وَإِذَا لَمْ يَجِدْ تَأْوِيْلًا؛ لَمْ يَخْتَلِجْ فِي بَاطِنِهِ نَوْعُ اعْتِرَاضٍ، بَلْ يَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ تَعَبَّدَ بِالدُّعَاءِ؛ فَإِنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ. فَبِفَضْلٍ، وَإِنْ لَمْ يُجِبْ؛ فَمَالِكٌ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

عَلَىٰ أَنَّ أَكْثَرَ السُّؤَالِ إِنَّمَا يَقَعُ فِي طَلَبِ أَعْرَاضِ الدُّنْيا الَّتِي إِذَا رُدَّتْ؛ كَانَ أَصْلَحَ!

١١٠٩ - فَلْيَكُنْ هَمُّ العَاقِلِ فِي إِقَامَةِ حَقِّ الحَقِّ، والرِّضا بِتَدْبِيْرِهِ، وَإِنْ أَسَاءَ[1]!! فَمَتَىٰ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ؛ أَقْبَلَ عَلَىٰ إِصْلَاحِ شَأْنِكَ. وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّهُ كَرِيْمٌ؛ فَلْذْ بِهِ، وَلَا تَسْأَلْ[2]! وَمَتَى أَقْبَلْتَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ؛ فَمُحَالٌ أَنْ يَجُوْدَ صَانِعٌ، وَيَنْصَحَ فِي العَمَلِ، ثُمَّ لا يُعْطِيَ الأُجْرَةَ.

٢٣٩ - فصل: لا تضيع لحظةً من عمرك

١١١٠ - وَاللهِ؛ إِنِّي لَأَتَخَايَلُ دُخُوْلَ الجَنَّةِ، وَدَوَامَ الإِقَامَةِ فِيْهَا؛ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ، ولا بُصَاقٍ، وَلَا نَوْمٍ، وَلا آفَةٍ تَطْرَأُ! بَلْ صِحَّةٌ دَائِمَةٌ، وَأَعْرَاضٌ مُتَّصِلَةٌ، لا يَعْتَوِرُهَا مُنَغِّصٌ، في نَعِيْمٍ مُتَجَدِّدٍ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، إِلىٰ زِيَادَةٍ لا تَتَنَاهَىٰ: فَأَطِيْشُ، وَيَكَادُ الطَّبْعُ يَضِيْقُ عَنْ تَصْدِيْقِ ذٰلِكَ، لَوْلَا أَنَّ الشَّرْعَ قَدْ ضَمِنَهُ!

١١١١ - وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ تِلْكَ المَنَازِلَ إِنَّما تَكُوْنُ عَلَىٰ قَدْرِ الاجْتِهَادِ هَاهُنَا. فَوَا عَجَبًا مِنْ مُضَيِّعٍ لَحْظَةٍ فِيْهَا! فَتَسْبِيْحَةٌ تَغْرِسُ لَهُ فِي الجَنَّةِ نَخْلَةً، أُكُلُهَا دَائِمٌ وظِلُّهَا.

فَيَا أَيُّهَا الخَائِفُ مِنْ فَوْتِ ذٰلِكَ! شَجِّعْ قَلْبَكَ بِالرَّجَاءِ.

---

(١) أساءك وأحزنك بما قدره عليك من المصائب.
(٢) لا تسأل سؤالاً.

وَيَا **أَيُّهَا المُنْزَعِجُ** لِذِكْرِ المَوْتِ! تَلَمَّحْ مَا بَعْدَ مَرَارَةِ الشَّرْبَةِ[1] مِنَ العَافِيَةِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ سَاعَةِ خُرُوْجِ الرُّوْحِ، لَا بَلْ قَبْلَ خُرُوْجِهَا، تَنْكَشِفُ المَنَازِلُ لِأَصْحَابِهَا، فَيَهُوْنَ سَيْرُ المَجْذُوْبِ لِلَذَّةِ المُنْتَقَلِ إِلَيْهِ. «**ثُمَّ الأَرْوَاحُ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ تَعْلُقُ فِي أَشْجَارِ الجَنَّةِ**». فَكُلُّ الآفَاتِ والمَخَافَاتِ فِي نَهَارِ الأَجَلِ، وَقَدِ اصْفَرَّتْ شَمْسُ العُمُرِ؛ فَالبِدَارَ البِدَارَ قَبْلَ الغُرُوْبِ! وَلَا مُعِيْنَ يُرَافِقُ عَلَىٰ تِلْكَ الطَّرِيْقِ إِلَّا الفِكْرُ إِذَا جَلَسَ مَعَ العَقْلِ، فَتَذَاكَرَا العَوَاقِبَ؛ فَإِذَا فَرَغَ ذٰلِكَ المَجْلِسُ؛ فَالنَّظَرُ فِي سِيَرِ المُجِدِّيْنَ؛ فَإِنَّهُ يَعُوْدُ مُسْتَجْلِبًا لِلفِكْرِ مِنْهَا شَتَّى الفَضَائِلِ، وَالتَّوْفِيْقُ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ، وَمَتَىٰ أَرَادَكَ لِشَيْءٍ؛ هَيَّأَكَ لَهُ.

١١١٢ ـ فَأَمَّا مُخَالَطَةُ الَّذِيْنَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ خَبَرٌ، إِلَّا مِنَ العَاجِلَةِ، فَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ مَرَضِ الفَهْمِ، وعِلَلِ العَقْلِ، وَالعُزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ حِمْيَةٌ، وَالحِمْيَةُ سَبَبُ العَافِيَةِ.

٢٤٠ - فصل: الإعراض عن الله سبب الهموم والغموم

١١١٣ ـ رَأَيْتُ سَبَبَ الهُمُوْمِ والغُمُوْمِ: الإِعْرَاضَ عَنِ اللهِ ﷻ، وَالإِقْبَالَ عَلَىٰ الدُّنيا. وَكُلَّمَا فَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ وَقَعَ الغَمُّ لِفَوَاتِهِ.

١١١٤ ـ فَأَمَّا مَنْ رُزِقَ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ اسْتَرَاحَ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَغْنِي بِالرِّضا بِالقَضَاءِ، فَمَهْمَا قُدِّرَ لَهُ؛ رَضِيَ، وَإِنْ دَعَا فَلَمْ يَرَ أَثَرَ الإِجَابَةِ؛ لَمْ يَخْتَلِجْ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ؛ لِأَنَّهُ مَمْلُوْكٌ مُدَبَّرٌ، فَتَكُوْنُ هِمَّتُهُ فِي خِدْمَةِ الخَالِقِ.

١١١٥ ـ وَمَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ؛ لا يُؤْثِرُ جَمْعَ مَالٍ، وَلا مُخَالَطَةَ الخَلْقِ، وَلَا الالْتِذَاذَ بِالشَّهَوَاتِ:

لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُوْنَ **مُقَصِّرًا فِي المَعْرِفَةِ**؛ فَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَىٰ التَّعَبُّدِ المَحْضِ، يَزْهَدُ فِي الفَانِي لِيَنَالَ البَاقِي.

وَإِمَّا أَنْ يَكُوْنَ لَهُ **ذَوْقٌ فِي المَعْرِفَةِ**؛ فَإِنَّهُ مَشْغُوْلٌ عَنِ الكُلِّ بِصَاحِبِ الكُلِّ، فَتَرَاهُ مُتَأَدِّبًا فِي الخَلْوَةِ بِهِ، مُسْتَأْنِسًا بِمُنَاجَاتِهِ، مُسْتَوْحِشًا مِنْ مُخَالَطَةِ خَلْقِهِ، رَاضِيًا بِمَا

(١) دواء مسهل كالخروع ونحوه، وما زال هذا الحرف مستعملًا عند أهل الشام.

يُقدِّرُ لَهُ، فَعَيْشُهُ مَعَهُ كَعَيْشِ مُحِبٍّ قَدْ خَلا بِحَبِيْبِهِ؛ لا يُرِيْدُ سِوَاهُ، وَلَا يَهْتَمُّ بِغَيْرِهِ.

١١١٦ ـ فَأَمَّا مَنْ لَمْ يُرْزَقْ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّهُ لا يَزَالُ فِي تَنْغِيْصٍ، مُتَكَدِّرَ العَيْشِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَطلُبُهُ مِنَ الدُّنْيَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَيَبْقَىٰ أَبَدًا فِي الحَسَرَاتِ، مَعَ مَا يَفُوْتُهُ مِنَ الآخِرَةِ بِسُوْءِ المُعَامَلَةِ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَسْتَصْلِحَنا لَهُ؛ فَإِنَّهُ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

٢٤١ - فصل: ما العيش إلا في الجنة

١١١٧ ـ **تَفكَّرْتُ** فِي نَفْسِي، فَرَأَيْتُنِي مُفْلِسًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟!

إِنِ **اعْتَمَدْتُ عَلَىٰ الزَّوْجَةِ**؛ لَمْ تَكُنْ كَمَا أُرِيْدُ: إِنْ حَسُنَتْ صُوْرَتُهَا؛ لَمْ تَكْمُلْ أَخْلَاقُهَا، وَإِنْ تَمَّتْ أَخْلَاقُهَا؛ كَانَتْ مُرِيْدَةً لِغَرضِهَا لا لِي، وَلَعَلَّها تَنْتَظِرُ رَحِيْلِي!

وَإِنِ **اعْتَمَدْتُ عَلَىٰ الوَلَدِ**؛ فَكذٰلِكَ! **والخَادِمُ والمُرِيْدُ** لِي كَذٰلِكَ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مِنِّي فائِدَةٌ؛ لَمْ يُرِيْدَانِي!

وَأَمَّا **الصَّدِيْقُ**؛ فَلَيْسَ ثَمَّ! وَأَخٌ فِي اللهِ كَعَنْقَاءِ مَغْرِبَ[1]! وَمَعَارِفُ يفْتَقِدونَ أَهْلَ الخَيْرِ، وَيَعْتَقِدُوْنَ فِيْهِمْ قَدْ عُدِمُوْا!

وبَقِيْتُ وَحْدِي، وَعُدْتُ إِلَىٰ نَفْسِي، وَهِيَ لا تَصْفُوْ لي أَيْضًا، وَلا تُقِيْمُ عَلَىٰ حَالَةٍ سَلِيْمَةٍ! فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الخَالِقُ سُبْحَانَه، فَرَأَيْتُ أَنِّي: إِنِ اعْتَمَدْتُ عَلَىٰ **إِنْعَامِهِ**؛ فَمَا آمَنُ ذٰلِكَ البلاءَ، وَإِنْ رَجَوْتُ **عَفْوَه**؛ فَمَا آمَنُ عُقُوْبَتَهُ!

فَوَا أَسَفا! لا طُمَأْنِيْنَةَ ولا قَرَارَ! واقَلَقِي مِنْ قَلَقِي! وَاحرَقِي مِن حرَقِي! باللهِ؛ مَا العَيْشُ إِلَّا فِي الجَنَّةِ، حَيْثُ يَقَعُ اليَقِيْنُ بالرِّضا، والمُعَاشَرَةُ لِمَنْ لا يَخُوْنُ وَلا يُؤْذِي؛ فَأَمَّا الدُّنيا؛ فَمَا هِيَ دَارُ ذاك[2].

---

(١) طائر متوهم يضرب به المثل، فيما هو مستحيل الوجود.

(٢) هذه الخاطرة وليدة معاناة المؤلف من حسد الناس وظلم ذوي القربى، وخاصة ظلم ولده أبي القاسم علي الذي استغل محنة أبيه فسطا على كتبه، وباعها بأبخس الأثمان.